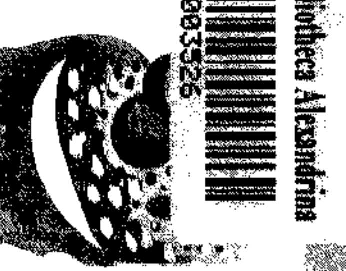
جمال الغيطاني

الأعمال القصصية

المجلد الثاني





أرض أرض .



وقف الزمن

بقلم : الدكتور على الراعى

وقف الزمن فى قصة جمال الغيطانى الأخاذة : « أرض ــ أرض » وقف عند التاسعة والنصف . نزل صاروخ صهيونى فأصاب آلة الزمن وأوقف العقارب عند التاسعة والنصف .

ومع أن أحشاء الآلة قد خرجت فقد ظل شىء ما بداخلها يتحرك ، ويتحرك ، ثم يعود إلى الوقوف عند التاسعة والنصف !

وأصاب الصاروخ آلة البشر أيضاً . أصاب أسرة مصطفى أبو القاسم ، مدرس التعليم الابتدائى بقرية كفر عامر ــ محافظة السويس ، فأبادها . ومات آخرون . وفقد الفلاح عبد المنعم أبو العطا السمع والنطق .



وجاوز الصاروخ الحد . فأصاب المجتمع القديم فى الصميم مجتمع ما قبل ٥ يونيو . وإذا كان بعض هذا المجتمع لا يزال باقياً حتى الآن فهذا هو ظاهر الأمور فقط . أما باطنها فهو رغبة تتجمع . تحتشد. تحتج . تغلى . وتستعد لإزالة آثار العفن والتواطؤ ، والتراخى وكل ما أدى إلى النكبة ، مما يقبع فى الناس ، وأعمال الناس ، ومنشآت الناس .

والصاروخ نفسه ينظر إليه جمال الغيطانى متأملا . كأنما هو مخلوق جميل ! ينظر إليه كما نظر الشاعر وليم بليك فى قصيدة له إلى النمر ، تبرق عيناه فى الظلام . به الجمال الوحشى كله والشر الرابض كله . والأذى الذى لا دافع له .

ولكنه أيضاً رمز الإنجاز عند الأعداء . ورمز التحدى لنا . تحدى هذا الصاروخ . . هو نذير الموت لا مفر من مواجهته مرة أخرى ، بعد أن فشلت المرة الأولى فى سيناء .

والقصة توضح فى قصد فنى رائع ، وفى صور مركبة ــ تنبع من لا وعى المدرس ومن وعيه على السواء ، وتعبر عن إحساسه بعصر وإحساسه بالعالم معاً ــ توضح أن المجتمع القديم أعجز من أن يواجه تحدى الصاروخ . أيواجه بالطبيب الذى يكشف على حالة عبد المنعم بالروتين ؟ أم بالبك المأمور ، الذى يسمع شكوى المدرس مصطفى أبو

القاسم فى خليط من الإشفاق والزراية ؟ أم بالمسؤول الكبير الذى يأمر بأن يحضر الفلاح عبد المنعم « إليهم » فى غد ، ليحول إلى المستشفى ، فيهرع إليه تابعه ومعه قلم حبر جاف ، ويسجل أمراً لا رصيد له . إذا أردنا أن يعود للفلاح عبد المنعم أبو العطا سمعه ونطقه ، فعلينا أن نغير الرجال ، والأعمال ، والمنشآت . وأن تكون لنا الإرادة وأن نتسلح بالصدق .

قصة جمال الغيطانى أدخلت البهجة إلى فؤادى . هذا هو الأدب الثورى الحق ، الذى نبع من النكبة مباشرة . أدب واع ، متزن . ما بالقصة من حزن يكفى كى يخلق محيطاً . ولكن القصة ـ كالجوهرة النادرة ـ تختزنه كله فى محيطها الصغير ، وتتألق به ، وتضىء كالماسة السوداء .

حزن دفين ، متكبر ، لا يبكى لأنه لا فائدة من البكاء . ولأنه يعرف طريقاً آخر أجدى من البكاء .

وإلى جوار هذا الحزن ، حب دافق لأرض هذا البلد ، وناس هذا البلد . يتمثل فى الإشارات الكثيرة ، الدقيقة ـ التى تبدو عابرة ـ لأحوال البسطاء ، وعاداتهم ، ورغباتهم . وأفكارهم وكلها تبدى النقد وهى لا تدرى . يقول عم خليل الجرسون فى وصف ما حدث :

« وكما تعرف يا سى مصطفى ، يجىء الطيران عادة فى التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً . الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كالموظفين » .

يبتسم المرء لدى هذه الفكرة الساذجة - ربما - ولكن ما فيها من نقد لا يفوته مع ذلك .

كان من أسباب فرحي بهذه القصة ، ما تخلف لدى من إحساس عقب قراءتها بأن أيدى الشباب قد أخذت تصل إليها الرسالة الفنية أخيراً . وأن هذه الأيدى لم تكتف بتسلم الرسالة ، بل مضت بها خطوات فى سبيل التعبير الفنى الناضج عن عالم هذا الشباب .

عالم لا يدرك أبعاده الحقيقية إلا هم وحدهم . عالم يأخذ من منجزات الماضى الثورية ، ويمضى بها ليحقق المزيد من الإنجازات .

باختصار شديد ، أنا سعيد !

(روز اليوسف يناير ١٩٧١)

أرض .. أرض

نشرت فى روز اليوسف ديسمبر ١٩٧٠

فعلا ، التاسعة والنصف

كما قالوا ، أكدوا ، أنها التاسعة والنصف .

فى النصف بعد التاسعة ، هل ضحكت أنا ؟؟ هل اجتزت باب المنطقة التعليمية ؟؟ وقفت أمام حمدى أفندى أصرف المرتب ، أقول لإبراهيم أفندى شكراً بعد احتسائى فنجان القهوة ؟؟ أستنشق الشهيق ، أطرد الزفير ، لا أدرى بالضبط ، ما أعرفه ، أثق منه أننى لم أوجد معهم ، لم أقعد حول الطبلية آكل الجبن والفول أشرب الحليب من يد أمى ، فى التاسعة والنصف أول النهار ، يصل قطار الركاب إلى ضواحى المدينة

الصغيرة ، احتجزوه قليلا عند المزلقان ، يعبره رجال ونساء وأطفال ، التاسعة والنصف لم تتوقف حركة العمل ، باخرة تقترب من ميناء ، تزعق صفارات ، تصر عجلات ترام عند منحنى ، ويقفز طفل يبيع الكبريت فوق السلم ، يتثاءب المسافرون فى الطائرات ، شاب يغازل وامرأة تتمنع ، تاجر يساوم ومدير يتآمر يختلس وعطور تسكب من إناء إلى إناء ، أنفاس دخان تتبدد ، تكتكة آلات كاتبة ، قهوة تلون مذاق الأفواه وموظفات ينسجن التريكو فى التاسعة والنصف يبدأ العمل فى بلاد بعيدة جداً عنا فى نصف العالم الثانى ، وتشتعل النار فى الأعشاب على جانبى قضبان القطارات .

. . فى التاسعة والنصف مشرط طبيب يشق بطن الإنسان ويطفو كلب ميت فوق مياه الترعة القريبة من القناة فيقول جندى لا بد من إزالته لأننا نشرب من هنا وطفوه ضار ، بالضبط فى تمام التاسعة يرمى الفراغ جبلا من المتفجرات وزنه ألف ألف ألف رطل ، يخمن الرجل فى الحفر فى الدشم فى خنادق المواصلات ، الرمى فوق بور توفيق ، يؤكد آخر أنه فوق مدينة السويس نفسها ، يضربون البيوت فى تمام التاسعة والنصف .

قلب أم يرقب الأبناء لحظات الإفطار ، أمى أنا تعبر فناء البيت تحمل الماء من الزير إلى اخوتى أنا سعيد . أخوتى أنا فتحى وإبراهيم ، اخوتى

على وعادل وحسنى ، أختى فتحية ، أختى أنا ، أنا مصطفى أبو القاسم كلما سألنى شخص وأنا أدور ممسكاً بيد عبد المنعم أبو العطا ، أقول أنا مصطفى أبو القاسم من كفر عامر محافظة السويس ، وعبد المنعم هذا فلاح لا يسمع ولا يرى منذ التاسعة والنصف عندما ذهبت إلى الزقازيق وبلت المسافة بينى وبين اخوتى وأمى إلى الأبد ، أبد التاسعة والنصف المحلق فى سماء عمرى عندما طلع من هناك ، تدرك آلاته الصماء وتروسه وقلاووظه وأسلاكه وبطارياته أسماء أمى واخوتى وأوصافهم واحداً واحداً ومقدمته الصلبة القاسية غاص فى السقف وعيدان الحطب والفراغ ما بين السقف والأرض ، الأرض .

أنا مصطفى أبو القاسم لم أسمع الدوى ولم أر الشظايا واللهب بل رأيت عموداً طويلاً أبيض مصنوعاً بعناية ودقة من أنقى أنواع الألومنيوم ، ولم أر الأرواح لحظة طلوعها ، أهالى القرية أيضاً لم يروها وسكان الزقازيق والقاهرة وطنطا وشطا وبلبيس ومنسفيس وزوار الحسين وسيدى أحمد البدوى وأهل البر ومخلوقات البحر والنداهات والعجائز وكتبة المحاكم والطواحين ، إنما هبط ثقل مر مدبب يثقب الامعاء والأحشاء والعمر المقبل والمنقضى والآمال ، ويحرق نسمة تبشر بذهاب القيظ ، ومجىء البرد ، وأمنية لم تتم عندما لمحت الخبر فوق الجسر فى عيونهم وفى البيوت ، والطريق وفضاء أبدى ، تمهل الدم فى عروقى ، ورأيت أهل البلدة أفواهاً

وعيوناً وحزناً صامتاً لا يعرف كيف ينقل الخبر ، وأنا قضيت عمرى أروح وأجىء فوق الجسر لكننى أراه لأول مرة بأرضيته الرمادية ، وسوره الخشبى ، والحفر الصغيرة أمامه من الناحية الشرقية ولا حظت بعناية كثافة النبات على جانبى الترعة والغريب أيضاً أننى رأيت سرباً من اوز أبيض ينفض جناحيه بعد طلوعه من الماء . امرأة تمشى متمهلة تجر وراءها ماعزاً سوداء ، طفلا يمص عوداً من قصب وكلباً ينبح ودخاناً يطلع من أحد البيوت ، ورأيت اللحظة التى أمر بها الآن خارج الزمن متجمعة متصلبة قوامها التوتياء وعروق سوداء رفيعة وأبر وشوك ، لحظة هى زمن قائم بذاته ، لا أول له ولا آخر بلا بداية أو نهاية ، قلت كيف أذكرها لو عشت مائة عام ، غير أننى رأيتها بعينى العمر نفسه تماماً كما أعيشها الآن ، برودة الجو وقشعريرة عنقى وطعم النحاس المجنزر واتجاه الريح الخفيفة . البارده التى جاء لحظتها تماماً فعرفت أننى تقدمت فى العمر قدراً لا يحسب بالسنين وإن كل ما عشته قبل الآن ينتمى إلى أجيال شديدة البعد لا صلة لا علاقة لا رابطة بينى وبينها . أدركتنى بدايات الشتاء ونحن أول أغسطس ثامن شهور العام ، أقول جاءتنى بدايات الشتاء لأن سبتمبر يلى أغسطس ولا أحسبه من شهور الصيف أبداً ، أبداً ، ولماذا أحسب سبتمبر من شهور الصيف أو هواؤه أرق وأشرب ماءه فأذكر أياماً حلوة راحت منى ، صباحها فرح ، سماؤها بلا غيوم ، ناسها يضحكون ، راحوا منى راحوا ، قال

رجل عجوز هو الحاج حامد صاحب النخيل وشجر البرقوق والتفاح قال انى رجل يمكننى الصبر ، بدا لى القول سخيفاً وفض مجالس ، لم أنظر إليه ، لم أنطق حرفاً ورأيت الورق وعيدان القش فوق الأرض وتساءلت لماذا لا أذرف دمعة يبلل ملحها طرف لسانى ، لكننى لم أبك.، كأننى ودعت أمى واخوتى وأنا أعرف أننى سأرجع صباح اليوم التالى وأسمع الخبر من الحاج حامد والحاج حامد بالذات وعندما نزلت السويس من شهر وجاء عم خليل الجرسون ورأيت وجهه مهموماً ، فعلا عمره سبعون مل أعطيته من عندى أكثر ، وسألته عن الحال فقال ان حادثاً جرى اليوم وكان فظيعاً فقلت إن كل ما يجرى اليوم فظيع يا عم خليل ، هز رأسه وأسند صينية النحاس المثقلة بأكواب الشاى الفارغة وفناجين القهوة وزجاجات الكوكاكولا .

قال لا يا أستاذ ، قال ان نجاراً فى حى المثلث عاد إلى السويس بعد أن ضاق به الرزق ولم يطق التهجير أو قل انه لم يعرف كيف يعيش هناك ، رجع إلى هنا يصلح نافذة أو مقعداً ، أى عمل يحتاجه فيه أحد ، يحمل شيئاً أو ينظف مكاناً ، يعنى يلقط رزقه من هنا وهناك ، جاءنى مرة هنا وقال امسح لك القهوة وتعطينى ما فيه النصيب ، والله يا أستاذ أعطيته من جيبى ما قسم به الله ولم أسمح له فهو يقاربنى سناً ، المهم أن امرأته وأولاده الثلاثة ، بنتاً عروسة وأخرى فى العاشرة وطفلا ابن سنة على باط أمه ،

جاءوا لزيارته وباتوا ليلتين وفى صباح الثالث جاء عندى هنا ، توقف أمام هذا المطعم واشترى فولا وطعمية محشية وخبزاً وأثناء وقوفه جاء الطيران ، وكما تعرف يا سى مصطفى يجيء الطيران عادة فى التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً ، الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كالموظفين جاءوا وضربوا المنطقة ، وفوق البيت ، فوق البيت بالضبط يا سى مصطفى ، كأن القنبلة نزلت بخيط من الطائرة إلى الأرض ، ألف رطل قلبت البيت ، وسكت عم خليل ، قال ان الرجل رأى أولاده يخرجون بعد أربع ساعات من الغارة فوق طاولة عيش ، نصف الأم الأعلى ، يداها يا سى مصطفى كأن الحياة بقت فيها تضم أبناءها الثلاثة ، حتى ابنتها الكبيرة ، السليم الوحيد فيهم الطفل ، آه يا أستاذ لو رأيت عينيه إنهما مفتوحتان على آخرها ، أنا فى حياتى لم أر عينين مفتوحتين كما رأيت عينى هذا الولد ، كالبرقوق ، تراهما وأنت واقف بين الرجال فتخاف ، يا سلام ، الولد يسأل بعينيه يا سى مصطفى عن سبب موته فى أول العمر ، ولماذا جاء إلى الدنيا إذا كان موته سريعاً بهذا الشكل ، أنا فى حياتى لم أر طفلا يموت فربنا لم يعطنى ولم يأخذ منى ، لكننى رأيت موتى أنا ، لحظتى فى عينيه ، ظننت أن دموعى خلصت من زمان لكننى نحت عليهم كالمرأة أما أبوهم فلم يرد على أحد ، نزل عليه سهم أسكته ، إذا أمسكت يده يطاوعك ، تأمره بالمشى يمشى ، القعود يقعد ، لكنه لم يبك أبداً ، وعندما سمعت عم خليل قلت أتصور أن

يحدث هذا لأى إنسان فى العالم أما أمى واخوتى فلا يمكن ، وكما مرت ثلاثة أعوام رأينا فيها القنابل والطائرات وما زلنا أحياء ، فستمضى ثلاثة وثلاثون عاماً أخرى والأعمار باقية ، حتى فى أيام الدراسة ، وأنا أقيم بعيداً عنهم أصحو كل صباح فى الزقازيق وأعرف أنهم بخير وأسأل القادمين من كفر عامر أو الجناين وأخطف رجلى آخر الأسبوع لأشرب حليب الضرع الطازج ، وعندما سمعت الخبر وتغير لون الهواء والفراغ ازداد اتساعاً وخواء ، رأيت الأب النجار لا يبكى دمعة ، ورأيت شفتيه متلاصقتين شاحبتين من جلد جف وطبق الفول بين يديه لا يجد أفواهاً تمضغه .

. فى تمام التاسعة والنصف ، تتدفق العربات فى الميادين ، لا يوقفها موت ولا رحيل انسان ، ألف روح آدمية عن العالم ، يضحك الناس ، يدمعون ، تتساقط نقط المياه من الزير إلى الصفيحة الموضوعة تحته ، ويد مجهولة فى مكان قصى تضغط زراً أسود اللون أحمر أو أصفر أو ربما تشد مقبضاً فيطرد من الثبات صاروخاً طوله كرجلين متمددين فوق الأرض ، يطلع بطيئاً وكأنه لا ينوى الأذى ، يعبر الأعمار والذكريات وصور الطفولة المنسية وعبير الأغانى القديمة ونداءات الليل ولهفة المسافرين ، جوفه ملىء بتروس وأسلاك متداخلة فى أنابيب مبطنة بمادة بيضاء طرية وعندما أمسك الضابط بالعامود المعدنى الأبيض قال إنه من أنقى أنواع الألومنيوم ودرجات

القلاووظ دقيقة جداً تدور حولها صامولة مسدسة رمادية والعامود يحفظ اتزان الموت المحلق .

يحفظه فى تمام التاسعة والنصف ، طال نظر الرجال الذين يرقبون ما أفعله ، ما أقوله ، سألت بحس خفيض ومالوا برؤ وسهم ليقتربوا منى ويسمعوا ولا يتبعونى كما يتصورون ثم يطلبون أن أكرر بصوت عال ما قلت ، فأكدوا أنها التاسعة والنصف ، وقلت كيف حالهم عندما ، عندما ، عندما ، ولم أنطق بل رفعت أصبعاً بيضاء كالجليد ، نظروا إلى بعضهم وحاروا ، وسمعت نهنهة امرأة لم أر وجهها ولم أعرف من هى ، وسمعتها تقول آه يا حبيبتى يا ألطاف فعرفت أن أمى ألطاف ذهبت ، وحكى الشيخ خالد فأكد أنه جرى عندما سمع الإنفجار إلى البيت ، وقال زيدان انه كان يحرث الغيط لكنه أسرع إلى البيت وجاء جنود الموقع القريب ، ورفعوا معهم الأخشاب والحجارة ولم يفكر أحد فى القنابل الزمنية ورأيت عم خليل فى المقهى ، يسكت ، تفاحة آدم فى حنجرته تتحرك من أعلى إلى أسفل ويبلع ريقه ثم يصف كيف تمددت امرأة النجار فوق طاولة العيش بلا نصف أسفل ، كأن جسمها شطر نصفين بسكين جزار ماهر ، ولابد أن صرخة أمى ان وجدت الزمن لتصرخ فى تمام التاسعة والنصف أصدق الأصوات فى وجه الزمن وأكثرها رعباً وحناناً وخوفاً ورجاء مكتوماً ووداعاً ورغبة فى بقاء الآخرين . صرخة صيحة ،

آلام أمي أصدق ما تردد منذ أن دب آدم هنا واستمع إلى الرياح والضباع وسقوط الصخر من فوق الجبل ، ومجيء الليل ثم النهار .

قال عمران انه رأى عبد المنعم يدفق دماً من وجهه كما ينساب الماء فى مجرى صغير وعبد المنعم يقف قرب البيت عندما نـزل صاروخ أرض ـ أرض ، وأنهى الحنان والرقة والعمر الطويل وتعـريشة العنب وخنـاقات الاخوة وبهجة العيد وأيام رمضان والاستيقاظ آخر الليل لتناول السحور وأكلة البورى كل ثلاثاء وصوت يطمئن على الأبناء قبل النوم وشاى المساء ترشفه أمي على مهل ، تسرح فى السواد العقيم الراقد فوق البيوت والترعة والموقع والطرق التى لا يمكن التحرك عليها بعد آخر ضوء والانفجارات البعيدة والطيران المحوِّم كالغربان فى السماء تسمع الصدى ولا ترى أجسام الألمنيوم المحلقة ونداءات العساكر وهدير عربة قريب ثم توقفه فجأة .

أمي تذكر أيامها الأولى قبل أن نأتى إليها ، ترى دخول أبي قبل مجيء الليل ومنديل به لحم وخبز يأتى به فى تمام التاسعة والنصف ، وتمنيت لو أن ما أسمعه وجه إلى شخص غيرى ، أو تردد صداه فى مكان بعيد عنا ، بعيد جـداً ، وسألت روحى بـدهشة ، بحيـرة ، بخوف ، أهـذا هـو مـوت الأحباب ؟ وعندما مررت بعامى الثامن أو التاسع عشر هل كنت أعلم أن ما جرى سيجرى ؟ وقلت آه لو يعرف الواحد ما سيأتى فى العام الثلاثين ،

ليس كل ما سوف يقع ، إنما الكبير من الأمور ، لو أعرف لأخذتهم معى إلى الزقازيق ولعدنا معاً ، نقف أمام حطام البيت وتقول أمى ، كتب لنا عمر جديد ، وتنذر الفول النابت لأولياء الله ونقضى ليلة لا ننام فيها ، غير أنهم ذهبوا وتركونى فرعاً ناحلاً جافاً يتيماً انقصف فى كل لحظة مرتين ولا تهتز شعرة فى جفن الدنيا ، ولم يقطع انسان أنفاس سيجارته .

بالضبط فى تمام التاسعة والنصف لم أقل حرفاً ولم يومىء رأسى وقال الشيخ حامد مرة أخرى ان الأعمار بيد الله وقال زيدان والله لا نتركه وحيداً ربما عمل فى نفسه حاجة وقال آخر لم أعرف وجهه مع أننى فى القرية أعرف الإنسان من بعد كبير فى الظلام ومن طريقة تردد أنفاسه حتى وشكل خطواته ، لكننى لم أميز من قال ان مصطفى سينام عندى فجاوبه آخر ، البيت أوسع عندى وحفرة المخبأ أكبر فلو حدث شىء فى الليل نزلنا كلنا وقالت جدتى نجمة وليست أم امى أو أم أبى إنما كل عجوز هنا أقول لها يا جدة ، قالت كنت أقعد مع المرحومة كل ليلة ، زغر إليها الرجال فى العتمة لم أرهم إنما أحسست حدة نظراتهم ، نفذت إبرة محماة طويلة تفجر مرارتى وناءت عظامى بحمل الهم .

أمى الآن ، الآن ، تمام التاسعة والنصف . . مر . . مرحومة .

قلت فجأة ، خذونى إلى عبد المنعم أبو العطا ، فأخذونى .

قابلنا جندى ، قال انه من الخطر مشينا جماعة فى الظلام ربما نزلت دانة ولا يمكننا التفرق وقلت ماذا يحدث أكثر مما حدث ، وألقى أحدهم السلام ورد آخر لم أره ولم أعرفه ولم نتمهل وإنما أسرعنا وأصغيت إلى الصراصير المدسوسة فى الهيش على ضفتى الترعة ، ورأيت وجه عبد المنعم أبو العطا من شاش وقطن وقماش أبيض ، وقلت لو ، لو ، لو ان أمى أصيبت أو أحد من اخوتى أصيب لرأيته الآن كما أراه ، قال طبيب الجيش الشاب إنها جراحة أولية ولا يمكن نقله ظهر اليوم لأن الطيران قطع الطريق عدة مرات ، قلت سأذهب به إلى الزقازيق ، إلى المستشفى الأميرى ، وقال طبيب الجيش ، المستشفى هناك أكبر هل تعرف أحدا ؟ قلت أبداً ، قال إن العملية هنا تكفى الآن لكن حتى يرجع سمعه وبصره فلا بد من إمكانات أكبر لا تتوفر عندى ، قلت هل يعود سمعه وبصره يا دكتور فنظر إليه وقال محتمل والأمل كبير جداً فى رأيى ، قلت سأذهب به أنا ، قال سأرسل معك عربة الكتيبة الجيب ، فقلت له ان المرحومة لو عاشت وجرحت لأرسلت معى العربة طبعاً ، رأيت عينيه بوضوح لحظات ، ثبات حدقتيها وهزة سريعة من رأسه ، رعشة صوته ، البقية فى حياتك ، حياتى أنا . وفى الليل أصغيت إلى بقبقة مياه مفاجئة ، انقطاعها ، رجل نائم يتأوه فى مكان قريب يتأوه متألماً من شىء أجهله ، ورمى الهاون ، ربما يموت ناس فى هذه اللحظة تماماً ، يفارقون الدنيا ، غير أنى لم أر روحاً عند الأفق

المظلم تطلع إلى السماء الممتلئة بنجوم كثيرة ورأيت نجماً كبيراً يلمع بوضوح ولو نظرت إليه الليلة التالية من نفس المكان ربما أجده أو لا أجده ، وانفلت نجم من ثقب ما فى السماء مخلفاً ذيلاً من لهب ، ذكرت اسم الله فهذه روح شريرة مطرودة وقلت من يدرى ، ربما هذه النجوم أرواح أحباب يرقبون أحوالنا غير أنى لم أرقب أمى ولا اخوتى وأثق أنهم يروننى وبحثت بلا فائدة عن لعاب أمضغ به طعاماً أحضروه إلى ، لم أتحرك ، وسمعت انفجارات قريبة ورأيت وهجاً وخطوطاً حمراء متشابكة كأن الدنيا تعجل بإنهاء كل ما تحويه وفى ندى الفجر قالوا دع واحداً منا يذهب معك قلت أبداً ولابد أن يعود إليه السمع والبصر ليصف ما جرى ورأى تمام التاسعة والنصف وفى العربة رأيت قدمى عبد المنعم المتشققتين هو لا يملك أرضاً فى البلد ولا حتى جذع نخلة ، إنما يعمل فى أراضى الآخرين ولا ابناء له ولا أب يعرف وكدت أسأله من أبوك ؟ لكننى رأيت صممه فأحطته بذراعى واستقر العرق تحت إبطيه مالحاً ، ربما احتفظ برائحة من وقف بقربهم قبل مجىء الكائن الحديدى الطائر من الأرض وإلى الأرض .

وفى الزقازيق دخلت من باب المستشفى العمومى وطلعنا إلى طبيب شاب لا بد أنه حصل على الشهادة الإعدادية نظام الثلاث سنوات ودخل الثانوى وحصل على التوجيهية بمجموع كبير قسم علمى ، ودخل الطب وقضى به سبع سنوات ، قلت فلأسأله عما فكر فيه ورآه يوم الأربعاء فى تمام

التاسعة والنصف ، وبالتأكيد سينظر إلى بدهشة فألحقه قائلا إن أمى والخوق السبعة . . وبدا غير راغب فى الحديث ، شرحت كيف أصيب عبد المنعم فدار حوله وهو لا يعرف أى شىء عنى أو عن عبد المنعم وأسند سماعته إلى ظهر عبد المنعم وإلى صدره وأصغى قليلا ولم أر داعياً لوضع السماعة فما الذى يشكوه فى بطنه أو ظهره ؟ آلامه واضحة لا تخفى وتأكدت أن ثمة طريقة أخرى يمكن الكشف بها على عبد المنعم أبو العطا لكن الطبيب الشاب لم يقم بها إنما أمره أن ينزل جلبابه وبقى عبد المنعم لا يتحرك ، كرر أمره ثانية ، وبقى عبد المنعم واقفاً ، انسان أصم أعمى ، لا يسمع ، لا يدرى ما يفعل به ولا معه أو أمامه أو وراءه ، عندما أمره مرة ثالثة بضيق بصوت عال ، قلت انه لا يسمع يا دكتور وكأنه تذكر ما قلته عندما دخلنا الحجرة فجاءت كلماته سريعة عادية ولو جاءه آخر يشكو صداعاً أو اسهالاً أو ألماً فى طرف الأصبع لكشف عليه بنفس الطريقة وضع السماعة على الظهر والبطن فى التاسعة والنصف ، ولا بد أنه يحب الممرضة التى دخلت إلينا ونظرت إلينا ثم خرجت ، كدت أقول لا تنظرى إلينا بضيق ، عبد المنعم لا يسمع ولا يرى ، قال الطبيب لابد أن تذهب به إلى مصر . رأيت وجهه وعينيه ويديه كل ما فيه ينطق بالعجلة ويقول اخرجا ، ولا بد أنه لا يسكن فى الزقازيق إنما أهله فى مصر ويجىء إلى الزقازيق فى قطار التاسعة والنصف ، يقطع المسافة فى ساعة وربع ساعة ، ربما يتعجل

إنهاء الكشف على المرضى ، ربما استطاع اللحاق بقطار الثانية إلا الثلث ليلحق فى مصر بالبنت التى يحبها فعلا لأنه يتظاهر بحب الممرضة الشابة ، ودخلت علينا ثلاث مرات وكل مرة تلتقى نظراتها ، وتنفست رائحة البنج والأدوية وبخار الغلايات الصغيرة ، والقطن المنزوع عن الجروح ، ورأيت الوجه المغلف بالقطن والشاش يدور حوله لا يدرى صاحبه أين هو ولماذا تنتقل قدماه من هنا إلى هنا ومن صاحب اليد التى تشده أو توقفه فقلت يعنى ألا يمكنك ورد بجفاء لا يمكنه وأمسكت بذراع عبد المنعم أبو العطا ومشيت به فى الممر الطويل ، على جانبيه تجلس عجائز يحملقن فى الهواء ، بحثت عن لا فتة تحمل « مدير المستشفى » ، ولقيت بجوارها ممرضاً ضخماً قال انه ليس سهلاً مقابلة سيادته وهل اختل نظام الدنيا حتى يجىء رجل يسحب مريضاً ليقابل البك المدير ، إن كبير الأطباء من الصعب مقابلته فما بالك بالمدير نفسه ؟

قلت ان عبد المنعم حالته خطيرة ، وأن اليهود أفقدوه السمع والبصر ، ولا بد من مقابلة مدير المستشفى ، قال اسمع يا جدع انت ، رأيت الإهانة وفى اللحظة نفسها داس بلاط الممر رجل أبيض يرتدى معطفاً أبيض ونظارات طبية إطاراتها مذهبة ، اقتربت منه ، فى ملامحة طيبه ، اقتربت وأفرغت فى صوتى كل ما يمكن من رجاء وتودد ومذلة حتى . . ونظر إلى عبد المنعم وقال أعتقد أن الدكتور ممدوح على حق عندما رأى ضرورة ذهابه إلى مصر ، قلت

لكنه لم يمس رأسه ، لم يكشف عليه فعلا ، ابتسم ابتسامة مهذبة كـالقطن الـطبى ، آسف يا أخى فهـذا من اختصاصـه ، إنـه مسؤ ول الجـراحـة ، وخجلت من إطالة حديثى معه ، بينـما وقف عبد المنعم أبـو العطا يـدوس الأرض بقدمين لا حذاء لهما ، وجهه المكفن لا يدرى أين يتجه ، ودخلت الحجرة ولمست كتف الطبيب الشاب ونظرت الممرضة إلى بثبات ، قلت ان اليهود أفقدوا عبد المنعم سمعه ونظره .

فصاح غاضباً ، وهل هو أول الجرحى أو آخرهم ، قلت بهدوء .

ما الذى فعلته فى التاسعة والنصف يوم الأربعاء الماضى .

ولم يدعنى أكمل إنما زعق ، امشى يا ولد نحن فى مستشفى أميرى وليس مستشفى للأمراض العقلية .

وأنا مصطفى أبو القاسم لست ولداً ، أنا مدرس من كفر عامر ومعى دبلوم معهد المعلمين وأنا الذى أزعق فى وجوه التلاميذ يا ولد وليس الطبيب ، غير أنى خفت فعبد المنعم وأنا بلا سند ، بلا غطاء ، ولو أن الطبيب كشف على عبد المنعم أبو العطا بعناية وقال اذهب إلى مصر إلى السند إلى الهند إلى آخر بلاد الدنيا لمضيت لكنه وضع السماعة على الظهر والبطن وما هذا بالكشف الصحيح فلا بد أن الأمر لم ينته هنا ، عدت إلى الممرض الضخم فزعق وأعلن أن اليوم شؤم ويراه أسود اللون فأحطت عبد المنعم بذراعى ومشينا مسرعين وربما تسببت فى ايلامه حتى أنا لا أدرى كيف أشعر بأنه تألم فى هذه اللحظة أو

توجع ، أو جاع ، أو يرغب فى جرعة ماء ، هى لحظة الاحتضار نفسها مجسدة ، بينى وبينه سد لا أراه ، أبطأت خطواتى ، ولم أذهب إلى مدير المنطقة التعليمية وعملى يتصل به ويعرفنى وله نفوذ وربما يتوسط لنا أو يعرف مدير المستشفى الأميرى ، ولكننى مشيت ولم أر أحداً حتى وقفت أمام المركز وقلت البك البك المأمور موجود فقال الجندى انه بالداخل ولم يكن البك المأمور موجوداً إنما المأمور الذى يقصده الجندى ضابط يجلس على مكتب بنى اللون قديم الطلاء تفرشه قطعة من قماش الجوخ الأخضر وفوق شماعة خشبية علق عليها رأسه وسترته الخارجية ولمعت ثلاثة نجوم ذهبية على كتف السترة الأيمن المواجهة لنا ، قرأ ورقة . ثم ورقة أخرى ، بجانبى عبد المنعم لا يرى ولا يسمع ولا يقدر على الكلام ولو أنه تزوج وأنجب أطفالاً لصار فى بيته مناحة الآن لكنه لم يتزوج ولم ينجب وأنا لم أتزوج ولم أنجب ومن النافذة دخلت أصوات الطريق ، نداء باعة ، خناقة أطفال صغار ، عربة مسرعة ، أصوات النهار عندما يعجل بالرحيل ، نهاية النهار تلخيص أبدى للبعد وفراق الأحبة ونهاية الأعمار فجأة قبل الأوان .

أمام الطوب المحروق والخشب المتفحم وجروح الأرض لم أصدق أن ما أراه بقايا بيتنا ، حزمة ثوم سليمة تماماً حملتها أثراً غالياً ، بقايا ملابس ضاع زهاء ألوانها ، لم أعرف أى اخوتى ارتداها ، شد أطرافها واختال بها ، حلة نحاس منبعجة ، يد ضخمة مجهولة لوتها وملأتها حفراً صغيرة ، علبة لحم محفوظة ملقاة فارغة ، أرى نفسى عندما اشتريتها وجلست فى الفناء أدير

مفتاحها الصغير واخوتى يرقبوننى ، أمى تصيح من الخارج ، هل انتهيت من فتحها ؟ وجاءنى الحزن عفياً قوياً قاسياً فى موجات متتالية كهجوم انتحارى ، حزن يجفف اللبن من صدور الأمهات ويعيده إلى نهود العجائز ؛ آه من لون النهار الراحل المبتعد .

التاسعة والنصف ، خرست أصوات الدنيا ، قال الضابط لفظاً واحداً كمجىء الطيران فجأة على ارتفاع منخفض ، بوغت ، قلت أنا مصطفى أبو القاسم ، مدرس ابتدائى بقرية كفر عامر محافظة السويس ، وحتى يتأكد ويصدقنى ويثق أننى لا أكذب عليه ولا أفكر حتى فى الكذب عليه ، أخرجت بطاقتى الشخصية ، وبطاقة عضويتى فى نقابة المهن التعليمية ، وبطاقة اشتراكى فى القطار ، لم ينظرهم إنما قال ، نعم ، ورأيت أنه يطلب منى أن أحكى له كل شىء . . قلت باختصار كالعناوين .

فى التاسعة والنصف ماتت أمى واخوتى السبعة .

دارت أصابعه حول بعضها ، وبعد صمت قصير لم يرفع عينيه عنى وكأنه لا يلحظ عبد المنعم أبو العطا سأل ، أين ومتى ؟ قلت ضربهم اليهود بصاروخ أرض ـ أرض وهم يفطرون صباح الأربعاء ١٩٧٠/٨/٣ ، أمسك بطاقتى الشخصية ، تمعن فيها ، ورأيت النهار وجهاً حزيناً شاحباً ينسحب بسرعة من وراء النافذة ، يهجر الدنيا ، فقلت متمهلا ، لم أحضر إليك من أجل هذا ، إنما جئت أشكو طبيب المستشفى الأميرى ، ومال وجهه قليلا ، سألنى ألا زال

هناك فلاحون ؟؟ قلت فى الجناين والقطاع الريفى بالاسماعيلية والسويس عندنا ، سأل لماذا لم تهاجروا ، قلت إن الأرض تحتاج الرجال وكل واحد رزقه هناك وأن الأرض فى السويس مالحة ولو تركت شهراً واحداً لطلع فيها الحلفا والهيش واحتاج اصلاحها زمناً طويلاً ، قال إنه من قلة العقل أن يبقى الانسان فى مرمى الهلاك هل هذا اسمه كلام . . ولم أقل نعم ؟ ، لم أقل لا ؟ ، ورأيت إخوتى يسرعون من البيت إلى الغيط ، وشكة صغيرة تندس فى قدم أمى ، تجلس على جانب الطريق ، تحاول اخراجها ، أعود اليهم فى الاجازات مع اخوتى طلبة المدارس ، ترقبنا أمى ، يتوسط ذقنها وشم أخضر باهت كالعمر المنقضى .

سأل الضابط ، لماذا تشكو طبيب المستشفى ، قلت باختصار أيضاً ، ان عبد المنعم أبو العطا هذا أصيب وجئت أعالجه لكنه كشف على الظهر والبطن ولم يلمس عينيه أو أذنيه المصابتين فعلا وصرفنا ولا بد أن يرجع إليه سمعه وبصره لأعرف ما جرى فى التاسعة والنصف ، هز رأسه ، رنت ساعة كبيرة سبع دقات وقورة كالنعى ، نذير الليل الأسود المقبل ، قال ارجعا فى الصباح ، ودارت الأرض بى نصف دورة أخرى وتقدمت خطوتين . . قلت أرجوك أن تتخذ اللازم لأننا درنا كثيراً ولا أعرف ماجرى له .

قال ارجعا فى الصباح ، ورأيت النهار مذبوحاً تماماً بالفئوس والمناجل والرصاص والمشارط والليل يسد الفراغ كله ، ويصبغ الأبدية ، قلت

يا سيدى هل يرضيك هل يهون عليك أن يفقد الانسان سمعه وبصره فلا يسمع ولا يرى تخيل أنك ، لكننى آسف جداً تخيل أننى أنا لا أسمع ولا أرى ، وعلى وجهه بدا شبح ابتسامة خفيفة ، قلت ارجعا فى الصباح ، ورأيت كلماته أيدياً تشدنى ، أوامر تمنعنى من التقدم ، كمامات بنج تخرس البوح فى صدرى . قطارات تدهس عبد المنعم وتدهسنى ، ولا بد أنه لا يريد ازعاج نفسه وربما ضايقه أحد قبلنا فآثر صرفنا ، وعند الباب سمعته يقول ، كلما عشنا شفنا وفى الطريق بدا الليل صارماً قاسياً ينوى الشر ، نجومه غامضة ، باهتة ، غير واضحة ، ليست كما نراها فى كفر عامر ، والبشر حولنا يمضون ، رؤوسهم إلى الأمام ، يتسمعون الهمس ، وحوش يضمرون الأذى ، آه يا عيون ترانى ولا تدرى من أنا ولا مصاب عبد المنعم أو بلواه ، عبد المنعم غارق فى ليل أبدى ، وفى صدرى دق قلبى يؤلم ضلوعى كشظية من حديد ساخن ، عبد المنعم سيرجع إلى الجناين ، لن يعمل ، لن يتسلق النخيل ، لن يجنى البرقوق ولا التفاح ، كما أنى لم أسمع صوت أمى ، ولن أشرب الشاى كل مساء من يديها وكأنى لم أسمعها ولم أرها ولم تنجبنى ولم تأت إلى الدنيا قط وإلا . . فأين هى وكيف ذهبت مع الحوق مرة واحدة ؟ وبعد سنوات لا أذكر ملامحها ، وشمها الأخضر ، طول قامتها ، ويضيق الناس بعبد المنعم أبو العطا ويطردونه من طريقهم وربما عطف عليه بعض الأسياد فألقموه رغيفاً وقطعة لحم فى الأعياد أو المواسم ، ومن يدرى ربما رجمه أطفال صغار يولدون الآن وصاحوا خلفه محدثين ضجة لا يسمعها أبداً ، ولا أسمع منه ما جرى ،

ما حدث ، فى تمام التاسعة والنصف ، ولو قلت لشخص ما بعد عشر سنوات أو خمسة أو ستة واحدة حتى ان أمى ماتت واخوتى السبعة الطالب منهم والمزارع وأختى الوحيدة ، كلهم ذهبوا ، لنظروا إلىّ بشك وقالوا مجنون أو يحاول استدرار عطفنا ، بل انى لو مضيت الآن إلى المدن الكبيرة وركبت العربات وأوقفت فى الطرقات وزعقت ان يصدقونى وأن يعالجوا عبد المنعم أبو العطا ، فسيضحك الشبان ، وتتعالى الفتيات بنظراتهن . . ويقول القوم . . حيل جديدة للتسول ، فهل يعقل أن يفقد انسان أى انسان أمه واخوته السبعة فى وقت واحد ، ولماذا بقى هو ، وإذا حكيت لهم ما قاله عم خليل عن التجار وامرأته وعياله الثلاثة لقالوا تخاريف مجنون أو عجوز عبر السبعين بسنين ، ولو قالوا أين تجارك العجوز ؟ احك ما قاله عم خليل فى العصر أصفر اللون الكئيب الذى تتردد فيه طلقات الماوزر . . لا نرى القذائف إنما نسمع صوت خروجها ثم انفجارها بعد ثوان .

قال عم خليل ان الأب كان يأتى عندى هنا ويجلس صامتاً يشرب المعسل وسمعته ينطق لأول مرة منذ يومين عندما تلفت حوله وقال بصوت عال ، السلام عليكم ، وقال أنا سأزور الأولاد ، وذهب إلى أبنائه ، وبعد أن قرأ الفاتحة حط رأسه وأغفى بجانبهم ولم يقم ، قلت بصوت عال .

مات يا عم خليل ؟

قال ولم يحط منطق .

يرحمنا الله أجمعين . .

ولابد أن الطبيب فى الوقت ذاته ، التاسعة والنصف الآن ، يمشى فى شوارع القاهرة ، يتمدد أمام التليفزيون ، يسمع نشرة الثامنة والنصف ، أو يقف متأنقاً أمام دار السينما ، ربما ترقد ذراعه فى ذراع حسناء بيضاء ، بينما يقرأ الضابط أوراقاً أو يشرب شاياً ، آخرون فى المقاهى يتحدثون عن نجوم السينما ، المعضلات التى تقابلهم فى حل الكلمات المتقاطعة ، التوى الليل سيخاً محمى فى روحى ، الضابط لم يعطنى بطاقتى وأنا والآن ضائع مجهول الشخصية ، بلا أم ، بلا اخوة ، ولا أحد يسأل عنى ، إذا تأخرت أو تأوهت فى نومى ، أو فاجأنى كابوس ثقيل ، من يوقظنى ، لا أحد ، لا أحد ، الويل لى لن يوقظنى أحد وأموت مكتوم الأنفاس ، أما عبد المنعم فلن يسمعنى ، هو بلا بطاقة شخصية طوال عمره وتمنيت لو أشرح حالى لهذا الطويل الأصلع ، والجالسون بالمقهى الغرباء الواقفون فى شرفات الفندق ، المدينة المزدحمة ، لا عرض لها ولا طول فى أعيننا أنا وعبد المنعم أبو العطا ، أشكو لقاطع التذاكر فى الأوتوبيس والوجوه داخل إطارات . الصور والركاب والمقاعد والتلال الرملية وأسفلت العودة ، وآه لو ينطق عبد المنعم فيصف كيف طارت الشظايا بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة فى التاسعة والنصف لتضع حداً لما فات من عمرى وما هو آت .

ولم أرد سؤال من قابلوني عند الجسر أو الكوبرى وكلما عدت من إجازة أتفحص الوجوه وأسأل عن الناس لا بد أن أسمع خبرا واحدا أو اثنين وعندما ألتقى برجل أو امرأة أو طفل أقول فى عقلى . . ما زالوا على قيد الحياة ، لم أتوقف لحظة ومضيت إلى بيت قديم هجره أصحابه وجلست فيه ومعى عبد المنعم أبو العطا ، أصغى إلى أصوات الليل وضجة النهار الريفى ، أسمع الأقدام تجرى إلى الحفر ، عنف الانفجارات ، الدانات ، الهدوء ثم الأصوات البشرية الأولى تنادى بعضها ، أعرف أن أصحابها أفلتوا من ملاك الموت وفى البداية كانوا يصيحون على . مضى الوقت ونسونى ولم أعد أرى إلا حليمة صاحبة أمى وأخت طفولتها وعمرها ، تأتى إلينا بالطعام نيئاً وتسويه ، تغسل ثيابنا ، عبد المنعم جالس لا يقول حرفاً ، هو الصمت نفسه ، العالم بالنسبة اليه منزوع الحنجرة ، مبتور اللسان ، الدنيا حوله مطموسة الملامح ، تغرق فى سواد لا تبدده انفجارات أو ضجيج أو اندفاع عربات ، جاءنا الشيخ حامد ، أصغيت إليه ، أصغيت ، إنما انتظرت بإصرار أن تظهر أمى عند الباب وراءها اخوتى ، آه لو جاءوا ، لن أفارقهم أبداً ، أحيط بهم أيامى ولحظاتى ، معنا عبد المنعم ، ومنذ حين لم أعرف مقداره لم تحدث انفجارات ليلية أو نهارية وأصغيت إلى عربات ورجال يزعقون وصبية وآخرون يعودون إلى القرية وعرفت من حليمة أن

الضرب توقف لمدة وأن القوم لا يعرفون هل ترجع الحرب أم لا ؟ رأيت أمي تقول يجب أن تتزوج ، فقلت زاعقاً آه يا أمي ، آه يا اخوتي لو أنكم رحلتم في زمان غير الزمان ، وبقيت أنا لعرفت كيف أرثيكم وأنشر حزني في العالم كله وأشرك البشر أجمعين في البكاء ، في النواح ، نسيت وجه الطبيب الشاب ، ملامح الضابط ، مدير المنطقة التعليمية ، نسيت شكل الصحف ، ولا أعرف العلامة المميزة لجريدة الأهرام من الأخبار وهل توجد صحف أخرى وهل أصدروا صحفاً جديدة ، وكلما سمعت الراديو سمعت الغناء والشبق المنسال بلا حساب والأحاديث وتكلف المذيعين . الأصوات تسد أذني فلا تسمعان ، طوال الوقت حديثي إلى عبد المنعم أبو العطا ، أنظر إلى عينيه المغمضتين ، هو لا يسمع أو يرى ، إنما أثق أنه يراني ويصغي إليّ . وفي صباح ولا بد أن الصباح بالخارج فهذا الزحام لا يحدث ليلا ، سمعت أصوات ماكينات ، وبريق أضواء ، أهي قافلة سفن ؟؟ أين يوم الجمعة واكتمالنا حول الفطير المغموس في اللبن ، ألصقت عيني بالباب ، رأيت أمامه رجالا كثيرين . خفت ، أنا بلا بطاقة شخصية وبينهم رجال بوليس ، ناداني الشيخ حامد ، تواريت أكثر ، دخل مسرعاً ، همس في أذني أن رجلا كبيراً يزور القطاع ، أخبره بحالي واعتكافي حزناً على أمي واخوتي السبعة فجاء يعزيني ، ومن الذوق بل من الواجب السلام عليه وتحيته ،

قلت أنا بلا بطاقة شخصية يا شيخ حامد ، قال مغتاظاً ، بلا فضائح . . تعال معى . . شدنى إلى الفناء الخارجى ، رأيته ممتلئاً بكثيرين يرتدون قمصاناً وبنطلونات وأحذية بنية اللون وسوداء ، يلتفون حول سعادته كالجوقة حول المغنى ، كل منهم يريد أن يبدو أكثر قرباً ، يظهر بجواره فى الصور الملتقطة هنا ، لم أعرف وجه سعادته أو مناصبه ، المصورون يقفزون ويرفعون آلاتهم فى حركات سريعة عجيبة ويميلون إلى الخلف ميلا شديداً ، ويرتكزون إلى الأرض بأذرعهم ، خفت ، ربما كسروا شيئاً فى البيت ، سعادته غير مهتم بهم أو منتبه إليهم وإن بدت كل حركة ، كل وضع يقوم به ، مخصص لهم حتى يبدو فى الصور بأشكال مختلفة مهيبة ربما يتخيلها الآن نظر سعادته إلى .

هو جامد القوام قصير ، صافحنى بنصف ذراع ممدودة .

قال البقية فى حياتك ، لحظة خروج الكلمات من شفتيه تذكرت ، أسرعت إلى الداخل ، جرى ورائى الشيخ حامد ، عدت ممسكاً بذراع عبد المنعم أبو العطا ، قلت لسعادته ان الطبيب كشف على عبد المنعم من ظهره وبطنه ، ولم يهتم الضابط عندما شكوت إليه الطبيب ، وعندما رجعنا إليه لم نجده ولم يسمعنا كبير أو صغير ، كدت أذكر سُحب بطاقتى الشخصية ، خفت ولم أنطق ، وقال واحد من الواقفين حوله . .

يعنى . . ماله . . ماله ؟؟ لم أنظر إليه ، وجهت حديثى إلى سعادته مباشرة ، شرحت ، أين ومتى وكيف أصيب والعلاج اللازم له ، التفت سعادته قال يا صبرى ، وأسرع شاب يمسك ورقاً وقلماً ، نعم يا أفندم ، وقال سعادته اكتب اسمه وليجىء غداً لنحوله إلى المستشفى ، همهم الواقفون مستحسنين قرار سعادته وخطا رجل غليظ الرقبة لم أره أبداً من قبل ، أشار إلى عبد المنعم أبو العطا ، وأظنه أشار ناحيتى ، صمت الجميع ، وقال الرجل وهو ما زال يشير إلينا ، هذا رمز عظيم لصلابة الفلاحين الذين تحملوا الصعاب وعاشوا هنا فى هذه القرية أياماً بالغة العنف والقسوة وبقوا رابضين فى الساحة أمام العدو

إجازة (٧٢)

نشرت فى المساء ١٩٧٠

قالت . .

ــ كل مرة لا نعرف ميعاد أجازتك . .

فى المساء الخالى من الضوضاء ، الهادىء . .

ــ سريرك لم ينم عليه أحد . .

رائحة الليل ، بقايا النهار الشتوى نفذت إليه ، ملمس الفراش ، الأثاث القديم ، عينا أمى تفحصنى ، أقول بالصمت ، بالإشارة . سليم أنا يا أمى ، لم أجرح ، لم أمت ، قالت ان هاتفاً يلح عليها منذ يومين ، يقول لها ان فريد سيصل ، من ليلتين لا تنام إلا متأخرة تترصد الخطى

فى الحارة ، فوق السلم ، رأتنى فى المنام ، آه . . يتحرك ضيق فى روحى ، ينبش حزنى ، يدُفع ضجيج سنين بعيدة إلى مسمعى ، لست غريباً ، لم أطف فى الأرض ، لم أرحل بعيداً ، لم أقض شهوراً مبحراً فى محيط ، لست غريباً ، لكن ، نظرت أمى ، أسئلة أبى ، تورم فى نفسى غربة أكرهها ، توسع هوة ، تقول إن ما كان بيننا لن يرجع ، لو أصل فلا تحار أمى ، لا تبدى اهتماماً زائداً ، لا تفكر فيما يجب أن آكله ، فرخة مذبوحة من الجمعية أو كيلو كبدة وقوانص ، يلح أبى فى الاستفسار ، أضخم له الأمان ، أنفى الخطر ، أختلق الردود لأطمئنه ، أسندت أمى ملابسى الداخلية ، رائحة القطن الذى لم يخرج من الدولاب مرة ، نظراتها الجانبية السريعة ، ارتعش الدم من وريد قلبى ، طويت بعقلى سبعين ساعة مقبلة ، رأيت اللحظة التى أقطع فيها الحارة ، أستدير عند المنحنى ، ثم أختفى عن عينى أمى . .

* * *

صوت مذياع الآن تمثيلية العاشرة والنصف . . أمه تسند ذقنها إلى يدها ، ترسم بيدها خطوطاً وهمية فوق الحصيرة ، لا تخرج كثيراً ، تذهب معه إلى سينما الكواكب مرة كل عامين . قال . . تصوروا . . أمى لا

تذهب إلى السينما إلا مرة كل سنتين . . قال رياض . . هنا نتذكر أنها لا تذهب إلى السينما وأنها لم تر المسرح أبداً . . وأنك لم تشتر كردان الذهب وعندما تراها تنسى . . أغمض عينيه ، الصخب فى أذنيه ليل الحرب ، حتى لحظات الهدوء ، تضج بالعنف المقبل الذى لم يبدأ بعد . . قال ليس صحيحاً . . ليس صحيحاً . . ماهر فى ركن الملجأ ، انتهى من الخدمة حالا ، لا يعبر عما فى خاطره بالكلمات ، ربما قفز فجأة ، يصيح . . ياسلام . . الله . يدركون أن أمراً غامضاً لا يعنى شيئاً بالنسبة لهم أثاره . فرح . كدر . حزن ، ذكرى بعيدة ، وجه فتاة عابر رآه مرة ، محادثة يغمض عينيه ، يتحسس وجهه ، يعود غارقاً فى صمته . .

* * *

ثم قال حسان انه ظل بالمقهى حتى الواحدة صباحاً ، لم يرنى عندما جئت ، قلت لأنى جئت من ناحية الكفر ، مررت على مسجد أم الغلام ، من نوافذه رأيت عينيها ، يسيل منها حزن فادح ثقيل ، ربما فرحة لأنها افتقدت رأس مولانا سيدنا الحسين ، ضحكت فتاة فى شرفة علوية ، نادت امرأة . . يا أمينة . . يا ست أمينة ، ولم يجاوبها أحد . . مرت ثلاث فتيات ، وتعرف كل شىء عن بنات الجمالية ، هذه قريبة فلان ، ابنة الحاج . . يغرق فيما بيننا أدق التفاصيل عنهن . قال حسان ضاحكاً . . لا زال الحى بخير ، نصف ضحكة على وجهى قلت من خلالها ، ان مستوى

الجمال فى ارتفاع مستمر ، صاح حسـان ، كأننـا نبدأ الحـديث فى هذه اللحظة . . أهلا . . أهلا . .

قلت . . كيف الكلية ، قال مسرعاً انه أصيب بانفلونزا ، حادة جداً ألزمته الفراش سبعة أيام . .

ـ تصور يا فريد . . سبعة أيام أقضيها بعيداً عن الشوارع . . غمز بعينيه ، ابتسمت ، بينما الشتـاء يبلل البلاط المضلع بضـوْئه الرمـادى الصافى ، أبدت جزءاً مسـطحاً كلوح الثلج ، قـال ان الآلاف ماتـوا بالأنفلونزا فى أوروبا ، سىء أن يموت الإنسـان بانفلونزا ، قال ربما نوعها هناك غير هنا . يقول ماهر بعد لحظات صمت ، ماذا لو أحصينا عدد من قتلوا دفاعاً عن مصر منذ أن نزلها الإنسان ، كم ؟ نصدر بهم بياناً يطلبه المستمعون ، تستمر إذاعته مائة عام بلا توقف ، قلت نمـوت ولا ندرك آخرهم . قلت عندما أعود إلى عملى فى مصلحة الآثار ، أطلب البحث عن بقاياهم . انبش الأرض من رشيد إلى فيلة ، أهدم البيوت بحثاً عن ملامحهم . قال حسان ان جماعة سكنوا فى درب الفراخة ، لهم ابنة هى الجمال بعينه ، قال ان على الجرجاوى الرجل العجوز والمحامى الشرعى القديم تزوج فجأة بعد أن ظل طول عمره أعزب ، من تظن التى تزوجته ؟ قلت لا أدرى . . قال هانم . الحلوة التى تصغره بأربعين عاماً . .

* * *

الصباح الباكر جداً ، صاف ، عذب كالحليب ، عيون الغمام الرمادى معلقة فى السماء ، فجأة . . يعلو أزيز آلات الإنذار الصغيرة ، يتلوى عبر الحفر ، طيران . . طيران فوق الجزيرة . .

إلى الحفر . . كله إلى الملاجىء . .

رأسه أقل من مستوى الأرض ، هدوء ما قبل الهلاك .

وشيش الموج .

رياض : لماذا الآن بالذات ؟ .

فريد : أنت خائف . .

رياض يغمز بعينه

فريد : ماهر من الفجر راح يفطر مع عاطف فى كفر الشيخ . .

رياض يهز رأسه ، ينهار جانب من الصمت . .

فريد : بنظراته يقول ال م ـ ط يشتبك . .

المنيا تضرب . .

رياض : اسمع . . ملعون أبوهم .

* * *

« رجل قصير عند محطة الأتوبيس ، حركاته رسالة حائرة مطولة بلا عنوان ، عيناه شقان رفيعان فى بناء أثرى قديم » .

سألنى : أى مواصلة تروح المحطة ؟

ثوان عابرة ، ياه . . هل نسيت ، أبداً قلت ٦٥ ، عندما رأيت لون العربات الأحمر ، بدا غريباً ، الرجال حول بائع الفول ، يتناولون البصل ، عم سيد قادر على خدمة العشرات فى وقت واحد ، لو رأيناهم معاً ، ماهر ، رياض ، لقلنا . . مصر تتناول افطارها ، أراهن أن وقفة عم سيد عمرها ألف سنة ، يسأل ماهر . . ألم تعثر مرة فى حفرياتك على بائع فول ؟؟ قلت بمنتهى الجدية طبعاً ، ضحكنا ، قلت إننى لا أتعامل مع جدران قديمة ، وزخارف تركية ، أو فارسية جامدة ، مرة أشرفت على ترميم بيت مملوكى قديم ، عمره حوالى ستمائة سنة ، فى الظهر ينصرف العمال ، أبقى أنا ، صدقونى يا أولاد كنت أرى فيه الحريم ، والأكل ينزل إلى الأغراب فى المضيفة ، والسقا يجىء بقرب المياه كل صباح ، وأحياناً أبقى حتى الليل لأسمع القرآن يرتل منذ ستمائة سنة ، مرة طاردنى صاحب البيت ، سيده ، أنه كبير تجار الغورية ، طبعا أنا غريب ، أشار ماهر بإصبعه إلى رأسه . . هذا أول ال . . ضحكت . . أبداً . . أبداً . . قلت . . لاحظ كبير المفتشين هذا فأمر بنقلى إلى المكاتب ، لكن لم يمر شهر حتى عدت إلى البيوت القديمة ، والجوامع والزوايا ، وأسبلة المياه ، من الصباح أقوم اليهم ، زمن داخل الزمن ، قالت أمى ، أصبحت تقوم مبكراً ، قلت تعودت ، سألت ، أين تذهب ؟؟ أتمشى . . بالضبط ما

أريده . . رؤ ية الحركة فى ميدان الحسين ، الصبية الصغار أمام جامع أم الغلام يقبلون نوافذ الضريح ، خشوعهم غريب ، ينتهون من قراءة الفاتحة ، يلثمون ظاهر أيديهم وباطنها ، ينطلقون ، يملأون الطريق فجأة زعيقاً وضجة ، كأنهم لم يقفوا كالتماثيل منذ لحظات ، حارات الجمالية لحظات الصباح الأولى ، طالبات مدارس ، من أعوام فى ذهابى اليومى إلى الكلية أبلع ريقى . . أقبض زمام قلبى ، آه يا حبى المريض ، ذوى ، أخيراً قلت لوفاء . صباح الخير ، قالت أهلا ، هى قالت أهلا ، لم أزد حرفاً ، بعد أيام صباح الخير ، نظرت إلى بعينين يعلوهما حاجبان علقا بعناية ودقة ، مطت شفتيها ، لم تجبنى .

* * *

قال ماهر . . يعنى لم تمش مع بنت ، لم تدخل مع أية واحدة السينما ، قال فريد . . أحببت كثيراً . . لا أذكر عددهن ، لكن من طرف واحد . . سأل . . يعنى لم تعرف النساء أبداً ؟ قال فريد . . هذا أمر مختلف . . ضحك ، والله شخت قبل الأوان يا فريد . . تدخل رياض فى الحديث ، عرف الكثيرات أحب بعضهن حباً حقيقياً ، مع ذلك ينسى الآن أسماءهن ، أليس هذا عجيباً ؟؟؟

ـ والله نسيت أسماءهن . .

* * *

« تـوقـع هجـوم جـوى مـع أول ضـوء ، درجـة الاستعـداد القصوى . . » .

* * *

تحتـويهم الملاجىء ، ريـاض صامت ، مثقـل بغداء دعى إليـه فى الظهيرة ، عند صاحبه مدحت جندى لم . ط ، لحم محفوظ بالمكرونة ، بصل مخلل وخبز ساخن ، من فتحة « المزغل » ، فريد يـرقب السماء ، وحيدة ، حائلة اللون موحشة ، حبلى بخطر ، بعيداً تتراكم غيـوم ، لا يرى الافق من هنا ، حدود الأرض والسماء العالم كله مركز هنا ، ملد ص هنا ، فى صخور الجزيرة ، قواقعها ، فى الحفر ، شباك التمويه ، المدن البعيدة ، أجهزة الـراديو فى المقـاهى ، شوارع قـرى الصعيد ، الـ اعة المتجولون بأقلام الحبـر ومشابـك الغسيل البـلاستيك ، هنـا كمسـاريـة القطارات ، المسافرون الأغراب ، جنود الشرطة العسكرية عند تقـاطع الطرقات ، هنا ضريح أم الغلام ، مقام سيدى مرزوق ، فى الهواء دعاء الشيخ بعد آذان العصر يصعد إلى السماء البنفسجية ، اللهم سامحنا فأنت

راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، يصغى فريد ، يسمع نبض العالم النائى ، صيحات الجمهور فى معرض أوزاكا ، هدير طائرة فى ميونيخ ، احتكاك الزحافات بالجليد فوق سيبيريا ، الطبول زعيق القردة فى الغابات الأفريقية ، ربما انقضت حياته ، لا يرى شيئاً من هذا ، لكن يسمعه هنا . كل هؤلاء يعرفون أى صمت فى لحظة آخر ضوء ؟؟ تتغير الألوان بسرعة تقسو ، لون دخان دانة الهاون ، يتسرب الاعياء إلى السماء ، يفقد النهار بريقه ، يعجبه تعبير آخر ضوء . . لم ينسل بعد ، البرد ينفذ إليه عبر المعطف الثقيل ، غروب كل يوم مختلف ، لم يحلم برؤيته أبداً ، حتى فى الأيام التى قضاها هنا . .

* * *

تماماً ، موت السكتة كآخر قطار ليلى ، ينزل الليل ، يخفى ملامح الأشياء ، يذيب الصخور ، فوهات المدافع المنطفئة يغير الأفكار ، تختفى الأشياء ، يعيد اكتشافها من جديد ، ليل عفى موغل مسكون بوحوش القرش : تدب الدماء فى شعاب المرجان ، يتكلم البحر ، يوقظ الميت من الأحاسيس ، فجأة ينصهر السواد ، أضواء الفليرز الصفراء الوهاجة ، تفضح الخفى ، تنطلق الرصاصات الكاشفة الحمراء ، نقط دم ، تروح تمضى إلى بعيد ، توخز العتمة ، ينزل الليل ، يقطر حزناً ، تربصاً ،

حقداً ، يوغل كماء البحر إذ يطبق كالخيمة المنهارة على الغريق ، فى جوف الليل ، يطوف فريد ، يرقب حدود ، حواف الجزيرة ، ربما تسللت الضفادع ، يفحص السواد ، يوقن تماماً أنه لم يبتعد عن أمه أبداً ، وأنه لو استدار وراء هذا المرتفع ، سيلقاها ، تقعد القرفصاء ، ترتعش أهداب عينيها ، عادتها عندما تنظر إليه صامتة ، تحييه .

سقط شىء ما ، قفزت من سريرى ، بالضبط . . انفجار دانة ١٢٥ مللى ، قال صوت خفيض أنت فى البيت رائحة الهدوء حولك ، والليل فوق البيوت هادىء ، ناعم ، كنسيج القطيفة . .

* * *

تابعوا الفليزر يشق الفراغ الأسود يبقى معلقاً فى الفضاء ثوانى ، قال رياض أنا أحب الجزيرة ، تمنى ماهر لو زارها قبل الحرب ، قضى فى هدوئها يومين ، لكن عمله فى مصنع الأثاث بالاسكندرية ، لا يتيح فرصة السفر له ، دمنهور لم يرها ، يتمنى لو دار فى الصعيد ، حلمه ، أن يركب طائرة تخرج به من الحدود ، يربط حزام الأمان ، يقرأ اللوحة الحمراء . . ممنوع التدخين ، يسمع المضيفة . . الآن نهبط . . فى باريس ، روما ، جنيف ، لوجانو . . الآن يا سادتى نحن . . نحن هنا .

ضحكوا .

قال فريد . .

ـ اسمعوا . . فيما بيننا . . نسمى الجزيرة بأسماء البلاد . . بلاد مصر ، هنا سوهاج الموقع المجاور أسيوط . . ثم المنيا . . الفشن . . مغاغة . . كفر الشيخ . . فوه . . دسوق .

نشطوا ، احصوا المحافظات والقرى التى جاءوا منها ، وزعوا الأسماء ، قال فريد ان وفاء التقى بها هنا ، عرفها هنا وكلمها وابتعدت عنه ، تفتيش الآثار الذى يعمل به على بعد خطوات ، أما الحسين صاحبه فمقامه عند أكبر صخور الجزيرة . . المواجهة لجرأة وعنف البحر . .

تأكل معنا يا ماهر ؟؟

لا . . أنا معزوم فى أسوان . .

* * *

ــ الم . ط فى أسيوط تشتبك مع العدو . .

ــ الهجوم فوق الجزيرة . . فوق مصر كلها . .

* * *

هل تعبر ؟؟ يعنى عبرت القناة ؟؟ قلت أنا لم أعبر . .

أطرق الحاج اسماعيل ، قال جلال انه عندما يتأمل فى إمكانية العبور

فلا يصدق ، قرضت شفتى ، نظرت إليه ، تساءل . . كيف يعودون ؟؟ صمت ، قال ، لا بد أنهم مخيفون . . قلت من ؟؟ قال . . الذين يعبرون . . قلت أبداً أعرف كثيرون عبروا ، انهم عادوا ربما يمشى أحدهم فى شارع قريب الآن . . زعق جلال ، وصلة سكر يا ريس . . ، التفت حسان ، هل حقيقة أنه فى هذه اللحظة تدور اشتباكات فى القناة ؟؟ قلت بالتأكيد ، بسط الحاج راحة يده . . كأننا نعيش فى آخر الدنيا ، قام محمود البنان ليغلق دكان البن المطحون والشاى ، آه لو أقوم ، أنام ، أطبق الوسادة على رأسى ، تضج شوارع المدينة فى عقلى ، الألوان ، النساء ، فى ميدان العتبة رأيت وجهاً يشبه وفاء ، تتعلق صاحبته بذراع شاب ، رأيت الأسى فى الأنوار المضيئة ، رأيت ماهر غارقاً فى صمته ، بعد نزولى الأجازة مع رياض ، سأل حسان ، هل تخاف من القنابل ، ضحكت باختصار كموجز الأنباء . . كرر جلال . . حقاً تخاف ؟؟ قلت فى البداية لكن بمرور الوقت يعتاد الإنسان كل شىء ، ضربت الأرض بمقدمة حذائى ، الليل فوق الطريق ، لكنى رأيته لحظة الصباح ، انتهاء الإجازة ، يجلس الواحد منا مع أهله ، أصحابه ، مشحون برغبة الحديث ، لحظة شعوره بالخطر ، انفجار قنبلة الألف رطل ، لزوجة نيران النابالم ، يبدأ الحديث ، تشل الألفاظ ، الحديث عن الشظايا ، الإنبطاح لحظة سماع الصفير ، غوص الجسم فى الأرض ، صيحة التحذير لزميل ، اخفض رأسك ، فجأة . .

يسهم المستمع ، يفكر فى أمر ما ، كبير ، صغير ، يشغله ، يلفظ كلمة لا تمت إلى الحديث ، تتقطع الصلة ، تعلو جدران الاسمنت المبطنة بالضجر ، يلسع البرد جسمى ، أهى الرغبة فى البكاء ، العويل بلا توقف ، يتحدث سيد عن خناقة كبيرة فى خان الخليلى ، أخبرنى حسان بالأمس ، انهم ضبطوا فى غيابى عربة مرسيدس مشحونة بالمخدرات ، كانت تقف فى ميدان الحسين ، زفوها إلى القسم ، أخبرنى أن مديحة بيانولا بائعة البوريك هربت ، لف عليها طويلا ولم ينل منها ضمة ، دوخته هو ، وقبلت عويس الفران أما محمد فيتا فعرض عليه أن يحضر بعض الزغاليل وعنده فى الدكان متسع ، بشرط .. بعد الواحدة صباحاً ، سأل الحاج اسماعيل فجأة ، نظراته تقول .. صدقنى الإجابة ، هل الطائرات المعادية تسقط فعلا .. قلت طبعاً .. رأيت بعينى سوبر مستير سقطت ولم يصدر بها بيان ، اتسعت شفتاه فى خط ضيق يرسم الشك عبر وجهه ، قال يا ريت كلامك حقيقى ..

* * *

الهجوم الجوى مستمر فوق الجزيرة ..

يلتهب حد الأفق ، انفجارات دانات الم . ط . فى السماء .. كتل من الدخان ، غامقة ، ثابتة ، كالحجارة ، تساءل رياض ، لا توجد

مواقع جنوب الجزيرة .

أى شىء يضربونه هناك . .

* * *

صوت أمى لحظة الوداع ، لا قبلات ، عينا أبى العجوز ، عواطفنا لا تعرف الحركات سبيلا للتعبير عنها ، بصمت نزلت السلم ، اللفافة بيدى ، فرخة ، بسطرمة ، جبن رومى ، تدمع أمى فى الشرفة ، أنق من هذا ، ليس ذلك ما يصنع حزاً فى لوحى ، ماذا إذن ؟؟ ضجة نزول الليل الذى أفارقه ؟؟ اختناق الشوارع بالعربات الملاكى ، السادة فى المقاعد الخلفية ، راقصة جديدة ، تحتاج إلى من يلمعها ، لقاء السحاب ، السحاب يلتقى ، الصديد يقطر ، العمر ثوان ولا سنين يا حبيبى . . يا حبيبى ؟؟ ماذا إذن ؟؟ الأمان الرخيم ، حفلة الثالثة أمام السينما ، أقدام الرجال الملفوفة بأحذية حمراء ، حمراء فعلا ، هل تصدق يا ماهر ، هل تصدق يا رياض ؟؟

والله لا نعرف . . كأن هذا العالم لا يعرفنا . .

أهو الأسى لحظة مجىء الصباح ؟؟ ذكر الوجه البعيد النائى كأطراف العالم ، وفاء التى لا أمر بعقلها حتى مجرد صورة ؟؟ أحببت بعدها . لكنها علاقات مبتورة ، يقضى عليها بمبضع جراح ، الحب القديم جبل يناطح

سماء لا آخر لها، حوله صخور صلبة لا نرقى إليه ، ياه حتى المرات البسيطة لم يعرفها ، أما سعيد فلم يضاجع امرأة قط ، ضحك ماهر ، صاح فيه ، أعرف كيف تحل مشاكلك فى الصعيد ، زام سعيد ، اسكت يا ماهر ، عيب يا ماهر ، ما الذى يقطر المرارة ، كأنها مقدمات صداع فظيع يقترب إلى ، يرفع حد الهلاك ، فوق الأزهر ، جامع أبي الذهب ، المآذن ، أعمدة هائلة مستقرة آمنة تسند الفراغ ، يتجمع الناس حول طفل صغير ، يتشنج ، يتقلص ، صاح رجل . . انظروا اسمه وعنوانه مكتوبين بالكوبيا فوق قميصه ، ناصية سليمان عامرة ، ماذا يدور فى شارع الليل ، الألوف تنفق فى طريق الهرم ، على مرأى من الأقدمين ، غداً . . صفحة كاملة عن الأغنية الجديدة ، السوالف هى الموضة . .

« قلت لك اسمعى كلامى » . . يوم واحد نقضيه فى الإسكندرية . . لك ما ترغبين ، مدير يختنق مع صاحبته فى بانيو .

هل هذا وقت إثارة المشاكل . . هل هذا وقته . . المعركة أهم . . صاح رجل الشريفة شريفة مهما جار عليها الزمن .

ضرب شاب المنضدة بقبضته . . أعطنى واحد براندى . .

قال مدحت صديق ماهر .

تصور عندى حساسية ضد الخمور . . محكوم على أن أعيش عمرى بوعى كامل . . شىء مزعج طبعاً .

تتأمل النساء قوائم الطعام فى الفنادق الفاخرة ، ترفع امرأة حاجبيها . . يا سلام . . والله مبروك خطبت لمن ؟؟ . . ابن عائلة ؟؟

تأتى العربات فى الطرقات ، ضرب شاب أسمر طيب الوجه جبهته ، زعق فى الشارع الخالى . . يا سلام . . يا سلام لو تتحقق الأمنيات .

يلمع النيون مزيفاً . . العمر ثوان والاسنين ، فجأة تقول البنت من خلال الراديو . حققت لى كل آمالى . . لما جبت لى ساعة كامى . . كل آمالى . . ساعة كامى . . كامى . . كامى . .

* * *

رياض يفرش المشمع ، تدب أقدام الجرذان فى الملجأ ، وقعها لزج ، ينام ماهر . ربما يصغى .

قال فريد . .

اتخذت قراراً . .

لم يرد رياض ، عندما يقدم الواحد منهم على شىء ، صغيراً كان أو كبيراً ، يقف متصلباً ، خارج الملجأ ، قرب الصخور ، يعلن ، اليكم القرار التالى ، « سأفتح علبة اللحم الأخيرة » « بعد الظهر سأنزل

لأستحم » « فى أول إجازة سأكلم بنت الجيران » ثم يقومون بعزف مارش عسكرى بأفواهم ، الآن .. لم يرد ماهر ، أو رياض ، الليل فوقهم غريب ، بارد ، كهف أسود موحش من الجليد ، قال فريد حزيناً ..

لن أنزل اجازة أبداً .. أبداً ..

* * *

أدلى متحدث عسكرى بالبيان التالى :

قام العدو فى الساعة التاسعة من صباح الخميس بهجوم جوى عنيف على جزيرة شدوان ، التى يبلغ طولها ١٦ كيلو متراً ، ويتراوح عرضها بين الثلاثة والخمسة كيلو مترات ، ويوجد بها فنار مدنى لإرشاد السفن ، منعاً من اصطدامها بالشعب المرجانية ، واستمر العدو فى القصف الجوى لمدة أربع ساعات متتالية ، مستخدماً طائرات الفانتوم ، وسكاى هوك الأمريكية الصنع ، وتمكن تحت هذا الغطاء الجوى من إنزال كتيبة مظلات منقولة بالهليوكوبتر ..

ولا يزال القتال مستمراً حتى ساعة إعداد هذا البيان ..

* * *

أمام المزغل . تماماً كم المسافة ؟؟ ثلاثون متراً ، الهليوكوبتر ، جرادة ضخمة مبقعة ، أرى الهواء ، دوائر الهواء حول المراوح ، اندفعت

خارجاً ، ينزف رياض ، الدم لا يطيق البقاء ، يهرب منه ، اصطدمت رصاصة بالصخرة ، ارتدت ، صريرها حاد ، تفلت الطائرات من الفراغ ، لولبية النزول ، من صفاء السماء تهوى ، أى موضع يحط عليه لسان النار ، فقط ، المنيا ، قنا ، قوص ، أم الدلنجات ؟؟ يحترق سيدى القولى ألماً ، ينزف الحسين دماً ، لا يفيق ألف عام ينزف هنا ، ذهب ماهر منذ الصباح إلى أسوان ، موقع الـ م . ط . المجاور للفنار ، تلتهب الجزيرة ، تنصهر ، لم أعرف أرضاً إلا هنا ، لم أعرف الإجازات ، تقاطع الطرقات ، تلتهب القرى هنا ، تحترق ذكريات طفولته ، محطات السكك الحديدية التى وضعناها ، تخيلناها ، صهاريج المياه ، يتدلى سلم قصير ، أى الصور تتدفق إلى الذهن ؟؟ رائحة الدخان ، احتراق نشارة الخشب ، لون البيوت ، الآن ـ بالضبط ، البداية ، لم أشعر بشىء ، تقول أمى ، سرقته السكين ، ماسورة الكلاشنكوف بلا معنى ، الزناد لا يدفع طلقة ، بوادر اسهال عنيف ، قنابل الألف ـ الثلاثة آلاف رطل ـ تمطر فوق أيامى ، يبرد الكون فى أذنى ، ضغطت المدفع ، دفعته ، رميته فى اتجاه الأقدام المستديرة ببطء ، حول الجرادة المهولة المدومة .

* * *

« يا جنود الصاعقة .. استسلموا .. »

« أنتم محاصرون من جميع الجهات .. »

« سنعامل الأسرى معاملة حسنة »

* * *

« وبلغت خسائرنا حتى ساعة اعداد هذا البيان خمسين فرداً .. ولا يزال القتال مستمراً حتى الآن » .

* * *

يجيد العربية تماماً ، يقتل أمي فوق طشت الغسيل ، يفجر الرحم ، يخرج المولود قبل الأوان ، يخنق ضوء الغسق ، يوثقني ، يخز الضلوع لتظل الجفون منفرجة ، طريقي اليك يا أمي وعر ، ينزف . القار ساخن يملأ الفراغ فيما بيننا .

* * *

« قالوا : تقدم من الفنار .. قف هناك بحيث يصبح ظهرك إلينا » .

* * *

الآن تماماً الرابعة ، ربما الخامسة أفقر لحظات النهار ، تهجرها الرقة ، تنفجر الكآبة ، أشد الأكدار حزناً ، ترثي الأمنيات ، أموت ، لا تمتد

الأصابع لتسبل الجفنين ، لو جاء الموت بعد مائة سنة ، فوق سريرى ، أى أفكار تجىء عندئذ ؟؟ يهوى القلب بين الضلوع . عندما أخرجوا رياض بدا جسمه ضئيلا ، لم أره بهذه الضآلة أبداً ، كان فارغاً ، تتحرك أطرافه كيفما شاءوا ، ايه . . بدا سهلا ليناً ، مطيعاً ، ما آخر كلمة قالها ، منذ بداية الهجوم لم نتبادل كلمة . أغمضت عينى ، أعرف ما يفعلونه ، يحشون الجوف ، الألغام . يقبلونه على وجهه . آه لو اندفع اليه . أذوب معه ، انفجر معه ، أوثقوا عمرى ، لم أر الفنار من قبل كهذه اللحظة ، كل شىء يبدو غير ما هو . .

* * *

« نريد أن نعرف . . هل زملاؤك بالداخل . . أقنعهم بالتسليم » .

* * *

تنقص المسافة ، طلقات متفرقة ، تتابع بعنف ، يخفق قلبى ، يخفق ، ما الملامح التى تميز وفاء . . لماذا خفق القلب عند رؤيتها هى بالذات . . هنا رأيتها عند طرف الجزيرة الجنوبى ، عند الشاطىء مشت تتأبط ذراع شاب يشبهنى ، تساءلت بحسرة كاوية ، بماذا يتميز عنى . . تقصر المسافة ، أخوض فى عمرى ، هنا مضغت الأرغفة الساخنة ، هنا صرت عجلات القطار عند سفرى مع أمى إلى بلدتنا ، انتظرت أبى عند

المنحنى ، تسلقت أشجار الدوم الأجرد ، تعلقت بعنق أبى ، أذكر وجهه شاباً ، بطانة جاكتته ، دفعت الهواء إلى صدرى عند خروجى الصباحى ، أفتش عن حفائر الآثار ، هنا بكيت عند مقام أم الغلام ، قال الشحاذ الأعمى فى حارة الوطاويط ربنا ينصر الإسلام ، صاح أحد المارة ، إذن احلف ، فصاح والله العظيم . والله العظيم . . والله العظيم هنا عرفت وداع الأصحاب ، أظن الفنار خالياً ، من بقى به . . ضاع رياض ، مقهور . . موثق أنا ، اختلت الأشياء ، نظام الدنيا لم يقم ، خرست أصوات الفراغ ، تنوح المياه ، يطفو القرش بلا رقيب ، ينزف دم الشهيد من جديد ، مذاق صوت أمى . . حس أمى . . نسيته . .

« قطع الخطوة الأخيرة بينه ، وبين الفنار . . » .

* * *

ثانية ، أو جزء على الألف منها ، رعشة عقرب فى ساعة معصم ، لم أره ، لم يتجسد ، انبثق أمامى ، ماهر ، لم أقل لفظاً ، لم يقل كلمة . لم يصلنا حوار ، يتقلب البحر فى صدرى ، تلكمنى يد ، البلاط كبير مضلع ، يرقد فوقه ، يحتضن مدفعه ، لم نقل شيئاً ، لكنه قال . . رأيتك من فتحة الجدار ، وقلت له بعينى ، بعروقى ، بدمى الذى يتفجر من ذراعى ، رأيتك يا ماهر ، رأيت مصنع الأثاث ، شوارع اسكندرية ،

أيامك على شاطىء البحر ، الأشجار التى لا توجد إلا فى اسكندرية وهواء اسكندرية ، ورمل اسكندرية ، وعطر اسكندرية ، كل ما عرفته فى الإسكندرية يا ماهر أنت ترقد فى هذا كله ، تقرأ اللافتة ، ممنوع التدخين من فضلك ، تفك حزام الأمان ، تنظر من النافذة المستديرة ، ترى الجزيرة من ارتفاع ثلاثين ألف قدم ، لا ترى شيئاً ، إنما كل شىء اختصر ، بتر بقسوة ، مجرد صفحة فى أطلس خريطة ، يندفق الدم من جرح كبير فى ضلوعه ، أى دم هذا ، لن يوقفه أحد ، يمنعه أحد ، آه لو اندفع إليك ، لو عندى أخ يشبهك ، أقول لك همى ، عمرى يا ماهر أمامى فى هذه اللحظة ، مركز ، ملخص بقسوة تفرى مصارينى ، لم تسألنى عن أسرتى ، لم أعرف شيئاً عن اخوتك ، عمرك الأول ، أعرف كل شىء الآن ، ترتعش حواف أيامى ، ترتجف سنينى . لم احب بشراً كما أحببتك الآن . هنا الوطن ، آه يا ماهر ، تسوافقنى غير أن البكاء متعة نائية ، زعقوا ، زعقوا ، يتقيئون فى الهواء ، داخل الفنار ، شبابى دفنته هناك ، وضعته خلف الطلاء ، تحت البلاط ، لن يعثروا عليه ، جسمى جرح واحد ، اقتربت منهم ، يتخذون وضع الرمى ، الشفرة الحامية تجز الرؤوس ولا عاصم ، ماهر يلمس الزناد ، عيناه صافيتان ، لا يكف الدم ، لكنه واع تماماً . كان حليق الذقن ، خيط دم رفيع كعلامة

استفهام ، كبصمة ، بجوار فمه ، هل عشت هذه اللحظة من قبل . .
أين . . ربما فى منام . .

* * *

وأضاف جاى بوشينسكى مراسل شركة اذاعة وستنجهاوس وجريدة شيكاجو نيوز . . وكان مصاحباً للقوات الإسرائيلية يصف بعض ما رآه . .

. . وحين انتهت ذخيرة أحد المواقع ، وكان به جنديان ، قتل أولهما وأسر الثانى ، ثم طلبوا منه أن يذهب إلى مبنى الفنار ليقنع من فيه بالتسليم ، ثم عاد الجندى المصرى ليقول لهم انه وجد المبنى خالياً . . وعلى الفور توجه ضابط اسرائيلى وعدد من الجنود لاحتلال المبنى ، وما كادوا يدخلون من الباب حتى فوجئوا بالنيران تنهال عليهم من مدفع رشاش . . كان بالداخل جندى مصرى جريح آثر أن يقاتل حتى النهاية ، بعد أن رفض زميله خيانته . . والإبلاغ عنه . . وفى موقع آخر . . . .

عصفور الشتاء المهاجر

نشرت فى « المجلة » ١٩٧٠

الرصد والاستطلاع

.. رفيعة العنق ، مجدولة الضفائر ، تجرى ، بيديها تنبش الأرض ، جلبابها قديم متسخ ، منقوش بورود حمراء كبيرة جف لونها ، حول معصمها غويشة حمراء ، يجيء هواء وديع ، يلمس أشجار التفاح والبرقوق ، يرعش أطراف الحطب فوق بيوت القرية ، يلوى دخان الأفران ، هدوء يحوى الإنفجار المرتقب ، تجرى ، تجرى ، طفلة ، صغيرة ، خطواتها فوق التراب خفيفة ، لا تخلف أثراً ، بصمتها وجريها ولعبها تقول حديثاً طويلاً ، لا أسمعه هنا فى الحفرة ، أراه بخفقه القلب ،

ارتعاش الدم فى الأوردة ، فى الشرايين ، كأنى أركب قطاراً يهدىء سرعته عند مروره بمزلقان مدينة هادئة ، جدران بيوتها نظيفة ، النوافذ مغطاة بستائر هشة فى لون الضباب توحى بما تحويه الحجرات الداخلية من هدوء ناعم منسال خصب ، أما الطرقات فمر شوشة بماء الورد ، أنظرها من وراء زجاج نظيف براق ، فى خطواتها ، نظراتها السريعة الحائرة ، طريقة جريها ، تقول لا بيت لى ، أنا طفلة لا أخرج من باب واحد اعتدت رؤيته كل صباح ، لا يأوينى فراش أحفظ لون غطائه ، رائحة وسادته ، عيناى تتعلقان كل مساء بسقف جديد ، أحياناً الفراغ ، فى عمرها الصغير أرى حوارى صغيرة ، أشم رائحة صابون منبعثة من ملابس منشورة فى الشرفات ، حلقات ذكر يتردد فيها اسم الله ، ذوبان الوجد ، نزهة غروب ، هنا ، حواف الحفرة ، خنادق المواصلات ، أكياس الرمال ، مزاغل الرؤية ، كمر الحديد يتخلل أسقف الدشم ، تجرى من جديد فأرى نفسى طفلا صغيراً فوق عجلة ساقية خشبية محملة بالقواديس يتدفق منها الماء ، أصغى إلى دقات مدخنة وابور الطحين ، هى ، هى ، لتركيروسين يضىء المصابيح ، يشعل الوهج فى الأفران ، فى صيحتها ، خروجى الصباحى إلى كتاب القرية ، رائحة المياه فى ميضأة الجامع ، الذكريات ملمس الجباه لحصير المسجد ، أسمع صوتها فيترقرق حزنى إذ ينحنى صوت الرجل المسن ، وفى برد الفجر يجىء من فوق المئذنة ، أو فى

فراغ الجامع ، بعمق ، ينفذ من الجماد ، يحلق عند الأفق « علم الإنسان ما لم يعلم » الفجر يظلل البيوت ، عبير اللبن الرائب ، الرهبان الفقراء يمشون فوق الطرقات الزراعية ، السلام يا أبانا ، الصياح فى الأسواق ، مروق أيام الربيع ، الظهور البطىء لنجوم السماء ، انفلات نجم وحيد يهوى مطروداً ، لو قلت هذا لأصحابى لزعقوا متعجبين .

مجرد طفلة عابرة . . ترى فيها هذا كله . .

أصيح فى وجوههم . .

بل أكثر ، إنها دعاء أمى ، لمسة يدها فوق جبينى .

أسندت منظار الميدان إلى عينى ، امتلأت العدستان بملامحها ، فى عينيها بريق طفولة ، نبش يديها لأكوام القش يثير أياما نائية ، قطعا لم أعشها ، يبعث أيام العمر الأولى التى هجرتنى أنا ، ضاعت منى أنا ، من العريف عوض ، الرقيب محروس ، على ، عادل حكمدار طاقم الهاون ، حتى الملازم سمير ، ها هى تفتح فمها ، ربما تصيح ، تنطق لفظا ، حرفا واحدا تقول فيه آلاف الكلمات ، بوجهها خطوها المتوثب ، تروى ما جرى لحظة بلحظة فى كل يوم مر منذ بدء الخليقة ، تعرف ما تمناه كل حى عاش هنا ، وقعت عيناه على نفس الأرض ، الموت ، الحرب ، الوباء ، هجرة القوم إلى بعيد ، الزرع ينبت رقة ، أمنيات ، زغاريد

أفراح بعيدة ، آهات ليلية مجهولة المنبع ، شيوخ طيبون ، نساء عمرن كثيرا ، أطفال ماتوا قبل أن يولدوا ، مضوا لكنهم تجسدوا إلى أبد أوراقا وغصوناً ، صاحبتي الصغيرة السمراء التي لا أعرف حتى الآن ، من هي ، تنادي كل حي باسمه ، حتى الطير ، النبات ، حجارة الصوان ، أعمدة الرخام من أبوكي يا بنية ؟ لا بد أنه يستمد خبزه اليومي من وقع أنفاسك على ساعديه اذ يحتويك ، همسك عندما تطلبين جرعة ماء ، محروس يدير جهاز التليفون داخل الملجأ ، الرنين متقطع الانفاس ، ربما تهمس لها الأرض بما لا أدريه ، تعرف وجودي هنا ، إنني أرقبها منذ أربعة أيام ، أعرف متى تظهر فوق الطريق المترب في أوقات ما بين الغارات ، لا تجهلني ، تعرف أنني في مثل هذا الوقت ، في بيتي البعيد ، أخاف من رحيل النهار ، يهجرني الضوء ، أتساءل ، هل يجيء وهج السماء من جديد ؟ أخشى نزول الليل وزحفه الخبيث إلى الفراغ ، أشرب شاي العصر ، أنزل ، عند المقهى أرقب الميدان ، أتتبع الرجال والنساء . أسأل عمّا في ذهن كل منهم ، غير أنني لا أقدر على النفاذ فارتد ملوما محسورا مقهورا .

* * *

بريد حربى :

سماء ، تصور ، اسمها سماء ، سألتها . . ما اسمك ؟ لم تجب ، مال رأسها الصغير ، طرف إصبعها بين شفتيها ، رأيت خجل العمر الأول ، صوتها يعبر صباح يوم جمعة هادىء ينام فيه الخلق حتى ساعة متأخرة ، يوم لم يعرف ضجيج الحرب أبدا .

اسمى اسمى سماء . .

فى خطاب قديم أرسلته اليك آخر شهر من شهور الشتاء ، قضيناه فى موقع آخر بعيد ، تخفيه أشجار ما نجو ، حدثتك عن عصفورة صغيرة ، ضئيلة ، لونها أسود كمياه ترعة فى ليلة بلا قمر ، لكن منقارها الصغير ، حبة القمح ، الشعير ، الارز ، لونه أبيض ، أيضا ذيلها ، خطوها ، وثبات رشيقة ، التفت إلى ، كأنه يصحو من غفوة فجأة ، قال ، عصفورة غريبة ، لحظة صمت ثم قال ، ربما لا يوجد فى مصر كلها الآن إلا هذه ، عرفت ياصاحبى أن أسرا عديدة لا أول لها ولا آخر جاءت أول شهور الشتاء من آخر بلاد الدنيا حيث الشتاء لا يحتمل فى أطراف العالم ، أسراب لا تراها أنت فى المدن ، إنما تجىء إلى الحقول ، أشجار المانجو ، الجزر الصغيرة المتباعدة فى بحيرة المنزلة القريبة ، غير أن هذه العصفورة بالذات لسبب ما ، لا أعرفه ، يجهله الملازم سمير ، كل من رآها ، أنت أيضا ،

تخلفت ولم ترحل ، بقيت وحيدة بعد عودة أصحابها ، لا بد أن علم دراسة الطيور أطلق عليها اسما لابد أنها تنتمى إلى نوع ما ، فى أى بلدة عاش ، أى خصائص تميزه ، أيضا عمرها تختلف عن عمرنا ، كم ؟ ومتى تدركها الشيخوخة ؟ كيف تموت موتا طبيعيا اذا لم تصبها رصاصة صياد ، سوادها هل يعرف المشيب ، عيناها الصغيرتان ، كيف تبدو الدنيا من خلالها ؟ انعكس فيهما جليد ، ثلوج ، عبرت بحارا عريضة ، مشت فوق بيوت منحدرة السقوف ، حول كل منها حديقة صغيرة ، مراكب صيد السردين الصغيرة ، مدن عائمة ، يستطيع الملازم سمير إمساكها فهى تبدو متعبة ، ربما طاش عقلى ، اكسر ساقها بطلقة ، تجىء الينا أسيرة ، غير اننا لم نمد يدا ، رأيناها مرة ، ثم ثلاث مرات ، خلال غارة طويلة بدت بلا نهاية ، حطت عند حافة الملجأ ، لحظة مقدارها غمضة عين ، طارت ، ضاعت تماما ، منقارها ياصاحبى التقط غذاءه من دمى ، ذكرتنى هذه العصفورة مثلا بك أنت ؟ بالقرى ، بالمدن ، الهدوء ، والضجيج ، المسافرون الأغراب ، عازفو الآلات الموسيقية فى الفرق الريفية المتجولة عبر الموالد والأسواق ، الطائرات ، انبثاق الدوى من أفواه المدافع ، كله ملخصا فيها ، ربما وقعت فى فخ ، أطلق عليها النار ، اغتالتها الأيام الجافة الحارة التى فشلت فى الهرب منها .

تذكر أنني حدثتك في ليلة بعيدة عندما سهرنا في مقهى صغير أول شارع محمد علي ، قلت أنت انه أعادك إلى زمن بعيد لم تعشه ، كل شيء فيه ، المقاعد والمناضد والزبائن ولمبات الإضاءة ، ترجعنا عشرات الأعوام ، لا يمكن أن تنسى ، طبعا لم تنس ، في عمري الأول الطفل ، أمسك طرف جلباب أمي ونمضي إلى السوق ، وابور الطحين ، ماكينة المياة ، دائما حتى في الجبانة ، أرى الخضراء ، تجيء إلى بيتنا ، تلق مغلاق الباب ، تعطيها أمي رغيفا شمسيا ، تردها عنا ، تقول أمي إنها بنت ضائعة بلا أب ولا أم ، لو اختفت لا يسأل عنها أحد ، تروح ، تجيء ، لا يهم ، كنت صغيرا لكنني تمنيت لو تزوجت الخضراء ، من أجلها سرقت حبات الدوم من صومعتنا ، الترمس والخبز ، ضربتني أمي ، آخر مرة رأيتها عندما جئنا مصر لنقيم مع أبي ، واقفة بجوار تكعيبة البوص فوق الجسر ، قالت لأمي ، مع السلامة يا ست ، صوتها يدمع أي والله يدمع ، قالت بسرعة . . الله يسلمك يا خضراء ، في الحلزونة سمعت أمي تهمس ، ربنا يستر طريقنا آخر ما نشوفه من البلد ، نشوف الخضراء ، في مصر ، قلت ، نفسي أشوف الخضراء ، قالت أمي ، والله ما أنت نافع ، لا تذكر من البلدة إلا بنتا ضائعة ، بكيت ، بقيت أتوقع رؤيتها خلال لعبي في الحارة بعد أن تجرأت وصاحبت عيال المدينة ، في طواف حول مقام السيدة نفيسة ، الست فاطمة النبوية ، ربما رأيتها عند المقام ،

منحنى حارة ، تطلع من قبو ، تنزل من عربة عندما قالت أمى إنها بلا أب ، بلا أم ، حرت كيف يعيش طفل بلا والدين ؟ وهل يوجد فى العالم طفل لا أب له ولا أم ؟ تقريبا يا قابيل عرفت كيف جاءت الخضراء ، كيف عاشت وحيدة مقطوعة الجذور ، أوشك فى لحظات كثيرة هنا على استرداد طفولتى ، أدنو منها ، مع يقينى أنها وهم ، لم أعشها وإلا قل لى أين هى .. ؟ آه .. أين ذهبت ؟ أجبنى يا قابيل .. حتى خلال قصف المدفعية ، دانات الفوسفور التى تحرق حشا الصمت ، تقلبه ، تومض سنين عمرى الأولى فجأة ، تجىء براقة مشعة لها وهج ، لكنها تضيع فى لمحة ، عندما رأيت سماء . كذبت نفسى ، لم أمر بمثل عمرها أبدا ، أبدا « سماء » ستظل على حالها طول العمر ، لن تشيخ أبدا ، سماء يا مصطفى لو مرت طول اليوم ببيوت القرية ، لن يقلق عليها قلب ، لن تتردد صورتها فى ذهن أب أو أم ، لن تسمع صوتا يدعوها لتناول طعام .

* * *

قطاع :

يتوهج الفليرز ، فى البدء قبضته ضوء ثاقب ، يحرق الليل ، يشعل اللون البرتقالى ، يعرى الظلام ، يكشف ما خفى ، ينشر الوهج اللزج ، يشد العيون ، أرقبه ، انطفىء ، انطفىء ، كن بردا وسلاما ، يضيع ،

يعود من جديد ، يجرح صدر الليل ، يثقب سقف العالم القاتم ، لا نرى الطائرة نفسها ، غير أن الفليرز النارى كاشف الطرقات والأمنيات والدشم ، مهلك الامهات ، مبيد الأجنة فى الأرحام ، يقول أن جسما معدنيا يطير متوثبا متلولبا متقلبا ، ضبع جائع ، ينبش الكون بحثا عن سماء ، تخرج الدانات من مدافعهم مكتوب فوقها ، سماء ، سماء ، الهاون الثقيل والخفيف مقصده هى ، الهاوزر ، الشظايا ، النابالم ، الألف رطل ، من يأتى بالطفلة ابنة الأربعة أعوام . سماء ، حية أو ميتة ، له ملك الأرض ومن عليها ، من يصيب سماء إصابة مُبَاشرة تخرس أنفاسها ، تقتل طفولتها ، له الأمان ، له السلام ، نعطيه كنوز الذهب وصوامع الفضة ، أخفيناها فى ركن قصى من ملجئنا الحصين ، أعددنا لها فراشا صغيرا تتمدد فوقه ، الآن لا تفارق الموقع ، تطارد الجرذان ، لا تخافها ، فى الهدوء تحكى أقاصيص صغيرة كذوائب ، حلية فضية ، يردد محروس ، الأطفال أطهر خلق الله وموقعنا آمن ما دامت سماء فيه .

أقول ، أخاف عليها ، عندما صاح الملازم سمير .

بلغ عن حاضر . .

يرد الحكمدار . .

تمام يا أفندم . . جاهز الضرب . .

ترتج ، تنشق الأرض ، تبدل السماء بسماء غير السماء ، تولى القذائف مطرودة من أفواه المدافع . .

بلغ عن حاضر . .

يرتجف الهواء ، يحترق ، مطواة هائلة فى الفراغ ، تشطره ، أزعق . .

ادخلى الملجأ يا سماء . .

يرتد المدفع . .

اضرب . .

فوق صندوق آخر تقف ، يداها وراء ظهرها ، عمرى الرقراق البكر الفرح ، الايام النقية ، فى همسة زمن تولى ، تنفى إلى بعيد .

ادخلى الملجأ . .

لا تسمع ، ابتسامة العمر الأول ، دقة واحدة حزينة لساعة كبيرة ، بندولها يهتز فى بهو منزل كبير ، قديم بلا أصحاب ، سماء ترقب الدانات تخرج من الصناديق ، الدانة فى حجم طفل أكبر منها بأربع سنوات .

تمام أفندم . .

اضرب . .

الرأس الصغيرة تميل قليلا ، تخلق لعينيها زاوية رؤية مختلفة تنفض يديها ، تنزل ، تسند ظهرها إلى الصندوق ، كأنها ترقب أمها الجالسة أمام الفرن ، تحمى الوقود ، تدخل أقراص العجين إلى الوهج ، تنتظر خروج الارغفة الساخنة ، رائحة أواق الفخار ، سماء تجرى ، تحمل الحطب ، تحلب عنزة ، تسقى دجاجا . عندما رحت أشير إلى أجزاء المدفع ، سألتها ، عرفت اسم المدفع .. آه .. أطبقت شفتيها على اصبعها ، قالت .. الهـ .. الهاون ، خرجت الحروف رقيقة ، ممدودة ، تقطر طفولة ، رقة ، فرحا خفيا ، مناجاة الأشياء ، لو أنى أنجبت طفلا . سيلفظ الاسم بنفس الطريقة ، يتراجع برأسه الصغير تماما كما فعلت ..

اضرب ..

عبوة كاملة ش . ف .. فاصل عشرين ثانية بين القذيفتين .

اضرب ..

يهوى علينا الليل ، ترميه سفن مسافرة فى الفراغ الكونى ، مجهولة لا نراها ، لا ندرى مقصدها البعيد ، يسيل سواده لزجا فى لون العسل ، يمضى النهار ويجىء الليل يضيع النهار ويتسلل الظلام زائرا غريبا ثقيلا لا نرغبه ، نهمس تحته ، لا تعلو أصواتنا ربما دل صوت على مكان صاحبه ، لا نشعل لهبا أو سيجارة ، لا تبرق عقارب ساعة ، كلها

علامات تدل الهلاك الطائر ، تلمسنى نظراتها الصغيرة ، تنساب عبر الحفر ، فوق أكياس الرمال تنشر فرحا خفيا يلون أيامنا كاكية اللون ، فى صباح طازج ، ريقه حلو ، كالافطار بالزبادى على شاطىء ، هدوء يلغى الحرب ، ينفى الخطر ، الدم ، الموت المرتقب ، اضرب ، حاضر ، الحرائق ، نباح الكلاب المذعورة قبل مجىء الطائرات بثوان ، بحثها عن الملاجىء ، التصاقها بأقرب إنسان ، تتلمس فيه الامان ، أى أمان ؟ فى هذا الصباح أرسل قائد الكتيبة يستدعينى ، أمسكت يدها ، عبرت معها الحفر ، كأنها ابنة حانية تحمل طعاما إلى أبيها فى أقصى الحقول ، مررنا بدشم خالية ، مواقع هيكلية ، مرابض مدافع ، صاح أصحابى الجنود ، أعطاها حسين علبة توفى صغيرة ، بدت خجلة ، دارت حول ساقى ، تخفى نفسها ، عبرنا بيوت القرية القريبة الفقيرة ، أشجار خوخ ، نباتات محروقة بالفوسفور ، لم تسألنى إلى أين نمضى ؟ اذ تنام أراها ضئيلة الجسم ، أكثر مما تبدو عند يقظتها ، ضعيفة ، رقيقة ، نزلنا ملجأ قائد الكتيبة ، ضربت الأرض بقدمى ، رفعت يدى بالتحية . . كأنها تسأل ، لماذا أفعل ؟ قام سيادته ، دار حول المكتب البسيط تلوثه بقع حبر جافة قديمة ، مقشور الطلاء ، ربما صاحبه أحد مدرسى القرية .

اقعد . .

ترددت ، رأيت الود فى ألفاظه ، سماء تدير عينيها فى الملجأ الخفيض المطبق على الأنفـاس ، الجدران المبـطنة بـالأسمنت والأحجار وأكيـاس الرمال ، من طبق صاج أبيض به ثمار مشمش ، تناول حبتين ، واحدة لها ، دستها فى جيب ثوبها الصغير ، ابتسم سيادة الرائد . . كليها الآن . . هنا كثير غيرها . . كليها الآن .

* * *

بريد حربى ـ ١٤ ـ

. . عندما طلبنى سيادته مضيت اليه ، العصر يحتل الفراغ والرمال والدشم ، راديو صغير فوق المكتب يبعث أنغاما رمادية اللون ، آتية من مكان ما ، بالتأكيد حجرة مغلقـة مبطنـة بعيدة جـدا عنا ، أصغيت إلى الصمت المثقل برائحة الرمال ، قلت له انها يتيمة الأب والأم ، قلت ان والدها مات فى غارة ٢٧/٤ التى أغارت فيها ستـون طائـرة على المـوقع القريب . أما أمها فغادرت الدنيا بعد مجىء سماء إلى العالم ، قلت ان أباها جاء إلى القرية مهاجرا من الصعيد ، فهو ليس من أهلها الاصليين ، حتى امرأته من قرية ناحية بلبيس ، انها بلا أقارب هنا ، يقولون ان خالها يعيش فى أبى قرقاص عاملا بمصانع السكر ، لم يره أحد أبدا ، أطرق سيادتـه وقال ، ربما لا وجود له ، قلت ممكن جدا يا أفندم ، قلت ان أباها عمل

أغلب وقته حمالا ، يستأجره ، أصحاب الزرع والأرض هنا ليخلع نخلة من جذورها ثم يشقها نصفين ، قلت ان الحظ يسعده أحيانا فيستأجره بعض الناس ليجمع ثمار البرقوق والمشمش ، يعرى تعريشات العنب ، قلت . . نعم ، عاشا بمفردهما فى آخر بيوت القرية ، هل تعرف سيادتك عشة البوص التى تقابلك عند دخولك القرية من ناحية الجسر الخشبى الصغير فوق الترعة ، ليس الجسر الكبير ، إنما الصغير ، هز رأسه . . نعم . . بالضبط أعرفه ، وفى الخارج شيئا فشيئا يقترب المغيب ، لم أر ذهاب الشمس إنما أحسست بابتعادها ، هجرتها للعالم ، حرت فيما يفكر ، فى المرة السابقة ، عندما جئت ومعى سماء ، أخرج حافظة أوراق بنية اللون من جيب سترته ، فيها بطاقات أشخاص ، ودفتر تليفونات ، قصاصات ورق ، طابع تمغة لمحته ، قلبها ، أبرز صورة طفل صغير ، تأمله قليلا قبل أن يمد يده بالحافظة ، يطل من خلالها طفل فى الثالثة ، قل الرابعة على الاكثر ، شعره يغطى أذنيه ، فى عينيه تساؤ ل ما وكأنه ينتظر إجابة لن تأتى ، قال أتعرفين يا سماء هذا مصطفى ابنى ، أبديت اهتماما ، وكان لا بد أن أبدى اهتماما ، لكننى عندما رأيت عينى الطفل تمنيت لو أطيل النظر اليه ، قرب الحافظة من سماء ، قال . . ابنى . . . ابنى ، اعتدل واقفا ، ضحك ، هل أزوجه لك ، أغمضت عينيها ، انتفخ ركن فمها عندما مدت لسانها داخله ، التفت إلى . . تصور أن عينيها فى لون

عينى مصطفى بالضبط ، كل ما أتمناه أن أنجب أختا لمصطفى ثم أكف أليس هذا حسنا ، هززت رأسى ، بالضبط ، عندما وقفت أمامه بمفردى ، حرت فيما يفكر ، أقسم لك أن رأسه يشتعل . . لا ، ليست أحزاناً ، إنما . . ماذا تسميها أنت ، المشاعر هنا تختلط لها نوعيات خاصة ، ربما تذكر مواقف بعيدة ، قريبة ، بقايا أنغام ترسبت فى أعماق النفس ، ربما صيحة طفل ، ضحكة مصطفى ، كلمة قيلت من عابر مجهول ، نظرة من جندى ذاهب إلى الأبد ، اختفى ، لم يبق منه غير حديث متباعد يتناوله أحياء معدودون يذكرونه ، وبقايا مهمات ، أمور ، صور صغيرة يذكرها ، تمر به ، تتراءى له ضئيلة لكنها حارة كنيران النابالم ، احتراق الجلد الحى واللحم ، ربما قلت فى نفسك ، لماذا ؟ أنا شخصيا لا أدرى ، إنما أثق من هذا ، المهم ، أنه قال ببرود ، عندما تكون الحالة هادئة . . تعال مع سهاء . . أراها دقيقتين . . أرى عينيها بالذات وترجعا . .

* * *

« أمر » :

تقصف الكلمات .

تحجب الشمس وراء غيوم ، يفسح الطريق لحداد عفى أبدى الظل نار محرقة ، المياه فى الافواه كاوية .

توقف النافورات اطلاق مياهها فى الميادين المتباعدة .

ينسل التيار من الأسلاك ، تخرس الأضواء .

لا زعيق ، لا عتاب أصدقاء ، لا صيحات وداع .

أو أحزان عشاق تبوح عن نفسها . .

مياه الانهار تصير بنية اللون ، جيرية القوام ، ترسل إلى الفراغ عطنا ونتنا

الشلالات تشل ، الينابيع لا تتدفق .

يوقف المسافرون الفرحون بالرحيل إلى الجبال المغطاة بالثلوج ، حيث الفنادق هادئة .

النساء جميلات مستباحات ، والعيش نعيم طرى .

يفك المسافرون أحزمة الأمان ، توقف المحركات ، تهجر السفن فى عرض البحار .

تخلى المركبات ، يطفو السمك ميتا .

لا فرحة بلقاء ، لا بهجة بعودة الأسرى إلى الديار بعد غيبة أعوام .

يلزم كل حى مكانه ، فى الكون كله ، لا يفارقه قط ، يعلق إلى رقبته قرمتين ثقيلتين من خشب الصفصاف ، يبنى حول نفسه أربعة جدران وسقفاً من الإسمنت الأصم ، يبقى حتى يجف النخاع يروح الدم من العروق .

تقطع الاوتار ، يخرص النغم ، يلقى العازفون آلاتهم ، لماذا الغناء ؟

لا صوت فى الآذان غير حشرجات روح تذبحها الشظايا .

ليفارق الرجال النساء ، النشوة خيانة ، الفرح عهر ، نسيان الهم خسة .

عيون البشر وسط رؤ وسهم فلا يعرف الانسان أمه من أبيه أو بنيه .

يخرج السجناء ، ترفع آلات التعذيب ، تفتح عنابر المعتقلات ما ذاقته سماء ، ما رأته ، فيه آلام الكون المقبلة لمدة ألف ألف عام ، القطن لا يطل من اللوز الاخضر ، تتساقط الثمار ولا يجنيها أحد ، يعيد كل صياد أسماكه إلى البحر .

تتصاعد الاسئلة من النجوع ، الكفور ، القرى ، المدن ، خيام البدو الرحل .

أين راحت الايام التى ضحكت فيها ، لعبت ، خجلت ، ابتسمت ، أطرقت ، بكت ، رقصت ، سألت عن غيبة الأب فقلنا أبوك حتما يعود .

ليسأل طين الحقول ، كيف هوى الهلاك ثقيلا بإترا حادا من الفراغ ، كيف تسمح النجوم ، الأفلاك ، قوانين الطبيعة الخفية ، كيف تحضر من بعدها الحياة ، كيف ، كيف لا يدرك كل حى ما أدركها .

ليسأل نواح الطيور اليتيمة المهجورة من رفاقها ، البكتريا وحيدة الخلية ، دقات وابور الطحين ، صرير عجلات القطار عند التوقف ، الضوء الضعيف المنبعث من مكاتب التلغراف فى الريف ايماءات الجنود عند تقاطع الطرقات العسكرية ، كراسات الصغار ، الحروف المرسومة بالطباشير ، دروس الصباح .

لتنوء الاجسام بهم عظيم يثقل الاعضاء ، تتفجر الارحام بآلام لا يطيقها بشر ، تصطف الحوامل فى الطرقات صفوفا ، يلفظن ما فى أرحامهن .

لماذا يأتى إلى العالم طفل جديد ؟

الظمأ

نشرت فى الآداب ١٩٧١

حتى الهواء كف عن المرور بين الشواهد الرخامية ، لم يبق إلا صوت الحبيب معلقا فى الفراغ ، يعطر الافق ، ينفذ إلى رئتيها ، أوردة قلبها ، كما ينفذ خيط رفيع من ثقب إبرة . .

أمى . . عطشان . . اسقينى . .

لن تنسى مذاق حسه أبدا ، ثقل بضغط كتفيها ، تنظره واقفا بكامل ، ثيابه ، لحظة مجيئه فى الاجازات ، اكتمال الدفء فى صالة البيت ، برؤيته تتبلد وحدتها ، خلاصة ما مضى وما تبقى من عمرها ، الآن تعرف أن زملاءه كذبوا عليها ، تتوه نظراتها فى أشواك الصبار ، الأسماء المنقوشة بحروف سوداء ، تواريخ الرحيل عن العالم ، الآن . .

هذه اللحظة ، تماما ، طلال لم يعد متمددا ، الشهور المنقضية تثق أنها لو
كشفت عنه ، تلقاه على حاله ، فى حدقتى عينيه آخر نظرة ، أما الدماء
فحارة طرية بهجة أطفال لم تجف . . من فوق الجدار تناولت الابريق ،
تدفع عنه الظمأ ، حراشيف السمك التى تغطى الحلق والفم ، قال
زملاؤه انه رحل مرتويا بلا أوجاع ، رمت قليلا من الماء فوق التراب تطهر
فم الابريق ، ألصقت أذنها بسطح الرخام البارد ، الشتاء يكثف البرد ،
تقف وحيدة فى كهف جليد ، أصغت ، أصغت ، تسمع نبض الروح
الواهن ، ستة شهور يؤلمه الظمأ ولم ينطق إلا اليوم ، الحبيب لم يشأ
إزعاجها ، ناداها بحس خفيض فيه خجل واعتذار ، عيناه تـزحمان
المكان ، ينظر اليها من طوب السور الاحمر ، عند الركن الأيمن تراه طفلا
يحبو ، قالب سكر ، ثمرة برتقال يرتدى البنطلون القصير ، تمسح الخيط
اللامع الواصل بين فتحتى أنفه وشفتيه ، تحت شجرة الصبار الخضراء
المؤلمة لعصب النظر ، رأته جالسا فى شرفة البيت والوقت عصر ، حوله
هالة من غمام شتوى فيه أسرار ، يقول انه شرب الشاى فى أماكن كثيرة ،
لكن كوب الشاى الثقيل حلو المذاق ، الذى يشربه من يديها لم يذق مثله
أبدا ، ينام دائما وقت العصر ، اذا لم يغفُ ولو حتى نصف ساعة ، تحرقة
عيناه الليل بطوله ، الآن ، تسمع وقع أقدامه ، يملأ المكان ، لو رحلت
إلى طريق خال أو مزدحم تلقاه ، فى محطات السفر ، قوارب النزهة ، عند

الجسور ، حديثها اليه ، وصله ، سمعه ، ياه . . وكيف تشك فى هذا ، عمره هنا ، طفلا رأته ، شابا عفيا ، ضاحكا ، باكيا عندما امتدت يدها عليه مرة واحدة ، هل تصدق أنها ضربته ذات يوم ؟؟ رأته فى الثياب العسكرية ، يدفق دم الشباب ، ثم صندوقا ملفوفا بعلم ينزل بطيئا فى هواء مثقل بنوبة رجوع فادحة ، منبعثة من بروجى نحاسى ، الآن تسمعه لاهثا . . أمالت الابريق . . إشرب يا خويا . . اشرب يا حبيبى . . اشرب يا رجلى . .

يبكى الابريق ، تسقى الفجوات المستطيلة الصغيرة بين ألواح الرخام . ينام ، اذ يسمع خطواتها فى عمق الليالى ، تعبر الصالة إلى المطبخ ، يصيح . .

اشرب . . اشرب يا ماما والنبى . .

لماذا قالوا انه لم يظمأ أبدا ، فى الفراغ العتيم يومها ، فى خفق البيارق السوداء ، فى النواح كادت تهلك ، احتضنتهم واحدا ، واحدا ، أحمد ، إبراهيم ، حسن صاحبه زميل المدرسة والطريق ، سهر الليالى والتدريب ، الكلية ، سألتهم ألا يتركوها ، ألا يدعوها وحيدة ، ما تخافه ، ترهبه ، نزول الليل عليها ، خطو ساعاته فوق روحها ، تعلم ، تعى ، ان العالم كله خلا من طلال ، صحيح يا حسن لم تمض

روحه معذبة ؟؟ هل ذكرنى ؟؟ متى ، متى بالضبط ؟؟ آخر كلمة قالها ركن العمر ، تعريشة البيت ، سند الأيام القاسية ، يهمها جدا أن تعرف آخر كلمة ، كيف نطقها ؟؟ وإذا لم ينطق لسانه فما نوعية الصوت الذى صدر عنه ؟؟ ما الذى كانت تفعله ؟؟ تفكر فيه وقت انفجار الهلاك حوله ؟؟ قال حسن ان لسانه لم ينطق إلا بذكرها هى ، ناحت ، مضغت الحجارة ، عمرها تمهيد طويل لهذه اللحظة ، غير أنها فى أول ليالى الوحشة ، جاء فى اغنية قديمة ترامت اليها من بعيد تنعى أحبابا محملة بالبوص والحطب ، غرباء يعبرون الجسر ، يركبون جمالا محملة بالبوص والحطب ، غرباء الدار ، يرحلون من نجع إلى نجع ، غناؤهم أبكاها طفلة ، تبكى ، دمعها يفيض منه النهر ، تنوء بحمله السماء ، يزحم بلدتها فى حشا الصعيد ، يقوض أساس بيوتها ، طلال سافر إليها مرات ، يرى جدته ، الأقارب ، خاله يجىء كل عيد أضحى ، غروب الوقفة ينتظره طلال ، يقول انه يشم رائحة الخبيز فى الأفران ، القمح فى الصوامع ، يسمع وابور الطحين ساعة الصباح لحظة رؤيته خاله ، ترقبها فرحة ، لا بد أن يسافر طلال ، يمشى معه فى البلدة ، تضرب صدرها بيدها . .

يحسدوه يا حماد يا خويا . .

يلوح بيده المطلة من كم جلبابه الواسع ، الناس لن تسعها الفرحة عندما تراه ، ثم يقول بعد صمت يوش فيه الموقد . .

أربى لك رابحة وأجوزها لك . . اجدعن . .

يا ريت يا خالى . .

يصفر الهواء ، لا بد أنه يرى نفس الصور ، ما تراه هى يبدو له ، عيناه بصره فى الدنيا ، شظايا الأيام البعيدة يدهسها الآن قطار وحشى ، يلوى القضبان ، يغرق فى الترع العميقة ، بعد ذهاب أصحابه والنساء ، والاقارب ، ليس معقولا أن يقضوا بقية العمر معها ، جاءها طلال بدرا منيرا ، وريحا طيبة ، وغناء شجيا ، وشمسا تسعى بالدفء إلى عمرها ، فى عينيه لون الطفولة ، نادته ، زارها فى القرية ، قهوتها الصباحية ، الماء الذى يذهب بظمئها ، البرودة المخففة عنها آلام القيظ ، لم يقل لها طلال كفى عن البكاء ، لم يفه حرفا ، فى هذه الليلة ترامى اليها عويل قطار بعيد ، ربما ديزل يعبر الخلاء خارج المدينة ، انقبض قلبها ، نادت امرأة على ابنها من شرفة علوية ، أدركت أنها وحيدة حتى القرار ، بلا طلال . . صاحت . .

أنا ضايقتك فى حاجة عشان تسيبنى بدرى . . بعد العمر دا كله تروح منى . .

لو تمشى وراء أحمد ، حسن ، زملاءه ، تبحث عن الذى شيع الهلاك إلى نجم الصباح وحيدها ، شخص بعينه لا بديل ، تذيقه ما رآه رحيق

عمرها ، اتسعت ابتسامة طلال ، يتمنى لو يمد يده ، تقدمت منه ، تقدمت ، لكن المسافة كما هى ، جدران البيت وحوش تزحف اليها ثلجية النظرات ، كان يغيب عنها شهرا ثم يجىء أربعة أيام اجازة ولا تفجعها الوحدة ، تعرف أنه يضحك فى مكان ما ، يرقد يشرب شايا ، يأكل رغيفا وشريحة جبن ، لكنه فى لحظة بعينها ، بعد أيام محددة تحسبها على أصابعها أثناء شربها القهوة أو عندما تطبق الوسادة على رأسها ، لحظات ما قبل نومها ، حتى يجىء الاحد أو الاربعاء ، السبت ، يطرق الباب ، عندما طلع صباح أول يوم لا يتنفس فيه طلال الهواء ، خرجت بمفردها ، تنوء بحمل البيوت ، تمضغ ألواح الزجاج وأسفلت الطريق ، لا تصدق أن شيئاً جرى ، يومها عرفت عم اسماعيل الحارس ، وامرأته ، ألقت السلام على طلال ، قعدت إلى جوار الشاهد الرخامى الجديد ، فى اليوم الثالث تساءلت مفزوعة ، كيف نسيت الشاى ؟ جاءت بموقد الكحول ، فى نفس الميعاد توقده ، تملأ الأكواب ، السكر تذيبه بتأن ، تسقى عم اسماعيل امرأته وعياله ، تروى شاهد الرخام ، أحيانا تقعد امرأة عم إسماعيل ، تحكى لها ، تسلى وحدتها ، اذ تمضى إلى السوق ، تولى وجهها ناحية طلال ، تسأله عن حاله ، تحكى له كل ما جرى خلال يوم مضى ، سفر حسن افندى على إلى اسيوط ، روحية جارتهم وتليفونها الجديد الذى أدخلته ، وزعت نمرته على الجيران كلهم ، تتحدث فيه بصوت عال قرب

النافذة متباهية ، مجيء نجمة شقيقة صباها من البلدة ثم سفرها بعد يومين ، خروج سكان البيت مع بعضهم إلى السينما يوم الخميس ، مدرس جديد يتردد على مديحة ابنة أم صبرى ، قبل نطقها اسم « مديحة » يتسلل اليها تردد ، تخاف أن تذكره بها ، فى الشهور الأخيرة لا حظت أنه يسألها كثيرا عن مديحة ، هل تراها أثناء غيابه ؟ قالت له . . والله مديحة بنت حلال يا طلال . .

سكت ، ضحك ، أم صبرى نفسها أحست ، قابلتها فوق السلم ، سألتها عن صحتها وعن . .

ازاى سى طلال . . ربنا يحرسه ويحرس اخوانه . .

والنبى بييجى أربع أيام بس . . بيفوتوا زى الهوا . .

لو يفضى نفسه كل يوم نص ساعة . . ويذاكر لمديحة انجليزى . .

أبدت اشفاقا ولم يغب عنها مقصد أم صبرى ، ثمة قلق راودها ، لكنها انتظرته عند عودته ، لحظة تغييره ثيابه ، بجرح دفعته فى صدره . .

عندى أخبار حلوة . . تفرحك . .

أصغى ، لم يفتها تسلل الدم إلى وجهه ، ياه . . لا تذكر ما قاله ، نسيت ما قال ، الانفجار الوحشى يحرق الزهور ، يغرق مياه الشرب

بزيت مسموم ، تعرف انه يخجل ، تخاف أن تنقل اليه أخبار مديحة ، ترتجف اذ توشك على ذكرها ، ربما تألم فى رقدته ، خاصة ، الخبر الذى سمعته من امرأة عبد الهادى بائع البيبسى كولا عند الناصية . . ما دريتيش يا ختى . . شعراوى اللى بيشتغل فى الجمرك اتكلم على مديحة . .

سهمت ، تجرعت دواء مرا . .

وأهلها قالوا ايه ؟

يا ختى . . حد لاقى يجوز بناته اليومين دول ؟؟؟

جاءت اليه ، النهار كله تبكى ، ربما سأل عن سر حرقتها ، تخاف مواجهته ، ترى فى عينيه ارتباكاً عند ذكر مديحة ، آماله فيها ، هى تحبها ، تود لو رأتها باستمرار ، ألم يذكرها طلال آلاف المرات ، لكن . . هل يخفى عليه شىء ؟؟

فى قتامة العصر ، وقت اعداد الشاى ، همست للخلاء . .

ما علهش يا طلال . . أنت أحسن منها . .

سمعته يقول مرتجفا . .

وذنبها ايه يا ماما . . ربنا يسهل لها . .

سكت ثم عاد صوته هامسا ، متعثرا ، طفلا يحبو .

ما فيش أى حاجة بينى وبينها . . أنا حتى ما خرجتش معاها مرة .
تلقاها مش عارفانى . .

عاطت بصوت انتزع امرأة عم اسماعيل ، جاءت ، احتضنتها ، وعندما أخبرتها ناحت امرأة عم اسماعيل نفسها ، الآن . . تغرق السماء فى لون هو خلاصة الأحزان ، فرغ الابريق من الماء ، تسأل الفضاء والجدران والاشجار والنبات النامى فى الفناء ، كيف لم تعرف ظمأه إلا اليوم ؟ كيف ؟ شهور كاملة لم تسقه جرعة ، صحيح انها تجىء بالشاى والافطار وطعام الغداء ، خاصة السمك الذى يحبه ، توزعه على عم اسماعيل ، فقراء قايتباى ، لكنها لم تسمعه إلا اليوم ، آه يا عذاب لسنين ، يقوم طلال كل ليلة ، يخرج إلى الطريق ، دماؤه لم تجف ، روحه ظمأى ، يسأل المارة ، عابرى الطريق جرعة ماء فيخاف منه الرجال ، يفزع الاطفال ، تسقط الحامل جنينها ، لا يقدم له مخلوق جرعة ، يزعق وتنام هى ، كيف تفارقه عند غروب كل يوم ولا تمضى الليل بجواره ؟ طلال شرايين كبدها ، ظمأى ، طلال نجم بعيد خافت يرتعش بردا فى سماء مهجورة ، لا شمس فيها ، طلال نهار شتوى عمره قصير ، فرحة طفل لم تتم ، ضياء عين انطفأ ، هوى الابريق من يدها ، دارت بين شواهد الرخام ، الاسماء وتواريخ الرحيل عن الدنيا ، أبدا لا يؤنس

وجدته إلا هى ، تبحث عن ابريق مملوء ، أبدا لا تلقى ، أطل غلام من البوابة الحديدية . .

والنبى شوية ميه يا حبيبى . . شوية ميه أخوك عطشان . .

خاف الغلام فاختفى ، خرجت إلى الطريق ، الهواء ملىء بالتراب كالدم الجاف ، طلال حولها ، تسمعه الآن ، تشرب صوته الظامىء ، انها الأرض وينابيعها ، شلالاتها ، مساقط المياه لن ترويه إلا إذا اندفقت من يديها هى ، تمر امرأة ضاربة ودع ، نادتها ، لم تسمع ، الطريق خال ، الاصوات ولت ، لون السماء يضيع ، امرأة عم اسماعيل ، عم اسماعيل ، لا أحد ، كيف ينقضى العمر بسهولة ، كيف ؟ تعبر الصفوف إلى طلال متعثرة الخطى ، تسمع نبض حنجرته ضعيفا واهيا . . آه لو تمطر السماء ، تمد الكفين ، تجمع بهما جرعات تسقى الحبيب ، ان ولت عنه ثانية ، رجفةُ عين ، فهى هجرة أبدية لا تطيقها ، ظمأ يدرك الجنين فى الحشاء ، لن تمضى حتى يرتوى ، رقدته يبطنها الشوك طالما يعذبه الظمأ ، مالت . . احتوت الرخام بين يديها طفلا باكيا غريب الأبوين . .

المغول

نشرت فى روز اليوسف يناير ١٩٧٠

يا أهالى مدينة أوترور . .

نزل جند المغول من الجبال . .

وأحاطوا مدينتكم

انتبهوا

لا يخرج أحدكم ولا يدخل

ساعدوا جنود الشاه وحامية المدينة

باذن الله سيردون الخطر . .

انتبهوا

وما النصر إلا من عند الله

* * *

خطا خارج التجويف الضيق ، رجال قصار ينظرون اليه يمتد الممر خلفها فى النهاية ثلاث درجات ، تقدم أولهم بيده قطعة قماش مبتلة أحاط عينيه بها أمسك ذراعه أين يقف الآخرون ، دفعته اليد الغليظة . أى الاماكن فى البرج تدوسها قدماه ، برق ضوء أزرق طارت نجمة صغيرة داخل فراغ أسود هلامى ، أسرعت خطواته ، أثر اللحم الذى صفع عنقه ، يسرى تحت جلده زجاج مبشور ، كاد يقع عندما توقف فجأة ، اصطدمت قدمه العارية بحاجز . .

اطلع . . اطلع . . واحد . . اثنين . . ثلاثة . . اجرى . . اجرى . .

الشيخ فى وجه الحجرة ، الصبيان يضع كل منهم لوحه الخشبى على قدميه ، كان يجلس دائما فى نهاية الغرفة إلى جانب النافذة المطلة على الطريق ، ينظر من خلال القضبان ، من بعيد ، فوق البيوت ، يعلو البرج

جسم حجرى نحيل ، يعلو صوت الشيخ ، ولا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟؟

صباح أوترور مبلل بالندى ، البيوت تتنفس ربيعا فى لون الكهرمان ، أوز يعبر الطريق ، الرجال يخرجون ، يتطلعون حولهم ، نسى بعضهم أن يقول لجاره . . صباح الخير . . الرعاة لم يخرجوا إلى المراعى ، تجار يقفون أمام خان المدينة ، كان من الضرورى أن يرحلوا صباح اليوم ، خرج مولانا علاء الدين ، وقف عند مدخل المسجد .

* * *

انزل . . انزل . . لا . . تضربوه . .

* * *

الحشائش الصغيرة الخضراء فى قلب المدينة ترتجف لكثرة ما يضحكون ، يسخرون ، يظن العجائز الجالسون على مقربة انهم يسخرون منهم ، ينتهى أحمد سلار من تقليد بعضهم ، يقف صبية صغار يمصون أصابعهم ، يأسفون لا يستطيعون مشاركتهم الضحك .

اندفع رجل عجوز عارى الصدر ، ممزق الثياب ، وقف فى وسط الميدان الكبير ، الرجال يجلسون منذ الصباح ، يكتشفون لحظة بعد أخرى ، أن المسافة التى يستطيعون التحرك فيها أصبحت محدودة ، رفع

الرجل يده .. صاح .. سينزل غضب الله على أوترور لانكم فجرتم وما راعيتم ذمة ..

* * *

.. لم أكن أظن أن شابا هزيلا مثلك له مثل هذه الاهمية .. انتظروا .. قلت لا تضربوه .. هو سيتكلم .. سيقول لنا كل ما نريده ..

احتكاك الاحذية الثقيلة بالارض الصلبة ، أى الحفر تضم أجسام من أخذوهم من الحشد الكثيف ، يوم الحشر العظيم ، خرج مولانا علاء الدين إلى الطريق ، توكأ على عصاه ، مشى اسماعيل بجواره ، فوق المدينة مغرب أصفر وقتيم ، الليلة لا تشابه أى ليلة مرت من قبل ، من داخل الجدران تسربت إلى الطرقات أصوات النساء اللواتى لم يفارقن بعضهن منذ الصباح ، انتقلت كل منهن إلى الاخرى عبر أسطح المنازل المتلاصقة ، عند نهاية الطريق ظهر جزء من سور المدينة ، لا يبدو الخطر مجسما بل ان واحدا من أهل المدينة لم ير بعينيه واحداً منهم ، لكن هذه الابواب المغلقة تجسد ما يقف وراءها ..

ابعد الشيخ الآن .. ابعده .. لا .. هو سيتكلم ..

* * *

أصغى اسماعيل إلى شمس الدين ، يتحدث عن بلاد تمشى فيها نساء جلودهن فى سواد الليل ، عرايا كما ولدتهن أمهاتهن ، وهناك جزر فى عرض البحر المحيط بها فتيات أبكار كأنهن الأقمار ، شعورهن مربوطة إلى أشجار ضخمة يصحن إذا ما أشرقت الشمس . . واق . . واق . . تبارك الله الخلاق . . يكررن النداء إذا ما لمس القرص الأحمر مياه المحيط ، أصغى اسماعيل ، بدت له بلاد بعيدة رجالها قصار القامة ، المساجد قبابها من ذهب ، مآذنها تطعن الفراغ ، هل يمضى العمر بين حوارى أوترور .

انطق يا اسماعيل . .

أحقيقى يا شمس الدين أن هناك عالم غير العالم ، ناس غير الناس ، مدينة لا يطعن هواءها برج أصم لا يعرف من يعيش بجواره ماذا يحوى « وكم يمضى من الزمن حتى نعبر البحر المحيط » ومتى ترسى المراكب على شطآن نشعر فيها أننا وجدنا حياة غير الحياة .

قال مولانا علاء الدين . .

لو دخلوا المدينة . . لن يجدوا غنائمهم بسهولة . . أتفهمنى يا اسماعيل . .

صاح محتجا . .

لكن أسوارنا قوية يا مولانا . .

* * *

ارتفع صوت آخر ، بارد ، ملمس الحديد لحظة سقوط الثلج وسط الليل ، رائحة عرق لزج تنبعث من ناحية اليد اليسرى .

لا نريد ايذاءك . . أنت ضعيف . . لن تحتمل . . أنت مسكين وتبدو هادئا .

ولست مشاغبا كالآخرين . . آه . .

ــ أنا اسماعيل فخر الدين الرازى . . طالب علم يا سيدى . .

* * *

هواء ساخن خرج دفعة واحدة من صدر قريب ، تدحرج جسم ثقيل ، صفر شيء ما ، أقدام تروح ، تجيء ، كلمات متتابعة من حنجرة قريبة ممزقة مملوءة قيئا ، من أى الشبان الذين لم يمر يوم من حياته إلا وراه . .

ــ هو . . إسماعيل الرازى . . إسماعيل يعرف كل كبيرة و . . صغيرة . .

كان مع مولانا علاء الدين خطوة بخطوة . . أخبرهم يا إسماعيل فتنقذنا . . تنقذنا كلنا يا إسماعيل . . انطق . . تكلم . . أى . . قل لهم . . أى . . آه . . آآآآ . .

* * *

اندفعت امرأة عجوز إلى مولانا علاء الدين ، الصقت شفتيها بيده . كتفاها نحيلتان ، جسمها يرتعش ، ما الذى جرى يا مولانا . . ولدى لم يصل . . صحيح لا أحد يدخل ولا يخرج . . همس مولانا ، عيناه على السور المصمت ، نسوة يرفعن أصواتهن بالدعاء فى مكان بعيد . . .

جاء المغول يا ابنتى . . لا يخرج أحد ولا يدخل . .

* * *

الثالث والعشرون من شهر آرام ، سنة هوكار ، الموافق لمرور ستمائة سنة بالضبط على خروج مولانا وسيدنا حبيبنا محمد رسول الله ﷺ . من مدينة الكفار مكة ، مصطحبا صديقه وصفيه سيدنا أبا بكر رضى الله عنه ، قاصدين المدينة فى هذا اليوم والشمس لم تصل بعد إلى منتصف السماء ، دخل ثلاثة رجال من المغول إلى حجرة حاكم مدينة أوترور المثلثة البارزة من السور ، تطل على الخلاء بواسطة ثلاث نوافذ متسعة من الداخل ، تضيق من الخارج ، نبح كلب من بعيد ، نزل صمت ، أسند

الرجل الغارق فى الزرد ذقنه إلى يده ، . . لم تحترموا سفراءنا فذبحوهم من قبل ، وهذا ليس من خصال الرجال ، فلتعلموا اننا جند الله فى الأرض ، خلقنا من سخطه ، وسلّطنا على من حل به غضبه ، نحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، فتحنا البلاد ، وقهرنا العباد ، وهبنا الله حكم الربع المسكون من العالم ، لا فائدة من المقاومة ، افتحوا أبواب مدينتكم فلم تصمد أمامنا حصون ، ولم تنتصب قلاع . .

* * *

ضحك . . ضحك . . ضحك . . يعلو . . يعلو . . يعبر الفراغ يثقب الجدار من يدرى ؟ هل كان فعلا ضحك ؟ آت من بعد سحيق ، لا بد انهم تسعة عشرة ، يتجمعون عند ناصية بيت منهار ، بقايا خان يتصاعد منه دخان ، يشربون الخمر المصنوع من لبن الخيل ، هل سمع بكاء طفلة . . أنفاس المدينة المكتومة هسيسها يخترق الجدران كأنه من عالم غير العالم ، دنيا غير الدنيا .

كثيرا ما أسند رأسه إلى حافة السرير ، فى الطريق صوت خطوات ، يعودون من سهرة مبكرة ، غناء بعيد من الطريق الآخر للبيوت ، يعلو ، يقاطعه صوت خطوات ، آلة موسيقية سريعة محمومة توشى بجسم راقصة يتثنى ، تتأوه امرأته فى البيت المقابل ، أو المجاور يصيح رجل يا رب . .

يغمض إسماعيل عينيه ، لكم تبدو أصوات الليل غامضة مجهولة ، بل مجيء النهار يصيح بائع اللبن ، نادى رجل يخرج من بيته القريب ، يا ساتر يلين الفراش تحت جسمه ، بالقرب من السرير يستقر كوب لبن أبيض دسم مملوء إلى الحافة ، محلى بالسكر ، لا تنساه أمه أبدا تصايح صبية صغار يذهبون إلى المسجد الكبير ، يقرؤ ون ويكتبون على يدى مولانا علاء الدين ، تماما كما كان يفعل منذ خمس عشرة سنة ، تنمو الضجة فى الخارج عندما رشف آخر ما فى كوب اللبن ، مسح الماء من فوق وجهه ، بدت له الحياة هشة طرية فى رخاوة العجين . بعض النهار فى السوق الكبير وإذا ما نزل الليل ، إلى مولانا علاء الدين . . أو أصحابه . . نزعوا العصابة المبللة ، أمام وجهه تماما . . مسافة تساوى سمك الأصبع ، وجه مستدير ، أصفر عريض الوجنتين ، ضيق العينين ، شاربه رفيع يتدلى حتى يلامس الصدر المغطى بقطعة جلد بنية اللون ، حول وجهه فراغ غامض خليط من أشياء غير معروفة ، لكن ثمة ما يقول ان الرجل من جنس غير جنسه ، ربما ثيابه غلظ ركبتيه وقصرهما ، لاستدارة وجهه ، أسنانه ، عيناه ، نظراتهما الحادة ، اليدان العريضتان وقطعتا الجلد المرصعتان بدوائر معدنية بيضاء تحيطان بالمعصم ، والله لو تخفى فى صورة امرأة جميلة من آخر بلاد الدنيا ومشى فى السوق مثيرا شهوة الرجال وغيرة النساء ، لو حط على النافذة فى هيئة عصفور وليد ، لو اتخذ صورة مولانا

علاء الدين الذى يعرف وجهه كل حى فى المدينة ، لو قلب الوجه شوه الملامح ، أزال الرأس ، لعرفه . . عرفه . . مغولى أصفر الوجه ، حتى لو صرخت هذه الضحكة المفتعلة الكاذبة التى تكشف أسنانا لونها لبن الخيل وأطلق فيها رائحة الروث والزنخ . .

أغمض عينيه ، اختفى الضحك ، ربما ناموا ، السكون كالجليد فوق المراعى ، لا يرى بيوت المدينة المشوهة الخلقة ولا الطرقات التى نزل عليها الخراب ، لكن يحس ما بها يسمع وقع خطوات الرجال الصفر قصار القامة ، تماماً كما كان يشعر بهم ولا يراهم أيام الحصار ، فى المساء نهاية الأسبوع الأول يجلس الشبان فى صحن المسجد يسمعون مولانا علاء الدين ، يعرف تماماً أى جنس يقف وراء الأسوار ، زمان من عشرات السنين قبل أن يولدوا زار صحراء الجوبى ، رآهم وصاحبهم عندما غاصت جيوشهم فى بلاد الصين العظيمة كما تغوص السكين فى قالب زبد ، قالوا أسوارنا حصينة ، دحرج مولانا حبات مسبحته ، لكم أحب المدينة ، لا يريد أن يرى لأهلها ما رآه فى بلاد الخطا حيث لم يصمد امبراطور هذه البلاد العريضة أمام هؤلاء المغول ، أتعرفون ما يظنونه عن أنفسهم لعنة الله فى أرضه ، قال محمود غلوش . . فى كل ليلة تخرج فصائل من جنود الحامية وتذبحهم ثم تعود . . سأل الرجل هل رأى أحدكم هذا بعينيه ؟

لم يردوا ، انصرفوا . جاء ثلاثة أثرياء من المدينة لمقابلة مولانا علاء الدين ، عندما خرج اسماعيل إلى بيته لم يكن الليل قد أوغل تماماً ، لاحظ والدهشة تملؤه أن ثمة نساء ينظرن حاسرات من النوافذ ، أمام بعض البيوت ، خرج رجال عجائز تجاوزوا المائة سنة ، ربما مر عليهم عام بأكمله لم يفارقوا حجراتهم ، لكنهم الآن لا يفارقون الطرقات ، ذرات الغبار تتصاعد فى الهواء لم يمتلىء هواء المدينة بمثل هذه الصورة من قبل بل ان هذه الحرارة الشديدة فى ذلك الوقت من السنة أثارت قلقاً وحزناً ، العجائز يهزون رؤوسهم ويقولون ان الله لم ير بعد شيئاً من غضبه للمدينة المحاصرة ، قرب بيته رأى امرأة عجوزاً تمشى ، تتلفت حولها ، المفروض أن يصل ابنها وزوجته أول أيام الحصار من مدينة خوارزم ، أغلقت دونهما الأبواب ولا بد انهما غاصا فى حشد المغول الكثيف يسأل كل من يقابلها ، مشعثة الشعر ، تائهة النظرات ، أمسك معصمها ، سيعودون يا أمى ستفتح الأبواب غداً ، عندما تمدد ، تدفقت موجات التعب تعبره بانتظام ، لماذا يبدو أكثر اهتماماً من غيره ؟؟ تقريباً عاد محمود غلوش إلى سيرته العادية ، أيضاً ثناء الدين ، شمس الدين ، السهر فى حى بنات الخطأ ، هل لقربه من مولانا علاء الدين أم لإحساسه بالخطر لكن الخطر يهدد الجميع .

الكل تضمهم مدينة واحدة ، قالت أمه والنوم يرمى حبات رمل تحت جفنيه . . هل مشى الكفار وفتحوا المدينة ، سكت ، سألت أمه ، قالت أمه والصباح قد جاء منذ مدة طويلة ، ارحم نفسك ، أنت تجهد نفسك . .

تقول أمه وأصبعها يرسم خطوطاً غامضة غير مرئية فوق الحصير . .

عمرك يمضى يا اسماعيل . . خمس وعشرون سنة مرت على هذه الأيام التى نزل فيها الثلج كالحجارة من السماء حتى قلنا ان الله يرسل علينا طيره ، وحجارته ، ولدت أنت ، خمس وعشرون سنة مرت على نزول الثلج ولم تتزوج .

تقول أمه . .

اى بنت تتمناك زوجاً لها . .

قالت أمه . .

الكفار يحيطون بالكل وأصحابك كأن شيئاً لا يجرى حولنا . . فلماذا أنت . .

نظر إليها ثمة جفاف فى حلقة ، عيناه متسعتان كأنها تردان سؤالها بنفس الكلمات . .

انكمش فى ركن الزنزانة شديدة الضيق ، ارتفع الصياح فى الخارج ، شتائم ، ضحكات ، أيد تصفق ، كم العدد ، ربما اثنان ، ربما عشرة ، توقفت الأقدام ، فتح الباب ، رجل قصير عريض الكتفين ، من فمه خرجت كتلة البصاق ثقيلة لزجة ، لم يتفاداها اسماعيل بسرعة .

يا ابن الكلب . .

هل نقلته الآن ؟؟

هيا

ازداد جسمه انكماشاً ، الكدمات الزرقاء على جلده النحيل تتورم ، الصدر يتفتح ، ركلته قدم فى بطنه ، لم يرفع وجهاً ، وضعوا الشوك فى طريقك يا حبيبنا وسيدنا فلان ، الصخر تحت قدميك ، طردوك من الطائف ، ورموك فى المهجير بالحجارة حتى سالت الدماء من جبينك الصافى فظللتك الغمامة أبد العمر .

لو له أخت لاغتصبناها أمامه وسمع تأوهاتها بأذنيه . .

مقطوع من شجرة . . حتى لا أم عجوز . .

لن يفيد الدعاء ، لن تبدل الأرض ، الأجسام فى الأصفاد ، والسرابيل من قطران والشفرة الحامية تقطعنا ، ولا عاصم من المغول ، فى الليل بعد أن أن نام فعلا قام فزعاً كما لو أن الرخ نزل فاختطفه . .

وجه أصفر يطل من الباب . .

أجلك قرب يا مخنث . .

* * *

ما الذى يريده بالضبط خمس وعشرون سنة مرت على نزول الثلج شبيه الحجارة وثمة شيء يعذبه لكن ما هو؟ المشى فوق مياه المحيط ؟ الغوص فى باطن الأرض حتى ملامسة قرن الثور الذى يحمل العالم كله ، الانطلاق فى الفراغ بلا رجوع فى القبة الزرقاء ، المشى بين الناس ، فوق رأسه طاقية الآمال والأحلام ، يرى الناس ولا يراه أحد تأمله لأجسام جوارى الأمراء والأحلام . يرى الناس أثيابهن ولا يستطعن رؤيته ذهابه إلى سمرقند ، يسأل الشاه فى خلوته أن يجيء إلى أوترور ، الناس فيها يسمعون عنه ومع هذا لم تكتحل عيونهم بمرآه ، يرجوه فثمة أعمار تنقضى ولا يراه أصحابها وإذ يصحبه يسأله النظر بعين العطف إلى حكامه وعماله فى البلاد ما عاد العباد من رعيته يطيقون صبراً بظلم متولى الحسبة الذى يجلس تحت أضخم شجرة فى البلدة يفرض على كل رأس ما تدفعه حتى الرعاة الذين لا يمتلك الواحد منهم غير ما عز يتيمة ، ربما يريد الوثوب فى الفضاء ، عبوره بخطوة قدم واحد ، يجد نفسه فى بلاد الخطأ البعيدة حيث المدن العظيمة ، القباب العالية كل ما حكى عنه مولانا علاء الدين ، من

يدريه ، ربما الرحيل فى الزمن ألف ألف عام فيرى حال الناس ، وهل يبقى العالم ، وكيف تقوم القيامة وما صوت النفخ فى الصور ، وهدأة الأرض وقد بقيت خراباً يباباً أربعين ألف سنة قبل أن تجىء النفخة الثالثة فى الصور فيصحو الجميع ، آه لو يصل إلى هذا اليوم الذى لن يعرف فيه أمه ، لم يتصور ذلك أبداً ، خيل له انه الوحيد الذى سيمد يده لأمه ، حتى أبيه الذى مات سنين الوباء ولم يره ، سيعرفه ، ياه هل سيكفر ، كيف وعذاب هذا اليوم البعيد شديد ، تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، دائما لا يتخيل أبداً أن أوترور الهادئة ستعرف الحشر لكنه فى ليالى السهر سواء مع محمود غلوش أو فى صحن المسجد عند مولانا علاء الدين ، يبرق خاطر أمام عينيه ، لن تمضى الحياة هكذا ، ترى ما الذى سيحدث بالضبط ؟ لا يعرف ، متى ؟ ومن أين له أن يدرى ، حتى بعد الحصار ، الناس تدور حول نفسها فى المدينة ، الاطمئنان يعود إلى الوجود ، الأبواب لا تزال مغلقة برغم هذا فقد كان الخطر غير المرئى ، وراء الأسوار ، يبدو فى لحظات هائلة ، مخيفاً يخفق قلبه بالخوف على المدينة ، كل رجل ، امرأة فيها ، لكم يحبهم ، يخاف عليهم ، على المبانى ، المساجد التى كثيراً ما ركع فيها ورفع يديه طالباً التوبة من رب العالمين ، عندما مشى فى السوق الكبير ، أمام حان تفتح أبوابها ، يقف سبعة أو ثمانية رجال ،

يعرفهم تماماً ، يضحكون ، ألقى السلام ، بعد عشر خطوات توقف ، التفت إلى الخلف ، رجال من أوترور يقفون عند الخان ، الهواء راقد ، سخونة يقسم عجائز المدينة انهم لم يروا طوال عمرهم مثلها ، لم تنتشر فى الجو إلا بعد الحصار ، أقسم آخرون أن الوباء سيطلق نفسه فيحصد أهل البلد حصداً ، لكن وقفه الرجال ، اتكاءة أحدهم . ضحكة خافتة شىء لا يبين . كأنه يراهم فى يوم هادىء يمر ، قطرات مطر ربيعى منعش ، لحظة من لحظات يوم لم تكن المدينة مهددة فيه بأى بشرى أصفر السحنة ، اندفق الدم من قلبه ، ثم انقبض ، هز رأسه ، دخل بيته وكان المغرب يقترب ، حاراً ، ممتلئاً بالغبار ، سمع أمه تتمتم ببعض الدعوات ، وكان السقف عالياً .

* * *

يا أهل أوترور وسكانها . .

اطمئنوا . . فأسوار المدينة حصينة . .

ولا بد أن يرحل المغول قبل مجىء الصيف . .

فهم لن يحتملوا الحصار . .

اطمئنوا فأسواركم حصينة . .

ولن يقهرها الكفار أبداً . .

* * *

تجمع الرجال حول الراعى ممزق الثياب ، حملقوا فيه ، أطلت النساء ، بعضهن شابات (وهذا يحدث لأول مرة فى أوترور) من النوافذ .

هل رأيتها بعينك . . بعينك يا رجل . .

نعم والله . . وحياة أولادى . .

دخل محمود غلوش بيته قبل أن ينام طلع فوق السطح ، نزل فناء الدار ، فتش الغرف ، صومعة الغلال ، نظر تحت السرير ، تأكد من إغلاق الباب جيداً بالضبة الضخمة ، فى البيت المجاور خيم الضيق على روح ثناء الدين ، أول ليلة يقضيها بلا سهر ، بلا ضحك ، لكنه من الأفضل ألا يخرج ، من يدرى ، ربما طعنه أحد هؤلاء الصغار الذين ظهروا فى المدينة فى الظلام عندئذ يموت ويروح على نفسه .

تخلل مولانا علاء الدين لحيته بأصابعه ، النهار خارج المسجد يمضى قتيلا ، لا أمل فى رجوعه ، ذرات الليل الرمادية تكفنه ، فراغ المسجد يمتلىء برائحة لم يشمها إلا منذ الحصار .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . لا يعرف أهل أو ترور حقيقة المغول ، كفار وأى كفار . من يرهف السمع باستطاعته أن يصغى إلى تقلب جسد المغولى فى مرقده خارج الأسوار ، من يتقن لغته يمكنه أن يعرف أى أحاديث يتبادلونها إذا ما نزل الليل أما من يقف فوق سور أوترور فيمكنه أن يميز الشعرة الصفراء من السوداء فى رأس كل ذى وجنتين عريضتين وشارب مدلى وعينين منحرفتين .

همس اسماعيل .

لأول مرة منذ أيام كثيرة يمتلىء الجامع ويفترش المصلون أرض الشارع . .

الليل فى عينى مولانا وديع هادىء رائحة الكافور تطير من بعض البيوت القريبة ، وثمة عطر غريب خفى ينبعث من الحصير القديم الذى فرشت به أرضية الجامع الكبير .

وما أخبار المغول . .

قال اسماعيل . .

قذفوا اليوم السور الشرقى بحراقات النفط . . سلاح جديد لا نعرفه . . لكن عساكرنا لم تمكنهم من طلوع الجدار . .

قال مولانا علاء الدين . .

اذهب واحضر أصحابك الذين طلبوا الجلوس معى . .

* * *

أشارت اليد إليه بعد أن نزعوا القماش المبلل ، الوجه ونفس الابتسامة ، صمغ لزج ثقيل ، الفم ، العينان كل ما فيه ، لا يمكن أن يكون إلا المغولى جنس آخر غير جنسه ، من عالم غير العالم ، لا يعرف شيئاً عن عمره لا يعرف كم يحب أمه ، خفقة قلبه لحظة رؤيته رجل يمشى حافياً يطل الجوع من وجهه ، حزنه الرقيق الغامض لحظة ذهاب الشمس وسؤال تائه ، هل تعود ثانية أم يخيم الليل إلى يوم القيامة ؟؟ لا يعرف بهجته لحظة الانطلاق فى مراعى المدينة ، لا بد أن يبتسم أولا ، يضحك يقترب منه ، ثم يضربه يشتمه ، ولن يتكلم لن يرد حتى لو كانت أمه ، هذا المخلوق لو جاء فى أرض غير الأرض بلد غير البلد ، لو خلق فى دنيا غير الدنيا ، حتى لو عاش فى بلاد واق الواق وراء جبال قاف لو كان يهودياً ، نصرانياً مسلماً كافراً كما هو يعبد الشيطان . . فيا هو الا مغولى يده قصيرة ثقيلة لا تتحرك إلا لتشير أو تتكلم .

من ؟؟

أحمد سلار . . عيناه ، جنديان ، فم يقطر دماً ، دفعه المغولى والصمغ يقطر من شفتيه ، قربوا رأس اسماعيل منه ، ما الذى يصدره لسان أحمد ؟؟

حشرجة ، وسوسة ، لا يعرف ، آه لا تدع صوتك الواهن يطلب منه ما لا يعرف ، شفرة بيضاء حامية قصيرة .

افتحوا عينه .. افتح يا كلب .. لا بد أن ترى ما سنفعله بك ..

قلدت رجال المدينة كلهم فى الميدان ، لكم سخط عليك العجائز من يقلدك الآن ؟ تروح الشفرة وتجىء تمسك بها اليد الغليظة بين عينى اسماعيل وفخذى أحمد سلار من الجسم الميت خرجت صرخة كأنها ليست منك ..

قل لهم يا اسماعيل .. قل لهم أين السد .. آه السلاح .. أحمد .. انقذنا .. كل .. آه ..

افتحوا عينيه .. انظر ..

امتدت يد المغولى بقطعة اللحم الصغيرة الحمراء الرخوة تهزها أمام عينيه ، ثبت السواد فيها ، تدفق الدم نافورة بين ساقى أحمد سلار ، وكبسوا الجرح بالزيت المغلى والفلفل .

* * *

سكان أوترور يا كفرة ..

يا من لم ترعوا ملة ولا حرمة دين ..

يأمركم خان المغول العظيم بالخروج ..

الأغنياء الفجرة والعامة الأنجاس ..

لن يبقى أحدكم فى المدينة . .

أخلوا البيوت من كل حى حتى الحيوانات . .

توجهوا إلى الخلاء خارج الأسوار . .

لا بد من إحصائكم يا من ختنتم دين الله . .

وإثبات ولائكم لبلاء الله وسخطه عليكم . .

خاقان المغول المعظم . .

اخرجوا . . اخرجوا . .

* * *

فى لحظات العصر الصفراء البعيدة ، يسمع مولانا علاء الدين يجتر ذكرياته ، زمان الوباء فى أحد المدن البعيدة التى قضى فيها مولانا سنين عديدة كان المرضى يتألمون لحظات بعد ظهور أول أعراض المرض عليهم ثم يموتون ، كانت الجنازات تمشى صفوفاً ، صفوفاً حتى أنهم حملوا كل عشرة موتى على عربة يد واحدة وكادت المدينة تخلو من سكانها حتى انه كان يمشى ساعات فى شوارعها وطرقاتها حتى يلتقى بآدمى ، ورأى بعينيه مياه المطر تنزل وتنبت الحشائش فلا تجد ماعزاً تأكلها ولا رعاة يقطعونها ، وعندما حزم مولانا ثيابه واعتزم الرحيل منها ، وعندما أصبحت المدينة وراء ظهره ، التفت إليها رأى هواءها وقد امتلأ بالوباء ، فى هذه اللحظة تماماً أدرك أن آلاف الناس ماتوا

بلاسبب ، وهل حقاً ماتوا شهداء ، وما قيمة أن يموت الإنسان شهيداً أو غير شهيد ، يضحك مولانا ، يقول انه عندما فكر فى ذلك لعن الشيطان وحمل حزمة ثيابه وراء ظهره ، وأطلق صيحته فى الهواء العريض . .

قال مولانا أنتم لا تعرفون المغول كما أعرفهم أنا ، لن يكتفوا بإبادة عساكركم لكنهم يقصدونكم أنتم ، أنا أحب أوترور فقد عشت فيها عمراً كاملا ، ولا أطيق أن اتخيل ما يجرى فيها لو . .

قال أحمد سلار . .

أنت تعرف أن أسوارنا قوية . .

قال ثناء الدين . .

يقف عليها عشرون ألف جندى . .

أسند مولانا علاء الدين ذقنه إلى راحة يده ، لكم ساح فى بلاد الله بطولها وعرضها . . لم يمر عام إلا وطاف بيت الله والتقى بأصحابه الذين يطوفون بالعالم كله ولا يلتقى بهم إلا مرة واحدة فى السنة ، وصل إلى اطراف العالم حيث الليل سته شهور والنهار ستة شهور والكلاب تجر المركبات على أرض كلها من الثلج ، عاش فى مدن بعيدة يقضى الانسان إليها أربعة شهور فى بحر مالح لاعمار فيه ، فى شبابه خاض صحراء الجوبى ، عاش بين المغول زمناً عرف أى لسان يتكلمونه ، رافق جيوشهم التى أغرقت بلاد الصين .

لا تعرفوهم . . ليسوا بشراً . . تماماً كالطاعون أو الفيضان أو الحريق .

فى صحن الجامع ارتعشت شعلات الضوء الخافتة ، الليل هادىء ، صمت كماء الورد يكمن فى زوايا الجامع ، قال اسماعيل . .

الناس كلهم يصدقون هذا الرجل الذى رأى منذ ليال النار التى قال رسول الله (ص) أنها ستخرج آخر الزمان قبل القيامة . .

قال مولانا علاء الدين . .

أعرف . . ولهذا امتلأ الجامع بالمصلين أمس واليوم . .

* * *

لا يصدق أحدكم ما قاله بعض الكفرة .

انهم رأوا مغولا فى شوارع المدينة الحصينة .

اطمئنوا يا أهل أوترور . .

أسوار مدينتكم لا تنفذ منها نملة إلا بعلم جندنا . .

لا يصدق . .

* * *

خرج مولانا علاء الدين متوكئاً على ذراع اسماعيل ، رآه الناس ، انحنى بعضهم يقبل يده ، جال بعينيه فى الساحة الواقعة أمام الجامع ، الرجال يجلسون أمام الدكاكين المفتوحة كأنهم لم يفارقوا أماكنهم أبداً ، تزاحم الناس

حوله فى الفراغ انعقد غبار رمادى رمى ظلالا خفيفة على الأرض ، صاح رجل . .

ستقوم القيامة يا مولانا . . ظهرت نار آخر الزمان . .

صاحت امرأة عجوز . .

الشمس تطلع من الغرب وتنزل فى الشرق يا مولانا . .

ارتفعت همهمة الواقفين ، انقبض صدر اسماعيل ، حقاً هل تشرق الشمس من نفس المكان ، المدينة مغلقة ولا يدرى أين يمناه من يسراه ، ارتجفت لحية مولانا علاء الدين ، أصغى إلى دعوات الواقفين ، تكاثر الجمع حتى كاد الطريق أن ينسد ، تساءل أحد التجار الغرباء الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى بلادهم ، هل ستقوم القيامة ولن يروا أولادهم وأسرهم ، اغرورقت عيونهم بالدموع .

صاحت امرأة . .

هل ينصرنا الله على يأجوج ومأجوج اللذين سلطهما الله علينا . .

هز مولانا رأسه . .

وما النصر إلا من عند الله . .

* * *

صرخ رجل مغولى طويل القامة ، ربما صاحب مركز . .

حتى شيخك اللعين لا تعرف أين ذهب . . كل زملائك وأصحابك قالوا انك لم تفارقه طوال عمرك ، يا نحس . . والآن لا تعرف أين هو . . لو نفختنا فيك لطرت . . وترفض الكلام . . اسمعوا . . مولانا الخاقان سيرحل بعد أيام . . انتهوا منه بسرعة . . بسرعة .

ثناء الدين صديقه صاحبه القديم ، قصير ، أصفر الشعر ، كان اسماعيل يغطى رأسه دائماً بطاقية يقفون فى عرض الطريق ، صفاً واحداً ، يحددون نقطة ينتهى عندها جريهم ، ينظرون بطرف عيونهم إلى بعضهم ، يقرأون الفاتحة ، إذ ينتهون من التلاوة ينطلقون .

هيه . . وصل ثناء الدين أولهم . . يمر شيخ المقرأ ، يكفون عن اللعب ، عيونهم إلى الأرض ، يستديرون صامتين ، يبتعدون ، إلى أين ؟؟ الساحة الكبيرة تحت سور المدينة ، الوقت ما بين العصر والمغرب ، الصمت بحيرة بلا قاع ، الهدوء كمناحة عاطت فيها نساء المدينة كلهن . .

أدخلوا محمود غلوش بعد لحظات ، دفعوا إلى يده سيفاً فى يد ثناء الدين سيف آخر .

بدأت يد مغولية ترتفع وتنزل على ظهر اسماعيل ، ضرب هين لين ، يرجف عموده الفقرى ، لا بد أن تظل عيناه مفتوحتين حتى يرى العراك حتى النهاية . . فجأة صاح ثناء الدين . .

قل لهم أين السلاح وذهب المـدينة . . انتهت أوتـرور وسنموت كلنـا يا اسماعيل . . لماذا تسكت . . لا فـائدة من صمتـك . . تكلم . انتهت أوترور . .

* * *

فى حى الصيادين نشب عراك يا مولانا . .

لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . . اللهم اكفنا شر الحصار .

الرعاة يسندون ذقونهم إلى أياديهم ، أغلقت الأبواب وما عاد فى الامكان الخـروج إلى الخلاء ، مـر أحد صيـادى الوعـول تعثر فى قـدم راع كـانت ممدودة . .

تمشى كالأعمى . .

الشارع اشتراه أبوك . .

احترم نفسك ، يعنى من أنت ، التحـما بالأيـدى قام الـرعاة ، بعض الأغراب عن الحى دخلوا العراك ، نزل رجال من بيوتهم ، تلفتوا حولهم ، يندفعون فجأة ، صرخ الأطفال ، صاحت النسوة ، فى حى النساجين نشب عراك آخر ، بل ان بعض العمال الذين كانوا يبنون بيتاً كبيراً لأحد أثرياء المدينة ، فجأة راحوا يهدون ما يبنونه ، يقذفون المبنى بالطوب ثم تعاركوا مع بعضهم حتى سالت دماؤهم . .

لا حول ولا قوة إلا بالله . . كأن جلود الناس ضاقت عليهم . .

* * *

أبداً لن تعود طرقات أوترور ، البنايات فى الصباح غير ما تراه فى العصر ، فى الليل ، أبداً لن يمشى عبر طرقات المدينة إلى حى بنات الخطأ ، خاصة فى أسابيع الحصار الأخيرة ، عندما عرف كل شاب فى المدينة أنه يستطيع أن يضاجع فتيات فى سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة فى بيوت ، الخطأ ، أبداً لن يجلس على المرتفع خارج المدينة يرقب نزول الشمس وراء الأفق البعيد ، الجند يروحون ويجيئون تحت الباب يستعدون لاغلاقه .

ندى الصباح يبلل الطريق ، فرسان التركمان يرقبون النساء عند النواصى ، لهواء البلدة رائحة العنبر تهمس أمه . . وصل تاجر من الهند ، اخرج معى لأشترى منه قماشاً أسود خفيفاً ، فى ساحة السوق يجلس يرقب بعينين قلقتين ، البضاعة يقلبها الزبائن . .

كأن هذا جرى فى غير أوترور ، صيحات الصغار ساعة الصباح فى بلد آخر ، زعيق الرجال فى عالم غير العالم وحتى مولاه علاء الدين ، أين هو ؟؟ ضاعت المدينة ، نكست المآذن ، نكحوا الطرقات ، وسأل الخاقان أحمر اللحية رجاله عند رؤيته المسجد الكبير . .

وما هذا القصر ؟؟

فقالوا له هذا بيت الله ، عبر الباب الـواسع بحصـانه الأبيض المثقـل بكنبوش من الذهب . .

هل وجدت حقاً البنايات ؟ منحيات الطرق ، المشربيات ، وإلا فأين مضت هذه الأيام ؟؟ أين راح المشى فى العصر ، ساعات النهار ، القراءة ، انتظار قلب حلو فى رقة الندى ، أين ما تخيله ، اين ما كان يحلم بها تؤنس وحدته فى الليالى الطويلة الباردة المثقلة بثلوج بيضاء تنزل هشة طرية من وراء نافذة البيت الصغيرة ، أين الصوت الذى تمنى لو ناداه ؟ أين منية القلب ؟ أين لهفة الروح إذ تـطلب منه أمـه أن يتزوج ، نعم . . لكن من ؟ أين القلق الغامض ؟ ما الـذى سيجرى غـداً ؟ أين فرحـة القلب لحظة لقـاء صديق غاب ، أين الحزن عندما مرضت أمه ، ورفعت إليه وجهاً كله تجاعيد وعينين مستسلمتين فيهما وداعة وحنان ، نخلة تميل بجذعها ، كسيرة بـلا طرح ، لحظتها أدرك أنها عجوز ، وأنها قضت عشرين عاماً بلا زوج ، ولم تخرج من البيت إلا مرات قليلة ، بل أين أمه ؟؟ أين حبل الحياة ؟ أين عصبها ، أين صوتها أين ترقد ؟أين هى أين ؟

* * *

قال المغولى طويل القامة ، صوته هادىء لا يهتز . .

اقطعوا أصابعه . . اجتـزوها بـالموسى . . اسحبـوا لتراً من دمـه واكبسوا مكان المجروح بالفلفل . .

توقف لحظة ، اقترب منه انحنى حتى كادت ملامحه المغولية أن تلامس الوجه النحيل شبيه الشمع ، أنت صغير ونحيل لا تحتمل .. ولو قلت لنا ما تريده فيعدك مولانا بتحقيق كل ما تريده ولن يقضى عليك ، ثم لماذا تحتمل أنت كل بلاء أوترور .. ومع ذلك فسأقطع أصابعك .. وهذه بداية .. ليس الآن .. لكن بعد حول قصير .. وعلى العموم فكر فى كلامى يا اسماعيل ..

***

كأن العيون ترى السماء والفراغ أول مرة ، ارتفع صوات النساء والبنات والأبكار ، خاضت خيول المغول فيهن ، التف سوط ذو سبع شعب حول وجه امرأة قصيرة بدينة ، وجهها ملىء بالوشم ، يبدو أنها لم تخرج عمرها كله من اوترور ، لمعت سيوف قصيرة .

لم يعرف الأطفال المكدسون فوق الارض الصغيرة إن كان النهار يتقدم أو يتأخر ، لم يكف صراخهم ، وترجرجت اللدوائر السوداء فى عيونهم ..

أين الأم ، أين الأب ، الأخوات ، رائحة البيوت ، دفء الليل وحرارة القوم ، صاح الأسير المسلم فى الرجال ..

ـ من منكم لديه جواهر أو سلاح لم يخرج به .. فليخط خارج الجمع ..

صاح أسير آخر . .
ـ البنات الأبكار هنا . . النساء هنا . . العجائز . .

جالت العينان الضيقتان فى الجمع الذى تحول إلى كتلة عويل خانق مر كالوباء ، كشفرة تلامس قلباً ما زال يخفق ، نزل القائد المغولى ، ينظر إلى الرجال الواقفين : أشار إلى عدة شبان تقدم منهم جند ، أخرجوهم ، فى السماء يتراكم غمام أسود ، الحرارة تتصاعد من الأرض وتنزل من الفراغ مع أن الصيف ما زال بعيداً ، أشار القائد المغولى إلى شاب نحيل الجسم ، كأنه لم ينم منذ أيام عديدة سأله عن اسمه ، طلب منه أن يرفع صوته ، اسماعيل ، صاح صوت الأسير المسلم . .
ـ اظهروا جواهركم وسلاحكم . . لا تخفوا شيئاً وإلا . .

* * *

بيت من طابقين ، رمادى ، تحته ، دكان مغلق ، آخر ما رآه من المدينة ، أثارت الأقدام العديدة سحابات من الغبار ، لن ينسى وجه أمه لحظة أن شدوها من جانبه ، حتى لو مزقوه قطعاً أكبرها فى حجم حبة الفاصوليا ، وحملوه للرخ ونثروه فوق ألف بلد لم تصرخ ، لم تبك ، ثقة غامضة فى وجهها تجعلها على يقين أن ابنها سيتدخل ، هب هواء كالماء الساخن الدسم يكنس ما فوق الرؤوس ، كلبوا أيديهم ، كم العدد ، عشرون ؟؟ لم يدر ، أين أمه ، حتى لو وقف فى الصفوف الأولى لن يراها بوضوح ، أسوار أوترور يتصاعد

منها الدخان ، مهدمة مبقورة ، تمنى لو رآها لحظة ، ثانية حتى مولانا علاء الدين أين هو ؟؟ فى الجامع ؟؟ أم ركب حماره ، ولى وجهه إلى مدينة أخرى ليبدأ حياة أخرى ويقضى فيها عمراً مديداً ، آه يا مولانا علاء الدين ، ضاعت أوترور ، وذاب العمر كرغوة صابون فى صحن ماء ، قطعة ثلج صغيرة رموها فى بركة ، لحسة حلوى امتصها صبى ، ورقة شجر جفت وهرستها أقدام مغولى ، طير شمع أزرق علا حتى اقتربت من الشمس فانصهر ، خمسة وعشرون حولاً كاملاً اندثرت فى أوترور . .

* * *

إلى جند الخاقان الذى وهبه الله ملك الأرض ومن عليها . . أباح الخاقان المعظم أوترور برجالها ونسائها وأطفالها وبيوتها ومخادعها ومخازنها وطعامها ومجوهراتها وأبسطتها وأثاثها وخضرواتها . .

وفاكهتها وجوامعها وقصورها وكتبها ومحازنها وشوارعها وخاناتها

ومعاصرها وكل من فيها . . جوارى وعبيد وسادة . .
اثنى عشر يوماً كاملا . .

* * *

اسماعيل . . سنضعك فى حجرة بها ألف عقرب . . تكلم . .

وجه آخر ، ابتسامة مفتعلة ، شارب رفيع مدلى ، أسنان صفراء عينان

ضيقتان منحرفتان ، كل ما فيه لو ابتهج ، لو تجسد ، أنا الأمان ، أنا الأمان ، فلن يؤكد إلا مغوليته . .

قل لنا أين السلاح . . أين ذهب المدينة الذي أخفاه درويشك العجوز . . طول الليل وآلام الفلفل الذى كبسوا به يده المبتورة ، وعدم الرقاد على الأرض التى فرشوها بماء وسخ ، تبرق بقايا أوترور أمام عينيه ، احترقت أوترور ، هاجر أو سافر أو مات مولانا علاء الدين ، لن تقوم البيوت بعد ذلك أبداً أمر قاطع لا شك فيه ، لن يلمس الجير الأبيض طوب الجدران الرمادى فرحاً بعودته رجل حقق أمنية العمر وزار بيت الله تعالى ، لن ينطلق الباعة فى طرقات المدينة منادين على الليمون . . الخس . .

لن يهتز رد فى شابة حلوة ترقب الناس من وراء حجابها ، لن يتبادل الرجال انفاس النرجيلة إذا ما هوى الليل فوق المدينة ، أبداً لن ترتفع ضحكات الشباب . أوترور ملعب لكلاب نزلت من البرارى . . من التلال أفقدها اختفاء الانسان عقلها فانطلقت تلتهم كل لحم طرى .

* * *

. . مولانا الخاقان سيجعلك ترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت . . مائة من الجوارى الأبكار . . وقصرا فى أى بلد تشاء . . أنت تعرف كلام الملوك . .

اسماعيل . . ملعون إلى يوم القيامة . . ترانا نموت ولا نتكلم . قل لهم أين الذهب . . ؟ قل لهم أين السلاح . . . ؟

سبه احسان قلش قبل أن يخلعوا لسانه بالكلاليب من اساسه ، فى الحجرة المغلقة فوق أرضها المبللة بالمياة ، بكى ، سنوات طويلة لم تتدفق دموعه بمثل هذه الغزارة عدا ليلة بعيدة صحا فيها من النوم وكان الصباح ما زال هادئا ، باعة اللبن لم ينادوا بعد طوال الليل يحلم حلما لم يكف فيه عن البكاء ، حاول أن يتذكره ، لم يعرف ، حاول مرة ثانية لم يدر ، شتمه احسان قلش ، سبه ، آه للعمر المنقضى ، لماذا يتحمل كل هذا ، أهى رفقة مولانا سنين طويلة ، يتذكر الآن مشيه فى طرقات المدينة ، لا يختلف عن أى منهم ، انها نبوءة المنجم العجوز التى رددتها أمه طويلا . . ابنك سيرى أمورا عظيمة حتى لا يرى تقلص وجهه ، فليعرف المغول كل شىء فليقل لهم أين الصناديق ، ما المهم فى ذلك استباحها جند الخاقان اثنى عشر ليلا واثنى عشرا نهارا .

قال مولانا علاء الدين . .

يتفنن الملاعين فى إبادة سكان القرى التى يفتحونها ، فإذا ما قتلوا السكان جميعهم أحرقوا مخازن القمح حتى يموت جوعا من لم تقطع رقبتهم ، وفى مرة جعلوا رجلا مسلما يؤذن للصلاة من فوق مئذنة القرية التى قتلوا من

أهلها عددا كبيرا . . عندئذ خرج من تبقى منهم ظنا أن المغول قد رحلوا فذبحوهم عن آخرهم .

قالوا العجوز يخرف . . أسوارنا حصينة . .

* * *

لو نام ، نام ، الأيام المنقضية ، بعد كل استجواب يلقونه فى الزنزانة ، يستعيد ملامح الذين عذبهم امامه ، فرح خفى ، بهجة لأنهم لم يستطيعوا انتزاع كلمة منهم ، الآن خفتت الاصوات تماماً ، ترى كم من البيوت تبقت ؟؟ وكيف استباحوا المدينة لا يذكر شيئا فيها ، حتى موقع بيته نسيه تماما ، حتى ملامح أمه العجوز باهتة مطموسة ،كأنه لم يرها غير مرتين فى حياته . وجوه لم ير أصحابها غير مرة أو مرتين تبدو له واضحه كأنهم أمامه ، والمئذنة التى تطعن الهواء بمقدمتها الرفيعة المدببة ، قائمة أم هوت ؟؟ كان كوب اللبن ممتلئاً ، آه لو عرف أين رحل مولانا علاء الدين ، يظهر بعد ايام فى مدينة بعيدة لم ينلها المغول ، يعيش بها عمرا كاملا ، يصبح واحدا من أهلها ، ينظرون إليه فيتذكرون أنهم كانوا يرونه من الصغر ، هل ثمة نفير بعيد ؟؟

أى صوت يخترق مثل هذه الجدران ؟؟

أهم اشخاص يتكلمون . .

ضحكات بعيدة ، غريبة مختنقة ، ربما البعد ، ربما الليل النهار طنين غريب ، ملعون . . ملعون . . لماذا تسكت وقد انتهى كل شىء ؟؟

مالا عين رأت . . ولا اذن سمعت يا اسماعيل . .

يزداد الطنين ، لزاجة الأرض المبللة ، كتفاه ليستا منه ، يداه ثقيلتان ، صوت خطوات ثقيلة ، ربما يقتربون ، تجاوز زنزانته واختلط كل شىء بالطنين الغريب الغامض ، وكانت الارض لزجة وثمة طرق خفيف طرى فى الرأس يجعل نومه بعيدا نائيا . .

مفاجاة ليلية
تحت هدير المدافع

نشرت فى جريدة « العمال » ابريل ١٩٧٢

قال الرائد عادل :

ـ أغار الطيران على الاسفلت ، قطع الطريق . .

تضيق عينا مجدى ، شرائط الحديد القاسية تضم الملجأ ، يرى شريان الطريق يتفجر ، يتفحم الضوء ، الشظايا تلهب الهواء ، الدانات غير المرئية لحظات رحيلها القصيرة ، يسند يده ، فراش الرائد عادل صلب ، ضيق ، لا يتسع إلا لشخص واحد ، منضدة صغيرة بيضاء باهتة كالعزلة ، كوب بلاستيك وردى ، خرائط ميدانية ، مصباح معلق لا تنفذ ذرات ضوئه قط ، وإلا تحولت إلى دليل للهلاك المبين ، كيف يقضى الليل

هنا ، يطرق الرائد عادل ماداً يديه فى اتجاه الارض ، قليل الكلام ، منذ بدأ زيارته لم يتبادلا إلا ألفاظا قليلة ، مشاعره ضنينة ، ترحيبه موجز ، هل سيقضى الوقت كله معه ، غدا ، ربما بعد غد ، يضيق مجدى بصمته ، بداية النهار لا تتسق مع نهايته ، يرى ميدان التحرير فى الصباح فراغا شفافا ، العربة الزرقاء الكبيرة ، مفارقة القاهرة ، النخول إلى بطن الصحراء ، الطريق ممتد صارم يشير إلى مركز السماء . وعدٌ غامض بالوصول الوشيك ، لكن العجلات لا تكف عن طيه ، مجدى يرى شوارع الاسماعيلية هياكل صمت ، سكون خبيث .

قال الضابط المرافق : « لو بدأ القتال الآن سترون الكثير » « ستكتبون عن انفعال حقيقى بالخطر » رجف قلبه ، مال زميله هامسا ، « أفضل لو انقضى اليوم هكذا » ، سأل مجدى ، أهى الزيارة الأولى ، قال صاحبه : « الأولى لا تحسب ، زرنا التل الكبير ، أول مرة أدخل الاسماعيلية » ، قال آخر متطلعا حوله بقلق : « هل تنطلق صفارات الانذار قبل مجيء الطيران » ؟ ، بقى سؤاله معلقا ، أصغى مجدى منتظراً سماع انفجار ، رؤية طائرة محلقة ، فى القاهرة ، فى صالة الفندق الصاخبة بالأصوات ، بروائح الطعام ، البارفان ، يبدو الحديث عن الجبهة بين أصدقائه الصحفيين والكتاب أمراً مشوقا ، يتحدث صابر دائما عن أخيه ، ينقل عنه ، يصغون حول الموائد الأنيقة المثقلة بزجاجات

البيرة ، كؤوس البراندى الصغيرة ، الساندوتشات ، مناديل الورق ، يحاولون رؤية عالم مختلف ، واقع مغاير يصل إليهم عبر البيانات العسكرية جافا مبتورا ، دقات التيكرز ، هل يعرف الرائد عادل كيف يعمل التيكرز ، ما أ بعد صالة الفندق ، يراها الآن مجدى بلّورية متألقة ، لا ينصرفون قبل الثالثة صباحا ، من نوافذه الضخمة تمرق خيوط الضوء ، أحدث موديلات السيارات ، من بعيد يرحل النيل رحيلا أبديا ، لابد أن السيارة فى القاهرة الآن ، تأوى فارغة إلى الجراج ، يفكر كل منهم فى عناوين المقالات ، « الذهاب إلى المطهر ، العودة من المطهر ، تقرير من الجبهة ، أيام فى الجبهة » ، يجلسون إلى الصديقات ، يتحدثون عن الموقف بعد الزيارة، رؤيتهم لليهود ، الطيران الذى لا يهدأ ، لا ينزل الأرض أبداً أربعا وعشرين ساعة ، كيف واجه كل منهم لحظات الخطر ، أدركته حسرة ، لا يدرى متى سينزل المدينة ، فى أول النهار انقبض قلبه ، رأى الجنود يمشون متمهلين ، يتطلعون اليهم ، يمضون ، هناك ما هو أكثر أهمية من الالتفات إلى مجموعة كتاب وصحفيين ، قال أحد زملائه : « أغطية الرأس عادية ، الجنود فى الصور التى نراها يرتدون الخوذات » ، مجدى يعض شفته ، ربما يتحدثون الآن عنه « لسوء حظه طلب زيارة موقع مدفعية » ، (الموقع بعيد ، قطع الطريق بعد وصوله) ، يقبض حافة الفراش ، لو يتحدث عادل ، عيناه تنظران فى اتجاه مستقيم كالفوهة ، هذا

السكون لم يصادفه أبدا ، يتسق تماما مع ملامح الرائد عادل ، مجدى يرى حجرة نومه ، اغلاقة النوافذ ، الستائر المسدلة ، الضوء ناعم فى الممر الخارجى ، تتسرب ليونة الفراش إليه ، يغوص فى عالم طرى لا يعود منه إلا فى العاشرة صباحا ، أو الحادية . .

يتصل رنين التليفون .

يغير مجدى جلسته ، يعقد يديه أمام صدره .

ـ آه . . بالضبط . . اسمع يا سيد ، قل للميس أن يرسل « تمرة » عشاء زيادة .

عندى ضيف . . آه ، قل لهم لا داع لإحراجنا . بالضبط .

سنصورك وتظهر فى الصحف .

يفارق التليفون ، طيف مرح فى عينيه ، بشارة لحن يولد ، مقدمات خبر فرح ، سحابات دخان فوق مواقع العدو تقول لعيون المقاتلين ، جاء الضرب فى الصميم ، يتناول وسادة كاكية اللون ، من حقيبة جلدية يخرج فوطة حمراء ، منقطة بدوائر صفراء ، وزرقاء . . ينقل صحفا ودفترا كبيرا . .

ـ تفضل . . يمكنك النوم فى أى وقت . .

« أى نوم » كلماته لا تزيل الحواجز ، إنما تدعمها ، الرائد عادل يغطى دورقا زجاجيا ، مجدى يرى السيارة تقف فى الميدان ، ينزل زملاؤه ، على وجوههم إرهاق سفر ، تدور عيونهم .

- أنا عادة لا أنام الآن . .

- آه . . خذ راحتك . .

تضايقه بساطة اللهجة ، أين هو حتى يخاطبه هكذا .

- وأنت ؟؟

يستدير الرائد عادل .

- لا وقت محدد . .

يسرى طنين ، دفعات هواء باردة مجهولة المنبع . .

- مضى عليك وقت طويل ؟

- أين ؟؟

- فى الجبهة . .

- سنة وسبعة شهور . .

سنة وسبعة شهور هنا ، تسعة عشر شهرا ، إذن ليضغط مخاوفه ، يحلم بالعودة سالما بلا خدش .

تبـدو حركـاته ريـاضية متسقـة ، هل يتسـع الوقت هنـا لمـارسـة الرياضة ؟؟

قال الرائد عادل ، إنه لم يمارس الرياضة بشكل منتظم إلا بعد دخوله الكلية الحربية ، الرياضة الوحيدة التي أحبها طوال عمره ، المشى ، أحيانا يشرع فى المشى وحده من مصر الجديدة حتى المعادى ، يسمى هذا اختراق الضاحية .

- أتمشى المسافة كلها بمفردك ؟؟

يصغى عادل ، أصوات لا يسمعها مجدى ، عبثا يحاول التقاطها ، يخشى انقطاع الحوار .

قال عادل ، أنه يلتقى أحيانا بالجيران فلا يعرفهم ، أيامه فى القاهرة قليلة ، أصحابه كلهم من الـدفعة تفـرقوا ، البحـر الأحمر ، أسـوان ، السويس ، أحدهم فى موقع لا يبعد إلا كيلومترات معدودات ، لم يره منذ أربعة شهور ، يحن إليه يود رؤ يته ، ميعاد إجازة كل منهما مختلف .

مجدى يبدى اهتماما ، اللقطة انسانية ، مادة جيدة لموضوع جذاب ، بالتأكيد لم يخرج بمثلها واحد من زملائه ، الآن . . يدثرهم ليل القاهرة ، بعضهم يغسل وجهه بماء يتدفق من صنبور فوق قمته دائرة حمراء ، البخار الفاتن يدغدغ الوجنات ، مرة أخرى يمتد غطاء الصمت . .

الساعة الآن التاسعة . .

تدور أصابع عادل حول بعضها . يستمر صمته .

- الليل هنا دنيا قائمة بذاتها ، سواده جدران تتوالى بلا نهاية . . فعلا النجوم كثيرة كثيرة جدا ، أين تختفى عندنا فى المدينة .

لو نظرت طويلا لا مكننى أن ألمح الفروق بين النجوم ، لكل نجم شخصية ، تماما كالبشر . .

يبتسم عادل . .

بعد لحظات ، قال إنه يكره الليل . .

يتصل رنين التليفون معدنيا حادا ، يمسك ورقة ، يتحسس جيوب صديريته ، يخلع مجدى غطاء قلمه . .

- نعم . . نعم . . تمام . . شكرا . .

يضيق مجدى بجمود الملامح ، يحاول النفاذ إلى خبايا الموقف ، ربما يخشى ازعاجه ، يخطو عادل فجأة ، يخرج ، يغوص ثقل داخله ، ماذا يجرى ؟؟ لم يخلع حذاءه حتى الآن ، « رأى صالة البيت ، قمم الأشجار فى الطريق ، مد أصابعه ، يفك الرباط ، لكن . . ربما اضطر إلى الخروج ، يعود بعقده ، يبرد الصمت ، ضجة بعيدة !! بعد أسبوع ، فى مثل هذا

الوقت تماما ، بأى مكان سيلقى نفسه ، ليلة قاسية ستزوده بحكايات ، مواقف لن يمل ترديدها ، ربما تدخل سهام إلى صالة الفندق الآن ، تحتوى البهو الفسيح بعينيها ، تمد الخطو ضاحكة ، يقوم صبرى ، فتحى ، تزيح الشال الأسود والمحفوف بخيوط لامعة ، تسند ظهرها إلى المقعد الوثير ، تنتبه فجأة « الله كنتم فى الجبهة » . . يقوم مجدى ، يروح ويجىء فى الملجأ ، دبيب خطى رفيعة لا يدرى مصدره ، يقشعر جلده ، فئران ؟ كلماتها تأتيه هنا ، « احكوا لى شفتم ايه » ، تسكت قليلا ، « آه والنبى نفسى أروح الجبهة » ، « نفسى أروح الجبهة » . . يبدو له الأمر مثيراً للضيق ، فى الوقت نفسه يود لو ترقبه الآن ، تعرف موقفه الصعب . ليست هى فقط ، صديقاته فى النادى ، زميلاته يرى الدهشة الممزوجة بالإعجاب فى عيونهن .

يدخل عادل ممسكا بأوراق ، هل خرج بها أم بدونها ؟؟

- طيران فوق الضفة الشرقية . .

- إسرائيلى ؟

تنبه مجدى إلى حركة جسده مع خروج اللفظ .

- طبعا . .

قال عادل : لم يحدث اختراق حتى الآن ، قال إن الطيران بدأ مخيفا فى البداية ، لكن العادة تكسر حدة الأشياء كلها ، حتى الموت ، الآن . . يختلف الأمر ، سكت ، قال إنه لا يهوّن من خطر الطيران ، ضحك ، إنه سلاح سافل تعودوا عليه ، قال عادل إن الظلام مكتمل فى الخارج ، هذا أفضل ، القمر بغيض هنا ومكروه ، معه ينشط الطيران ، تبدو لياليه طويلة حادة كالزجاج المكسور ، قال عادل : الغريب أنه فى أشد لحظات الخطر ، تبرق مواقف غريبة ، إذا تأملها الانسان فيما بعد ، تعجب ، تساءل ، كيف لم أع من حياتى إلا هذا الموقف بالذات ، عند خروجه الآن ، تذكر موقفا لم يستغرق إلا ثوان ، عند دخوله المصعد منذ ثلاثة شهور ، رأى امرأة قاسية الملامح انه لا يعرف سكان البيت ، ربما جاء سكان جدد فى غيابه ، عندما هم باغلاق الباب ، سمع صوتا نحيلا ينادى ، لحظة يا أفندى ، لحظة يا أفندى ، دخل طفل حافى القدمين ، يرفع ذراعا صغيرة إلى أعلى ، ليدفع التراب عن أطراف جاكتة زرقاء ، أزرارها نحاسية صفراء ، يحف ياقتها خط أبيض غليظ ، قالت المرأة هناك سلم خلفى ، قال الطفل ، ماعلهش ياست ، وكأن صوته غيمة قاتمة ، يوم شتوى يكسو المدينة ، مع حركة الصعود البطيئة تنسال الظلال ضوء يقترب ، يبتعد ، يتسع فمه الصغير ، دهشة بكر حقيقية ، رقبته نحيلة ، أصبع يده يمكنه الالتفاف حولها ، احكام أسارها ، فى عينيه

ارهاق ، انكسار طويل ، قال عادل أن يداً خشنة قبضت قلبه ، وخز لم يأته لحظة ذهاب ثلاثة من رجاله ، رأى اللحظة ذاتها ، جرح كونى ، عيناه تدوران ، قطعتا زجاجٍ بارد ، جنوده ، ينظرون ، وصمتهم دهشة أولى ، حيرة عصور نائية البعد أمام الرحيل المفاجىء ، كيف حدث ، هل ، أحقا ، لو ، لو أن . . غللهم أسى ، ناء بجسده ، جثا ، يداه غصنان يابسان ، بلا عرق أو عصب ، يفك أزرار الجيب العلوى بصديرية الجندى الأول ، يخرج لفافة فضية تحوى قطعة بسكويت التفاتاته ، لون وجهه ، تماما كأثر قديم تحرك بعد دفن آلاف السنين ، على مهل بدأ يأكل ، يمضغ البارود والدم والاشتباكات الليلية والزعيق الغامض ، وصوت الجنزير فوق الرمال والثوانى الحبلى بخطر ، لحظات لا تنتمى إلى زمن مفهوم ، إلى دنيا فيها بشر ، أما الأسى فداهمه بعد حين ، لم تصدمه دشمة ، لم تدكه حصون ، مرأى صبى يجهل اسمه ، أضناه ، أرهقه بالذكرى ، بدأ يرثى رجاله ، لم يفتح نوافذ حجرته ، زعق بأسمائهم واحدا ، واحدا ، واحدا ، استعاد الملامح . حركة العينين الخاصة بكل منهم ، فى عربات المترو ، فى الميادين شاهقة الاضواء ، فى الطرقات الهادئة والحوارى يبحث عن السمات ، ربما كان رحيلهم حلما ثقيلا يتبدد إذا صادف محروس ، أو حسين ، أو كمال ، يلقى أيا منهم أمامه ، يصافحه يتساءل أى صدفة سعيدة ، يدعوه إلى كوب شاى فى مقهى دافئة ، يجىء

ماسح أحذية يخبط الصندوق الخشبى ، يضحك بعض رواد المقهى ، يصيح الجرسون ، ويرسل الراديو أغنيات قديمة ، قال عادل تتدفق الوجوه لكن عبثا ، عند الطابق الثانى خرجت المرأة تلعن العيال الذين لا يكفون عن اللعب فى المصعد ، لو استمر الأمر سيموت السكان من طلوع السلم . .

دفقة من رنين التليفون ، تتبعها دفقات .

مجدى يرى قاعات مزدحمة يغرقها ضوء ومرايا ، أيدى وأكواب مضلعة الحواف حفيف ثياب ، قهقهات ، روائح عطور ، يلمس المطرب الشاب أوتار حارة الرغبة كلما تقدم الليل ينأى رحيله مستمر لا يهدأ ، عادل يخفض صوته ، يطرق حافة المنضدة الصغيرة بأصابعه .

ــ أتدرى يا عادل بك ؟؟

ابتسامة .

ــ عادل من فضلك . . أنت الآن شريك خطر ومواجهة . . يعقد مجدى أصابعه فوق رأسه ، كلمة خطر .

ــ أحيانا ألقى نفسى فى بادق ، حولى صخب ، أصحاب ، وشرب . . هل تشرب . .

ــ أحيانا ، اذا سمحت الفرصة . .

ــ بين الاصحاب ألقى نفسى وحيدا ، جزيرة متوحدة معزولة ، لو بادلتهم الحديث تزداد عزلتى ، لكن الصمت هنا وحشى . . . يقبح . .

ــ أنت تشخص الآن ما أشعر به أحيانا فى صالة سماع الموسيقى . .

يلحظ مجدى الآن أصبع عادل ، يتحرك على نغمة الصوت ، يشير إلى أعلى . . إلى أسفل ، فى حركة دائرية . . لكن ، أى موسيقى ؟؟

أهوى البشارف والموشحات القديمة .

ــ عندما تنزل اجازتك ، أرجو أن تزورنى فى الجريدة . . . . دائما تأتينى دعوات مجانية وغالبا لا أذهب . .

لكن هل تهوى الموسيقى القديمة فقط ؟؟

قال عادل ، أحيانا . . يسمع السيمفونيات فى الراديو ، لكنه رأى عروض باليه عديدة بمفرده يمضى إلى دار مبنى الاوبرا القديم ، كرر مجدى ــ لا بد من مرور عادل عليه ، قال عادل ان الموسيقى الشرقية تثير فى نفسه غبار الزمن ، وجد صامت ، قال عادل انه رأى البيت خاويا ، مع أنه قضى اجازاته كلها وحيدا طوال الاعوام الثلاثة الاخيرة يعود يفتح النوافذ ، النهار كالحليب ، يرقب البيوت ليلا ، ينظف الاطباق ، يشم رائحة المطبخ يفتح أوعية السكر ، لم يزحف النمل اليها ، يقبض حبات الارز ، ينقل أطباقا صغيرة إلى مائدة تتوسط الصالة مغطاة بمفرش أبيض ،

تتناثر فوقه ورود حمراء كبيرة ، فى يوم منقض عادت به أمه من السوق ، سألته ، ما رأيك : قال ، كل ما تشترينه يعجبنى ، قبض حافة المائدة ، كيف لا يذكرها كثيرا ، رأى الصالة فسيحة بلا حد ، يلمس آثار أنفاسها ، حجرتها مغلقة ، قام ، رطوبة بلاط الصالة تنفذ إلى باطن قدميه ، يعلو بوق عربة ، يصيح طفل صياحا متمملا ، ينقطع فجأة يبدو حلما ، وهما ، على مهل يفتح الباب ، يراها أول النهار تقلب السكر ، ترشف قهوة ، تنفض الغبار عن جاكتته ، يراها فى اغفاءة العصر ترحل رحيلا قصيرا إلى أقصى الصعيد ، تستدعى أيامها الاولى ، تحوم حول مدينة الاسكندرية ترى البحر بعينى الدهشة الصامتة ، والده قضى زمنا بها ، تركب قطارات سريعة ، تطوى حقولا ، تلقى بالدوم فى الصومعات ، تنتظر عودته ، القماش الابيض الخفيف يحيط وجهها ، دائما تستند بظهرها إلى الجدار ، يلتصق الطلاء بجلبابها ، سنين العمر كله تجسدت أثرا لا يمحى ، ابقاه العرق والظل ، قال عادل انه رأى الخشوع القاسى ، يدب فيه دم ، ترقبه الآن ، تصيح ، تزعق فلا يسمعها ، رجاله الثلاثة ، يحيطونه بحنو ، لا يعرفون إلا الابتسام ، راحوا معا وكأنهم تواعدوا . .

(انفجار . .)

ــ تقريبا فى القنطرة . .

ـ طيران ؟؟

ـ بالضبط . .

ـ لكن الانفجار ثقيل . .

ألف رطل . .

ألف رطل ؟؟

ـ يستخدمها الطيران كثيرا . .

ـ يتوقف تأثيرها على طبيعة المكان وما يحتويه . .

دوامة في اليابسة ، تنثر ترابا وحجارة ، فوق وجهه زحام تغييرات صامتة ، ميراث خفى يلقى بجسد الانسان ، منبطحا قبل الانفجار ، مجدى لا يدرى إلى أى نقطة وصل الليل ، يرى مذياعا صغيرا ، زملاء الرحلة يصغون إلى خبر موجز ، (وأغارت طائرات العدو على مواقعنا في . . لمدة ثلاث ساعات) . . دهور تمضى وأحقاب زمنية تاتى ، تمضى هنا في لحظة ، يولد العالم في اليوم مرات ، يبدو وهما صلبا ، ترسم الطائرات خطوطا من الضجة ، عندما تدق الساعة عشر دقات غدا . صباحا ، في الراديوهات ، في الميادين سيقوم ، يعانق عادل . .

(انفجار . .)

ـ مدفعيتنا . . الشغل الحقيقى يبدأ بعد الثانية عشرة . .

يصغى مجدى إلى خروج الدانات ، إلى لفظ الشغل ، ينفذ إلى ايقاعه ، الشغل هنا يعنى القتال ، فى كل مكان يتغير ، يتبدل ، الجهد الانسانى المتنوع .

(انفجار . .)

بدا حادا قويا ، ترددات الصوت تقلب أمعاءه ، حاول أن يتذكر ، من اقترح فكرة الرحلة فى البداية ، من بالضبط ، يهز عادل رأسه ، يطلق آهة ، قال ان محروس فى تمدده بدا هادئا ، واثقاً ، كأنه يضع الخطط لمستقبل آت ، كان رأسه على وشك ايماءة قصيرة ، لا اصابة فى جسده ، لكن ، خلف الأذن الأيسر ، بصمة حمراء قانية طريق سلكته الشظية بدقة ، رسم لها من زمن سحيق ، سافرت سنين عمره كلها لتصل إلى هذا الموضع بالذات ، دفقات دم بطيئة .

ـ عندما تصطدم قدمى العارية بحافة مدببة ، يسرى عرق الألم وعرا فى جسدى ، انهال بقبضتى على الصدمة ، اقتل الألم بالألم .

(انفجار . .)

يبدو الليل غامضا مثقلا ، مجدى يرى عادل جالسا إلى جواره فى مقهى هادىء ، صمت عذب ، يتابعان مرور الفتيات ، يتراجع مجدى إلى

الوراء ، يبدى عادل اقتراحا ، يذكران الصبى المفتقد ، الأمل المرتجى ، يرسمان مشروعا لا يقبل التأجيل « ألا تفكر فى الزواج » .

ويناى ، ضجة السهرات ، مروق الأضواء عند المنحنيات ، عبير العطور ، قال عادل انه لن يتزوج إلا بعد الحرب ، انه يعرف احدى الفتيات ، ضحك ، قال انه يعرف هدفه تماما ، صمت ، يسند مجدى ذقنه إلى راحتى يديه ، قال عادل ، اسمها هدى ، اذ تلقاه يرى فى عينيها انتظارا لما سيقول ، رقيقة كسنبلة ، كدفء البيوت ، تنتظر ألفاظ الحب ، ويخفق قلبه ، يود لو يعبر عن نفسه ، كما هو ، كثيرا ما تقع الالفاظ أسيرة عند طرف لسانه ، تطرق خجله ، هنا فى ضيق الملجأ يذكر ايماءة رأسها الخجلى ، عندما دخل عليه سالم ، أحد جنوده الصعايدة ، قال إن الضرب شعل حرائق عند العدو لم تهدأ منذ الصباح ، لم يخفها ضوء النهار ، وإذا استمرت حتى الليل ، سيراها الجميع لهبا برتقاليا ، قام عادل ، قال انه احتضن سالم قبله .

(انفجار . .)

يقوم عادل ، مجدى يرى يوما بعيدا من طفولته ، يقف فوق سطح البيت القديم ، السماء صافية جدا ، وهناك فى المنتصف تماما ، خطوط رمادية ملتوية بطيئة ، صاح ثعابين تطير ، رفع أبوه عينيه ، ظلالهما بيده ، هز رأسه ، هذه طيور ولكنها تبدو كثعابين ، قال مجدى إذن هى ثعابين .

ـ عادل . . ما الذى دفعك إلى احتضان سالم ؟؟

(انفجار ثقيل بعيد)

ـ لا قاعدة تحكم هذا . .

قال ، يتوقف القتال ، تطوف عينا الانسان بالمكان ، تنطبع الاشياء على الحدقتين كأنها المرة الاولى التى تدرك أن هذا حجر ، هذا حديد ، تلك أكياس رمل ، تسمع نداءات ، أحاديث هنا ، لا بهجة تعادل سماع أصوات البشر بعد توقف قتال ، وعندما يلتهب الفراغ ، تضبط المسافات ، تحدد القطاعات ، ينبثق زعيق أصوات غامضة من حناجر الرجال ، أول مرة تعجب ، ما معناها ، ما مقصدها ، حروف الكلمات معجونة ، متشابكة ، معناها لا يكتمل إلا بحركات الايدى ، انفجار الدانات ، الطفولة ، الميلاد ، الامل فى السفر ، رغبة عن الوعى (انفجار) دنيا بأكملها ، شوارع طرقات ضيقة تلمع تحت المطر ، حارس يتثاءب ، بضاعة فى فترينة مظلمة ، بيوت تضمها رمادية الشتاء زجاج مغلق ، شمس وبحر (انفجار) ، إلى جوار أمه ، يمد نظره قطار يندفع بمحاذاة حقول خضراء ، يشير بأصبعه ، يبدو انسان ضئيل كدمعة ، يد مجهول ألقت بهوسط الخضرة (انفجار) كيف لم يصل إلى دلالة ما رآه لحظة حدوثه ؟؟

(انفجار ، انفجار ، انفجار بعيد) .

يتكرر صفاء النهار ، القمر لم يختف والشمس تتقدم فى السماء ، فى خط مائل تنزلق الطائرة ، كأنها أقلعت منه ، من القمر . . (انفجار . .) لو أنه لم ير الصبى الصغير ، هل كان سيعانق أثر أمه الغالى ، يرثى رجاله ، يمشى فى الطرقات تأكله الرغبة فى رؤية هدى ، (انفجار) ، الآن تبدو الدنيا هينة ، رأى أياما لم يروها هم ، لم يعرفوا طعمها ، عاشها ، بدونهم ، (انفجار) ركوب قطارات ، رأى صاحبته ، أطعمة متنوعة ، قال فى ظلال الضوء الناعم انه لا يفهم فى الصيدلة ابتسمت هدى ، (دوى شديد متلاحق) أشقر ، يطالعها دائما فى الاتوبيس ، وهنا . . (انفجار . . انفجار) وميض يسبق الطلقة ، اهتزاز الفليرز وتعلقه فى الهواء ، خطو الرجال فوق الضفة الاخرى ، بعد رحيلهم . . (انفجار) لن يخاف ، لن يعبأ ، هل أصابت الدانات أهدافها ، تجىء تقارير الاستطلاع مبشرة ، يسمو ، أنجز عملا (انفجار . . انفجارات متلاحقة مضمومة متوالية) رجاله ، منهم شكرى ، يدخل عليه يوميا ، فى وقت بعينه ، يسأل كم الساعة الآن ، ينظر اليه ، يقول بنفس اللهجة ، السادسة والنصف ، ينظر إلى معصمه ، يدير المفتاح الصغير ويسأل . .

شكاوى الجندى الفصيح

نشرت فى مجلة الهلال أغسطس ١٩٧١

.. وبتاريخ ١٩٦٧/٧/٧ عينت بالشركة موظفا فنيا بورش الآلات الفنية ، وقمت بعملى خير قيام ، حتى استدعانى الوطن اعتبارا من ١/١/ ١٩٦٨ ، فلبيت نداء الواجب ، ومنذ هذا التاريخ كنت أصرف نصف مرتبى كما يقضى القرار الجمهورى بهذا ، وفى ١٩٦٩/٦/٣٠ أنهيت المدة القانونية لخدمتى ، سنة ونصف سنة ، وأصبح يحق صرف مرتبى كاملا ، وعندما حضرت اليوم إلى الشركة فوجئت بالصراف يخبرنى ، اسمك ليس فى كشوف المرتبات ، سألت مدير المستخدمين ، وتبين أن سيادتكم أصدرتم قرارا بفصلى ، ولم أعرف السبب ، مع اننى قائم بعملى خير قيام ،

ويشهد رؤسائى بهذا ، ولم يوضح أحد ، لماذا فصلت ؟؟ وظننت أن المقصود بالقرار شخص آخر يشابه اسمه اسمى ، لكننى عندما عدت إلى مدير المستخدمين ، أكد الخبر ، اليوم ينتهى تصريح اجازتى ، وأعرف ان وقتكم لا يتسع لسماعى اليوم ، لهذا أكتب الطلب المرفوع اليكم على عجل ، راجيا النظر اليه بعين العطف .

وتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام ،

مقاتل : بدير الطحاوى .

١٩٦٩/٧/٧

* * *

.. وحدث أن أوما سامى سكرتير المدير العام لشركة الألبان برأسه ، قال لفظا واحدا مختصرا :

ـ اطمئن ..

وحاول المقاتل بدير اضفاء ارتياح على ابتسامة أبداها ، تمنى لو لفظ السكرتير الشاب ألفاظاً أخرى ، لكنه اشتغل بالنظر الى ملفات أنيقة كتب فوقها بخط منسق « للعرض » وعندما دخلت فتاة جميلة يصحبها عطر

شفاف الرائحة ، أيقن بضرورة انصرافه ، وإلا بدا ثقيل الدم ، قال كلمتين :

ـ أرجوك . . لا تنس .

سيسر سامى السكرتير الشاب عندما يرجوه أحد الناس أمام فتاة جميلة

* * *

بريد حربى

السيد/مدير الشركة العامة للالبان . .

بعد التحية :

يا سيدى المدير ، أرجو وصول خطابى وأنتم فى أتم صحة وهناء ، قبل استرسالى أعرف لو أن أحد الموظفين قرأ ما كتبت لقال ، ليس هكذا تبدأ الخطابات الرسمية ، لكننى انتظرت رد الشركة على الطلب المقدم اليكم فى ١٩٦٩/٧/٧ ، لم أنجح فى مقابلتكم ، قلت فلأ فتح قلبى لكم ، أحكى عن حياتى ، أقص ظروفى ، لا أخفى أمرا من أمورى ، لهذا التمس العذر لو خرجت عن الصيغ الرسمية ، وألتمس العذر مرة ثانية لو تغير الحبر من أزرق إلى أحمر ، أعرف أنه عيب كبير ، لم أعلم هذا عند التحاقى بالعمل مباشرة ، وإنما حدث بعد شهر من عملى بالشركة ، أن كتبت ملخصا

لخطاب مصدر اليكم ، لم أكتب الخطاب نفسه بالحبر الأحمر ، إنما رقمه وما يحويه فى السركى الخاص بالبوستة ، استدعيت الى مكتب المهندس الحسينى ، خشيت الأمر عندما نظرت إلى وجهه ، بدا ساخطا ، تساءلت خائفا عما ارتكبت ؟؟ خطر لى ، ربما كتب تقريرا يشير فيه إلى عدم صلاحيتى للعمل ، عندئذ أفصل ، خاصة وأنى وقتها لم أقض مدة الاختبار التى اعتبر بعدها مثبتا ، والمدة كما تعرف ثلاثة أشهر ، ثلاثة أشهر لا يحق بعدها فصل العامل أو الموظف ، رآنى المهندس الحسينى وتساءل بدهشة عما تعلمناه بالمدارس ؟؟ اندفق الدم مسرعا فى شرايينى ، انعقدت الحروف على لسانى ، امتدت يده بالسركى مفتوحا ، رأيت ساعده غليظا ، كثيف الشعر ، علا صوته موضحا أن سركى المدير لا يمكن اطلاقاً الكتابة فيه بخط أحمر ، أى مكاتبة رسمية يستعمل فيها القلم الأحمر خطأ تام ، المسموح له باستعمال الحبر الأحمر ، واحد لا غير ، سعادة المدير نفسه . وأخرج عددا من الخطابات رسمية ، مكتوبة بخط مرتب ، تحمل تأشيرات عديدة بالحبر الأزرق ، فيما عدا خطوطا قليلة كتبت بسرعة ، فى أسفل الصفحة أو أعلاها ، باللون الأحمر ، عرفت عرفت خطك يا سعادة المدير ، فى لحظات الراحة بعد الغداء أجلس إلى زملائى الموظفين ، نحاول تقليد توقيعات مدير الإدارة الفنية ، والسيد مدير المستخدمين ومدير إدارة البحوث الدقيقة ، وفعلا نتقنها ، لكن امضاءك انت ، انت

بالذات ، محير غريب ، خطوط بسيطة جدا ، لا تعقيد فيها ، مع هـذا نعجز تماما عن كتابة مثلها ، وعنـدما أرى قـرار فصلى ، لا أصـدق أن امضاءك استقر على ورقة تحمـل قراراً يحـرمنى من أكل عيشى ، امتنـاع مرتبى ، وبقائى بلا عمل تترتب عليه أمور عديدة لن أخفى واحدا منها ، وقبل استطرادى أرجو توضيح ما ذكرته ، الخاص باستعمالى لونين مختلفين فى خطاباتى اليك ، أنا يا سعادة المدير فى بور توفيق ، وبور توفيق ليست مدينة كبقية المدن التى عرفتها ، هنا يفصلنا عن العدو مجرى مائى ضيق ، لا تتبينه الا عند الوقوف قرب حافته مباشرة ، لو مشيت على بعد قليل من الشاطىء ، سترى بعض المبانى عند العدو ، وكأنها فوق الأرض ذاتها ، لا تفصلنا عنها القناة ، هنا لا تجد مبنى من طابقين ، لا نوافذ خشبية ، ألواح زجاجية ، لا يقف جدار لا يمتد سقف ، لم يعد يقوم سلم ، يقول ضابطنا ، كانت بور توفيق من أحلى المدن ، من يـدرى . . ربما جئتهـا يا صاحب السعادة وقت المصيف ، الآن الحضور اليها مستحيل ، دائما أرى بور توفيق فتاة جميلة ، يتدفق وجههـا حياة ، تجـرى فوق شـاطىء رملى ، تلهو ، تتجه دائما إلى البحر ، تقف فوق قارب يقسم الماء قسمين ، يحيل الأزرق إلى زبد أبيض ، فجأة يطلع قزم ، كبير الأنف والرأس يقذفها بماء النار المركز ، ينصهر اللحم ويهطل بنيا فى لون الشيكولاته ، رأيت مدنا بعيدة رحل اليها سكان بور توفيق ، عندما رحلوا ذهبوا على

عجل لم يجمعوا أشياء العمر الصغرى ، تناثرت علب الطعام المحفوظة ، حطام أطباق الصينى ، بقايا أسماء حفرت ، عثرت على موقد بريموس صالح ، نستعمله الآن ، لا أمتلكه انما يخدم السرية كلها ، وجدت صورة ، الاهداء عليها « الى عزيزى فوزى .. لعلك تذكرنى ، فالذكرى ناقوس يدق فى عالم النسيان .. حمدى » .

لم أعرف فوزى ، لم أعرف حمدى الذى أطل علينا من الصورة مسندا ذقنه الى يده ، تساءلت كيف هان على فوزى أن يلقى صورة صاحبه حمدى ، سألت ، أيعرف أحدكم صاحبها ؟؟ راح كل منهم يتذكر ، حاولنا من ملامحه ادراك ، أهو متزوج أو أعزب ؟؟ عامل أو موظف ؟؟ وحولنا يجىء الليل البطىء من البحر ، من خليج السويس يرافقه صمت الأيام الأخيرة من عمر الدنيا ، الصمت عمقه بالسنين ، الصمت هنا كالمرأة الحامل فى نهاية شهرها التاسع ، يفاجئها الطلق ، فى طياته انفجارات موت ما قبل الأوان ، دانة المدفع لا تنذر باقترابها كانهيار بيت قديم ، تجىء كموت السكتة ، أسبق من برق ، أحد من صرخة فزع فى خلاء مزروع بالنخيل ، الشظايا تنتشر بسرعة ، بعضها فى حجم رأس عود الكبريت ، الآخر كماجور العجين ، أحد أصحابى يا سعادة المدير استشهد بجوارى ، والاستشهاد وصف مخفف للموت ، للفراق الأبدى ، أرجو ألا أزعجك ، بحديثى عنه ، أعرف أننى أثقل عليك ، لكن

تحملنى ، اسمه سعيد يا سعادة المدير ، كمسارى فى هيئة السكة الحديد ، أمهر طباخ رأيته ، فى نهار بعيد وقف بجوارى فى نقطة الملاحظة ، نسيت اخباركم انى مقاتل فى وحدات الاستطلاع أرقب العدو ، المهم ان سعيد بقى على حاله عند الانفجار ، نظرت اليه ، غبار ودخان وذهاب الشباب ، رائحة اجهلها تخفى نفسها ، ناديته لم يجب ، زحفت اليه ، أمسكت ذراعه ، لم ينطق حرفا ، جسمه سليم تماما كأنه يختطف اغفاءة من عناء الدنيا ، ينام متمددا فى يوم أثقلته الحرارة ودخان مجهول المنبع ، أخيرا لمحت الدم ، ثقب صغير فى جبينه يطل على الأبدية ، يسيل منه دم شديد الحمرة ، لا يخرج فى خيط رفيع ، انما على فترات ، ضنين كمصباح عربة ريفية ، متقطع كضوء فنار يختفى ، يعود ، عين حمراء تكشف نفسها لحظات فى سواد غادر تحذر الصيادين ، تكشف أماكن شعاب المرجان الخفية ، تشى بالقاع القريب ، بمرارة العمر القصير ، مات سعيد يا سيدى ، قبيل نومى أراه ، فى اغفاءة الظهير ألمحه ، يحوم قربنا ، سيظهر فجأة ، أرى بعقلى ثقب جبهة الرأس ، تتسرب السنوات منه فأبكى بقلبى ، لو بادلته مكان وقوفى لنفذت الشظية فى رأسى أنا ، الموت هنا صدفة ، يبث الكمائن حول أعمارنا ، اذ يطلع النهار ، نرى الشمس وجها جميلا حنونا ، رغيفا ساخنا لا يمس ، تقول أعماقنا ، مازلنا نعيش ، رأينا يوما جديدا ، ترى ما الذى سيجرى اليوم ، هل سنرى النهار

الجديد ؟؟ لو ذهب واحد منا ، نحاول تذكر ، آخر مرة رأيناه آخر لفظ ، ما تمناه ، نراه روحا طاهرة جناحاها مغموسان فى دم حار لا يجف الا يوم القيامة ، الآن ، كلما صحوت على صوت انفجار ، أو غارة دب جرذ فوق وجهى ، اذا رأيت حلما ثقيلا يزحف الى كذبابة كريهة المنظر ، أتذكر أمورا عديدة ، بالذات منذ عودتى من اجازتى الأخيرة ، فى الليل المهجور من القمر ، أقف فى نقطة الملاحظة ، أرقب انفجار اللهب ، أرصد الصوت ، أعد همس البشر ، هدير الآلة ، الصمت الغريب ، يتردد فيه صوت قطعة صفيح يهزها الهواء ، تصطدم بجسم حديدى فى بقايا ورشة ، منذ لحظات رأيت وهج نيران بعيدا فى سيناء ، شعلة برتقالية اللون فى حجم قبضة اليد ، بين الحين والحين تنتفض الى أعلى ، تعود الى الثبات من جديد ، قدرت المسافة ، أبلغت مركز المراقبة ، قبضة اليد النارية هذه كتلة لهب تعصف بمخزن ذخيرة ، سمعت جنديا يصيح « حريق عند العدو » تساءل عن السبب « ربما حادث . . ربما عملية لرجال منظمة سيناء ». أصغيت الى مياه القناة ، السمك يطل علينا ، لا يصيده أحد فاصبح سمينا ، فى النهار يعوم متبجحا ، متحديا ، لو غفوت قليلا ، سيمرق قزم شائه ، كلما تخيلت العدو أراه قزما كبير الرأس ، يمشى ، يمشى ، حتى . .

* * *

عنـدئذ تـوقف سامى ، السكـرتير الشـاب ، نـظر إلى الـطريق ، العربات ، المارة قائلا البحر يبلل هواء اسكندرية ، لن يمضى وقت طويل الا وتزدحم المدينة ، يبدى ضيقه من الصيف يقول . . من يعرف مدينتنا لا يأتى اليها فى الصيف ، أحب الشهور ابريل ، مايو ، سبتمبر ، والشتاء كله ، عاود النظر الى الاوراق الصغيرة ، بدير الطحاوى فيما يعلم موظف صغير ، لا يحق له مخاطبة سعـادة المديـر هكذا ، نـظر الى الفتاة ، درج مكتبهـا عريض غـير مغلق ، تقلب داخله مجلة ، راديو أغلقتـه الآن ، البرنامج الموسيقى أنهى ارساله منذ ربع سـاعة تقـريبا ، بعـد التحاقهـا بالعمل حاول كثيرا ايجاد موضـوعات للحـديث ، لا تدفـع الحوار من جانبها ، اجاباتها محدودة ، تنتهى فجأة ، عادة تصـاحبها هـزة رأس ، عندما جاءت ضاق بها ، لم يعد الشخص الوحيد الذى يحق له الدخول على سيادته ، أو النظر من الفتحة المستديرة التى تتوسط الباب المكسو بالجوخ الأخضر لينظر ، أمشغـول سيادتـه ؟؟ أيكتب ؟ هل خـرج الضيف من الباب الآخر ؟؟ هل أنهى سيادتـه حديثـه التليفونى ، يعلم أنها جـاءت بتوصية من رئيس مجلس ادارة المؤسسة العامـة للشحن والتفريـغ ، انه صديق قديم لسيادته ، بل يقال ، ويبـدو القول صحيحـا ، انهما زملاء دراسة ، سهير تمت بصلة قرابة بعيدة الى رئيس المؤسسـة ، اذن . . . لا بد من توثيق العلاقة بها ، قطعا زارت بيت سيادته مع قريبها ، من يدرى أى

كلام تنقله اليه فى المكتب عندما تدخل اليه ، تخلو به فترة ، المزعج ان سيادته لم يسأله عن أحوالها ، لم يستقص أخبارها كما يفعل بالنسبة لبقية الموظفين والعمال ، ماذا يعنى هذا ؟؟ الثقة التامة بها ، ربما أدى وجودها الى التقليل من أهميته ، ينقل يوما الى مكاتب الموظفين ، لا بد من النفاذ اليها ، وكما يثق ، لا توجد امرأة تستعصى على رجل ، لكل منهن طريق خاص يتحتم عبوره ، الآن لا يهمل أى تقصير فى مظهره ، الشعيرات الزائدة بوجهه ينفيها تماما ، لكنها لا تشجع على تبادل أى حديث . .

ـ يبدو ان العالم اختل يا مدموازيل سهير . .

رفعت رأسها ، تململ عطر . .

ـ واحد اختل عقله وتصور البك المدير صاحبه . وراح يكتب فى خطابه كل ما يرغبه . .

* * *

. . يهاجم أبى ، تكتم أمى شهقة ، يستدير الى أختى ، هنا تقشعر كتفاى ، يسرى رمل ساخن كالشظايا فى سلسلة ظهرى ، أرى القزم يوثق يدى أختى ، صفية نسيت أخبرك عنها ، صفية عندها الآن أربعة عشر عاما ، ربما تتزوج فى العام القادم ، البنات يتزوجن مبكرا فى الريف ، بالطبع سيحتاج أبى الى نقود أكثر من دخله هذا العام بالذات ليشترى

جهازا لصفية أختى التى تنتظر رجوعى فى الاجازات ، تنتظر ما أحضره معى ، لا أدخل عليها بيدى فارغة ، مرة آخذ شال قطن أحمر ، زجاجة عطر ، كيلو حلوى من طنطا أفرح جدا عندما أرى التماع عينيها ، أسمع دعاءها، تحاول تقبيل يدى ، يتغلبنى خجل فأمنعها برقة . .

وأتذكر فى نقطة الاستطلاع ، أقول فى عقلى انك لا بد صححت الأوضاع ، انصفتنى ، أعدت اسمى الى كشوف المرتبات ، الغيت قرار فصلى ، صحيح أن رد الشركة تأخر ، لكننى أثق أن امضاءك البسيط ، توقيعك الأنيق ، استقر أخيرا فوق قرار يرجعنى . .

* * *

لم يحدث أن أبدت اهتمام كهذا منذ وصولها ، قام ، توسط الحجرة . . .

ـ ما الذى يقوله سيادته عندما يرى خطابا موجها اليه بهذه اللهجة . . .

ابتسمت ، أبدى حماسا . . سألت . .

هل أرسل خطابات أخرى . .

ـ أول خطاب . .

« .. سعادة المدير ..

وصلنى خطاب من أبى ، وقلت من قبل انى لن أخفى عنك أمرا ، وكما قيل لى فذاكرتكم لا تنسى أتفه الأمور ، وكلنا نذكر يوم نزولكم الى الورش ، تطمئنون على سير العمل وتصادف ان عاملا ترك مكانه على ماكينة السحب ، خرج يقضى حاجته ، لم يشأ أحد من زملائه أن يؤذيه ، انتظر حتى مررتم عليه ، دار حول الورشة ليقف أمام ماكينة السحب حتى لا ترى المكان خاليا ، وتوقفتم أمام العامل ، نظرتم اليه مرة واحدة ، سألتم ، ألم أرك منذ لحظات ؟؟ اصفر وجه الرجل ، اعترف وخصم من مرتبه أسبوع ، أما زميله فثلاثة أيام ، وقيل رأفت بهما ، وعندما مررت بى ، أول مرة أراك عن قرب ، لا يفصلنى عنك غير متر واحد ، انتظرت أى ملاحظة ، لكنك لم تتوقف كثيرا عند الماكينات التى أشرف عليها ، بعدها حصلت على مكافأة نصف شهر ، وهذا دليل على قيامى بعملى خير قيام ، أعرف قوة ذاكرتكم لا تنسى اسما ، أو ملامح وجه ، لا تنسى فصلى ، فى أوقات عديدة هنا ، وقوفى بنقطة الاستطلاع ، انتقالى عبر الخنادق ، نزولى فى حفرة عند التهاب الهواء ، أقول ربما ينهى سعادة المدير موضوعى الآن ، أقول هذا ولم يصلنى أى رد ، بالأمس قرأت خطاب أبى انقبض قلبى ، اسودت الدنيا فى وجهى ، رأيت كتفيه تنوءان بحمل الهم ، يمشى ، فوق الجسر تعبر عربة أجرة ، أنا لست من ركابها ،

لا أحمل مرتبى ، أربعة عشر جنيها وخمسة وأربعين قرشاً ، ثمانية لأبى ، جنيها لأمى ، خمسة أحتجزها ، والخمسة والأربعين أشترى بها حلوى ، أبى لا ينفق الجنيهات كلها ، يدخر مبلغا لا أعرف مقداره ، أخطار الزمان كثيرة ياسعادة المدير ، رأيت أبى يميل إلى جذع شجرة قديم ، بجواره محمد أفندى مدرس الابتدائى ، يملى عليه ما أقرؤه أنا فيما بعد هنا ، أخبرنى أبى أنه ينوى ، اذا سهل الله الأمور ، أن يبنى الحجرة العلوية المتهدمة فى البيت ، أخبرنى بدعائه لى فى مسجد القرية ، أن يضع الله فى طريقى أولاد الحلال ، أن يفك عقد أمورى ، أتظن يا سعادة المدير أننى أخبرت أبى بقرار فصلى ؟؟ صدقنى ، خجلت أن أنقله إليه ، لا تتصور ضيقى وحرجى عند دخولى البيت ، لا أدرى ما أقوله ، ما ألفظه ، تمنيت لو اقترضت مبلغا يوازى مرتبى ، أعطيتهم ما تعودت كل شهر ، ولكن من يقرضنى يا سلام يا سعادة المدير ، عندما ترفع أمى يديها ، تدعولى بعد أن أعطيها الجنيه ، لا شىء يدفع الدمع إلى عينى فى بور توفيق ، هنا عند الساتر الرملى ، عند الخد الأمامى ، الا هى .. أمى .. أنا لم أحدثك عنها يا . . . »

هنا تراجع ضاحكا ، يده تمسك بالورقة ، أصبع من اليد الأخرى تشير إلى الخطاب اشارات متتابعة ، كأنه يطعنها طعنا خفيا . .

ـ وصلنا إلى سيرة الأم . . ياسلام سلم . .

سهير لا يخفى عليها ما فى ضحكته من افتعال ، صحيح الأمر مسل ، لكن . لماذا الضحك بهذه الصورة ؟؟ يحاول اثارة اهتمامها ، أن يبدو خفيف الدم ، يمكنها اسكاته بكلمة تخفف من سروره المفتعل ، لكن لا داعى ، ربما دخل إلى سيادته ، وباعتباره أقدم منها ، أكثر فهما لظروف العمل ، ربما يحاول نقل تقرير عن كفاءتها ، ثم التشكيك فيها ، بالتأكيد لم يخبر سيادته بالمجلات ، بالراديو ، والأحاديث الطويلة فى التليفون ، هو نفسه بجواره راديو كبير يفتحه أحيانا بعد استئذانها لسماع أغنية ، أو برنامج ما من الاذاعة المحلية ، فى مرة سابقة تناقشت معه ، هى تميل إلى الأغانى الأجنبية ، تجيد الفرنسية تماما ، لكنها تسمع الأغانى الانجليزية والهندية واليونانية ، سألها ، هل تفهم المعانى ؟؟ قالت ، ما يهمنى لحن يهزنى ، كلمات الأغانى تتشابه أما الألحان فمتنوعة ، بعد أن كاد يتوقف عن الضحك ، خبطت سطح المكتب بأصابعها النحيلة الطويلة .

ـ انما صدقنى يا أستاذ سامى . .

ـ مدموازيل سهير . . أنا وانتى نقضى معا وقتا أطول مما نقضيه مع أهلنا . . سهير . . أطالب وأستميت فى مطلبى برفع الرسميات . .

أسبلت جفنيها ، الكلمات ترافقها ابتسامة

ـ ممكن . . ها . . هات صاحبنا . . قلت لى اسمه مدير .

ـ بدير . . آه بالضبط بدير .

« . . أربعة أمتار قماش ، كستور ، بيكة ، لحظتها تحار عيناها ، تنسال منها رقة تمس عصب الوريد ، تبسط الكفين ، تطلب الستر ، أمي تخرج إلى السوق ، تبيع القمح والفول ، تجادل الرجال تقسم الايمان ، أقول ، لو جاءت إلى بور توفيق لن ترعشها شظية ساخنة ، دانات الألف رطل ، زحف النابالم اللزج البطيء لن يرتج قلبها ، لن تصرخ ، حياتها يا سعادة المدير صدى انفجار مرهق طويل لم يهدأ بعد ، في رأسها سؤال ، يدركها اينما ذهبت يباغتها كالكمين المتقن ، ما الذى تعده للغد ؟ أى طعام يأكله الأولاد ؟؟ أى قسط لابد من تسديده ؟ هنا أحببت أمي أكثر ، أرجع البيت ، أعطيها قطعة الهريسة ، تقضم طرفها تبتعد عنى ، أعرف ما تفعله ، تقسمها ، تمد نصفها إلى أختى مع أن نصيبها معى ، لقمة الخبز حنظل في فمها ، علقم اذا لم نشاركها فيها ، هذه المرة يا سيدى ، لم أجلس معها بعد العشاء ، لم أعطها الجنيه ، لم تطلب منى أبدا ، حتى الجنيه لا تنفقه على نفسها ، تسد به بعض حاجات البيت ، لو شرفتنى يا سعادة المدير في بيتى ، وهذا مستحيل ، فستجلس على كرسى خشبى يواجهه آخر ، اشترتها أمى ، أصحابي يجيئون ، عيب أن يجلسوا فوق الحصير ، أما الكليم الصوف فباعته اياها امرأة دلالة بالتقسيط ، ربما امتدت الأقساط عاما ، لكن ما يجيء يستر البيت ، لو سألتنى عن أمنية حياتى ، لزعقت

بأعلى صوتى ، هنا فى بور توفيق ، أن أضمن أياما قليلة لأبى ، لأمى ، يخلو قلباهما فيها من الأسى ، بعد أن ضفرته الأحمال ، أسدد ديونهما ، أسترد مصاغ أمى الذى جاءها عبر أجيال عديدة وباعته للصياغ فى البندر ، والخلخال الفضى ، لكن كيف أفعل ، وقد فصلتنى يا سعادة المدير . . أخشى الا يصدقنى أبى ، يظن أن واحدة من أهل البندر لفت على وأغوتنى ، أبى لا يمانع فى زواجى لكن المفروض أن أخبره ، لماذا تجرى الأمور فى الخفاء ؟

* * *

ــ سأشرب شايا يا سهير . . وأنت ؟؟

ــ مرسى خالص . .

ــ الرجل ينتظر . شاى أو قهوة ؟؟

ــ والله شربت من . . .

ــ من فضلك اسمحى لى . .

ــ ياه طيب . . كوكاكولا اذا سمحت . .

* * *

.. رأيت البصاق الناري ، الدخان يتجمد في الهواء كحجارة اسمنتية ، تنفجر داناتنا حول عرباتهم ، ينبثق منها دخان ، اطلالة شعيرات القطن المفاجئة من لوزة خضراء مغلقة ، دانة مباشرة في السيارة النيران البرتقالية في البداية ، اختلاطها البطيء بدخان أسود سائل كالبترول ، جاءت ريح من الخليج قومت مساره للمته في اتجاه واحد ، وهنا .. جاء الطيران ، هدير الأعالي المخيف ، دائما الطيران يا سعادة المدير تبدأ مدفعيتنا فيردون بالطيران ، تحركت الخوذات في الحفر ، الصوت يحوم ، يشوه وجه الصباح الهادىء ،شفرات حادة تقطع السماء الزجاجية ، طلقات الفيكرز توخز النهار ، رفعت رأسي ، رأيتها رأيتها ، نقطة بيضاء تميل منزلقة في خط مائل ، بنعومة فوق خط غير مرئي ، عند حد معين ارتفعت فجأة ، رمت حمولتها فوق طريق بور توفيق ـ السويس ، الطريق مقلوب الحشا ، الخط الحديدي فوقه التوت قضبانه وانفصلت لتستقر مرفوعة في الهواء ، يد خرافية لوتها ، سلم من حبال فوق حطام سفينة عبث بها هواء غضوب ، فوقه انبطحت مرات ، رأيت الموت عفيا ، في وجه صاحبي سعيد ، عندما رأيته أول مرة ، عرفت أنه جاءنا ليموت ، انه يمر بدنيانا مرورا عابرا سريعا ، تساءلت عندما رحل ، لماذا المجيء أصلا ؟؟ جزنت ، تذكرت الخطر الفادح ، عندما أعبر الطرق في الاسكندرية ، أخاف لو دهستني عربة ، من يعطيهم نقودا ؟؟ الآن رعبي

أكثر ، لا يحق لأبى صرف معاش ، أو مكافأة لأنك فصلتنى يا سعادة المدير ، مع أننى قمت بعملى خير قيام ، يهمنى جداً أن يصرف . .

* * *

زجاج مغلق لا يمنع رائحة البحر من العبور ، زرقاه فيها يود وانطلاق ورحيل .

ــ سهير . .

صوته خافت هامس ، توحى النظرات وتفصح . .

ــ كنت سأتحدث اليك فى الثانية صباحا . .

ــ ياه . .

عندما رآها أول مرة ، متشامخة ، مدعمة بقرابة لا تمس ، هل تصور أنه سيقول يوما ما قاله الآن ؟؟

ــ قبل نومى شعرت برغبة عنيفة يا سهير ، ان اسمع صوتك آخر الليل ، لكننى امسكت نفسى ، أعرف أى ازعاج يمكننى أن أحدثه عندكم .

تداعب مفتاح الراديو ، تعلو موسيقى خافتة كأنها التردد بالبوح بسر دفين ، عيناه ترسلان معانى ناعمة كالبريانتين ، ها هى لحظات يهمس فيها

بخافت الكلام ، يدعوها الى مكان قصى ، مضـاء بنماس المصـابيح ، فراغه همسات وضحكات مفاجئة تفلت من غمار نشوة ، الآن ، لا يذكر اللحظة التى ذاب فيها الجمود فى البداية ، كان قبل دخوله المكتب يقضى وقتا يعد فيه موضوعات يمكن أن يطرقها معها ، لكن مجىء الخطابات مهد الفرصة ، أتاح الطريق ، لم تنسها بعد ، لا يقرؤها الآن ، اعتاد رؤية الختم المثلث تتسلمها هى ، تضعها فى الدرج ، ربما تلقيها ، تصر على قراءتها ، لن ينسى ابدا لحظة انتهى فيها من قراءة احد الخطابـات قال ضاحكا :

ــ تسمحى يا مدموازيل سهير . .

ايماءة باريسية أنيقة ، على شفتيها ابتسامة ود مقطر . .

ــ من فضلك . . سهير . . سهير بس . .

* * *

« . . تتباطأ عنى ، ولا تدرى ما يجرى لى يا سعادة المدير ، لا تعيدنى الى عملى ، شهران ولا تسمعنى ؟؟ كل يوم جديد يؤكـد فصلى ، وكـما تعرف فالعمـل غطاء من يرتعش بردا ، أنفـاس تتردد من يمنعهـا يخنق الشهيق والزفير ، نصحنى زملائى بارسال شكاوى الى المسئولين أكـدوا حقى فى ارسال شكوى الى رئاسة الجمهورية ، حتى الآن لم أفعل ، أكتب

اليك لتصلح خللا ، لترتق ثوبا انقطع ، لتصل غشاء تهتك ، لتفحص جرحا ، لتوقف نزيفا ، لتضع ملحا فى طعامى لتمد رصيفا يحمى السائرين من مركبات لا ترحم ، أكتب لتبعث الحياة فى ضوء فنار والا هلكت السفن ، لتكسو مسجدا عاريا بالحصير ، هل يصلك صوتى خافتا من هنا ؟؟ أعرف أن فصلى موضوع صغير جدا بالنسبة لمشاغلك . لكنه عندى الولادة من جديد ، النار تحت الخبز ، عملى فى الاسكندرية خندق يحميني هنا ، دشمة لا تنفذ منها شظايا الأيام ، فكيف تفصلنى ؟؟ الغاء القرار لا يحتاج منك الا الى جرة قلم ، أقل من نقطة مداد أحمر ، كيف لا تفعل ؟؟ هل غضبت لأننى أكتب بالمداد الأحمر ، ألم أقل لك اننى فى بور توفيق ، أنبوبة الحبر الأزرق جفت وانتهت ، من أين آتى بمثلها هنا ؟؟ لابد من اتمام الخطاب ، استعملت أنبوبة اللون الأحمر ، أتراك غضبت ؟؟ لكى أطمئن نفسى ، قلت ربما سافرت الى أوروبا فى العامين الأخيرين قمتم برحلات الى الخارج لتسويق المنتجات ، فتح أسواق جديدة ، البلاد فى أمس الحاجة الى العملة الصعبة ، لكن مهما طال غيابك سترجع ، قلبى يحدثنى انك الآن فى الاسكندرية ، تذهب يوميا من التاسعة ، تجلس فى المقعد الخلفى للسيارة ، تقرأ الصحف ، فى المكتب تطلب القهوة ، بعد قليل تطلب الثانى ، كما نعرف جميعا تشرب حوالى ثلاثين فنجانا يوميا ، الفنجان ثمنه قرشان ، ستون قرشا ، ثمانية عشر جنيها شهرياً ومائة

سيجارة ، أعرف انك تشرب نوعا أجنبيا لا أذكر اسمه ، يقول العمال ان ثمن العلبة منه خمسة وثلاثون قرشاً ، خمس علب يوميا ، جنيهان الا ربعا اثنان وخمسون جنيها تقريبا فى الشهر أعرف مشاغلك الجسام ، أوقن انك فى الاسكندرية ، لكنك يا سيدى . . لا تسمعنى . .

* * *

ـ ضربنا الرقم القياسى يا حبيبى . . .

ـ كم الساعة الآن ؟؟

ـ الليل على وشك الدخول فى الرابعة . . نتحدث من الواحدة . .

ـ سهير . . لن أضيع السماعة . .

ـ والشغل . .

ـ ياه . .

* * *

« . . الخطاب الثالث وصلنى ، أبى قلق يا سعادة المدير ومعه حق ، الرزق خافت شحيح ، أنت أب ، تخيل انى ابنك أعرف ان ابنك يتلقى العلم فى أوربا ، طبعا الفارق بينى وبينه عريض وفادح ، فى رمضان منذ عامين أقامت الشركة افطارا ، حضرته وخطبت فيه أنت مبتدئا كلمتك ،

أبنائى العمال والموظفون ، اذن اعتبرتنى ولدك ، هل تقبل أن يتجول ابنك فى باريس بلا نقود ؟؟ هل ترضى أن تشتهى نفسه رحلة الى بلدة بعيدة مع فتاته ولا يقوم بها لقلة نقوده ؟؟ هل تعرف الراحة يا سعادة المدير ، لو علمت بتهرب ابنك من دعوة أصحابه للرقص ، لقلة ما بيده ؟؟ لكن كيف يحدث هذا ؟؟ أى قصور أصاب عقلى ؟؟ أنا لم أحلم بزيارة باريس ، أنت تجهلنى . لا تعرفنى ألم تقرأ خطاباتى ؟؟ هل سد أزيز جهاز التكييف اذنيك ؟ ألم تقرأ ما كتبت ؟؟ أنت تبتر يدا أمدها الى أبى ، مستحيل ان تعتبرنى ابنك ولو لحظة ، ابنك يرى العالم أول عمره انا لم احلم بركوب بحر أو جو ، لم أمشِ مع فتاة ترتدى جاكيت شمواه فى محطة الرمل لم أجلس الى أنثى تدهن جفنيها بلون أزرق ، انا لا أقرأ الصحف الافرنجية ، لا أجيد لغة ، تعليمى لم أتلقه فى أوربا ، او فى مدارس أجنبية ، لكن هذا لا يعنى فصلى كالنفاية يا سعادة المدير ، أنا لم أدخل الفنادق الكبيرة ، لم أحتفل بالكريسماس فى شقق بها سلالم داخلية ، أى عام جديد لا يأتى الا بالهم ، نسأل دائما ، ماذا نفعل غدا ؟؟ بأى أرض نموت ؟؟ أنا لم أتناقش مع صاحب حول المرسيدس أو الفيات ، أيهما أفضل ؟؟ يا سعادة المدير أنا لم أر اوبرا فى حياتى ، لا أرى الافلام فى دور العرض الكبيرة ، لن تعرفنى ، لكن يجب أن تسمعنى ، هل أنوح ، ليت للبراق عينا فيرى ؟؟ كيف تصغى الى ؟؟ لو جئتك سيدفعنى عنك

سكرتيرك الشاب ، انت تقيم فى بروج مشيدة ، أفق يا سعادة المدير ، لا تغمض عينيك ، ولا تسد أذنيك ، اضغط مقبضا خفيا ليمتلىء المكان بالنور ، ارم التقاوى لتنبت الأرض ، بأى حق تفضلنى ؟؟ كيف تؤذينى ؟؟ اقلب الصفحة التى تأبى مفارقتها ، أنت تقصف آمال أبى ، أنت هجوم صاعق على نهاية عمره الشقى ، أنت طيران منخفض لا تنذر انما تحرق آمال أختى ، تغير على البهجة فى عينى أمى لحظات عودتى ، أنت جنزير يدهس مرارتى ، أعددت كمينا ناجحا لم يخطىء لحياتى ، تذبحنى ولا تدرى ، أفق أفق ، أفق ونجنى .... » .

« .. تعدو ، تعدو ، لكن إلى متى ؟؟ حتما يدركها ، ترتمى فوق الرمال الناعمة المشبعة بالشمس ، بالرخاوة ، انقلبا ليواجها سماء أغسطس ، أى متعة ، أى رغبة فى الانطلاق ، بلا توقف فوق أمواج البحر ، يحيط الخصر المبلل بذراعيه ، عيناها واسعتان ، شفتاها موطن المتعة ، أرض بكر لم تكتشف ، غرس فوقها أعلامه وألقى ترحاله ، أحيانا عند خروجه من مكتب سيادته ، يميل اليها فجأة ، بشفتيه يلمس شعرها ، تحذره .. يا مجنون يا مجنون ، أتحبنى فعلا ؟؟ يحيطها بذراعيه ، يصغى إلى سخونة الانفاس ، أطفال يلعبون بكرة حمراء ملونة ، البحر غافل ، تائه فى الافق النائى ، رائحة شواء ، بيده يكوم الرمل فوق ساقها ، يوزع الذرات فوق النعومة الملساء المبللة ، اعتدلت فجأة ، مصمصت شفتيها ..

ـ سأرجع إلى حبيبى .. إلى حبيبى البحر ..

لم يرد راديو قريب يعلو .. وإلى خطيبته منال .. إليكم جميعا « زى الهوا » .

ـ هنا فى المنتزه أعود إلى طفولتى .. ليتنى بقيت طفلة ..

يدرك الآن أطراف أصابعها ، يغطيها بالذرات الصفراء التى لا تفنى .

ـ لكن قل لى ..

لو استمر قليلا لصاحت من اللذة ، « وخدتنى ومشينا ، والفرح يضمنا » .

ـ ألم يرسل خطابات أخرى ؟؟

تقترب يده من حافة الأصابع ، تقلصها ، تبسطها من جديد « وبقيت وأنت معايا ، الدنيا ملك أيديه .. » .

الشمس رأس بلا جسد فى سماء متوهجة .

ـ ياه .. أما زلت تذكرينه ..

ـ توقعت حضوره فى أى وقت ..

ـ من ؟؟

« وآه من الهوا يا حبيبى آه من الهوا » .

ـ هذا الشاب المفصول .

ـ اى . . آى . . أنت تنسى دائما . .

« طلبها أيضا الاخ نصر وعروسه عايدة » .

ـ آه . . ربما أفاق . . غلبه العقل . . هل كان فى . .

ـ بور توفيق . . كان يذكرها دائما .

« وإلى رباب مع أجمل التهانى بالخطوبة » .

ـ بور توفيق . . يا ستى . . ربما . .

ـ إى ، إى ، إى ، لا يا سامى . . إى . . سامى . . .

ضحك ، ضحك . يده مستمرة فى دغدغة باطن قدميها .

« زى الهوا . . آه يا حبيبى زى الهوا » .

ـ اسكت يا روحي . . سامي . . الله . . إي . . إي . .

قامت تعدو . .

« آه . . زي الهوا . . » .

حكايات الغريب



أجزاء من سيرة
عبد الله القلعاوى

« تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة »

. . من المعروف أن جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة أطلقوا عليها اسم « مجموعة القلعاوى » بل إن المتخصصين ، ومنهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التى عملت من خلالها المجموعة ، وطيارو الهيلوكبتر الذين اشتركوا فى نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمى عند حديثهم عنها ، لهذا فإننا نميل إلى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التى رددها المواطنون أيضا . . فأعمال المجموعة لاقت صدى من نوع خاص بينهم ــ بغض النظر عن الاسم الرسمى المستعمل فى المكاتبات السرية وخطابات الشئون الإدارية ــ وكما تفيد مصادرنا فى الأرض المحتلة أن العدو أطلق عليها اسما رمزيا هو « الفرقة الخاصة » ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جدا ، لم ترق إلى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا الى أسباب عديدة ليس هذا مجال تفصيلها ، لقد اتسمت الأعمال القتالية بملامح خاصة وحتى نستطيع الإلمام بطبيعتها لا بد من إشارة أولية إلى مسرح العمليات .

١ ـ نطاق العمليات

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحدة مقاتلة بمهمة معينة يحدد لها إطار معين يضم أهدافا منتقاة للتعامل معها ، ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءاً من السرية إلى الفرقة إلى الجيش ، لكننا لا نجد هذا منطبقا على مهام مجموعة القلعاوى ، يبدو قولنا واضحا من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطة بها والتى تحتل ــ حتى الآن ــ جدارا بأكمله من غرفة القلعاوى ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء ، كل دبوس يعنى عملية تمت ضد هدف ، توجد مجموعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعنى أهدافا سوف تهاجم ، من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن عددا من أبرز الخبراء العسكريين الذين زاروا البلاد بعد الحرب وتوفرت لديهم بعض المعلومات أبدوا دهشة وإعجابا بالمجموعة ، ونورد فيما يلى تلك السطور التى كتبها الجنرال هان كريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والعسكرية ، الذى زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« . . يبدو واضحا أن تلك المجموعة من الرجال قد خلقت لنفسها قوانينها الخاصة ، إذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف

عليها ، وللأسف غير متاح الآن الاطلاع على ظروف تكوينها وعملها . . » .

ونقول إن مجموعة القلعاوى هاجمت أهدافا تقع فى رأس محمد بأقصى الجنوب من سيناء . وأهدافا أخرى فى بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، فى لسان التمساح ورأس العش ، وسدر ، وإيلات ، وعلى امتداد منطقة الخليج ويقول الذين عملوا مع القلعاوى إن الخليج لعبته ، وتتردد أقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها ــ لأسباب عديدة ــ أنه قام بعديد من المهام فى مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيونى ، ليست بالضرورة أعمال قتال ، إنها تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته وصلت فى الأسابيع التالية ليوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين فلسطينيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفة ، وقع بعضهم بالأحرف الأولى ، وإذا ما أتيح للمهتمين بسيرته مقابلة قادة الوحدات الذين واجهوا العدو من رأس العش شمالا حتى مواقعنا المطلة على البحر الأحمر ، فإنهم سيسمعون قولا يتردد كثيرا « لقد مر القلعاوى من هنا » ، أى أنه إستخدم المنطقة التى يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق ، سيجدون أنه عبر فى توقيتات مختلفة فمن نقطة معينة تقع فى مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال أربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر فى الصباح ، فى الغروب ، فى الظهيرة ، فى منتصف الليل ، أول ضوء وفى

آخر ضوء ، ونظرا لأهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيما يلى بعضا مما قالوه ، ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوى على أشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

* * *

يتحدث العقيد أركان حرب (م . أ . ع) قائد تشكيل مقاتل فى منطقة البحر الأحمر .

. . . أتذكر هذا الوقت بدقة فالثوانى والدقائق ذات أهمية خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحا وخمس دقائق عندما وصل القلعاوى ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجد أى مصدر ضوء صناعى على بعد عشرات الكيلو مترات ، لا يبدو لا معاً إلا النجوم وضوؤها الخافت وعددها الكثير . كل شىء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصطدم بالشاطىء الصخرى ويرتد عنه ، يحوى تحذيرا . هنا يكتسب الصوت الآدمى العادى أبعادا ودلالات ، إن تسعل فهذا يثير انتباه الكمائن والدوريات المتنقلة وجنود الملاحظة لهذا . . (فترة صمت) . . أوشك الآن أن أستعيد الأصوات المحدودة الخافتة التى صاحبت مجىء عبد الله عدد الرجال أكثر مما قدرت ، وقف صامتا ، لم يصدر أمرا بصوت عال ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة إتصال خفى يشدهم

إليه ، كأنهم يقرأون فى وقفته ، فى استدارته ، فى عقد يديه أمام صدره تعليمة أو أوامر معينة. ، أذكر وقـع خطواتهم الخـافتة ، يمـرون أمامى ، لا تبدو منهم تفاصيل إلا للحظات مارقة . يتجهون إلى القوارب الراقدة فى البحر والظلام ، كـأنهم يتجهون لقتـال الليل نفسـه ، يدخلون فيـه . سمعت الكثير عن القلعاوى ، لم أره ، هو أقدم منى بأربع دفعات كما أن مجال الخدمة الخاصة جعلنى لا ألتقى به . لست أنا انما معظم زملائى حتى زملاء دفعتى ، إذا ذكر أحدنا أنه رآه فيقترن هذا بعمل قتـالى ، إذا رآه أحدنا فيتبادر إلى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه . . الله ، إن القلعاوى ما زال يعيش ، فى هذه الليلة وقفت على مسافة متر واحد من القلعاوى ، لم أساله عن المهمة التى سيقوم بها الآن لأن من طبيعة أعماله السرية ، أو الطرق التى يسلكها فى الناحيـة الأخرى ، مهمتى محـدودة تغطيـة الرجـال أثناء الإبحار وتأمين عودتهم . . (صمت) أرى القلعاوى وكأنه أمامى ، عيناه تنظران فى خط لا يحيد ، وجهه كان متطلعا إلى أعـلى باستمـرار حتى لو أطرق ، يبدو كـأنه يقف دائـما فى وضع صفـا ، حذاؤه جلدى ، ثيـابه مشدودة إلى جسده ، سترته مليئـة بجيوب عـديدة . هـو مصمم هذه الثياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال عندما اتجه إلى نقطة الابحار لاحـظت شابـا قصيرا خفيف الحـركة يتبعـه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لا فرق بين

المياه والأرض . المادة واحدة فيها عدا رائحة البحر . أصغيت طويلا ، إبحارهم أضاف عمقا للظلام والليل . هناك فوق نقطة معينة ، فى اتجاه محدد . . يتحرك القلعاوى . .

* * *

نص محادثة لاسلكية جرت بين القلعاوى . . وأحد الضباط الكبار الذى وقف يتابع عملية للمجموعة من فوق الشاطىء الغربى للخليج ، تم تسجيل هذه المحادثة فى ديسمبر ٦٩ . . فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوى : مستمر . .

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة . . أفضل التقدم نحو مكان الإبحار .

القلعاوى : استطلاع الهدف ضرورى . .

الضابط : انهى العملية .

القلعاوى : (صمت) .

الضابط : عد يا عبد الله . . عبد الله . . سامح وليلى فى انتظارك . .

(القلعاوى يغلق الجهاز . .)

* * *

يتحدث المقاتل (ل) أحد رجال المجموعة :

بعد أن اختارنى للعمل معه . وفى أول لقاءبه . قال إن هذه المجموعة سوف تحارب عدو مصر فى كل مكان . وتلاحقه وتضربه ، الجميع هنا يقضون أيامهم إما استعدادا للقتال أو فى حالة قتال فعلى . كل منهم جاء إلى الحياة ليقتل . طلب منى أن أحدثه عن نفسى . وفى البداية ظننت أنه يريد الالمام بالمعارك التى خضتها لكنه رفع ملفا أزرق ، قال إنه يضم أكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثته عن والدى . عن الخطابات التى أرسلها كل شهر إلى عيالى . ما اشتريته لهم فى بداية أجازاتى ، حدثته عن انتظار أهلى عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلية ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا الأصوات الليلية فى الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخر وتدحرج الحصى وما يتركه فى النفس عواء ذئب ضال أو باحث عن فريسة ، تكلمت عن الساقية القديمة التى ركبتها طفلا ، ظننت عجلتها ضخمة جدا ، والبئر بلا نهاية ، بعد سنين كلما مررت بها أدهش وأنا أرى بئر طفولتى السحيقة مجرد حفرة ، حدثته عن رائحة الفول الأخضر وامتلاء الكوب حتى الحافة بالماء وصرير عجلات الترام عند المنحنيات وحدود المدينة وأول امرأة نراها بعد عودتنا تمشى فى الطرقات الآمنة ، الرجال فوق أسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جرارا زراعيا . فلاحات حملن قصعات المونة وذهبن لبناء قاعدة صواريخ . صوت عجوز منهن

تقول ، « ما هو ده حيحوش البلاعنا » ، جندى يجلس القرفصاء فوق رمال الصحراء ، نفس جلسة أبي بجوار المصرف المجاور للزراعية ، لم يستوقفنى ، لم يستفسر . لم يطلب إيضاحا ، لا . . . لم يصمت ، أذكر الموقف الآن فأذكر أنه بادلنى الحديث مع أنه لم يلفظ حرفا . تجعيدتان عند ركنى فمه كأنه أصغى إلى خبر مؤثر . أوحزن قديم أو تساؤل محير أو حنين إلى مسقط رأسه . يقولون إن هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم ، زميل دراسته . زميل الكلية ، مؤسس المجموعة معه وساعده الأيمن فى كافة العمليات التى تمت حتى ذهابه فى مياه الخليج . سمع صوت سقوط جسم فى الماء ولم يسمع أحد صرخة أو استغاثة ، منذ هذا الحين اختفى عاصم ، كثيرا ما لمحته يقف عاقدا يديه ، أراه من بعد ولا أتبين ملامح وجهه . لكننى أثق من وجود هذا البحث فى عينيه ، ربان يستطلع أرضا لم تظهر بعد ، يستمر واقفا لفترة ثم يستدير فجأة ، لا أستطيع أن أتخيله يمشى متسكعا فى ميدان مزدحم ، يسافر إلى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة بمقهى . كما عرفنا أن القلعاوى لم يحصل على أى أجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٧ . مع أنه ينظم أجازاتنا بنفسه ، ويمنح من يسافر بعيدا يومين إضافيين حتى تكفى مدة السفر ، أقول الآن إننى عندما أفارق المجموعة متجها إلى بلدتى أشعر بخجل لأننى أسافر وأتركه . فى أيام الجمعة يجىء مع سامح وليلى ، تعرفهما ويعرفان كلا منا باسمه ، بماذا يوحى لنا سامح ؟

أراه دائما كأنه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا فى صالة البيت . أضم شفتى بأسنانى جاء ممسكا عددا من النياشين والأنواط وراح يقدمها إلى الحاضرين متحدثا عن المناسبة المرتبطة بمنح كل منها إلى القلعاوى الآن يتحدث كل منا إليهما بالتليفون مستفسرا عما إذا احتاجا إلى شىء ما ، أدير قرص التليفون متوقعا صوت القلعاوى وعندما يرد سامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفا ، يقولون إن القلعاوى يتصل بهما قبل خروجه إلى العدو لكن لم يره أحد يحدثهما . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التى بهتت من الطلاء الأزرق ، يطلب شايا ، دخلت عليه مرة . رأيته منبطحا فوق الأرض . حوله خرائط ، كتب مفتوحة لم تغلق ، مساطر أقلام ملونة ، أدوات هندسية ، شريط طويل من صور فوتوغرافية متعاقبة ربما التقطها بنفسه إذ إنه قام بتصوير بعض أهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع أن مهمتى القتالية تغطيته خلال الهجوم فى الليل . فى الصباح . فى العصر . بمجرد انتهائه من وضع خطة العمل . تصبح مجرد أوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الأعلى . نراه يخرج من المكتب ، يتحدث إلى بعضنا ، يصعد التبة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها أرض التدريب مرات ، ومرات . يدرك الرجال أن ثمة خطة اكتملت . لكل منهم دور محدد الآن . إن القلعاوى يبدو مرحا . خفيفا . ربما صاح على أحد الرجال بدون أية مقدمات يسأله عن

أحواله ،! عن صحة أولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن أحوال أم مريضة بالسكر أو أب يعانى متاعب الشيخوخة . عن تفاصيل مشروع زواج تبطىء خطواته بسبب عدم الحصول على مسكن أو متاعب مع أهل العروس . فى البداية يفاجأ المنضم إلى المجموعة حديثا بأسلوب القلعاوى المفاجىء . المباغت تماما كهجومه أو ظهوره فجأة وراء خطوط العدو ، اعتدناه ، يعرف كل شىء عنا ، أسماء أطفالنا ،! عدد الأقساط التى يسددها كل منا ، بل قيل إنه يحدد دور كل منا طبقا للحالة النفسية للفرد . أثناء عبورنا المياه أو مشينا فوق الأرض هناك . برغم تباعد المسافات بين الأفراد . فإن القلعاوى يتمثل الحالة النفسية التى عليها مقاتل الاستطلاع فى المقدمة أو فوزى وحسان فى أقصى المؤخرة تماما كالقلب يدفع الدم إلى أقصى أطراف الجسم لكن هل يرى الدم أثناء وصوله إلى أطراف الأصابع ؟ كل مقاتل باتجاه الهدف كوحدة مستقلة . شعور يتملك بأن القلعاوى يراه . يدرك ما يتردد بين طيات نفسه ، يز[illegible] الخوف ، دفقة الشجاعة . شجن ذكرى معينة . ماذا يجعلنى [illegible] للمشى أياما ؟ أفنى فى قتال ، ماذا يجعلنى أوقن أننى عشت بما يكفى ولو فقدت عمرى فسوف أقبل هذا ببساطة ، أهو الوطن ، الحقد على العدو ، أو التاريخ الذى جعله القلعاوى مادة فى برنامج تعليمنا ، أهى طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائى . بعد

كل حديث للقلعاوى أشعر أنني ازددت ثقافة ووعيـا . يقول القلعـاوى باستمرار ، لابد من معرفة العالم ، هناك شيء مباشر يمكنني أن أشير إليه ، أمسكه بيدى ، احسه ، أشعر بوقع نظراته . . له كيان وحركة ووجود . يمكنني القول إنني أفعل هذا لأثبت له أنني كفء ، انني عند حسن ظنه ولم يخطيء فى اختيارى مقاتلا إلى جواره . أرى القلعاوى أثناء سفرى واقفا فى خضرة الحقول ينظر إلى المجهول من خلال منظاره ، أراه بيننا فوق نقطة ما من سيناء . نفاجأ بهجوم مضاد . أتقدم منه . أقول له . . « يا أفندم اسمح لى أن أحمى انسحابكم » ، ا أقبل راضيا وأنا أعلم ما ينتظرنى بعد عدد معين من الدقائق . قالوا عنه إنه محجب وأن من يقاتل معه لا يصاب وأن رجلا سودانيا عجوزا أعطاه حجابا وأن هذا الحجاب يحمله فى مكان ما من ثيابه وأنه يمنع نفاذ الشظايا إلى جسده . لم أر الحجاب ، قيل إنه قادر على رؤ ية الرصاصة والشظية فى مسارها أنه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا إنه عاش دائما بعقلية من يمر مرورا عابرا بالدنيا لهذا اندفع دائما فى اتجاه الخطر . قال عنه البعض . « القلعاوى وش موت » . أراه صامتا كأنـه يطمئننى ، أسمع صوته دائما فى أذنى . وفى لحظات انتقالى من اليقظة إلى النوم كل ليلة . مع أنه لم يتحدث إلى كثيرا ، لا أذكر صوتـه غاضبـا . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث إلى كثيرا أنا أقرب الناس إليه فى وضـع الهجوم . لم يرتفع صوته فى تمام الساعة الثانية عشرة والربع من ظهر الجمعة

١٩ أكتوبر . قال كلمة واحدة صداها متصل فى أذنى حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التى تجرح صدر الليل بلونها الأحمر .

« غطينى . . . . . » .

* * *

نص حوار جرى بين اثنين من ضباط مخابرات العدو أمكن الحصول عليه . . . ونرى ضمه إلى مقتطفات السيرة لأهميته .

المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسى بمدينة العريش المحتلة .

التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر أحد أيام نوفمبر الأولى عام ١٩٧٣ .

ضابط (١) : إننى أميل إلى وضع الأمور فى حجمها الطبيعى .

ضابط (٢) : ما أسهل هذا بعد وقوع حدث كبير . . حرب . . معركة . . الحقيقة تضيع تماما .

ضابط (١) : كنت ستقول شيئا . . ما هو ؟

ضابط (٢) : تبدو الحقائق شاحبة بعد انتهاء الحدث . .

ضابط (١) : حصولكم على جثته . أمر لا يقل أهمية عن موته .

ضابط (٢) : قلت إنه من السهل اقتراح كل شيء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حيا أوميتا . . فى معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التى بإمكانه أن يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك أن تردد بعض ما توهمه رجالنا الذين فرغناهم لقتله . . لا أعرف بالضبط قدرته على المشى . . بعضهم نسب إليه أمورا خارقة كقدرته على المشى أسبوعا متصلا فى أصعب الأراضى . . ستقول لى قدرات الإنسان وإمكانياته . لكننى أحفظ . . أذكر عبارة رددها عدد من الأسرى أثناء استجوابهم . . قالوا إن ثقته بقدرات الإنسان لا حدود لها . وهذا أول شيء يقوله لمن يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شيء الآن .

ضابط (٢) : ومازلت أقول . . إن الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبدا . .

ضابط (١) : ربما . .

* * *

وعندما علم العقيد أركان حرب (. ق) بمشروع جمع سيرة عبد الله

القلعاوى . . طلب أجازة لمدة اثنى عشرة ساعة ليقص حادثة معينة . .
لهذا نوردها كنتيجة لإصراره . وربما تبدو فى غير موضعها .

أنا مدين له بحياتى شهد النهاية والبداية . لم أره إلا مرة واحدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاما . اشتركت فى دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدأ اللون الأصفر لا نهائيا . العرض كالطول . نمشى . وخط السماء لنطبق على ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنا حفر الرمال لندفن رءوسنا ، شربنا بولنا ، تشققت حلوقنا ،! الشمس كمصباح قوته ألف ألف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا إن القلعاوى الذى اشترك كعضو فى هيئة التحكيم أبدى قلقا . لم نقلق نحن . لم تتماسك أصابعه ثم تنفرج . لم ينقل ثقل جسدة من ساق إلى أخرى يقولون إن عينيه ثبتتا فى اتجاه واحد مؤدى إلى بطن الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئة السماح له بالاتجاه إلى عمق اللانهائية بحثا عن المفقودين . بسط الخرائط . يقول الذين شهدوا الموقف إنه اختار أصعب الطرق الذى يتعامد على خط سير الطابور ، حمل بعض زمزميات المياه وعددا من القنابل الصوتية ، للأسف لم يحدثنى عما لاقاه فى الجبل والصحراء . ما أعرفه أنه مشى ساعات متصلة فى درجة حرارة تقارب الأربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبلة حتى يلفت أنظارنا إلى أن هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة

تصايحنا ، وقفنا عرايا تماما ، بدا القلعاوى لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسرا عما جرى ؟ . قدم إلينا جرعات قليلة من الماء فى غطاء الـزمزميـات . جرعـات لا تكفى لبل أفـواهنا . تـطلعنـا بشـراهـة إلى الزمزميات المغطاة بقماش أصفر سميك . بدا حازما حتى أننا لم نفكر فى طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظمأ ، الإنهاك ، الخوف ، ! مع هذا عدنا مع القلعاوى مشيا على أقدامنا . . قبل وصوله بدا مستحيلا أن نخطو مترا واحدا ! مشينا سبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقعد لم يشجعنا إنما بادلنا حديثا وديا عاديا ، بين الحين والآخر يقدم لنا قليلا من الماء فى غطاء الزمزمية المحدود . تحدث إلى الـرجلين اللذين جاءا معـه حديثـا موجزا . لـلأسف لم أعرف من همـا ولا أدرى مصيرهمـا الآن . تقدمنـا القلعـاوى بخـطوات ، ! كـأن لغـة خفيـة بينـه وبـين رمـال الصحـراء ووحشيتها . خلت الأرض من العلامات المميزة والكثبان ومع ذلك بدت خطواته راسخة فى اتجاه اليمين واليسار وإلى الأمام . فى الصعود والنزول ، احتملنا المشى معه ، كيف لا أدرى الآن . لم يشك أحدنا ، لم يقل لفظا ، أو ، آهة . . هذا هو القلعاوى . .

* * *

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة إلى المقاتل (ك . ى) رئيس

عمليات المجموعة السابعة . طلبت منه كتابة فصـل عن أراء القلعاوى العسكرية وانطباعاته عن الحياة والناس كما عرفها (ك . ى) الذى يعتبر من أوثق الناس صلة به . لكنه رفض تقديم أى معاونة . قال إن كثيرا من الفضوليين وكتاب القصص والصحفيين السطحيين سيتخـذون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوى ، ماذا سيقولون عنه ؟ إنه عاش بطلا ؟ إنه شجاع ؟ إنه قام بعبور القناة وسيناء أكثر من تسعين مرة . هل هذا ما يجب أن يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شيء . قال (ك . ى) أنه لن يشارك فى استباحة دم أقرب الخلق إليه . قال إن القلعاوى يجب أن يذكر بطريقة أخرى أنه يعيش هنا ـ خبط صدره براحته ـ فى رجال المجموعة . فى كل من خدم معه ، ! ليتعقب سيرته من يرغب . لكن (ك . ى) : سوف يذكرها بما يليق بالقلعـاوى ، لن يبوح بـأى شيء لأى لجنة ، أو صحفى . .

* * *

قسم به معلومات عن الأوسمة والنياشين :

فى حجرة الاستقبال البسيطة بمنزل القلعاوى (يلاحظ بساطة الأثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحـاجة) ويـرجع البعض هـذا إلى الـظروف التى تم فيها زواج القلعـاوى ، إذ إن أسرة زوجتـه عـارضت الاقتران به . فاضطر إلى فرض الأمر الواقع عليهم ، تحمل القلعاوى كل تكاليف تكوين البيت ويبدو انه استكمل بعض الحاجـات خلال العـام الماضى اذ توجد فواتير شراء ـولاب كتب ، ورديـو ضخم به بيـك أب وتاريخ هذه الفواتير يعود إلى شهـور خلت ، ويقول البعض الآخـر إن البساطة ترجع إلى شخصية القلعاوى ، لم يره أحد يعتنى بالمظاهر . بل إنه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله أى ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوما فى حديثه إلى أحد أقاربه قائلا : إذ لم نرتدى نحن مصنوعاتنا الوطنية فمن سيرتديها إذن ؟؟ . . فى مواجهة الصالة توجد مجموعة كبيرة من براءات النياشين والأنواط التى حصل عليها عبد الله بعد أسبوعين من ١٩ أكتوبر أخرجت السيدة ماجدة القلعاوى هذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناية ، تملأ فمها بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحدا وراء الآخر لتدقه برفق حتى لا توقظ سامح دليلى ، ويبدو أن ابنى القلعاوى عرفا

الخبر فى هذه الليلة ، من الثابت أنه لم يـرغب فى عرض هـذه الأنواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظرا لارتدائه الأفرول باستمرار . لكن شوهد مرة يتجه لمقابلة أحد القـادة الكبار ويعلق مجمـوعة من النيـاشين (تشخلل) على حد قول أحد زملائه الذى قال إن أى مقاتل يود لو حصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة ، القلعاوى حصل عليه ثـلاث مرات . ويمكن القول إنه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصرى حصل على مثل هذه المجموعة ، فى هـذه الليلة وضعت السيدة مـاجدة نموذجا صغيرا لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« إلى العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى » .

إن عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لمواقع صـواريخ الهوك . . لمن العمليات التى سيذكرها التاريخ بالفخر والاعزاز .

مقاتل طيار زميلك

٦٩/٧/١٧

* * *

« يتحدث العقيد صابر . . وهو أحد من شهدوا اقتحام القلعـاوى للسان التمساح ومهاجمته قواعد صواريخ الهوك » .

بدأ القلعاوى مضطربا ، وعندما أعلن قراره قلت إن هذا جنون ، وقلت لرئيس عملياتى . .

« إن عودته إلى الضفة الشرقية أمر فى غاية الخطورة . . » .

لكنه كما يقولون ، لا يقبل هذا أبدا ، وشاء حظى أن أشهد إحدى هذه اللحظات التى يتحدى فيها القلعاوى الخطر والموت ، لو جرح أحد رجاله لابد أن يعود به ، لو استشهد فلابد أن يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هذا ذلك القتال المر الذى خاضه رجال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . اندفع فى اتجاه القناة . رأسه عار فهو لم يرتد خوذة قط . الاندفاع الإنسانى الأبدى فى اتجاه المصير المحدد . رفعنا درجة الاستعداد للدرجة القصوى ، وبدت السماء بصفاء يوليو منبعا للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلا ، جنح إلى الشمال امتارا ، ثم استقام فى اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمكة ضخمة من الماء مرات . اختفت . كقبضة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهاون ، انبطح مع رجاله الأربعة الذين صحبوه ، قاموا ، تقدموا ، انفجرت دانات أخرى ، تجمد الدخان فى الفراغ . وسمعنا فى الدشم والخنادق والملاجيء صوتا عاليا نفذ عبر الشظايا . .

ـ يا سعيد . . يا سعيد . .

ينادى رجاله الجرحى ، كيف يصدر هذا الصوت المرتفع القوى من القلعاوى ، الهادىء ، المستكين . . الذى لا يتحدث إلا همسا ، اختفى عن ابصارنا ، لم نر مصدر النداء . بدا قادما من الأرض والساتر الرملى . من عند خط السماء المطبق على الأرض .

* * *

ما أدلى به أحد مقاتلى المجموعة السابعة . . لم نذكر اسمه لأن زملاءه وصفوه بأنه « مطلوب » أى أن العدو وضع اسمه فى قائمة من يحاول الانتقام منهم . .

أنا عملت مع القلعاوى . أنا أحد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوى من لسان التمساح . حطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفا ليليا ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر أوامره بصمت ، يمشى الساعات الطوال فيخجل الواحد منا أن يصرخ بارهاق ، بتعب ، يتحمل . . يتحمل حتى يثبت له أنه جدير بالقتال إلى جواره أنا حاربت معه ، ا هو أختارنى . اختارنا واحدا ، واحدا ، حاربنا معه إسرائيل . بعد فترة معه عرفنا عنه كل شىء ، عرفنا أن القلعاوى جاء إلى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا إليه كثيرا ، لكن كل خروج معه يقربنا إليه مسافات ومسافات . أنا عبرت معه ستا وثمانين مرة ، سلكنا معه الأصعب دائما ، إذا اتجهنا إلى هدف

معاد فإن ثمة ثلاثة أو أربعة طرق تؤدى إليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقيد بتوقيتات ، كما يقولون إنه يندمج تماما فى القتال ، يصبح ميلاده مع بدء العمليات ، لا مجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصور ، معه ينتفى الخوف القلق . ألم بتفاصيل الأرض التى نمر عليها ، أثناء عبورنا الخليج ، مياه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر إلى النجوم ، إلى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يذهل الدليل بقدرته على اقتفاء الأثر أطلق أسماء معينة على مناطق الصحراء المختلفة ، توجد الآن كراسة فى درج مكتبه ـ (لم يدخله إنسان منذ الجمعة ١٩ أكتوبر) حتى تليفونه المباشر لم يستعمله أحد ، كثيرا ما سمعناه يرن ، أحدهم لم يعرف بعد ، فى الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، تمضى الأيام ويقل حتى يصبح نادرا ، لم يرد أحد ، حتى هذا الرنين الذى بدد صمت فجر الثلاثاء الماضى ، صحبه اصرار ، ايقظ النيام منا ، لم يرد أحد ، وبدا صوته قادما من صمت الليل يذكر (بعبد الله القلعاوى) ـ فى هذه الكراسة اسماء وعلامات اطلقها على الصخور والتلال ، اسماء زعماء اقتطع صورهم من مجلات والصقها فوق ورق أسود مقوى ، أحمد عرابى ، سعد زغلول ، ا محمد على باشا ، ابراهيم باشا ، أعرف أنه أطلق اسماء ولديه وامرأته وشهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لو سألته عن شارع قصر النيل فى وسط المدينة ربما أخطأ الرد ، ربما

لم يره إلا من نافذة سيارة ، رأيت القلعاوى يطوف بارض الطابور ، كأنه يمشى على حافة افريز مبنى ضخم ، يمشى محاذيا حديقة مزدحمة بالأطفال والنساء والرجال والصراع والمرح ، كأنـه يلامس أطـراف موجـات هدأ صخبها عند الشاطىء . أنا رأيتـه ينظر إلى السـماء الليلية عنـد أطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، أيستلهم ملامح خطة ؟ أيفكر فى تطوير زناد سلاح بحيث يصبح أسرع بمقدار جزء من الثانية ، أيجهد نفسه ليفك أسرار وشوشات النجوم ، سمعته يقول ، النجـوم للرمال وشـوشة . . أعرف أنه نظم شعرا ، لكننى لم أقرأه ، لو فتحوا أدراج مكتبه ربما عثروا على بعض قصائده ، أحيانا رأيته أكثر مما أرى نفسى ، أحيانا بعدت به المسافات عنى غير أننى منذ ١٩ أكتوبر يتيم ، أمشى بساق واحدة ، وأحرك ذراعا واحدة ، ربما أستعيد ما فقدته لو طرقت الأرض نفسها ، الدروب التى سلكتها معه فوق سيناء أقول . . من هنا مر القلعاوى غير أننى الآن أطرد الأسى عنى فأقول لكل من القاه ويلقانى . . أنا عملت معه . .

* * *

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوى :

* مطعم بميدان الحسين ، ! الموائد مصفوفة فوق الرصيف ، تغرق المبانى فى الظلال ، عابرو الميـدان يسرعـون ، إنها اللحظات التى تسبق

مدفع الأفطار ، مائدة حولها سبعة أشخاص يتصدرهم القلعاوى ، ابتسامته هنا راضية ، تعكس راحة وكأن أمرا خطيرا تحقق وكأنه سيقضى عمره مجاورا للحسين . .

* يتأمل زعانف مطاط تستخدم فى الغطس . .

* السبت ٦ أكتوبر ، يدير قرص التليفون . . ماجده . . مبروك . . الحرب قامت . .

* أمام بائع كتب قديمة اعتاد فرش بضاعته على سور مستشفى الولادة وسط المدينة فى السماء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محييا ، يقول القلعاوى . « أهلا عم كامل . . » .

* على باب طائرة هيلوكبتر ، تطير على ارتفاع منخفض جدا ، تبدو بيوت المدينة ومع ضوء النهار الواهن يلمح القلعاوى ظل الطائرة فوق الاسطح والطرقات . عند نقطة معينة فوق المبانى تبدو على شفتيه نفس الابتسامة الموجزة الغامضة والتى قال البعض انها نتيجة تفجر ذكريات معينة ، بينما أكد آخرون انها ثمرة خواطر عابرة ربما تضمنت مرحا ، وفى الشهور الأولى من زواجه حارت السيدة ماجدة فى تفسيرها وسألته كثيرا عما يفكر فيه ، عندئذ تختفى تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها إمرأته كأحد ملامحه .

* منتصف ليلة الثامن عشر من اكتوبر يقف أمام (س) بمركز العمليات

القلعاوى : هل يمكننى ان أوضح

(س) الموقف كما أرى واضح . .

القلعاوى : لقد قلت ملاحظاتى ، وبرغم هذا سأقوم بها . . لم تسمع بقية الحوار تماما كما أن المقاتل (د) الذى رأى القلعاوى بعد خروجه مباشرة يؤكد أن الشعور الـذى خرج بـه الى تلك العملية مخـالف تماما لكافـة العمليات التى قادها ، قال (د) أنه لا يستطيع وصفا لحالته بالضبط . لكنها تستدعى اليه حادثا بعيدامن طفولته ، إذ حدث أن خرجت أسرته للسفر الى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الاصغر محمد يشد ثوب والدته إلى الوراء كأنه يود الرجوع إلى البيت ، بمجرد وصولهم أصيب بمرض لا يدرى (د) حتى الآن طبيعته أو أسمه ، ما يذكره أن شيخا اسمه (أبو درية) جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه أحجبة مثلثة صغيرة ويقرأ الكثير من التعاويذ ، آخر صورة يذكرها لشقيقه رؤ يته ملفوفا فى أغطية وثياب تخفى جسده ، لا يبدو إلا رأسه وعيناه فيهما استسلام عجيب . سنوات طويلة تلت هذه الزيارة وأمه تقول : شعر محمد بما ينتظره ، عرف أنه لن يعود ، لو أننا رجعنا معه لعاش ويبلغ الآن كذا من السنين . يثق (د) أن

القلعـاوى استشهد نتيجة عملية التـاسع عشـر من اكتوبـر . . عندمـا استدعتهم السيدة « ماجدة » لتعرف من كل مقاتل فى المجموعة السابعة تفـاصيل السـاعات واللحـظات الأخيرة لـزوجها ونـوعية المشـاعر التى ارتسمت على وجهه كاد (د) أن يقول لها ما يثق فيه ، ان القلعاوى خرج وهو يعرف بل موقن بما سيحدث أطرق (د) فكر فى صعود القلعاوى تبة الرمل . لو تأخر خطوة واحدة لا خطأته الشظية ، لو خطا الى الأمام لما نفذت اليه ، لو تبادل مكانه فى المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خـروج الدانـة ، لكن كما قـال أحد الرجال أن هذه الشظية انتظرت اللحظة المناسبة بعد أربع وتسعين عملية عبور واستطلاع وقتال . .

* قرب الاسماعيلية . يلمح رجلا عجوزا يسنـد ذقنه الى عصـاه وامرأة شابة وطفلة ولحافا مطبقا وطشتا به موقد غازى . قال عبد المؤمن السائق . . لاجئون من القرى التى احتلها اليهـود . . قرض القلعـاوى أظافره .

* قبل خروجهم من القاهرة فى نهايـة طريق صـلاح سالم ، فـوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية . حولهم حقائب جلدية بعضها مفتوح ومقعد مما يستخدم فى الجلوس بالشرفات يدقون أوتادا خشبية تمهيدا لشد خيمة لم تفرد بعد ، هل رأى بينهم فتاة ترتدى الزى الأصفر ، فكر فى

ليلى ، عندما تبلغ الرابعة عشرة . . الخامسة عشرة . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

* قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوى .

ـ دعنى اتقدم إلى أعلى التبة .

يلتفت إليه عارى الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره أبدا فى كافة العمليات .

ـ أرجع . .

ـ سأتقدم أنا . . الموقف غير واضح . .

يقبض القلعاوى ما سورة الرشاش .

ـ اسمع . . أنا لم أصدر إليك طلبا فى صيغة الأمر أبدا . . الآن أطلب منك أن تلتزم مكانك . . نفذ الأمر . .

على مهل راح يتسلق التبة الرملية تتناثر ذرات رفيعة حول كعبية . .

* * *

ورقة من ملف الخدمة . . تحرر فى ١٩٧٣/٧/٤ البيان التالى بالاصابات الناتجة عن القتال .

آثار طلق نارى بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/١/٥ اليمن
شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٦/٧ ، رمانة .
شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

* * *

ذكر السيدة زوجته وبعض أحوالها :

حدث فى ليلة الجمعة ١٩ أكتوبر أن نزلت السيدة ماجدة الهوارى . عبرت فناء البيت تنظر إلى الأمام . خطواتها منتظمة ، وقفت لحظة أمام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منها مقدمة أربعة أرغفة فينو وتمسك علبة زيت خضراء اللون عليها اسم أسد ، ورأت شابا يمسك يد صديقته ، ومرقت سيارة بداخلها خمسة أشخاص يرتدون ثيابا بلدية ، وعلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة . ولاحظت أن عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدته السفلى تطل منها أسلاك كهربائية عارية . وفكرت أنه من الممكن أن تصعق هذه الأسلاك طفلا أو رجلا أوسيدة عمياء ، وعندما توقف التاكسى فتحت الباب بدون أن تنحنى ولو رآها أحد رجال المجموعة السابعة أو أحد زملاء القلعاوى فى الكلية الحربية ، أو الذين عملوا معه فى الصاعقة ، أو أحد الذين حاربوا معه فى بورسعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التى يقدم بها

القلعاوى على ركوب سيارة . نظر السائق فى المرآة المغلقة فوقه . سأل إلى أين !! « العباسية » ارتفع صوت المحرك . ولاحظت أضواء الشوارع الخافتة ، وفوق الأرصفة وخلف النوافذ المغلقة وفى الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوى هادئا على وجهه ابتسامته الآمنة كمطر الورد تصغى إلى مذاق حسه الهادئ . « لا تبكى » . حازم . باتر كطلقة لا يريدها أن تبكى . وهى لم تبك بل فكرت فى لحظة خروج الألفاظ من شفتيها وهى تنهى الخبر إلى والدتها . تسألها عما يجب عمله مع الأولاد . فكرت ، أنهما بدا يوم أربعاء ، واليوم الجمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ أربعة عشر عاما ، دخوله الهادئ إلى شرايينها ، هدوء عينيه الذى لم يتغير عند خروجه إلى عملية أو عودته من دورية . وعندما قبلها بعد لحظات من انجابها ليلى . الرؤ ية الأولى حوت كل شىء ، ضمت كل التفاصيل التى تكشفت واحدة أثر الأخرى على امتداد أربع عشرة سنة ليلى عمر العلاقة . ليلى الآن صديقتها وسندها وليست ابنتها فقط وهى من ستتطلع إلى عينيها إذا ما طرق باب البيت غريب ، وهى من سترى فى وقفتها وقفة عبد الله . تماما كوقوفه فى الشرفة . أو أمام مدخل البيت ينتظر السيارة . ستحتضنها تدعوها إلى جوارها وتقول لها ، إن أباك سيتأخر ، لو طلبت ليلى وسامح رؤ ية التليفزيون أو سماع الراديو أو إحدى اسطوانات عبد الله . فلن تمانع . هكذا يريد . توشك أن تلفظ اسمه الآن ، توشك أن تشم رائحته

أثناء عودته طويل اللحية ، يطلب قربة ماء ساخنة . فى بدايات الليل بعد أن يغادرها تصغى إلى صوت هيلوكبتر يعبر الليل والصمت والعمر . ترقب طمأنينة سامح وليلى . تخرج إلى الشرفة حتى فى أيام الشتاء ونزول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتابع العملية ، بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هى المرة الخمسون . الواحدة والخمسون .

لم يحك لها تفاصيلا . وقع خطواته هناك يتردد عبر ضلوعها الأربعة والعشرين . لا تذكر أنه قال لها « أحبك » . قبل زواجهما يستمر صمتهما لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح طائر غريب . تأمن وتستكين قال إن أيديهما حملت عبء التعبير عن عواطفهما زمنا ، نظرته إليها حلوة ، هادئة . فياضة لا ترجفها دانات . لا تجرحها شظايا . بعد عودته يتمدد بكامل ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئا جديدا . بعد رجوعه موفقا تدركها نفس هزة البداية قالت له أنها خافت الا يستمر الوهج بعد زواجهما . أن يدركهما ملل . ابتسم . لا يعيش الملل والخطر . قال أنه أكثر جرأة على مواجهة الخطر بعد حياتهما تحت سقف واحد . تلملم أصابعه تستكين يده الليلية الضخمة . مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض أن تحرم منه أن يخرج لا ليعود يرجع أو لا يرجع ، السيدة ماجدة الهوارى الآن لا تبكى . تثق

أنه يرقبهـا من مكان خفى ، يـراها ، يـلرك رجفات قلبهـا ، عليم بما سيحدث لها غدا . يرى عمرها الآتى ، الآن لن تبكى وسبل الأتصال بينهما مقـطوعة ، خـلال الأيام المقبلة ستعبـر هذا الـطريق مـرات . فى نفس الاتجاه . فى الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس إلى جواره بينما تطل ليلى وسامح من النافذتين الخلفيتين ، ستعبره ليلى يتيمة عندما تصير طالبة .

هل ستمر الهيلوكبتر فى نفس الميعاد ؟ لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها يقين أنه يقف فى الصالة . إنه أعد الشاى بنفسه . إذ تجلس إليه قد يبدى ملاحظة حول آخر لحظة ، حول بعض رجاله . أنهم ينتشرون حوله ولكنه فى الظلام يبدو كرقائق المعدن المثبتة إلى أجهزة اليكترونية معقـدة يتلقى ما يشعرون به أما هو فلا يبوح بآلامه قط . لا يزعج محبيه . عندما أصيب بشظايا فى ساقه قرب مطار الطور ، مشى فوق الصخـور ، عبر الخليج ضغط ألمه حتى وصل إلى معسكر الاقلاع . لم يقل آهة واحدة وضع يده بين أسنانه وراح بعضها ، يقتل الألم بالألم . أيام خطوبتهما بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تعقبه فترة من الوقت تغيم الرؤ ية دائما عن عينيه حتى يصل إلى لحظة لا يرى ما يحيطة إلا بصعوبة عـرفت فيما بعـد ضرورة اغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائـما . ينفى علامات الضيق من ملامحه . يستدير ليتناول قرصا أصفر . سألته . قال إنه صداع لكن أى صداع ؟ تتراجع البيوت بسرعة ، عنـدما يتـأخر أو

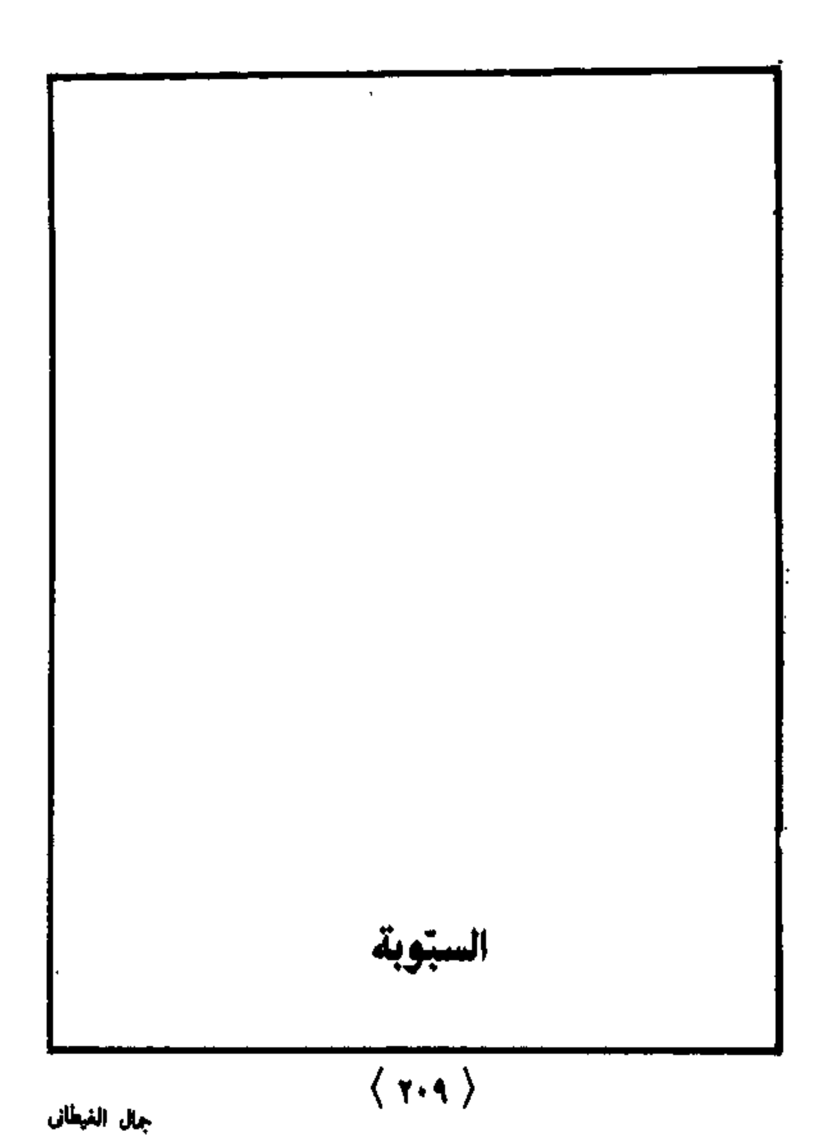
يقضى ليلته فى المقر تتصل به حوالى الثالثة صباحا . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين أما الآن لو أدارت الرقم فى نفس الميعاد الليلى المتأخر ، من يرد . من يجاوبها من . ؟ ستلتقى بكل من رفاقه تستجوبهم بدقة . تعيش من خلالهم لحظاته الأخيرة . آهته الأخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألها أمها ستقول كما قال عبد المؤمن « مات ميتة نتمناها كلنا ، جاءت الشظية فى موضع القلب تماما » ، عندما تستفسر أمها عن الجثمان ستقول « رجالته جابوه » إذا نظرت أمها إلى عينيها الجافتين ، إلى نظراتها الحادة المستقيمة ستقول إن عبد الله علم كل من يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الإنسان لما يمكن أن يقدمه ، أن يحتمله . حتى الآلام الوعرة يمكن قهرها . شظايا فى الساق كانت أو فى صميم القلب لهذا لن تبكى قط . لن تدمع أبدا .

هامش أخير :

أجمع عدد كبير من مقاتلى المجموعة على أن القلعاوى يخرج فى كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه فى العملية الأخيرة بدا موقنا من النتيجة . من الموت . هكذا تقول كل الدلائل . لهذا تم التوجه بسؤال الى (ك . ى) رئيس العمليات وأقرب الخلق إليه مع احترام رغبته فى عدم الادلاء بأية تفاصيل . فقط يجيب بالنفى فيها أو الايجاب « كيف بدا القلعاوى تلك اللحظات التى واجه فيها (ك . ى) وطلب منه بصيغة الأمر لأول مرة عملا معا ان يلزم مكانه ولكن (ك . ى) عندما وجه إليه

السؤال بدا حزينا كأنه تقدم فى السن أعواما عن اللقاء السابق الذى تم معه منذ أسبوعين . لم يتكلم كثيرا لم يبد ساخطا . لكنه رفض الحديث رفضا باتا . .

١٩٧٤



السبوبة

حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، أن طارت شظية من دانة هاون ٨١ مللى اسرائيلية الصنع ، حد من اندافعها فى الفراغ رقبة عويس السويسى فذبحته ، دفن على عجل بمقابر اعدت بسرعة غرب المدينة ، لم توضع فوق قبرة لوحة تحمل اسمه ، لم ترص حوله أحجار بشكل منتظم ، لم تغرس عصاه تحمل خوذة . لم يرتد عويس خوذة أبدا إذإنه لم يجند فى صفوف الجيش ، لم يتسلم أى مهمات بعد انضمامه الى المقاومة اثناء الحصار ، حدث أن ارتدى خوذة مرة واحدة عندما جلس صباح يوم غائم الى جندى صعيدى بمقهى أبى رواش التى تهدم جزء كبير منها ، لم ير الجندى من قبل ، فى تلك الأوقات يحدث كثيرا أن يجىء انسان ويجلس بالمقهى . لا يطلب مشروبا ، لايسأله خليل الجرسون ذلك لأن الأقوات عزت جدا ، كوب الشاى نادر لقلة المياه وشدة الحاجة إليها ، رغيف العيش يأكله أكثر من شخص . خمن عويس أن الجندى من الصعيد ، يتحدث دائما الى من يلفت نظره ، إلى من يجاوره فوق الرصيف ، أو فى رقدة أمام مسجد أو فناء بيت قديم ، يبدأ بسؤال لا يتغير ، من أى بلدة أنت ؟

حول عيني الجندي ما يشبه رذاذ جير مطفأ ، قال انه من البداري بدا غير راغب في الكلام إذ إنه عاد إلى اطراقته وكأن حوارا لم يتم ، أبدى عويس حماسا وكأنه عاش عمره ينتظر أي قادم من البداري .

« البداري ؟ أجدع ناس » ، أحنى الجندي رأسه شاكرا ، وجه نظراته إلى بيت قديم متهدم على الناحية الأخرى من الطريق . رصد عويس نظراته ، صاح موضحا أن هذا البيت دمر أثناء حرب الاستنزاف في غارة طيران ، عام ١٩٧٠ ، استشهد فيه موظف بهيئة قناة السويس اسمه رشاد أفندي ، لا يدري متى احيل إلى المعاش فمنذ أن وعى وهو يرى رشاد افندي محالا الى المعاش ، يجيء يوميا الى المقهى ، ويجلس فوق الكرسي الذي يستريح عليه الجندي ، يشرب ثلاثة فناجين قهوة ، يسأل عم خليل ، هل وصلت رسائل ، حوالي الثانية عشرة يقوم متمهلا ، لا يخرج من بيته الا صباح اليوم التالي ، كل يوم أربعاء يطلي زجاج نوافذه ، باللون الأزرق ، مهما اشتد القصف لا ينزل ، لا يغادر بيته الا في ميعاده اليومي إلى المقهى ، آخر يوم جاء فيه اقترب منه عويس طارقا صندوق ، زجاجات الأصباغ وعلب الورنيش بالفرشاة ، هز رأسه نفيا ، قام ، تابعه عويس ، بعد دخوله البيت بدقائق جاء الطيران ، وكأن الطيار اسقط قنبله بحبل ، أصابت البيت تماما ، أو مسح الحذاء ، لو تمهل في شرب القهوة ، لكنها الأعمار ، لكم بدا خلال حياته مستعصيا على الحديث ، حتى في لحظات

قصف الطيران ، تتطاير شظايا اصوات قذائف المدفعية المضادة ، لم يتحرك قيل فى السويس انه عند حدوث قصف يمكن مشاهدة سويسيين لا يفارقان مكانهما ابدا ، لا ينزلان الى خندق ، لا يحتميان وراء ساتر ، انهما رشاد افندى وعويس ، عويس يرى فى الشوارع طوال الليل والنهار ، لا يدرى أحد ، هل معه بطاقة أم تهجير أم لا ؟ هل لديه بطاقة شخصية ؟ هل لدية شهادة ميلاد ؟ هل تلقى تعليما ؟ من سمح له بالبقاء بعد تهجير الأهالى ، يقول عويس انه عند تصنيف الأهالى تمهيدا لترحيلهم لم يمتلك أى مستند يتقدم به ، لم يذكر محافظة يرغب الذهاب اليها ، أو وظيفة ينقل اليها ، أو مهنة ليعان على الاستمرار بها ، يضحك عويس ، لو اصروا على ترحيله لوجد ألف وسيله يعود بها الى السويس ، يقول انه سعى كثيرا للالتحاق بعدد من الوظائف ، قدم الكثير من الخدمات لموظف منقول الى السويس على امل الحاقه فراشا بمديرية الصحة ، مسح حذاء الموظف مجانا ، عندما باع الليمون اختار أكثر الثمر طراوة وامتلاء بالعصير ، نظف شقة الموظف يوميا ، غسل غياراته الداخلية .

رتب حقائبه عند السفر ، فجأة ابتعد تماما عن الأفندى ، صار يراه ماشيا على الرصيف فيعبر إلى الرصيف المقابل ، لم يعرف إنسان سر هذه الجفوة لم يهتم أحد بمناقشة الأمر لأن علاقات عويس وتصرفاته وكافة ما يقوم به لا يهم أحدا ، انه يظهر فجأة فى ليالى السهر ، يصفق ،



يرقص ، يرفع الكرسى بأسنانـه ، يقلد النشال والمقعـد وضابط الأمن والكمسارى والقبطان ، آخر السهر لا يسأله أحد كيف سيمضى وإلى أين سيذهب ؟ لم يصحب إنسانا إلى البيت .

لم يمتلك مفتاحا أبـدا ، لم يحمل عنـوانا ، كثيـرا ما رقص وأدهش ، ويحدث أن يقوم الحاضرون لتنـاول عشائهم ولا يـدعونـه فيبقى مكانـه لا يطلب ولا يسأل مع أن الجوع يقلق نومه المنتـظر ، لم يشك المـوظف الشاب لأى انسان ، لكنه شكا الى هذا الجندى من أولاد الحرام الذين لا يعرفون مقادير الناس ، قال ان الموظف عرض عليه الذهـاب ليعمل خادما بأحدى الشقق بـالقاهـرة ، وعندمـا قال أنـه لا يستطيـع مفارقـة السـويس ، سخر منه وقال ، من يسمعـك يـظنـك تمتلك العمـارات والدكاكين ، قال ان لسانه لم يخـاطب لسان المـوظف بعد أن طلب منـه البحث عن . . عن امرأة يقضى معها وقتا ، أكد عويس أنه لم يبح لانسـان بحقيقة ما جرى ، تحدث الجندى عن البدارى ، أبدى عويس تجاوبا ، كأنه قضى عمره فى تلك البلدة البعيدة شرق النيل ، عدل الجندى وضع بندقيته سريعة الطلقات ، قال انه لا يخشى على أمه من الظروف ، انها قادرة على مجادلة الرجال والخروج الى السوق لتبيع المش القديم الذى تتقن عمله ، كما انه رفع المبلغ الذى تدخره إلى تسعة عشر جنيها خلال الأجازة



الأخيرة قبل الحرب ، يخاف عليها من القلق ، لم تصلها أى معلومات منه ، لم يصلها أنسان من طرفه ، يعرف حرقة الانتظار ، لا يدرى متى سينتهى الحصار ، تحدث عن نشاط أمه عند عودته ، حركتها من الفرن إلى الكانون ، جلسة أول الليل تحت سقف السماء التى تبدو من رحبة البيت ، قبل نومه تسأله ، هل يعوز حاجة ؟ قال عويس للجندى فى ذلك اليوم انه لا يطيق النوم تحت سقف بيت اعتاد النوم والنجوم فى عينيه ، لم يخرج من السويس أبدا ، لم ير مدنا غيرها ، بالتأكيد ولد فيها ، أين بالضبط ؟ لا يدرى ، رحلت عينا عويس إلى بعيد ، فجأة ضحك ، طلب من الجندى أن يعطيه الخوذة ليرتديها ، أحكم الحزام الجلدى حول ذقنه ، قال انها ثقيلة ، تساءل : هل تحمى من الشظايا ؟ قال الجندى ، لا شىء يحمى الانسان اذا حان أجله ، بعد لحظات قام الجندى ، افترقا على غير ميعاد ، عويس تحدث إلى الحمالين فى القطارات ، إلى العاملين على عربات النقل ، إلى أقارب الصعايدة المقيمين بالجناين ، جنود المطافىء المنقولين إلى المدينة ، بعد الحرب كثيرا ما أصغى إلى هؤلاء الجنود الذين رأوا السويس لأول مرة ، بعد لقائه بالجندى صاحب الخوذة ، حاول تتبع ملامحه فى المدينة المحاصرة ، لكن الوجوه اختلطت عليه ، يضيق عويس بالحصار ، الطرق على امتدادها مغلقة ، العربات داخل المدينة مهما اسرعت تبدو وكأنها تمضى فى حركة دائرية ، لأول مرة يأكل مع أشخاص



بعينهم ، أحمد الموظف بشركة البترول ، كفتة البمبوطى ، قناوى المصور ، الملازم الاسكندرانى قائد المجموعة ، لم يحدث فى حياة عويس أن أكل فى طبق معين ، لم يجلس الى مائدة أو طبلية بعينها ، أكل فوق الأرصفة المواجهة لمحطة أوتوبيس الأربعين ، المقاهى الصغيرة ، كورنيش المدينة ، على شاطىء بور توفيق عندما سمح له قبل الحرب ببيع البيبسى كولا للمصيفين أكل ثمرات الطماطم وقطع الجبن على منديل قديم بنى اللون طرز عليه حرف انجليزى تهرأت بعض الخيوط التى نسجته ، أعطاه له أحد قباطنة مراكب الصيد ، ذاق الفطائر عند ذهابه إلى المقابر أيام الأعياد ، لا أقارب له مدفونين هناك ، عادة يملأ منديله بكعكات وشطائر ثم يقرأ الفاتحة على أرواح بعض الراحلين ممن عرفهم بالمدينة ، بعضهم لم يبادله كلمة واحدة طيلة حياته كتوفيق بك الذى عمل مأمورا للسويس سنين طويلة وعرف عنه الطيبة وعدم الرغبة فى ايذاء ضعفاء الناس ، يزور أكثر من جلس اليهم وهو الشيخ المرزوقى ، عاش ومأواه أضرحة الأولياء والمساجد وقضى خلوة طويلة بإحدى مغارات جبل عتاقة ، آمن عويس بأنه طواف يذكر اسم الله فى البلاد ، قدم له خدماته حتى مات فى المدينة بعد مرض قصير رفض خلاله الذهاب إلى أى مستشفى والاستعانة بأى طبيب بعد الحصار وانضمام عويس الى المقاومة لحظ الملازم اختفاءه أثناء مواعيد الوجبات ، قال قناوى المصور ان عويس يأكل فى أى مكان ، أبدى

الملازم اعتراضا ، أن الطعام فى المدينة قليل ، وربما يخجل عويس من الجلوس معهم ويلقى صعوبة فى الحصول على قوته ، فى البداية ضاق عويس بجلوسه معهم ، خيل له أنهم ينظرون اليه خلسة ، انه يرتكب أخطاء لا تليق او يأخذ أكثر من نصيبه ، فى ثالث أيام تناوله الغذاء معهم نزل الى صمت المدينة حيث أعياه الحصار وصدا الخريف والنواصى التى لا ينتظر ظهور أطفال يلعبون عندها أو نساء يختلن فى زينتهن ، توقف ، صاح بصوت عال ، « هذه الطريقة لن تنفع » ، انه يمضى الى نوبات حراسته بانتظام ، لم يخلف تدريبا واحدا ، يسهر معهم الليالى التى يجب أن ينامها ، يصغى الى أصوات الليل ، إلى طلقات الرصاص الغامضة ، يتأمل أنصهار السواد لثوان بتأثير الفليرز ، يتابع القطط المارقة ، مرنة ، تذوب فى السواد والخطر ، يحاول تفسير الأصوات الغامضة ، لكن أن يتناول الغذاء معهم فهذا يضايقه ، فى المساء قبل ذهابه إلى وابور المياه سأله الملازم ، لماذا لا ينام مع الجماعة ؟ صمت ، لم يفكر أبدا فى النوم معهم ، قال حزينا أنه ينام فى أى مكان بالسويس ، قال الملازم هذا خطر ، ثم يجب النوم فى مكان معروف ، ربما احتاجوا إليه ، ربما انهار فوقه أى بيت يأوى إليه عندئذ يتلاشى أثره ويضيع رجاه عويس أن ينام كيفما شاء ، المدينة كلها معروفة له كراحة يده بدا مستعدا للتنازل عن أى طلب آخر عدا ما يتعلق بنومه ، قال لقناوى أن ظهره لو تمدد فى مكان واحد ليلتين

متعاقبتين ينتابه ارق ويكبسه ضيق ، أرصفة المدينة أكلت من جسمه حتتا ، فى أعنف الاشتباكات شوهد متمددا فوق الأرصفة التى تقسم الطرقات وأمام أبواب العمارات ، حدث صيف عام ١٩٧٠ أن سقطت دانة على بعد أمتار منه ، بترت شظاياها شرفة بيت استظل بمدخله قال خليل الجرسون أن عويس محجب حدث أن آوى إلى شقه فى بيت يطل على الخليج نام بمفرده فى البيت كله ، جاء صاروخ كبير يمشى متمهلا فى الهواء كالأوتوبيس ، نفذ من سطح البيت ومن الطابق الثالث ، والثانى ، ثم استقر فى صالة الدور الأول سليما ومازال متمددا فى نفس مكانه كرجل ميت ، لم ينفجر ، ولم يتهدم البيت ، لكثرة ما رأوه نائما فى الطرقات لا يحذره أحد إذا عوت صفارات الانذار ، ربما لعدم اهتمام إنسان به ، إذا احتاجه أحد وسأل عنه ، يقولون من الصعب العثور عليه ، لا مكان له ، ولا أقارب يمكن سؤ الهم عنه ، لكن لا تمضى ثوان ويظهر ، يرى قادما من منحنى ، أو خارجا من بيت مهجور متهدم ، يظهر متثائبا ، يهرش ظهره ، أو يضحك ، كأنه يستجيب مقدما لأى مداعبة ، لم ير عويس يمشى متمهلا ، ممسكا ذراع امرأة ، لم يلمح مؤتنسا بأنثى ، لم تروعنه مغامرات ، كثيرا ما جلس بعد قيامه بعمل ما ، يطلق تنهيدة ثم ضحكة ، ربما عقد ذراعيه وأطرق برأسه ، قال بعض العابثين إنه عاشق لأمرأة فلاحة كالقمر من الجناين ، فى كل مرة يصيح فيهم ، « اسكتوا » لم يهرول

مبتعدا ، فى ليلة ضيقوا عليه حتى أمسكه البعض محاولا تجريده من ثيابه اختفى اياما لا يعرف عددها ، غيابه لا يلفت النظر ، ذات صباح ظهر أمام مقهى أبى رواش ، بدا مجهدا ، شفتاه مقددتان ، زرقاوتان ، سأل عم خليل . .

« أمسح لك المقهى وآخذ قرشا » ؟

الشتاء مضاعف فى المدينة المهجورة ، البلاط يفح رطوبة تكاد ترى فى الفراغ ، انحنى ممسكا الخيشة ، أغرق الماء البارد قدميه المتشققتين كشبكة من حفر ، عمل عويس فى اشغال عديدة ، غسل الصحون فى مطاعم السويس الفقيرة ، عمل حمالا لأجولة الفول ، صناديق السمك ، هرس الطعمية ، عمل فى رصف الطريق الممتد حتى قرى الجناين لمدة أربعة أيام آخرها رفض المقاول أن يعطيه أجرا ، لم يكلفه أحد بالعمل ، ولم يدرج اسمه فى الكشوف . لم يناقش ، جاء فى نفس اليوم إلى صاحب طلمبة بنزين يدوية :

« هل أدير لك الطلمبة اليوم مقابل رغيف وباذنجان مقلى » ؟؟

لا يدرى أحد أين يضع صندوق مسح الأحذية ، يظهر ممسكا به أحيانا ، يمسح لزبون أو أثنين يختفى ليظهر ممسكا حزم فجل وجرجير ، أو قفص طماطم ، بعد إحكام الحصار وانقطاع شرايين الطرق وارتداد اليهود

عن السويس بدا هائجا ، يمشى مهددا الفراغ يعلن لكل من يقابله انه سينفذ بطريقة ما من هذا الحصار . دخل أحد المخابىء القريبة من مبنى المحافظة ، صاح فى المتواجدين داخله ، هل يصدق أحدكم أن السويس محاصرة ؟ قال له الحاج حسن السودانى موزع الصحف ، لماذا تبدو هائجا وأنت لم تخرج من السويس أبدا ولن تغادرها ، تعال وتطوع فى المقاومة ، رأيتك تنقل صناديق الذخيرة عندما هاجموا البلد ، لا تنقصك الشجاعة ، تعال بدلا من طوافك كالنحلة ، بقت شفتاه مفتوحتان لحظات ، تذكر يوم أن حمل صناديق لم يتخيل طوال عمره انه سيحمل مثلها لثقلها ، أثناء جريه تحت مبنى المستشفى أطلت بعض الممرضات ، زعقن ، قال عم خليل لعويس انهن يستنجدن به مع أن عددا كبيرا من الأهالى والجنود راح يعدو فى اتجاهات متفرقة ، اسرع الخطى مرددا ، « لن يصلوا أبدا اليهن » ، انتظم عويس فى أحدى مجموعات المقاومة ، فوجئوا به يجيد أطلاق النار ، فك البندقية نصف الآلية أمامهم ، نظف الكلاشنكوف ، فكه وقام بتركيبه من جديد ، قال أنه اتقن هذا من صداقته لعديد من الجنود ، أبدى صبرا وجلدا ، فى الليالى الباردة يقف مرتديا الأفرول الصيفى الذى ظهر به منذ انضمامه الى المقاومة ، اعتاد الناس رؤ يته فى ملابس الآخرين ، جاكت كاروه ، صديرى بلدى ، قميص أفرنجى ، فى شتاء أحد السنين ظهر بمعطف ثقيل طويل ، وقيل أنه عند نومه لا يلف جسمه به ، أنما

يطبقه ويضعه تحت رأسه ، لم يتردد عند قيامه بأى مهمة ، عندما كلف باستطلاع موقع قريب للعدو قرب الهاويس ، خاض فى الطين عاريا ، قضى الليلة فى المجرى الضحل ، عاد يروى ما رآى ، ما سمع ، والملازم يدون ، يكتب ، فى هذا اليوم سأله الملازم عن عمره قال عويس أنه لا يدرى ، تطلع الى وجه الملازم أبن العشرينات ، بعد لحظة قال حضرتك من أى بلد ؟ ، فى تلك اللحظة مر قناوى المصور ، رآهما يجلسان أمام المقر ، الملازم يتحدث وعويس يصغى ، لم يعرف ما يدور بينهما ، حدث فى اليوم التالى الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ أن طلب الملازم استدعاء عويس فورا لدفعه ناحية مبانى شركة شل ، حار أفراد المجموعة ، أبدى الملازم ضيقا ، ألم يطلب منه البقاء معهم فتوسطوا له حتى يدعه على راحته خرج قناوى متضايقا بعد أن وعد بالبحث عنه ، عند الناصية رآه قادما ، لا يتحرك فى فراغ الطريق غيره ، نفس الانحناءة التى توحى لمن يراه وكأنه على وشك الجرى .

« عويس » .

دهشة وجهه تمنحه براءة طفل ممزوجة بتعب .

« الملازم يطلبك فورا . . » .

« الآن ؟ » .

« نعم . . » .

« لكننى ذاهب الى الجناين . . » .

هنا علا صوت الملازم الذى لحق بقناوى بعد خروجه . .

« هل جننت . . الجناين فيها عدو . . » .

ردد النظر حائرا بين قناوى والملازم ، فى تلك اللحظة برق شىء ما فى ذهن الملازم ، أدرك ما جعله يتحدث الى عويس طويلا ليلة أمس عن أخوته ، وأبيه ، وأمه ، والبيت ، وسريره الذى لا يمس طالما بعد عن البيت ، وخروجه المسائى أيام الاجازة يجلس مع بعض أصحابه فى مواجهة البحر صيفا أو شتاء ، حدثه عن أصحابه ، وأوشك أن يحدثه عن حبيبته وعما يتبادلانه من أشواق فى حدائق المنتزه ، فى تلك اللحظة رأى فيه أكثر الناس الذين قابلهم قدرة على الاصغاء ، وبعث الأمان ، وأحاسيس أخرى لم يدرك طبيعتها بالضبط ، لمح أيضا آثار العمر فى الضوء الغروبى الشاحب والصمت المخيم كأنه التمهيد لضجيج آت لن ينته ، تساءل . .

« ما الحكاية ؟ » .

قال عويس إن سبوبة لن تعوض فى الطريق ، سيأتيه أحد الفلاحين بقفص طماطم وربطة فجل ، سيعطى المجموعة جزءاً ويبيع ما يتبقى ،

قال إنها سبوبة لن تتاح لأحد ، والخضار قليل جدا .

أرجأ الملازم عدة أسئلة حول كيفية ذهابه ، كيف سيتلقى بهذا الفلاح ؟ كيف تم اتصالها ؟ يبدو عويس سهلا ، بسيطا ، قادرا على اجتياز أصعب الأمور ، نظر إلى وقفته ، إلى انضغاطة كتفيه ، بهما هدة عمر بأكمله وتعب ، إلى رقة جلد الوجه المتعرض دائما لتقلب الهواء وتمدد الفراغ وانكماشه ، إلى تجعيدات حول العينين ، لسبب ما تذكر والده العجوز لحظة عودته من المدرسة ، يبدو أمر ما يجعل عويس قريبا غير ذلك الشعور المصاحب لسلوك الأهالى خلال الجهار والذى جعلهم يتقاربون ، أكثر ، ، ينام الأصدقاء فى أى بيت مفتوح ربما لا يعرفون صاحبه .

« نحن نحتاج إليك يا عويس . . » .

« لكن السبوبة يا حضرة الملازم . . » .

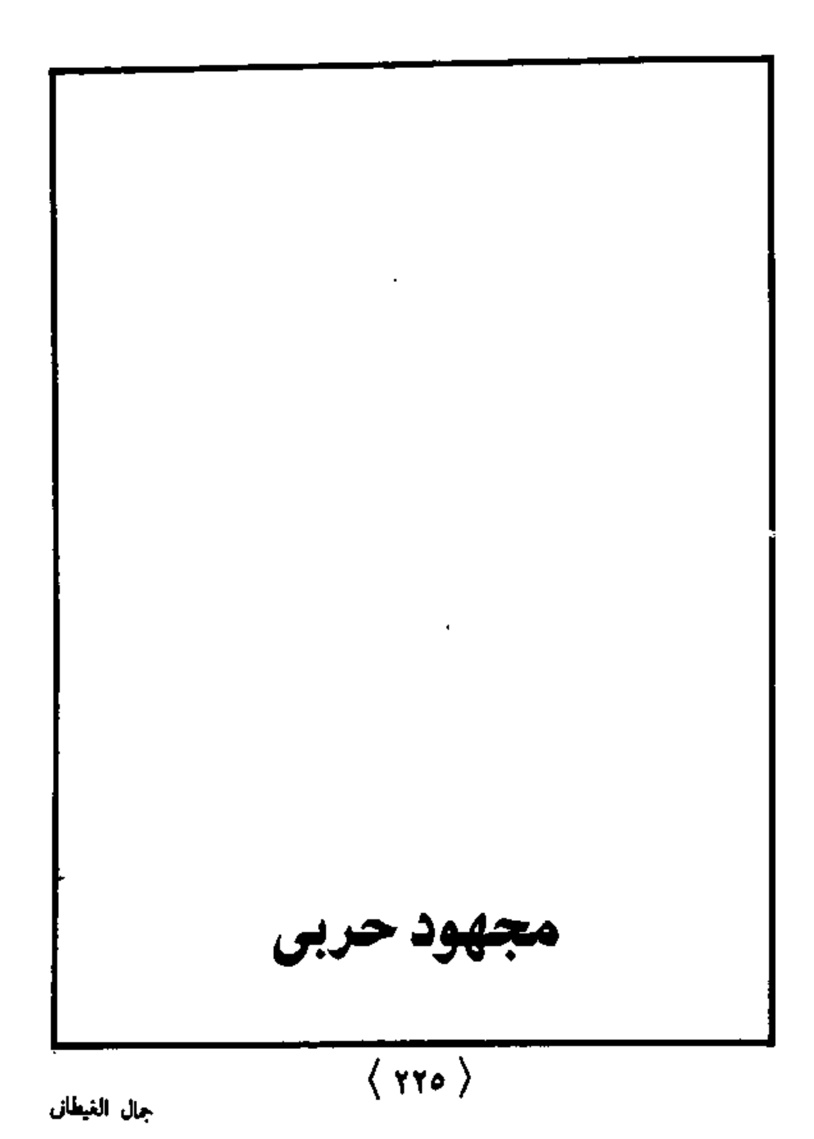
« اختر اذن بين السبوبة . . أو الوطن . . » .

تصطدم قطعة معدنية غير مرئية بحاجز ما ، ينادى شخص فى مكان بعيد ، كالدوامة فى الأعماق أحدث الصمت صدى فى الفراغ ، يغرق الظل مداخل البيوت المحيطة ، النوافذ الخشبية المتربة ، لحظة من النهار الراحل تبعث صورا وروائح وأصواتا بعيدة نأت طويلا عن الذاكرة ، ينقل قناوى ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، يرفع عويس وجهه إنه عجوز ،

يهز رأسه هزتين موجزتين ، سريعتين ، صامتتين . .

« طيب يا سعادة الملازم . . اخترت الوطن . . » .

أول مارس ١٩٧٦



مجهود حربى

تاريخ عام

عرف أهالى حى الأربعين وحى زرب ، خضر أبو عطية بائعا للشاى ، يقف أمام النصبة الخشبية أو يتحرك بين الدكاكاكين والورش حاملا صينية كبيرة عليها الأكواب والفناجين ، بدأ عمله ومعه براد شاى أزرق وموقد ماركة بريموس ، ودستة أكواب زجاجية ، بعد زواجه من الست شمعة تمكن بمساعدة بعض الصالحين ، منهم الشيخ زكريا تاجر الخيش القديم الذى عطف على خضر لوجه الله اذ لم ينقطع عن رؤ يته فجر

كل يوم فى مسجد سيدى الغريب أيام الشتاء وأيام الصيف ، عندما أتم بكر الابن الوحيد لخضر الرابعة أتم سعدون النجار عمل نصبة من الخشب ، مستطيلة ، الجزء الأسفل منها بضلفتين ، يضع داخله الشاى والسكر والأصناف الأخرى التى بدأ فى إعدادها ، الكاكاو ، القرفة ، أما الجزء الأعلى فمبطن بالصفيح والقصدير الذى يبعد لهب الموقد عن الجسم الخشبى ، يتسع لثلاثة مواقد ، اثنان من الحجم الكبير والثالث صغير يعمل بالكحول لاعداد فناجين القهوة ، أعلى امتدت ثلاثة رفوف ، اثنان عليهما اكواب زجاجية مضلعة الحواف ، والثالث عليه فناجين قهوة ، اشتهر شاى عم خضر فى حى الاربعين ، حرص على تناوله اصحاب الدكاكين الصغيرة ، مطاعم الفول والطعمية والسمك المشوى ، ثم وقع حدث هام عندما قرر الحاج الدمياطى صاحب وكالة حبال السفن شرب الشاى من خضر ، بدلا من مقهى القابوطى ، قيل فى سبب ذلك انه عندما شرب كوب الشاى صباح ذلك اليوم وجده مغليا ، عندئذ اقترح عليه وكيل اعماله تجربة شاى خضر الطازج دائما ، الخالى من التفل ، ابدى الحاج دهشة لوجود مثل ذلك الاخلاص فى هذا الزمن الردىء الذى لا يعرف الانسان كيف يشرب كوبا من الشاى فيه ، ادى هذا الى تحول جميع العاملين بالورشةعن مقهى القابوطى القى هذا عبئا على خضر ، الوكالة تستوعب شاى مقهى بأكمله حاول القابوطى مضايقة خضر ، لكن

بعض الأهالى واجهه بحزم ، قالوا له ان الأرزاق من عند الله ، اشترى خضر اكوابا جديدة ، كما اتقن تحويجة بن افضى إليه بسرها رجل مغربى وتقضى بإضافة حبهان وقرنفل وجوزة الطيب بمقادير معينة مما حبب هواة القهوة كثيرا ، ازدادت ساعات عمله من السادسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، كما اتفق مع عبده النجار على صناعة دكة خشبيه تتسع لجلوس خمسة أشخاص ، حتى يستقبل زبائنه من سائقى عربات النقل ، والتاكسيات ، والعابرين ، يشربون الشاى الذى عرف به وتفوح منه رائحة ذرات نعناع جاف أخضر ينثره بمهارة فوق الشاى ، عندما أتم ابنه بكر السادسة نصحه بعض الجيران بتدريبة على العمل معه ، يساعده ، يوصل له الطلبات ، لكنه ذهب به إلى مدرسة الأربعين" الابتدائية تقدم بطلبين ، الأول يرجو فيه الحاق ابنه بالمرحلة الابتدائية لبلوغه السن القانونية ، والثانى كتبه بعد نصيحه من باشكاتب المدرسة إبراهيم أفندى ، ويطلب فيه اعفاء ابنه من رسوم القيد وقدرها جنيها ونصف جنيه ، ارفق شهادة تثبت عوزه ، ورجا الباشكاتب الا يشعر بكر بأى علاقة تشير الى تقديمه تلك الشهادة ، استجاب الرجل الطيب ، ونادى اسم بكر بصوت عال من كشف الطلبه الذين سددوا المصاريف ايقن خضر أن كل ما يجيئه من رزق نصيب ولده ، مكافأه له على حسن نيته وصبره على تعليم بكر ، خاصة أن دعواته أثمرت ، لم يعرف عن بكرهوايته للعب الكرة ، او

ركوب الدرجات ، أو الذهاب إلى السينما ، كتب اسمه فى لوحة الشرف مرات ، رضى عنه المدرسون ، أهداه الناظر قلما ومسطرة ، فى الليل يسهر ، أمام الطبلية منحنيا ، لا ينام الا بعد الحاح امه حتى يقوم مستريحا من النوم ، وعندما انهى بكر دراسته الاعدادية حوالى عام ١٩٥٩ ، تمكن خضر من دفع جنيه واربعين قرشا إلى أبى غزاله الكهربائى مقابل مد سلك الى داخل الغرفة يضىء مصباحا يذاكر عليه بكر بدلا من لمبه الغاز . استوثق خضر ان التيار الكهربائى غير مسروق من أحد ، أو من أسلاك الحكومة ، كما اتخذ اجراء اخر لتوفير ظروف افضل لبكر منها نومه الى جوار امرأته فوق الأرض ، ونوم بكر فوق السرير حاول ايضا تجنيب ولده ما تصوره انه حرج ، لم يتردد كثيرا على المدرسه ، حتى لا يتضايق بكر يوماً اذا ما تشاجر مع زملائه وقالوا له . . يا ابن القهوجى . . مع إن كلمة قهوجى تطلق عليه تجاوزا لعدم عمله بمقهى ، كما تخلى منذ سنوات عن حمله بامتلاك مقهى لارتفاع التكاليف .

حقائق لم يعرفها اقرب الناس

اثقل خضر هم دائم ، هو توفير مصروف البيت ، أشد ما كرهه مد اليد إلى الغير ، لكن الرعب يمتلكه إذ يتصور عودة بكر الى البيت بدون أن يجد باذنجانا مقليا أو طبقا من الفول أو بيضا ، تعامل خضر مع ثلاثة اشخاص السنى الخباز ، واباظه العجمى ، وعبد الهادى البقال ، كثيرا ما توقف ليتأمل المارة ، اعتاد معارفه صمته فلم يخمن أحد ما يداريه ، ينقبض قلبه إذ يرى البعض يحملون خضارا ولحما ، إذ تتجمع القروش فى يده يطلب من بناويطى الحلاق الانتباه إلى النصبة ، يهدىء نار المواقد ، يمسك طرف جلبابه ، يسرع إلى البيت ، حدث أن عرضت امرأته الاستدانه من الست عطيات لكنه آبى ، ربما تشاجرت فى أى لحظة عندئذتعايرها بصوت عال ، بماذا سيشعر بكر ، حرص أيضاً الا يلجأ الى اللحم الحى ، ويشمل السكر والشاى أو المبالغ المخصصة لشرائهما .

من الحقائق المجهولة أن « خضر » لجأ يوما الى الشيخ زكريا طلب اعارته جلبابا صوفيا ليوم واحد ، دعته المدرسة لحضور مجلس الآباء ، لم

يفكر أبدا فى دعوة كهذه ، لا يمتلك جلبابا يصلح ، ذهابه الى المدرسة أقتصر على دفعه المصاريف ، يخشى لو أعطاها لبكر أن يخطفها أحد الأشرار ، لم يلتق الا بعلى افندى سكرتير المدرسة الذى يجيء بعد الظهر ، يجلسان فوق الدكة ، يقدم اليه الشاى مجانا ، يتبادلان الاخبار ، يتحدثان عن تعديلات تنوى مصلحة التنظيم اجراءها . عن أعادة رصف الطريق المؤدية الى الميناء ،هل سيتم ذلك قبل موسم الحج القادم ؟ يتحدثان عن الأجانب الكثيرين المقيمين بفندق بلير ، لم يعرف بكر بأمر هذه الزيارات ، أصغى الشيخ زكريا ، قال إن لديه قال أن جلبابا لم يرتديه الا مرة واحدة ، مد يده الى صديريته أخرج محفظته الجلدية المرصعة بفصوص الألومنيوم ، مد الى خضر جنيهين ، أنه يعلم ما ستنتهى اليه هذه الاجتماعات ، سيطلبون منه تبرعا للمدرسة ، قال انه سيسترد كل ما قدمه بعد أن يعمل بكر ، فكر خضر أن يميل ليقبل يد الرجل .

ان معظم الثياب التى ارتداها خضر تلقاها كهبات ، فى بيته الآن مقطف كبير يمتلىء بقمصان قديمة ، بنطلونات ، جلاليب كما يوجد ربطة ثياب عسكرية مربوطة بحزام جلدى عريض (قايش) . تخص جنديا نوبيا اسمه مرجان ، طلب منه أن يحفظها عنده يوم ١٩ فبراير ١٩٧٠ . خرج الى سيناء فى دورية ولم يرجع . اعتبر مفقودا حتى الآن .

ان حقائق عديدة بقيت مجهولة ، معظم مشاويره قطعها مشيا حتى يوفر ثمن التذكرة ، لم يمارس الجنس حتى الزواج ولا بعد رحيل امرأته الأبدى ، لم يتطلع الى امرأة أخرى ، جاع يوما قبل زواجه وأثناء صعوده سقالات البناء المنصوبة حول عمارة جديدة حاملا صينية الشاى ، أوشك على السقوط لولا أنهم لحقوه ، أنواع الطعام التى أكلها لم تتعد أصنافا محدودة ، الفول ، الطعمية ، العدس ، الباذنجان المقلى والفلفل الرومى ، عندما يفرق نصيب امرأته وابنه من اللحم يأخذ لنفسه أقل القطع حجما ، السمينة أو ذات العرق المستعصية على المضغ ، لم يدفع قرشين ثمنا لزجاجة مياه غازية ، أحيانا ترى خلف أذنه سيجارة لكنه لم يدفع ثمن واحدة أبدا ، فى أحد الأيام البعيدة أعطاه مقاول صعيدى علبة كاملة ماركة « هوليود » . لم يفك غلافها السيلوفان ، انما باعها الى عبد الهادى البقال بأقل من ثمنها الحقيقى بثلاثة قروش .

التهجير :

عندما طلب من خضر أن يملأ استمارات التهجير ، قال للموظف المختص إنه لم يعد له بلدة يمكنه اللجوء إليها ، إنه يعيش بمفرده فى غرفة واحدة ، لا يضر إنسانا ، لا يخاف عليه أحد ، بل يخدم الجنود الذين ينتقلون من موقع إلى آخر عبر المدينة ، يجدون عنده كوبا من الشاى

الساخن ، لو نزل الجندى ولم يجد من يقدم إليه كوب شاى سيغتم ويحزن لمنظر البيوت المهجورة والمقاهى المغلقة ، قال إن النصبة لا تحتل حيزا وطوال عمره لم يحرر له محضر شغل الطريق العام أو التسبب فى زحام ، هذا قبل اضطراب الأحوال ، عندما كانت السويس تشغى بالخلق ، لم يقل خضر للموظف إن ابنه طبيب بالقاهرة ، ويمكن أن يساعده فى الحصول على تصريح ، لم يقل أنه خصص ثلاثين كوبا من الشاى يقدمها الى الجنود ، لا يتقاضى ثمنها ، داعبه الجيران الباقون وأطلقوا عليها ، « مجهود حربى » ، فابتسم قائلا : « ما أنا حياتى كلها مجهود حربى ، جنود عديدون يفاجأون برفضه تقاضى مليما واحدا ، اعتاد جلوسهم حوله ، فى البداية لم يبادلهم احاديثاً طويلة كعادته ، انما يخدمهم بنشاط عجيب ، يقدم اليهم الصينية بيديه المهتزتين ، إذ يلحظ بعضهم ذلك يقومون ، يتناولون الأكواب قبل وصوله اليهم ، يبتسم اذ يصغى إلى مداعباتهم الشابة ، فى ذلك اليوم تحدث إلى بعضهم ، قال أنهم يريدون تهجيره ، بعد هذا العمر كله ، أن يفارق سيدى الغريب ، قال أحد الجنود انهم سيفتقدون شايه الطيب ، نظر إليه معاتبا ، كيف يفكر هذا الصعيدى الجدع فى مفارقته للسويس ؟ لا يستطيع تخيل نفسه مستيقظا فى مكان آخر ، لا يرى النصبة كل صباح ، يفرغ قوالب السكر وأكياس الشاى فى الأوانى ، صحيح أن أحبابا كثيرين هجروا ، فى لحظة خيل اليه أن مقصا

هائلا يقطع حياة السويس جزءا ، جزءا ، ويرميها إلى المجهول . أحباب آخرون رحلوا أثناء القصف ، رحم الله الشيخ زكريا الذى ذبح بشظية بعد حريق الزيتية بيومين ، بدأت لحظات صمته تطول ، صحيح أنه لم يتحدث كثيرا أثناء عمله ، لكن وجودهم لم يفارقه ، فى الدكاكين ، الوكالات ، الورش ، وقت العصارى وجلوس الزبائن فوق الدكة ، وجردل المياه الذى يرشه بحذر وبطء حول النصبة ، حركة الشارع ، إن معظم الدكاكين والوكالات مغلقة الآن ، أبواب المنازل مربوطة بسلاسل حديدية غليظة ، مع مضى الأيام اعتاد رواده الجدد بارهاقهم البادى ، وأحاديثهم المرتفعة ، وجلستهم المميزة إذ يطرقون ، يسندون ذقونهم الى راحات أياديهم ، يسرحون فى الفراغ ، بنادقهم ورشاشاتهم بين سيقانهم كأطفال صغار ، أعمارهم المتقاربة تزيد عن عمر بكر عاما أو تنقص عامين ، اذا رأى أحدهم قادما يقوم نشيطا ، يولى وجهه ناحية النصبة ، يدفع كباس الموقد ، يكشف غطاء البراد الأزرق ، يغسل الأكواب مع أنه سبق أن غسلها أكثر من مرة يتبادلون أحاديثهم الخاصة ، يشارك بالاستماع ، عندما يقدم إلى كل منهم كوب الشاى يبرز من سطحه عود نعناع أخضر ، يصغى إلى آهة ارتياح بعد الرشفة الأولى ، « الله يا عم خضر » ، عندئذ يدير وجهه الصامت إليهم ، يتأمل الوجوه التى تشبه بعض ملامحها ابنه بكر ، يرق قلبه ، عبر السنين لم يجلس ساعة كاملة إلى بكر ، يعود فى المساء

ليجده نائما ، ويقوم مبكرا فى الفجر فيمد الغطاء على جسد ابنه أو يعدل وضع الوسادة تحت رأسه ، يلفظ البسملة ، ينصرف اطمئن إلى تفوقه فى المدرسة ، وعناية المرحومة بولدها ، عندما انتقل للمدرسة بالقاهرة لم يسمع عنه خبرا يضايقه ، فى الأجازة لم يسمح له بالاقتراب من النصبة أو مساعدته ، لم يعرف شيئا عن أصحاب ابنه ، الأماكن التى يرتادها ، لم يجحده لكنه تمنى أن يريحه من هذه الوقفة التى انهكت عمره ، اقتطع ثلاثة جنيهات من مكافأة التفوق ، صار يرسلها شهريا مع سائق عربة نقل سويسى ، يقوم السائق باعطاء النقود إلى امرأته التى توصلهم الى أم بكر ، عندما عرف خضر بذلك أول شهر ، تمنى لو أرسل الى ابنه يطلب منه ألا يفعل ، لكنه منذ فترة يشعر بتعب ، الشاى غال والسكر ، دعا له طويلا فى مسجد سيدى الغريب ، لكنه بقى بعيدا بشكل ما عن ابنه بكر ، خلال فترات الدراسة فارغة أو ممتلئة ، لا يستطيع إغلاق النصبة يوما واحدا ، إنه فى حاجة لكل قرش يأتيه حتى يأتى بأحسن الطعام لبكر أثناء بقائه معهم ، حتى لو تفرغ له ، كيف سيمشيان معا ، لبكر أصحابه ، ورحلاته التى لا يعرف عنها شيئا ، لا يبغى مضايقته عصر أحد الأيام فوجىء بابنه يمر أمام النصبة ، تلاقت عيونهما ، رفع خضر يده بالتحية ، « تفضل يا بك » ، نظر إليه بكر بدهشة ، لم يعلق ، انقبض قلب خضر ، نفس ايقاع كلماته الذى يخاطب به الموظفين المحترمين ، بعد رحيل المرحومة

وافتتاح بكر لعيادته مضت أيام عديدة بدون أن يلتقيا ، أول كل شهر تصله حوالة من بكر، يستبدلها من مكتب بريد الأربعين ، يقول له الموظف « ربنا يخليه لك » ، تلك الجنيهات العشرة ما تبقى من بكر ، فى لحظات اقتنع بأن هذا طبيعى ، أن بكر أصبح طبيبا ، له زملاء محترمون وزميلات يرتدين المعاطف البيضاء ، ويعلقن السماعات الطبية ، كما أن شهرته واستقامته ذائعتان ، الناس تتوافد على عيادته بالدرب الأحمر جعل قيمة الكشف عشرة قروش فى وقت ارتفع فيه سعر كل شئ ، ليس من المعقول أن يشغل نفسه بأمور أبيه العجوز ، ثم أنه يقوم بالواجب ، لم ينسه شهرا واحدا ، إن صحته تساعده على الوقوف أمام النصبة والحديث إلى هؤلاء الجنود ، تساءل كثيرا ، لماذا لم يتكلم يوما مع بكر كما يتحدث اليهم ؟ مرجان النوبى قبل اختفائه حدثه عن خطيبته وعن همومه فى جمع المهر ، وتخيله للبيت ، ونفقات العرس ، هل أسر إليه بكر بأشواقه تجاه فتاة أحبها ، هل حدثه عن زميلاته اللاتى زاملهن فى الجامعة ؟ رجب جندى المدفعية وصف له الطابق الثانى الذى شرع والده فى بنائه ، عندما ينصرف كل مرة يطلب من عم خضر أن يدعو له ، أن يرضى عنه ، عندما يبدأ قصف المدفعية المتبادل يرفع يديه طالبا من الله حماية رجب ، قصف المدفعية يعنى عنده رجب ، اذاأغارت الطائرات على المواقع خارج المدينة فهى تقصد رجب ، كثيرا ما يلتفت الى بعض زبائنه الذين يصمتون فجأة

عند بدء الانفجارات يومىء قائلا « مدفع رجب اشتغل » ، تقسو ملامحه اذ يصغى الى شكوى منصور عامل المطبعة والمجند فى سلاح المهندسين ، صاحب المطبعة رفض تقديم أى مساعدة إليه بعد تجنيده مع أنه خدمة سبع سنوات ، وعندما نزل أول أجازة رأى عاملا آخر مكانه ، أدركته دهشة ، يصف خضر الرجل بأنه حرامى ولن يبارك الله له فى ماله أو مطبعته ، يتحدث بصيغة الجمع « نحن نجاهد ومن يضرنا لن يسامحه الله أبداً » ، يبدو منصور وكأنه قطعة منه ، ما لحقه من ضرر حاق به أيضاً ، إنه يسأل محمود الساعاتى عن والدته قبل أن يقدم اليه الشاى ، يقول محمود إن الضغط يرتفع أحيانا ولكن السكر يتزايد ولا منفذ منه الا الرجيم وهذا يحتاج الى نقود ، طبيب المستشفى فى لا يراعى حاله عندما يقول لأمه . . . كلى ربع فرخة مسلوقة يوميا و . . . العين بصيرة واليد قصيرة ، يصمت قليلا ، يتساءل ، لماذا أصيبت أمه بالسكر وهو مرض يقولون إنه لا يصيب إلا الأغنياء ، قبل ابتعاد محمود يدخل ذراعه فى السير الجلدى الذى يشد البندقية الى كتفه يقول برجاء عظيم « والنبى أدع لها فى سيدى الغريب يا عم خضر » ، فى أحد الأيام بدا ساهما ، انتقل خضر الى جواره ، أحاط كتفيه بذراعه ، وهذا لم يفعله أبدا مع بكر ، قال محمود إنه وجد أمه منهكة فى أجازته الأخيرة ، لكنها تماسكت ، نزلت السوق ، اشترت خضارا وطبخت له ، لم تشك صداعا أو وجعا ، فى الليل سهرت تغسل ثيابه ،

قال محمود إنه يجلس ساعة بأكملها إلى أمه ، لا ينطقان حرفا ، لكن كلا منهما يدرك تماماً أحوال الآخر ، ما يفكر فيه ، ما ينبغى قوله أو اخفاؤه ، قال ان الوقت لا يتسع لأطباء المستشفى ، قال محمود أنه يعرف طبيبا ابن حلال فى مصر ، يحب الفقير ، قال محمود معاتبا ، هل نسيت يا عم خضر ، أمى فى الاسكندرية وطبيبك فى مصر ؟ ، فى تلك الأيام بدأ خضر وكأنه يعيش المدينة لأول مرة ، هجرة جيران العمر ومجيىء هؤلاء الشباب بدل كل شىء ، خلال الفترات القصيرة التى قضوها معه ، ارتاح لأول مرة بعد عمر طويل من وقفته المستمرة أمام النصبة ، فى لقاءات سريعة عرف عنهم أكثر مما عرفه عن الأسطى سيد الحلاق الذى جاوره سنوات ، يمضى محمود أو حسين أو سعيد جندى المظلات ولا يدرى ؛ هل سيلتقى بهم مرة أخرى أو لا ؟ يبدون وكأنهم يحرصون على أن يتركوا لديه أكبر قدر من تفاصيل حياتهم وحاجاتهم الصغرى ، أثناء مرور بعضهم السريع بالسيارة يلقون اليه بخطابات يطلبون منه أن يرسلها من مكتب البريد ، جاءه مرجان يوما بأكثر من عشرين خطابا ، كل مظروف لصق عليه طابع البريد ، بدأ مرجان متعجلا ، وحدثه ستكلف بمهمة ربما غابوا فيها زمنا ، وزملاؤه لن يستطيعوا النزول فى أجازة أو المرور العابر بالمدينة ، رجا عم خضر أن يرسل هذه الخطابات فى نفس اليوم من مكتب البريد الرئيسى ، عد المظاريف ، أحضر جريدة قديمة لفهم بها ، مضى عبر حوارى زرب ،

الى شارع الشهداء ، عوت صفارات انذار الطيران ، لم يتوقف ، ترك النصبة مفتوحة ، فقط هدأ المواقد ، طلب من موظف البريد أن يحصى المظاريف ، انحنى برأسه ينظر عبر الشباك الضيق يحاول متابعة العد ، عندما خرج من المكتب ابتل قلبه برضى ، لم يهتم كثيرا بانفجار مكتوم بعيد ، ولم ينتظر انطلاق صفارة الأمان ، إذ إن السويس لم تعرفها فى تلك الأيام ؛ تدوى صفارات متقطعة فقط ، أما الأمان المتصل فلا محل له فى المدينة أو فى إيقاع حياتها ، أثناء اقترابه من النصبة حياة أربعة جنود وضابط شاب برتبة ملازم ، ابتسم ، قال تفضلوا . . . صاح أحدهم . . مجهود حربى ؟، قال خضر مشيرا بأصبعه الى عينيه . . « من دى . . ومن دى » ، لا يذكر انهم مروا به ، أو جلسوا عنده ، لكنه اثتنس بهم ، أضحكوه بمرحهم ، اعتذر اليهم عن عدم وجود نعناع وقال انه سيمضى إلى الجناين ليشترى نعناعا أخضر ، فى عصر اليوم مر به هريدى جندى البحرية الصعيدى ، لا يراه الا أثناء نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، ربما لابتعاد موقعه ، قدم إليه لفافة صغيرة ، وقال ان امه ارسلتها خصيصا الى خضر عندما حكى لها عنه ، صاح خضر عندما رأى هريدى منصرفا ، تفضل شاى . . ابتسم هريدى ، سيأتى إليه بعد ستة وعشرين يوما عند عودته الى بلدته اذا قسم له الأجل ، قاطعة خضر « بأذن الله » ، سيشرب كوبين ، إحدهما مجهود حربى ، والأخر على حسابه ، فى الليل يصغى

خضر الى السويس ، إلى الطلقات المتقطعة ، سنين طويلة قضاها أمام النصبة لم يحاور مخلوقا ، صحيح أن أصحاب الدكاكين أحبوه وأثنوا على شايه ، وتصدوا لمن حاول مضايقته ، لكنه لا يذكر أنه تبادل معهم الحديث يوما لمدة دقائق ، بل انه خلال السنين العشر الأخيرة وصل إلى معرفة كاملة بأمزجتهم وأحوالهم ، بمجيئه صبى المعلم فسدق ، يعرف أن المطلوب شاى على ماء أبيض مغلى ، يصيح الأسطى سيد الحلاق ، لا يومىء حتى برأسه ، فنجان قهوة مضبوطة من البن المحوج ، أثناء توصيله الطلبات يزعق عليه هذا أو ذاك ، واحد شاى يا عم خضر ، واحد قهوة يا عم خضر ، جنزبيل يا عم خضر ، يعرف لمن يعد الشاى الخفيف ولمن يضيف قدرا من اللبن ، حتى كمية الجنزبيل بدأ يشتريها طبقا لحاجة زبائنه عنده أربعة يشربون الجنزبيل يوميا ، عرف عنه صمته ، سعيه الهادىء فى الطريق ، استجابته السريعة لما يطلب منه ، لم يحدث إلا نادرا أن قال له البعض « تأخرت يا خضر » ، لكنه لم يقف أمام دكان ، لم يجلس على مقعد فى الوكالة ، لم يتحاور ، لم يشك إليه أحدهم ، لم يصغ ، فى الطريق تصل الى أذنيه جملة عارضة يقولها أحد زبائنه يعرف أنه المقصود بها . . « هل ترى هذا . . انه يربى طبيبا . . » ، ربما اضطربت خطاه خجلا لكنه لا يتوقف ليعلق ، مع مرجان وكمال وسعيد ، معهم ضحك ، وتحدث ، وجلس على الدكة التى أعدها لراحة الناس ولم يقعد عليها يوما ، لأول مرة

تمتد أيد لتساعده فى عمل المشاريب ويتقبل هذا راضيا ، بل إنه ترك لهم « العدة » كلها يوما وجلس يتفرج عليهم ، عندئذ قدم له محمود الاسكندرانى كوبا من الشاى وقال ، أنت اليوم زبون وهذا الكوب مجهود حربى ، لم يفكر فى الاستعانة بشخص ما ، راودته الفكرة أثناء دراسة بكر الثانوية ، أن يستخدم صبيا فى توصيل الطلبات ويتفرغ للعمل أمام النصبة ، لكنه تساءل . . كم سأعطيه . . خمسة عشر قرشا أو ريالا ؟ بكر أولى به ، لأ حتمل قليلا ، إنه يرى كل شىء قضى بجواره سنوات لأول مرة ورواده الجدد حوله ، كيف سيمضى الوقت عليه فى الهجرة ؟ بعد عمر قضاه واقفا هل يتحول إلى قعيد يتقاضى اعانة تهجير ؟ يعود إلى صحته ، تكف يده عن اذابة السكر وملء الأكواب ؟ عندما ألح عليه الموظف ، ضايقه ، اخبر سالم المزارع من كفر الشيخ وجندى المشاه ، وفكرى الممثل الذى لا يكف عن ترديد . . « سمعت آخر نكتة ؟ » والشاويش عوض المتطوع ، قال انه سيذهب إلى مصر ليكلم بعض ذوى النفوذ حتى يتوسطوا له . . قال عوض ، وأين سنشرب شايك ؟ مد خضر يده مشيرا إلى النصبة ، قال ، عندكم السكر والشاى ، يكفى حتى أرجع ، ضحك فكرى . . النصبة كلها ستصبح مجهودا حربيا . .

حوادث عارضة :

أثناء جلوسه ببهو العيادة مرتديا جلبابا مكويا ، تذكر دخوله الليل على بكر ، تأمله وجهه النائم ، كأن شخص روى له ما جرى ، سنوات كثيرة مرت ، قال لنفسه بكر ابن حلال ولا ينسانى ، تابع دخول المرضى وخروجهم ، يئز الجرس أزيزا مختصرا فيقوم التمورجى ، امرأة ترتدى ملاءة لف ، تحمل طفلا ، تدعو للطبيب أبن الناس ، تدرك خضر راحة ، يود مقابلة بكر بسرعه ، لو قال للتمورجى . . أنا . . سيدخله فورا ، ربما خرج بكر بنفسه مرتديا معطفه الأبيض ، نظارته ذات الإطار المعدنى ، خضر يتأمل غرفة انتظار الرجال ، حجرة انتظار الحريم ، الحاجز الأبيض ، منضدة مستديرة فوقها مجلات عديدة وصحف ، لا يعرف متى استأجر بكر هذه الشقة ؟ ماذا قال للتمورجى عندما اتفق معه على العمل ؟ ماذا يقول أبناء الحى عن ابنه ؟ كيف يحييهم عند وصوله ، يقولون بارتياح . . الدكتور وصل . . شابة قصيرة القامة تدخل من الباب ، تحتضن كتبا ، تتدلى من كتفها حقيبة قماش ، تومىء للتمورجى ، تقطع الصالة بسرعة ، يقطب خضر عينيه ، عطر خفيف سبح فى الجو بعد عبورها الواثق السريع ، هل جاء فى وقت غير مناسب ؟ لم تنتظر ، لحظ استياء على وجوه المنتظرين ، سمع امرأة تقول : « اصلها

زميلة . . » ، من هذه ؟ تعرف عن بكر أكثر مما يعرف ، فرح ممزوج بخجل يدركه ، لماذا يتخيل بكر صغيرا دائما ؟

رجب محمود . .

يصيح التمورجي ، للحظة لم يتنبه ،

رجب محمود . .

ينتفض واقفا ، أبدى بكر دهشة صادقة ، احتج ، كيف يدخل باسم يجهل صاحبه وهو صاحب الفضل على كل هذه العيادة ؟ لم يدرك كيف يجيب خاصة عندما انتبه إلى وجود الفتاة ، ابتسم بكر . .

أبي . .

خطت نحوه . .

اهلا عمي . .

نظرتها إلى بكر موجزة ، اعتاد كل منهما الآخر حتى ليفهما بعضهما بدون ألفاظ مسموعة .

الدكتورة صفاء زميلتي . .

أومأت ، مضت تزيح الستائر المسدلة على النافذة العريضة ، عادت ترتب بعض الكتب ، فتحت درجا واوشك كتفها أن يلامس بكر عندما

استدارت وراء المكتب قليلا ، تناولت قلما ، تعرف مواضع الأشياء كلها ، جلست فوق مقعد من الصاج الأبيض ، بدأت تكتب ، أدرك خضر حنينا إلى المرحومة ، تذكرها إذ تفتح عينيها بمجرد استيقاظه ، كأنها تدرك بحواسها متى ينتهى نومه ، تقوم ، تسبقه إلى إعداد الشاى والافطار ، إلى يديها إذ تدلكان ظهره عندما يشكو وجعا سببه وقفته اليومية الطويلة ، سأل بكر عن رجب محمود وهل يعرف شخصا بهذا الاسم ؟ قال خضر إنه جندى بالمدفعية ، صمت ، هل ارتفع صوته أكثر مما يجب ؟ أوشك أن يقول ، رجب يشرب عندى من شاى المجهود الحربى ، ليمسك لسانه ، قال بكر لصفاء إن والده يرفض مغادرة السويس . . أطرق خضر ، نظرات صفاء الجريئة نحوه ، قال إنهم يريدون منه مغادرة السويس . . يريدون تهجيره ، انه يرجو من بكر وساطة ما ليبقى ، قال خضر لنفسه إن طلبه الوساطة أمام صفاء سيرفع قدر بكر فى عينيها ، فوجىء بابنه يقول . .

أنت يجب أن تبقى معى . .

كيف ؟ لم يدرك كيف ؟ هل يناقشه أمام البنت ؟ والسويس ؟ هل من المناسب أن يتحدث عن النصبة ، وعن الشاى ، وعن الزبائن الذين أحبوه ، وائتمنه كل منهم على حاجة ما أو سر خاص ، أبدى بكر اصرارا وقال إنه يجب أن يستريح ، فى الأيام التالية طاف خضر بالأولياء ، زار

الحسين ، صلى فيه المغرب ، والعشاء ، دعا أمام المرقد أن يجى كل من يعرفهم أو لا يعرفهم ، بعد أن أغلق المسجد أبوابه دار حوله ، أو شك أن يجلس فوق الرصيف بجوار بعض الفلاحين ، تذكر أنه الآن فى القاهرة ، ربما تصادف مرور بكر ، فى ظهيرة أحد الأيام جلس فوق دكة مجاورة لنصبة شاى بالقرب من سيدى الشعرانى ، سأل صاحبها عن سعر الكوب ، كم يبيع يوميا ، عندما لاحظ تساؤلا صامتا قال انه صاحب نصبه شاى فى السويس بعكس ما توقع أبدى الرجل تحفظا زائدا ، سأل بجفاء ، هل هاجرت من السويس ؟ هل ستفتتح نصبة هنا فى مصر ؟ ، فى البيت يرى أرهاق بكر وتعبه ، أثناء تناولهما الشاى ، يسأل نفسه ، هل رشف الشاى بصوت مسموع ، لم يتبادلا أحاديث طويلة فى الليالى التى يعود خلالها متأخرا ، أثناء النوم يتقلب بحذر شديد ، ربما تسبب طقطقة السرير ازعاجا لبكر الذى ينام فى الحجرة المجاورة ، يستيقظ كثيرا ليسأل نفسه ، هل ارتفع شخيره ؟ فى الصباح يكتم سعالا ، يبدو النهار المقبل غريبا ، ماذا سيفعل ، ماذا سيقوم به بعد خروج بكر ؟ يدور حول نفسه أثناء مشيه فى الطرقات ، يتأمل وجوه المارة ، يتابع ايقاع المشى السريع للناس ، كأنه يرتدى ثوبا به رائحة عرق الغير ، افتقد الترقب الليلى اذ تهدر مدفعية رجب طويلا ، تدرك المدينة أن رجالا عبروا فى دورية إلى الشرق ، فى معظم الاحوال لا يخطئون ، يصدر البلاغ ، يردد الراديو ، عبرت قوة من رجالنا

شمال بور توفيق .. أو جنوب حوض الدرس قال لمرجان أنه يود العبور معهم ، قال مرجان ضاحكا قبل إختفائه .. سيحدث يوما يا عم خضر .. تمنى لو عاش حتى يرى هذا اليوم ، قال إنه سيحمل كل ما فى النصبة ويوزعه هناك على الرجال ، كل ما لديه سيصبح مجهودا حربيا ، ماذا لو جرى ذلك أثناء بقائه هنا ، بين كتب بكر ، وأوراقه ، وأدراجه المغلقة ، جاكتاته الأنيقة ، ماذا لو ذهب الجدعان كلهم إلى الشرق ، وهو هنا لا يدرى شيئا عن أرقام التليفونات التى يديرها بكر ؟ المواصلات التى يركبها ، أصدقائه ؟

حوادث تمهيدية

لم يقل خضر لأحد كيف حصل على تصريح بالاقامة ! لم يتغير شىء سوى موقع النصبة ، نقلها رجب وثابت وكمال أثناء غيابه من تحت الرصيف إلى مدخل البيت خوفا من عربات النقل المسرعة ، لم يغير موقع شرفته ، باستطاعته أن يأوى إلى أى شقة فى البيت الذى خلا تماما ، لم ينزل إلى الطوابق السفلى ، أحيانا يستضيف أحد الجنود الذين لم يلحقوا بآخر أوتوبيس ، قد يترك الجندى جزءا من متاعه ، فى حجرته بطاطين رمادية ، حقائب سفر ، سترات مدنية ، يضحك فكرى قائلا إن سر عم رجب باتع ، جميع البيوت المحيطة به إما تهدمت أو جرحتها الشظايا ، أما البيت الذى يسكنه فلم يمس ، خلال تلك الشهور علم الجنود بابنه الطبيب ،

يوما سأله لطفى المنياوى مداعبا « الولد يقوم بالواجب يا عم خضر » ، نظر إليه خضر معاتبا ، قال إن بكر ابن حلال ، يراعيه ، يرسل إليه ما يكفيه ، عندما زاره فى مصر وأقام عنده ترك له غرفته لينام بها ، مضى معه إلى حديقة الحيوانات ، والأولياء ، أغلق عيادته ليقيم معه ، يستفسر عن أدق أحواله ، يسكت خضر قليلا ، يطلب من الله أن يسامحه ، هل من المعقول أن يشوه سمعة بكر بلسانه ؟ ، ثم يسأل محدثه ، ألن يأتى الفرج قريبا ، والفرج فى لغته ولغة الرجال يعنى بدء الحرب ، إن كثيرا من الجنود يجيبونه ، « والله عايزين نخلص يا عم خضر . . ربنا يسهلها » .

مشهد أخير

الساعة ٦٠٠ ، صباح الأحد ٧ أكتوبر

طوال الليل لم ينم ، لم يغمض له جفن ، ليس بسبب الانفجارات التى لم تهدأ ولم يعهد مثلها من قبل ، نزل من الحجرة ، أصغى إلى الراديو مع بعض رجال المقاومة ، لكن نبضا خفيا بدأ يسرى فى المدينة ، كأنها رحم يستقبل أول إشارات الجنين ، نبض يوحى بكل ما يتم فى الظلام ، فى الشرق ، قال للرجال إنه مع النهار لن يبقى دقيقة واحدة فى السويس ، قال أنه سيذهب الى الشرق وراء الجدعان موفيا نذرا قطعة على نفسه أمام عزيز غال اسمه مرجان اختفى منذ ثلاث سنوات .

مع أول ضوء احتوى النصبة بعينيه ، فى فمه مذاق صباحى جديد ، انفجارات متتابعة ، متتالية ، من كل الأنواع ، صاح رجل فى مكان قريب :

« والله زمن يا صالح . . » .

هدير بعيد ، يتذكر بسرعة ذهابه إلى بكر أثناء امتحان الشهادة الاعدادية حاملا لفافة ورق بها رغيف وقطعتى لحم ليأكلهما فى الفسحة الفاصلة بين فترتى الامتحان ، تناول الجردل الفارغ المخصص لغسيل الأكواب ، وضع موقد البريموس رفيق العمر ، هزه قليلا ، تأكد من امتلائه بالكيروسين ، أثناء اشتعاله يدرك الخلل الطارىء من صوت النيران ، لف جميع الاكواب الزجاجية فى جريدة قديمة ، كل السكر ، كل الشاى ، لم ينس حتى أوراق النعناع الجافة ، أين الملاعق ، لن يدع أحدا يذيب السكر ، لا وقت لديهم .

قطع شوارع الأربعين مسرعا فى اتجاه الهاويس ، يحفظ السويس شبرا ، شبرا ، سيعبر أقصر الطرق إلى الموضع الذى نصبوا المعبر عنده ، سيضع العدة فى حفرة على جانب الطريق ، يملأ أكبر براد عنده ، قبل مغادرته النصبة التى أصبحت فارغة تماما الآن ، قال له رفاعى السباك إن فلاحين من الجناين عبروا بأقفاص الطماطم والبلح وافطار ساخن وراء

الجدعان الذين باتوا كلهم ليلة أمس فى الشرق ، لن يمنعه أحد ، القدامى يعرفونه ، الجنود الجدد سيعرفونه من القدامى ، بعبورهم إلى الشرق أصبحت الأرض إمتدادا طبيعيا للسويس ، للمدينة ، سيبحث عن فكرى ، عن رجب ، عن لطفى ، عن كمال ، عن مكرم عن إسماعيل . . يهنئهم بأول صباحية فى الشرق ، ارتفعت الأرض به ، لمح زرقة القناة ، أعمدة دخان بدت متجمدة فى الصباح الباكر ، النقى ، تهوى انفجارات متتالية من السماء ، يمتد الجسر ، يصل الضفتين ، يربطهما ، يضطر إلى التوقف لحظات ، سيارات نقل ضخمة تتجه إلى الجسر ، صناديق الذخيرة ، المستطيلة الرمادية ، جنود فوقها ، يلوحون بأسلحتهم ، أحدهم يصيح . .

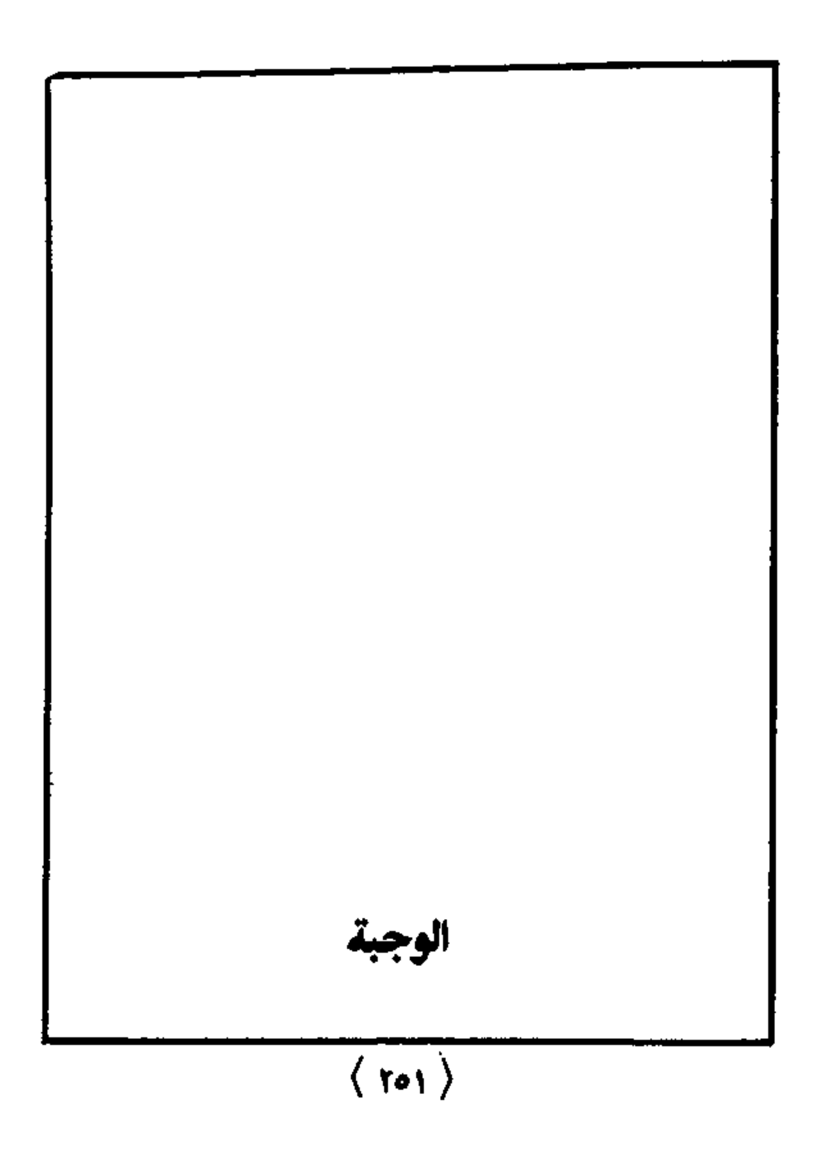
عم خضر . . عم خضر . .

من ؟ لا يدرى من ؟ تبتعد الملامح مع اندفاع العربات المهتزة مع مطبات الطريق ، يحاول الاسراع بقامته المنحنية وخطواته العجوز ، عرفه الجدعان ، لا يعرف من صاح به . . سيبحث عن كل احبابه ، سيوزع كل ما لديه على من يقابلونه ، أمام الجسر ، فوق الجسر ، فى الشرق . . كل ما لديه مجهود حربى . . ربما فوجىء بمرجان يناديه يحتضنه ، يكشف

عن صفين من أسنان لامعة ، يهتف مادا يده بكوب الشاى . .

« غيبة وطالت يا مرجان . . » .

يونيو ١٩٧٦



الوجبة

(١)

.. اليوم ، لم تتوقف طويلا أمام أى شقة فى الطوابق الخمسة ، اكتفت بإيماءة رأس سريعة وكلمات قليلة لجاراتها اللاتى فتحن أبوابهن ، جلسن أمامها يتحدثن ، عادة بعد رجوعها من السوق أو زيارة أحد الأولياء تتوقف ،! تلتقط أنفاسها ، السلم المؤدى من طابق إلى طابق يتكون من ثمانى عشرة درجة حجرية يحفها دابزين خشبى قديم يهتز إذا ما استند إليه أحد ، يدور حديثها مع جاراتها حول أسعار الخضر فى السوق ، الشكوى من غلاء الأحوال ، لقاء عابر بامرأة عرفتها يوما ، خبر زواج ، موت أحد

المعارف ، استفسار عن احتمال تخفيض سعر الكهرباء ؟؟ اليوم لم تتوقف ، صعدت بحملها الثقيل ، حقيبة البلاستيك ، تبرز منها رأس قرنبيطة ، قرطاس تبلل ورقه بضغط ثمرات الطماطم اللينة ، بصل ، كرات وبقدونس ، اليوم يجيىء من الشهر إلى الشهر ، تنتظره ستة وعشرين يوما ، لا وقت تضيعه ، عندما وصلت السطح اضطرت إلى التوقف لحظات قبل أن تقطع الخطوتين المتبقيتين إلى باب الحجرة ، الضوء منبسط ، دافىء عدا مساحة متساوية مغطأة بظلال سور السطح الواطىء ، وسقف الغرفة مغطى بصناديق خشبية قديمة ، قوالب أحذية خشبية ، صفيح ، زجاجات فارغة امتلأت يوما بعطور بأحبار بأدوية ، بقايا سكان قدامى تداولوا على الحجرة ، أكوام من التراب وقطع الحجارة ، أول الشتاء اهتزت جدران الغرفة برياح عالية الصوت ، نفذت من فراغات غير مرئية ، تهز لهب المصباح اليدوى ثم جاءت الأمطار ، ابتل الفراش ، سقط المطر على البلاط المكشوف بصوت عال كصنبور لم يحكم إغلاقه ، عندما وصل أبدى خوفا عليها واهتماما ، سألها ، هل ابتلت ؟ هل ارتعشت ؟ طمأنته كعادتها ، لو هاجمتها أقسى الأوجاع ، لو وخذتها الأبر ، ! لا تلفظ آهة ألم حتى لا تزعجه ، نزل يومها إلى الحارة ، عاد بمقطف ملأه ترابا وأحجارا صغيرة ، صعد فوق سلم خشبى قصير امسكته بيدها حتى لا تهتز ، نزل مرة أخرى ، فى نهاية اليوم كدس أكواما من

التراب حتى لا يتسرب اليها المطر ، لم تخبره بدخول الهواء البارد كسن المقص من الشقوق الخفية فى الجدران حتى لا يشغل وقت الأجازة كله ، أنها تفك الآن حزاما من قطعة قماش مبرومة ، ربطت به ملاءتها اللف حول حضرها ، يبرز أصبع قدمها الكبير من تهتك أصاب مقدمة الحذاء البلاستونيل ، تنظر بارتياح الى الحجرة منذ ثلاثة أيام غسلت غطاء السرير ، أخفت المساحة المحترقة منه ناحية الجدار ولفته بإحكام حول المرتبة نظفت زجاج النافذة ، وأزالت عش عنكبوت تكون فى الركن الأعلى المواجه للسرير . فى الفراغ رائحة البلاط القديم الممسوح ، من المسمار المغروس فى الجدار يتدلى جلبابه . . .

(٢)

تتطلع إلى الظل ، تتعرف على الوقت من حركة الظلال الرمادية قبل المغرب بوقت كاف يتم كل شىء ، عند وصوله لا تقوم إلا بتسخين الطعام فقط ، بعد أن يخلع ثيابه ويغسل وجهه فى دورة المياه التى تقوم عند الطرف الأخر من السطح . يخرج مشمرا بنطلونه ، إنها تخرج أوانى عديده الآن ، صينية ، مصفاة طماطم ، هون نحاس قديم ، حلة الومنيوم متوسطة الحجم ، سكينا قصيرة ، تنزع القشور الخارجية للبصل ، تقطع رأس الثمرات بالسكين ، طعناتها قصيرة موجزة بالطول ثم بالعرض . يتساقط

فتات البصل ، تتوقف ، تمسح أنفها بظهر يدها ، تغمض عينيها ، تفتحهما ، آلاف المرات التى لا مست فيها الرائحة أغشية أنفها لم تصبها بتبلد ، تمسح يدها بحواف جلبابها ، إنها تبتسم ، يميل رأسها ، تصفو ملامحها بتأثير صور قديمة . يوم انتظاره يجيئها سيل من تلك الأيام ، تذكره الآن صغيرا ، يعود من المدرسة ، عندما يراها تقشر البصل أو تعصر الطماطم يصيح أنه سينزل فى الحارة ويرجع ، تومىء موافقة ، لكنه يعود بعد قفزة لعشر درجات من السلم ، يسألها ، متى ستنتهين من الطبيخ ، تقول ، حالا ، يجلس القرفصاء ، بجانبها ، عندما يبدأ اللون البنى يتسرب إلى البصل تطلب منه أن يأتى بنصف رغيف ، تضع فيه قليلاً من التقليه ، تطلب منه أن يتصبر حتى ينتهى الطبيخ ويجىء أبوه ، فى الصباح تعطيه نصف رغيف محشو فولا ، أثناء نزوله السلم تصيح عليه كى يحذر عبث الصبية ومحاولتهم خطف طعامه وكراريسه .

إن ملامحها تصمت فجأة ، تلم للحظات شفتيها إلى داخل فمها ، تعيدهما إلى وضعهما الطبيعى ، تتحرك مرات متنقلة بين الحجرة ، ودورات المياه وعشة قديمة صغيرة تضع بها الثوم والبصل وكيلو بامية مجففة وآنية فخار مكسورة العنق ، آخر ما تبقى لديها من أوان جاءت بها من الصعيد منذ سنين بعيدة ، تتأمل الظل ، يغطى جزء أكبر من السطح لكنه لم يصل

بعد إلى صف البلاط الرابع ، ما زال الوقت مبكرا على آذان العصـر ، يمكنها أن تصلى الظهر حاضرا .

(٣)

تقول دائما عن موقد البريموس أنه « عشرة » العمـر ، الآن تدفـع الكباس ، تعلو النيران تتقدمها خيوط دخان تبدو ظلالها على البلاط أشد كثافة من قوامها فى الفراغ ، تتراجع إلى الخلف حتى تنتظم النيران ، كثيرا ما قال لها ، ابتعدى حتى لا تلمس النيران شعرك ، قوائم الموقد الثلاث تميل قليلا عن وضعها الطبيعى ، يبدو على اثنتين منها لحام حديث ، لا يمر أسبوع إلا وتنزل به إلى سباك قريب ، إن أقذارا كثيرة تراكمت على نحاسه الأصفر ، تجمدت فكأنها جزء منه ، لم يستمر انتـظام النيران طـويلا ، نفخت بفمها ، صاحت ، « اعتدل وإلا خبطتك فى الأرض » ، يضحك عندما يسمعها تزعق هكذا ، تنحنى ممسكة الابـرة تحاول تسليـك ثقب الغاز ، ترتجف النيـران مرات ، ثم تنتـظم زهرة من لهب تتـوج الموقـد النحاسى ، تقول بارتياح . .

« أكمل جميلك حتى تنتهى الطبخة . . لا تكسفنى » .

يأز صوت النيران ، بملعقة صغيرة تفرغ الكوب الممتلىء حتى نصفه بالسمن ، تتحول القطع المتجمدة إلى سائل أصفر يزدحم بفقاقيع صغيرة

متألقة ، تتلاشى ، تنمو من جديد ، يبدو السمن المنصهر متأهبا لا ستقبال البصل والفلفل وعصير الطماطم ، أشعة الشمس تتدفق كالمرق الساخن ، أزيز الموقد يدركه وهن ، تصيح ..

« خلى عندك دم .. لم يبق وقت لدلعك » .

آخر أجازة لحظ تعبها مع موقد البريموس ، اقترب منها فى الصباح المبكر ، أمسك كتفيها فى إحدى المرات القليلة التى تتلامس فيها أيديهما ، أنهما يتواجهان ، تتحرك فى حبه ، وعطفه فهو ما تبقى لها ينتابه حنين واحترام لأمة العجوز التى لم تهدأ طوال حياتها ، يقول لزملائه إنه لم يرها نائمة ابدا ، ودائما تقوم قبله وتنام بعده ، تترقرق مشاعره ، لكنهما لا يتبادلان القبلات ، لا يعبران عما يشعران به بالكلمات غير أنه فى آخر أجازة أحاطها بذراعيه ، قال ..

« ولا يهمك .. بعد إنهاء الخدمة ساشترى لك « بوتجاز » .

همست بخجل وسرور ..

« تجيبه لبيتك يا بنى إن شاء الله » .

(٤)

آذان العصر من المساجد القريبة ، مذياع بعيد ، تقوم إلى السور ، تحتضن الفراغ بعينيها ، بعد صلاة الجمعة فى تلك الأيام البعيدة يجلس

أول السلم ، يصغى إلى برنامج ساعة لقلبك ، ربما يقفلونه أو يخفضونه ، عندئذ لا ينهى قعدته مباشرة إنما يمكث قليلا ثم يقطع السلم عدة مرات قبل أن يتكىء إلى السور متأملا هذه المآذن البعيدة ، تنظر الآن إلى مئذنة الحسين الرشيقة ، النحيلة ، طافت بالمقام ودعت له أن يشفيه من مرض أو يوفقه فى المدرسة أو يثبته فى الوظيفة ، منذ ذهابه إلى الجهادية تدعو له ، لزملائه ، لكل أبناء الناس الذين يعيشون فى الخطر ، تدعو لزملائه فى الملجأ ، تعرف أسم كلا منهم ، تلفظ الآن دعاءها « إن شاء الله يا سيدنا الحسين » ، غبار معلق يضفى على البيوت البعيدة رمادية داكنة ، أما البيوت القريبة فيميل طلاؤها على اختلافه إلى إصفرار بتأثير الشمس المنكسرة باتجاه المغيب ، بعد ساعات سيتمدد فوق السرير وتقعد فوق الأرض ، رأسها يحاذى صدره ، يسألها ضاحكا عن الأخبار ، تحكى عن البيوت ، عن الخناقات ، عما رأته أثناء زياراتها للأولياء ، يقاطعها . .

« خذى بالك وأنت تعبرين شريط الترام . . » .

ستحدثه عن اهتمام محمد الخضرى بها وقوله بصوت مرتفع لصبيه إسماعيل « اقضى حاجة الست الحاجة . . ادع لنا يا أمى » وردها عليه « الله يبارك لك فى رزقك » ، الآن تتطلع إلى الطريق ، مارة ، جلابيب ، قمصان ، بنطلونات ، طفل يدحرج طوقا ، رجل يعانق رجلا ، يتراجع لحظة برأسه ثم يستأنف العناق ، فوق سطح المصبغة يمشى رجل يحمل

خيوطا صوفية مبلولة ، ينشرها على أعمدة خشبية ممتدة ، يصيح منـاديا شخصا اسمه « حسين » . .

(٥)

بطرف لسانها تتذوق الطبيخ بعد أن أضافت ملحا ، منذ عشر دقائق أضافت نصف كوب من الماء ، فى نفس المكان الذى يأز فيه الموقد الآن جلست أمام الطشت ، فوق كرسى الحمام يقعد فى مواجهتها ، يحدثها عن أستاذ العربى الطيب ، وأستاذ العلوم القاسى ، الأول لا يضرب والثانى يقسو على التلاميذ ، تصغى إليه ، تدعـو لأستاذ العـربى وتلعن مدرس العلوم ، بين الحين والحين تطلب منه أن يناولها صابونة أو كوز الصفيح ، شاء المرحوم أن يعلمه حتى النهاية ، لكن الزمن يبدل ويغير ، الآن يعلو صوت المذياع ، تنظر إلى الطريق ، ثلاث فتيات ، سقاء يدفع عربة محملة بقرب المياه ، يخفق قلبها فجأة ، جندى عند المنحنى ، لكنه قصير ، غطاء رأسه أسود اللون ، تستطيع تمييز قامته وطريقة مشيته ، تماما كـالمرحـوم والده ، انحناءة جذع الجسم الأعلى إلى الأمام قليلا ، ربما لأن ثقل جسـمه يستند إلى أطراف أصابع قدميه ، تذكر الآن آخر مرة خرج فيها ، تابعته فى بداية النهار الرائق كـالحليب ، فى الفناء رفـع رأسه مبتسـما ، اختفى ، تابعته ، مدت جسدها إلى أقصى ما تستطيع ، عند المنحنى توقف لحظة ،

عدل وضع غطاء رأسه الأزرق ، كثيرا ما قالت لجاراتها أنه فى الصاعقة ، عندما تسمع اسم منطقة الكاب فى أحد البيانات العسكرية يهبط قلبها داخل جسدها مقدار اصبعين متجاررين ، إذا تصادف لقاؤ ها بإحدى صاحباتها وسألتها عنه ، تقول إنه فى الكاب ، وتفكر ، « الصاعقة هناك » .

إن أزيز الموقد يتوقف إما لنفاذ الكيروسين أو لعدم دفعها الكباس لفترة . .

مصباح ضيىء .

إن ثقبا يغرى صدرها ، ينبعث ضوء آخر من دكان سعيد البقال ايد خفية تنثر الضوء فى الفراغ ، قرآن من مذياع قريب « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلا » . . تعجز عن تمييز الملامح مع نزول الليل لكنها تستطيع رؤ ية جرسون مقهى الميدان يرش الأرض استعدادا لاستقبال الزبائن الليليين ، عند الطرف القصى للرصيف المحاط بسور حديدى يجلس شخص ما يدخن نرجيلة وضعت أمامه منذ دقائق ، ترفع عينيها إلى السماء الرمادية ، ترجو النهار ألا يرحل والليل ألا يقبل ، تود لو أغفت عينيها قليلا ، تفتحهما لتجده أمامها وأن يوقظها ، منذ سنوات طويلة لا تذكر مقدارها ، وضعته فوق السرير طفلا رضيعا نائما ، قعدت

خارج الغرفة تغسل بعض ثياب المرحوم ، صباح شتوى عتيق لا تدرى الأن فى أى السنوات هو لكنها تعى حدة الهواء البارد وكثافة الغمام فى السماء ، اهتز الباب بتأثير الهواء ، لم تنتبه إلا على صوت اصطدامه ، أغلقت الحجرة تماما ، المفتاح بالداخل ، دارت بعينيها حولها ، راحت ، جاءت ، نزلت إلى جارتها الست روحية « الحقينى يا أم كاميليا » راحت تبكى ، طمأنتها ، جاءت أم سعدية أيضاً ، وقفن يعالجن الباب ، انزوت هى بعيدا عنهن ، تعض أصبعها بقوة ، تبكى ، عندما نجحن وفتحن الباب ، أسرعت ، وجدته نائما ، لم توقظه الضجة ، احتضنته ، قبلته ، لم تتوقف عن البكاء ، صاحت الست روحية :

« الولد سليم والحمد لله . . والباب فتح . . لماذا تبكين ؟ آه . . لماذا تبكين ؟ » .

(٦)

تتوالد النجوم بكثافة ، تخف الرجل من الطرقات ، تبدو العدوة خطى العابرين ، يسرع الترام ، حركة ما بعد العاشرة ليلا أو الحادية عشرة لا تدرى ، الظلال غطت الدنيا وأسود لونها ، كيف ستميز الوقت ؟ هل أخطأت فى حساب التاريخ ، بالضبط اليوم اثنين ، لم تجلس منذ ساعات ، يسرى نمل خشن تحت جلد ساقيها تستدير ، من تسأل ؟ الى

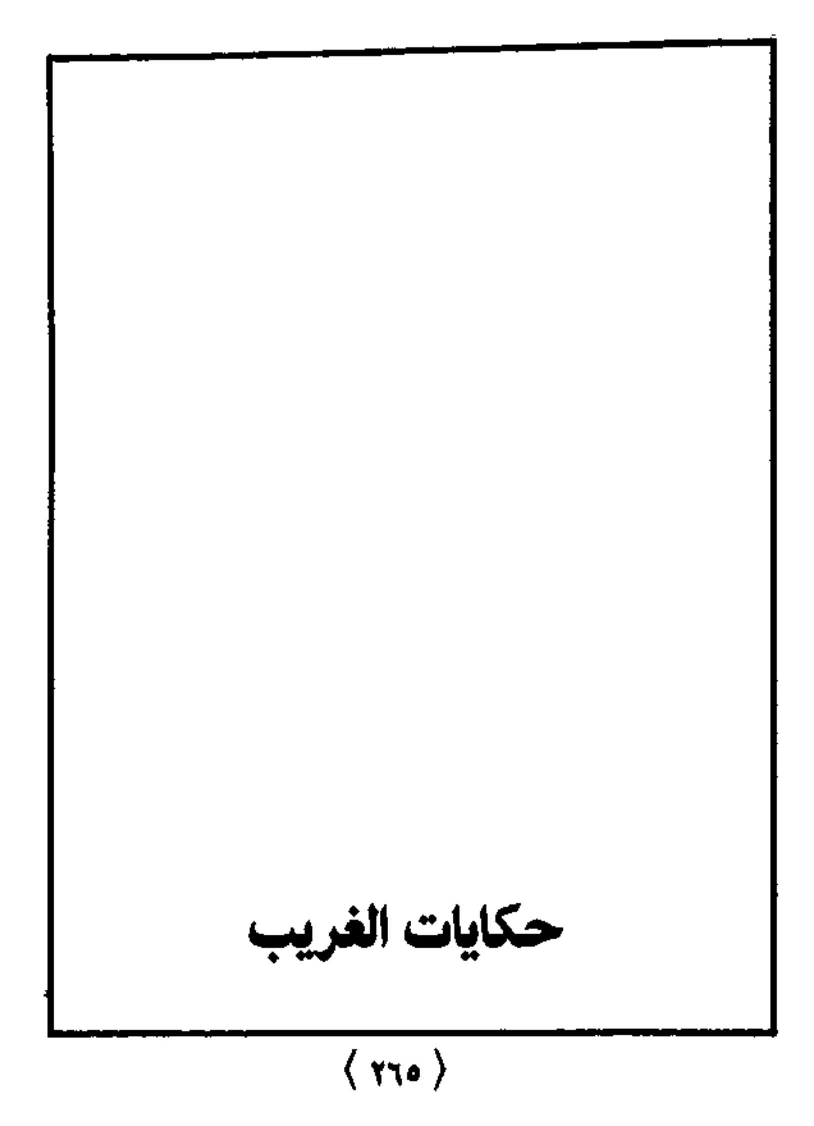
أين تمضى ، إنها فى أشد الحاجة إلى الحديث مع .. مع من ؟ لو جاء فى ميعاده لبدأت جلساهما الليلية منذ فترة ، تبتعد عن السطح ، تعود لتطل ، تزحف برودة على الطريق ، ربما عبره فى تلك اللحظات التى ولت بنظرها عنه ، تبتعد عن السور مرة أخرى ، لا تنتبه إلى الموقد الهامد ، البارد ، ولا تشعر بوجود الإناء يحوى الطبيخ فى فراغ السطح ، لم ترفع غطاءه ، لم تغرف منه ، لم يرفع اللقمة المغموسة فى المرق ويقول « وحشنى أكلك » ، لم تمسك بقطعة لحم وتصر على أن يأكلها ، يجيبها بأنه شبع وأمام إلحاحها يقول « تعزمين على .. أنا غريب ؟ » إنها تعبر السطح بسرعة ، تتذكر المرحوم اذا يعطى للصغير نصيبه ، ثم يعطيها نصيبها ، تقسم ما أخذته قسمين ، لا يمكن أن تدخل لقمة إلى فمها لم يذقها ، تنزل الدرجات ، كتفاها هابطتان ، تحت حمل غير منظور ، تقف أمام باب الست روحية ، صوت أنات الأسطى حمدى الترزى يطلب كوب ماء ، شبشب ياط فوق بلاط الصالة ، عبر الباب المغلق تشم رائحة هذا الحديث الليلى والاسترخاء المتعب ، أبواب الشقق التى أغلقت ولن تفتح الا صباح الغد ، لا ينتظرون زائرا أو قدوم غريب أو قريب ، شظايا ضحكة بعيدة ، كيف ستطرق الباب ؟ فراغ البيت مثقل برائحة هى مزيج من آثار بصل ، أثاث قديم ، بلاط ممسوح ، مبيدات حشرية ، عطن غامض ، الشقق كلها مغلقة ، آخر أجازة قال نفس العبارة التى اعتاد لفظها عند ذهابه :

« إذا خبط أحد الباب .. لا تفتحي إلا إذا تأكدت أولا ... من هو؟ » .

(٧)

تضيع بقايا أضواء البيوت ، دوائر النور الشاحب تحت المصابيح فى الطريق البعيد ، إنها وحيدة تماما مع الليل ، صفير قطار بعيد كالأنين ، ربما يجلس بإحدى عرباته ، ربما يقترب الآن ، ربما يعبر الناحية الغربية ، يفتح باب التاكسى أو الأتوبيس أو يقفز من عربة نقل ، ربما يحث الخطى ممسكا حقيبة اليد التى تمتلىءبثيابه الداخلية وفوط الوجه ، اعتادت أن تغسلها كل أجازة وتنشرها على الحبل الممتد فوقها ، ربما يجتاز نقطة ما على الطريق الصحراوى فى بطن الليل ، ربما يحملق بعينيه مفكرا فيها وكيف سيلقاها .. ربما ...

مارس ١٩٧٦



حكايات الغريب

.. فى يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق إلى السويس للمدنيين ، قام رئيس العهدة المخزنية بالمؤسسة العامة المعتمدة للتوزيع والانتشار بكتابة مذكرة يعرض فيها موقف الاسطى عبد الرحمن محمود ، حيث إن المذكور قام فى تمام الساعة السادسة من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ محمله بصحف وكتب ومجلات لنقلها إلى مدينة السويس وتسليمها إلى الحاج حسن السودانى متعهد التوزيع هناك ، وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيادة رحلات المؤسسة إلى السويس ، واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحنيات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير

أن أخباره انقطعت تماما منذ ٢٤ أكتوبر ، وأصبح موقف السيارة الفورد والبضاعة غير معروف مما تسبب فى وجود فجوة فى دفاتر العهدة .

وفى يوم الأحد ٣ فبراير ، أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكرة عليه ، إذ إن الموضوعات التى يقرأها دائما ذات طابع متشابه مهما اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل ، لهذا رفع السماعة وطلب رئيس مجلس الإدارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسافر إلى السويس وتستقصى الحقيقة حول مصير العهدة ، وفى تمام الساعة الواحدة والربع بدأت الآنسة سنية نسخ المذكرة الخاصة بتشكيل اللجنة بعد أن أنهت مكالمة تليفونية طويلة مع إحدى صديقاتها . وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور ، يحمل توقيعا رئيسيا لمدير المؤسسة ، وتوقيعا جانبيا لرئيس قسم العهدة ، وأسفل الصفحة اسم « سنية » التى نسخت القرار . ضمت اللجنة الأستاذ الجواهرى رئيس العهدة ، وسعيد طايل الموظف بإدارة الأفراد وشفيق نصرى الموظف بقلم التوزيع . عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ لكل منهم كبدل سفر لمدة سبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهرى كلمة حتى لا يقال أنه اشترك فى مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير ، إنه موظف قديم خدم من قبل فى ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماما بالأصول والقواعد ، فى اليوم التالى عقد اجتماع

آخر ، فى بدايته ضغط الأستاذ الجواهرى زرا جاء بعده عامل البوفيه ، طلب طايل أفندى شايا ، أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع أسعار القرفة وندرتها ، أبدى شفيق أفندى ضيقا وقال إن البوفيه سيىء ولابد من تغيير المتعهد ، اعتذر ، أشار رئيس اللجنة إلى المهمة الصعبة التى تنتظرهم ، واستفسر عن تصور كل منهما لخطة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل أفندى البدء هنا ، ضرورة الذهاب إلى أسرة المذكور واستجواب أمه أو زوجته أو أولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، أشار الأستاذ الجواهرى إلى ملف أزرق . قال إن الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل أفندى ، كيف فاتتهما الفكرة ؟؟ تم استعراض محتويات الملف واتضح انه يضم ما يلى . .

* شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ، من مواليد عام ١٩٤٤ .

* اسم والده محمود على أحمد . اسم والدته نجية ، تم تطعيمه مرتين ، الأولى ضد الجدرى ، والثانية ضد الدفتريا . .

* شهادة حسن سير وسلوك ، موقعه من موظفين اثنين ، مؤرخة ١ / ١٩٦٧/٨ .

* تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواع السيارات .

* شهادة خبرة من المؤسسة المصرية العامة لنقل الأوعية الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات فى خدمة الشركة . .

* شهادة معافاه من الخدمة العسكرية . نظراً لأنـه الأبن الوحيـد وعائل أمه . .

لاحظ الأستاذ الجواهرى خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات طلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل أفندى الذهاب إلى أسرة المذكور غدا مـع احتسـاب المـدة التى سيقضيـانها بـالعـطوف من الفتـرة المخصصـة للمأمورية ، تمهل الأستاذ الجواهرى فى الموافقة ، خاصة وان الاقتراح يعنى تقاضيهم بدل سفر عن يوم سيقضونه فى القاهرة .

.. العطوف ..

بعـد بحث استغرق سـاعة . تخللهـا سؤال أصحـاب دكـاكـين ، وصبية ، وجرسون ، وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، وصلت اللجنة إلى المنزل رقم ١١ ، أثار ظهور الأفندية اهتماما فى الحى ، وسارعت امرأة تبيع المحشى إلى الاختفاء ظنا منها بأنهم من الصحة ، صاحت احداهن على الست أم عبد الرحمن لتكلم « البهوات » ، خرجت امرأة حافية ، تحيط نصف وجهها بطرحة ، أثار خجل أنثوى ما زال متبقيا مع العمر المتقدم

تساءلت عن أخبار عبد الرحمن ، من هيئتهم عرفت انهم جاءوا من أجل ابنها ، تطلعت إلى الأستاذ الجواهرى ، أدركت من سنه وحركته البطيئة واحاطة الشايين به أنه أهم الثلاثة ، تقدمتهم عبر فناء به مياه غسل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند إلى حامل معوج وسلم طويل بدون درابزين ، يؤدى إلى مجموعة من الغرف المفتوحة المتجاورة ، أطلت طفلة اختفت ، عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت انثوى يطلب من محمد سرعة ارسال اكواب الشاى إلى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهرى صوت كباس موقد غازى صاح طالبا منها أن تخضر لأن وقتهم ضيق ، لأحظ شفيق أفندى صورة حجم كارت بوستال معلقة فى مواجهة الكنبة القديمة ، تشبه الصور الصغيرة الثلاث فى الملف ، عينان واسعتان تحملقان إلى الأمام ، على الإطار الأبيض أكلشيه أزرق « ستوديو الأزهر » . قالت إن أحدا لم يدلها ، تمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود من الباب ، قاطعها طايل افندى قائلا إن البك حضر بنفسه اليها ، قالت إن أحد زملائه كتب خطابا على لسانها إلى مأمور القسم ، والمحافظ . أخذه منها جدع طيب يرتدى قميصا وبنطلونا لم تره أبدا بعد ذلك ، قالت أن عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدا لفظ « سندها » لشفيق افندى كأنه عويل ، لاحظ وشما أخضر باهتا يتوسط جبهتها ، تبدو فى جلستها أكثر ضآلة ، فكر ، انها

أم ، بحث الأستاذ الجواهرى عن الفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفككة فى المذكرة ، قالت إن ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسه أبدا ، لم يتشاجر مع إنسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها إلى المصالح وأقاربها الموظفين بحثت عن ملامحه بين الوجوه ، ركبت الترام وعبرت طرقات لم ترها ، وجلست مرة بجوار شاب يقرأ جريدة ، هل يوجد ناس فى السويس ؟؟ سألها ، هل أنت مهاجرة يا أمى ؟؟ . قالت إنها لم تر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج إلى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا إليها . لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس فى السويس يا أمى . هل تصلهم مياه ؟؟ قال اطمئنى يا أمى الماء عندهم أكثر من هنا ، سكت لحظة وقال أن عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال . مياهها عذبة حلوة تكفى بلدا . أشارت بأصبعها إلى أعلى ، قالت إن (جدعانا) كثيرين ماتوا . ولو تأكدت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهرى عينيه ، طلب التأكد من آخر مرة حضر فيها عبد الرحمن إلى البيت ، قالت إنها تذكر خروجه وكان ساعة واحدة انقضت ، بعد نزول السلم طلع مرة ثانية ، قال (خلى) بالك من نفسك ، نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، لو أن نافذة الحجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح على منور داخلى تغلقها دائما خوفا من الابراص والهوام ، قالت . . مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة . .

أتت بيدها حركة ايقن شفيق أفندى معها أنها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة . وأنها تعانى الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وانها ستبكى بلا انقطاع بعد انصرافهم ، إن حواسها واهتمامها كله من أجل استكشاف أمر لو ضئيل يخفيه عنها هؤلاء الأفندية ، ينحنى الأستاذ الجواهرى ، لهجته بطيئة ، يقول إن السائقين يلفون ويرون الكثير من البلاد والعباد . ألا يحتمل لقاؤه بامرأة لفت عليه . . أغوته . .

(لا . . عبد الرحمن ما يعملها) . . قالتها باختصار شديد ، تحاول اخفاء استنكارها كجزء من احترامها لهؤلاء الاغراب الذين يمتون بصلة ما إلى ابنها ، كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه على صفية المغربى ابنة جلول بائع العطور أخبرها . طلبت منه توفير بعض المال ، اقترحت عليه النزول ليعمل سائقا على التاكسى لم يتزوج ، لم يقسم له نصيب من سنية ، ينظر الاستاذ الجواهرى إلى عضوى اللجنة ، لم يعد ما يقال مهما ، إن الساعة تقترب من الواحدة . بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن ، لم يسكتها وقوفهم ، عندما فاجأت الصرعة اسامة ابن الست روحية جارتهم استغاثوا بعبد الرحمن نزل السلم يحمله ، ايقظ الدكتور عبد المعطى الذى يسكن فوق عيادته ، قال لو جاءته مثل هذه النوبة عليهم تغطيته بملاءة سوداء وأن يضعوا شيئا صلبا بين اسنانه .

ينزل الأستاذ الجواهرى . يتجمع صبية صغار . يبدو أن الست أم عبد الرحمن لا ترقبهم الآن ، تتحدث إلى شخص ما ، بدأ هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملامحها وجمود وجهها ، تقول إن أول مرتب قبضة جاءها به ، قال إنه يتفاءل عندما يعطيها أول خيره ، أمام البيت تقترب منهم امرأة تحمل طفلا . تهمس . طوال اليوم على هذا الحال ، ينام الحى كله فى الليل لكن صوتها لا يهدأ . تحكى عن عبد الرحمن ، مسكينة . . أصلها لم تر أبيض وأسود من ساعة غيبته .

« ملحوظة » . .

يجب الإشارة هنا إلى أن مهمة اللجنة عسيرة ، إذ لم يسبق القيام بمثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهرى على التزام الحذر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد اجتماعا فور وصولهم السويس . طلب شفيق أفندى ذهابه إلى المستشفى فى الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهرى ليستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر إلى مقر المحافظة . ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمى ، قام الأستاذ الجواهرى ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم ألا يقلقوا وأنه فى أمان ، بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التى تدعم صحة ما يذكر فيه من أحداث ، وتواريخ ، وأقوال شهود . .

المستشفى ..

اعترضه رجل يرتدى معطفا أبيض ، أبرز التصريح ، قال إنه يود لو قابل المدير شخصيا ، غير أن الرجل قال ، هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحى كثيرين فى بداية المعارك ، مدنيين وجنودا ، حتى الرجوع إلى سجلات المستشفى لن يفيد فى قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتح لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذى عاش الحرب والحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فيشاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء الحصار ، قال إن الأهالى يعرفون الاغراب الذين احتجزتهم قطع الطريق . نظر شفيق أفندى إلى الأرض المبلولة . والممرضات يرحن ويجئن . ترى . . من رأى عبد الرحمن ، عض شفته ، سأل ، ألا يمكنه التعرف عليه لو رأى صورته ؟؟ ابتسم الموظف ، قال إن طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وأنه منتدب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئا . ثم هناك استحالة التعرف على الشخص من الصورة ، ربما حدثت به تشوهات أو اصابات بالوجه ، ثم إن الإنسان تغير ملامحه تغيرا كبيرا زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤ ية الموت والقتال ، سكت الرجل لحظة ، وقال . . عموما اذهب إلى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم ، لكن المسئولين عن الدفاتر والسجلات اعتذروا عن تقديم أية

مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات أثناء قصف مدفعي قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءا من المبنى ، الثاني يتعلق بالوقت الذي يستلزمه حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثالث والهام أن كثيرين جدا لم تدون أسماؤهم ، وآخرون قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقييد أي مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توفر الوقت الكافي ولا نشغال الممرضين والأطباء والموظفين فيما هو أهم مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على الأقسام طبقا لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تساءل شفيق أفندى ، هل جاء الأسطى عبد الرحمن إلى هنا ، هل خرج إلى مكان ما ؟؟ فى الطريق الصحراوى على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، يبرز منها إطار عربة ، أكياس قماش ، فردة حذاء رأى بعينى عقله الأسطى عبد الرحمن يقود عربته فى صحراء ملتهبة ، قدماه تضغطان دوسات السرعة ، قبضات نيران تومض هنا وهناك يتحرك الأفق حركة دائرية كأن اندفاع السيارة يبرز دوران الأرض . لكن يجيء الوحش المعدنى هادرا ، يدوس السيارة يعلوها ، يتجاوزها ، على جانبى الطريق رأى لافتات عبرية صغيرة ، زجاجات كوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية . ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

أليس من المحتمل تعرض الأسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟؟

وقتها نظر اليه الإستاذ الجواهرى ، قال بلهجته البطيئة . . هذا ممكن . . لكن من يثبت هذا ؟؟

« من التقرير اليومى لطايل أفندى »

. . كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت تمارس عملها وتؤدية طوال يومى ٢٢ ، ٢٣ اكتوبر ، وعندما بدأت علامات الهجوم على المدينة استطاع أحد الجنود أن ينقل الدفاتر والتصاريح التى تسجل حركة المرور من وإلى المدينة عبر الطريق الصحراوى ، وبالبحث ثبت ما يلى . .

« إنه فى تمام الثامنة و٤٥ دقيقة دخلت العربة رقم ٦٧٠٧٣ . نقل القاهرة ، يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقته الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية ، وحامل تصريح مرور مستديم من وإلى السويس . وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح ٢٣ اكتوبر . وسألت سيادته عن احتمال مغادرتها بعد مجىء قوات الطوارىء الدولية لكنه نفى ذلك ، لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندى سيد أحمد أهل ، وهو الوحيد الباقى من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجندى المذكور إنه صباح يوم ٢٢ أكتوبر دخلت عربة النقل المشار إليها قال انهم يعرفون سائقها لتردده المستمر خلال الحرب . وأنه صاح من نافذة الكابينة

بعد تدوين العربة « شدوا حيلكم يا أبطال » عاد فى المساء . لكن الظروف تغيرت إذ قطع اليهود الطريق فى عـدة أماكن . كثـرت الأخبار أنهم فى الطريق إلى البلدة للهجوم عليها . أشتد الطيران ، وجاء الفلاحـون من (الجناين) وجنود شاردون . آخر عربة ظهـرت أمام النقـطة هى سيارة الأسطى كمال .

وهنا استوقفت الجندى سيد أحمد الأهل وبدأت استجوابه بحضـور قائد عموم المرور نظرا لتناقض أقواله .

س : من تقصد بالأسطى كمال ؟

ج : سائق اللورى المبين رقمه فى دفتر الحركة . .

س : انه اللورى المدنى الوحيد المبين فى هذا اليوم . . هل تقصد سائقا آخر ؟

ج : أقصد سائق لورى الصحافة .

س : اسمه فى الدفتر عبد الرحمن

ج : ناداه الباشجاويش دائما . . يا كمال . . وعندما جاء الطيـران يقفز معنا إلى الخندق وسمعت الباشجاويش يقـوله لـه . . لا تخف يا كمـال يا بنى . . ورأيته ثابت الوجه متعجبا . فسألته ألم ير ضربا طوال حياته . فقال انه جاء الى المدينة أيام الحرب لكن الأمور لم تصل الى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاويش قلة ماء مكسورة الفوهة ، شرب ماء قال . .

تشرب يا كمال فهز رأسه قال إنه ليس بعطشان . .

س : ألم يدخل لورى آخر فى هذا اليوم ؟ . .

ج : لورى واحد . .

س : ربما سمعت الاسم خطأ . .

ج : أبدا . . فى مرة بعد انصرافه وقف الباشجاويش ساهما ، وسمعته يكلم نفسه . . قال إنه شبه ابنى كمال . . أى والله الخالق الناطق . . كمال أبنى . .

س : بعد انتهاء الغارة أين ذهب ؟؟

ج : عاد باللورى إلى داخل البلد . . ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق

ملاحظات الأستاذ الجواهرى

. . ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ . خلال الحصار ، وأفادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة بعضها إستخدم كمتاريس أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البنزين أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها . وجدناها متفحمة تماما . منزوعة الاطارات . مضغطة فى

بعضها لدرجة أن كابين القيادة اندمج بمؤخرتها.. كما احترق طلاؤها تماما . وحاولنا العثور على لوحتي الأرقام لكن يبدو أن بعضهم انتزعها إذ وجدنا المسامير القلاووظ التي تربطها مفككة وملقاة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات هو فني معتمد لمعاينة الحطام مقابل ثلاثة جنيهات (مرفق ايصال بالمبلغ) . وأفاد أنها من طراز فورد ، لكنه لم يحدد اية مواصفات أخرى ؟؟

« . . بزيارتي للمسئولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر جميع الأهالي بالمدينة بعد معارك يومي ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر . لتوزيع المئونة عليهم وقالوا إن الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة » . .

« . . لم يتعرف أحد من المسئولين بالمحافظة . وقوة عموم المباحث على صور المذكور ، ولم يدل أحد بما يثبت أنه رآه قبل أو خلال أو بعد الحصار » . .

شفيق افندى يحاول استقصاء الحقيقة ..

.. مساء اليوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجـواهرى اتصالا بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده إلا يعاكس أمه ، كما طلب من زوجته أن تستعجل قمصانه التى أرسلها إلى الكواء قبل سفره ، وبعد اتخاذ طايل إفندى ترتيبات لشراء سمك من الخليج الذى بدأ الصيادون فى النزول اليه ، اتخذ الأستاذ شفيق أفندى طريقة لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائيين ، أبدى أكبرهم سنا دهشته من هدف اللجنة ، تساءل ما الذى ينتظر من سائق عربة توجه صباح ٢٢ اكتوبر إلى السويس ولم يعد ، حاول شفيق افندى شرح الظروف والملابسات ولمح إلى القوانين الجامدة والعهدة والمخازن . خجل ، بدأ يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله ، لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائيين الأربعة « إنه يتحدث عن الغريب » . دق قلبه . رأى الست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها المتصل فجأة . يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يقول بعض معارف عبد الرحمن بعد سنوات ، ذهب ولم يعد ، قال قناوى الفدائى ، إن الغريب جاء مع الحاج حسن السـودانى متعهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شىء المؤسف أنه

توكل على الله ، ذهب بطلا فى معركة قسم الأربعين ، عينا شفيق أفندى تحيطان بسرعة بالوجوه ، بكل ما فى القاعة ، بطاطين رمادية ، صناديق ذخيرة فارغة وزمزميات مياه ، مكان يأوى مقاتلين ، مكان اقامة مليئة بالحذر والترقب ، لوحة ملونة ، فارس يرتدى خوذة ، يشهر حربة ، فوق رأسه كتابة واضحة « أبو زيد الهلالى » آخر تنفيذ منذ حربة اختفت بقاياه مع اللوحة الممزقة ، لابد أنها تنتمى إلى أصحاب الشقة الأصليين . ربما لم يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومى هنا .

يقول قناوى إن الغريب بدا حائرا عندما جاء إلى قسم الشهداء مع الحاج حسن صاح كثيرون إن اليهود قادمون إلى كوبرى الزراير . بدأ الملازم حسن ضابط الصاعقة فى توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب لقناوى « فين كوبرى الزراير ؟؟ » .

أشار قناوى إلى اتجاه المكان ، سأل . .

« تعرف تضرب نار ؟؟ » .

« ممكن أعرف » . .

ناوله قناوى رشاشا وثلاث قنابل خارقة للدروع ، نظر الغريب إلى السلاح . هذه الدهشة الخفيفة والحذر تجاه السلاح لدى من يلمسه لأول مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقبض أضغط الزناد .

تتزايد الحركة بين الناس ، كـوبرى الـزرايز ، كـوبرى الـزرايز ، قـال الغريب . .

(آجى معاكم ؟) .

رآه قناوى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمائن عند الهويس ، لم ير قناوى الغريب لكنه عرف أخباره من الذين حاربوا عند الكوبرى الزرايز .

سأل شـ يق أفندى عن إمكـانية اللقاء بأحـدهم . نظر قنـاوى الى زملائه . نزا. إبراهيم إلى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل فى أجـ زة بعد ، تساءل شفيق أفندى عن حسن هذا ، قالوا إنه ضابط الصاعقة ، وأنه حارب عند كوبرى الزرايز ، وصباح اليـوم التالى أكـد الملازم أول حسن عمار ، إن الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كوبرى الزرايز أثناء توجه الكمائن إليه ، لم يسأل خائفا أو مترددا . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقـدم ، يقف بطولـه فى مواجهة الدبابات مخالفاً كل القواعد التى يتخذها المشاة عندمـا يتصدون للدروع ، كان يريد الاقتراب إلى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشىء ما . زعق بدت حركة ذراعه عندما القى القنبلة الأولى ، انفجر الجسم المعدنى ، تصاعد دخان كثيف له قوام . أزت رصاصـات

البنادق الخارقة فى اتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة ، بدا الاضطراب على حديد الدبابة الثانية ، دار المدفع الرئيسى إلى الشمال ، ارتد مكانه ، بدأ الجسم الضخم مرتبكا قبل أن تمتد ذراع الغريب فى استقامة إلى الخلف ، القى القنبلة الثانية ، قال إن آخر مرة رآه فيها بين الدبابة الأولى والثانية ، غطى الدخان كل شىء ، أصدر أوامره بتغير أوضاع الكمين . بعد انتهاء المعركة عادوا إلى مكان الدبابتين المحطمتين ، لم يجدوا جثته قال إنهم ذهبوا بعد وقف اطلاق النار لأن الحركة استحالت فى المدينة يومى ٢٤ و ٢٥ بسبب الرصاص الطائش ، قال إنه سأل عنه ، من هو ، ما اسمه ، لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعق . . يا مجدى . . فهل هو اسمه . خاصة وأن كل أفراد الكمين معروفون بالاسم ولا يوجد منهم مجدى لكن الذين تبقوا من الرجال لا يعرفونه إلا باسم الغريب صاحب الحاج حسن السودانى . .

ملحوظة أخرى ...

قام الأستاذ الجواهرى فى اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بهيئة الشئون الصحية أثر اكتشافه معرفة قديمة ربطت بينهما يوما ، وبالطبع ورد ذكر الأسباب التى أتت بالأستاذ الجواهرى ، قال الموظف إنه لا يعرف شخصا حارب فى المدينة بهذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الاهالى عن سائق لورى قطع عليه الطريق وحارب عند كوبرى الزراير ويقال انه واجه

الدبابات واقفا ، حتى إنه اعتلى احداها ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها ، وهنا قال الأستاذ الجواهرى إنه جاء خصيصا من أجل هذا الشاب ، تمهل صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :

« إنه من عندنا واسمه عبد الرحمن محمود . .

فى الليل حكى الأستاذ الجواهرى لطايل أفندى وشفيق أفندى ما سمعه ، وهنا أبدى الشابان حماسا وقالا إن هذا دليل واضح . لكنه هز رأسه حائرا وقال . . ربما ولكن من يثبت هذا ؟؟

من تقرير طايل افندي ..

« واجمع البعض على أن الأهالى سحبوا الغريب فى نفس ليلة استشهاده ، ودفنوه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى إلى شركة شل ، وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء إلى مقبرة واحدة داخل السويس ، وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ، مسحوا دمعا جرى ، وجدوا الجثمان على حاله ، مفتوح العينين ثيابه لم تبل ، قدماه حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن ، بدت الدماء فوق قميصه طرية كأنه أصيب منذ لحظات . . . . » .

فى روايات أخرى أكد البعض أن الشخص الذى نقلوه من المدفن غير الغريب ، والصحيح أن الثانى انفجرت دانة فوقه تماما ولم يعثر له على أثر ،

وأكد هؤلاء إن المكان الذى استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيما بعد خلال الحصار . .

قالت امرأة عجوز تعيش بجوار كشك الصحف الخاص بالحاج السودانى إن الشاب الغريب اسمه خلف رأته مرارا يجىء إلى الحاج ، قالت إنهما ذهبا إلى كوبرى الزراير وحاشا اليهود عن دخول البلد وماتا ، قالت إنها ذهبت إلى الكوبرى ، قالوا لها ارجعى يا وليه لأن المكان على مرمى النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بالحاج عشرة عمر ، أما الشاب فحنت اليه ، قالت إنها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه فى مكان موته ، قالت إن خلف تحدث إليها كثيرا ، سألها مرة . لماذا لم تهاجر ، قالت إنها لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن ابنها فى القاهرة ، متزوج وعنده اربعة أولاد ويعيش فى القلعة ، سألها لماذا لم تذهب إليه ؟؟ قالت انه لا أحد يطيق أحدا فى هذا الزمان . بدلا من أن تثقل عليه وعلى امرأته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك ، قالت إن خلف حن عليها واعطاها خمسة وعشرين قرشا ، وكلما جاء اعطاها حاجة ، عندما تجولت فوق كوبرى الزراير اخبرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن عصفورين لونهما أخضر ، ينزلان فجر كل يوم ، صوتهما أحن من الحنين ، وأطرى من قلب الأم ، يحومان قليلا ويختفيان فجأة كما ظهرا فجأة ، لم يخلفها ميعادا . . » .

وقمت بتوجيه سؤال إليها عن الاسم الكامل الشاب ، قال إنها لم تسأله أبدا عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمته بينها وبين نفسها « خلف » خلف ابنها الأول الذى انجبته منذ أربعين سنة ومات بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب . .

من حديث سوسو الحلوانى الى شفيق افندى

. . سأل شفيق أفندى بالحاح ، هل رأيت الغريب عند الهاويس بعد معركة كوبرى الزراير ؟؟

قال إنه لا ينسى أبدا ، لو أن الله مد فى أجل البمبوطى كفته والباشجاويش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لانه وصل إلى الهاويس معهما ، قال إن الجو بدا مقلوبا ، وكأن جزءا من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فثقيل كدخان الجبر ، ما لفت نظره إليه ، اتخاذه أو ضاعا تعرضه لاقصى الخطر ، حتى قال البعض إن الغريب القادم محجب . مثل هذا لا ينسى أبدا . .

إن شفيق أفندى يرغب فى توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلوانى سوسو يحملق إلى الأرض ، نسى تماما وجود الأفندى القادم من مصر ، سهم فجأة كنزول ليل مباغت ، لم يستطع شفيق أفندى أن يخدش صمته ، ووصد دمعات تتسلل على مهل من عينى الحلوانى سوسو . .

ملحوظات أخيرة ..

اجتمع الأستاذ الجواهرى فى مساء اليوم السادس بعضوى اللجنة ، قدم طايل افندى تقريرا بدا أثناء تلاوته منفعلا ، قال فيه إن باشجاويش شرطة من قسم الأربعين وامرأة عجوزا من الجناين إلى المدينة عندما هاجمها اليهود وقتلوا أولادها واثنين من احفادها ، وبائع قلل متجول ، وعطارا من حى زرب ، وصياد سمك يمتلك قاربا ، أكدوا أنهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قارىء قرآن عجوز انتدبته وزارة الأوقاف من المنوفيه إلى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد إنه التقى كثيرا بهذا الشاب ، لا يمكن أن يخطىء لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم ليعرف كل منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدأ كثير الحركة لا يهدأ ، لا ينام فى مكان واحد ، بل نادرا ما رآه البعض نائما ، كل من رآه شاهده مستيقظا يؤدى عملا ، فى الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب إلى بور توفيق أكثر من مرة . حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آبارا للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلاة مرة ، كما أنشد بعض المواويل فى سهرة أقيمت خلال الحصار ، تبرع بدمه مرات لأن المدينة عانت نقصا فى الدم . يقال إنه تسلل مرات إلى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار . .

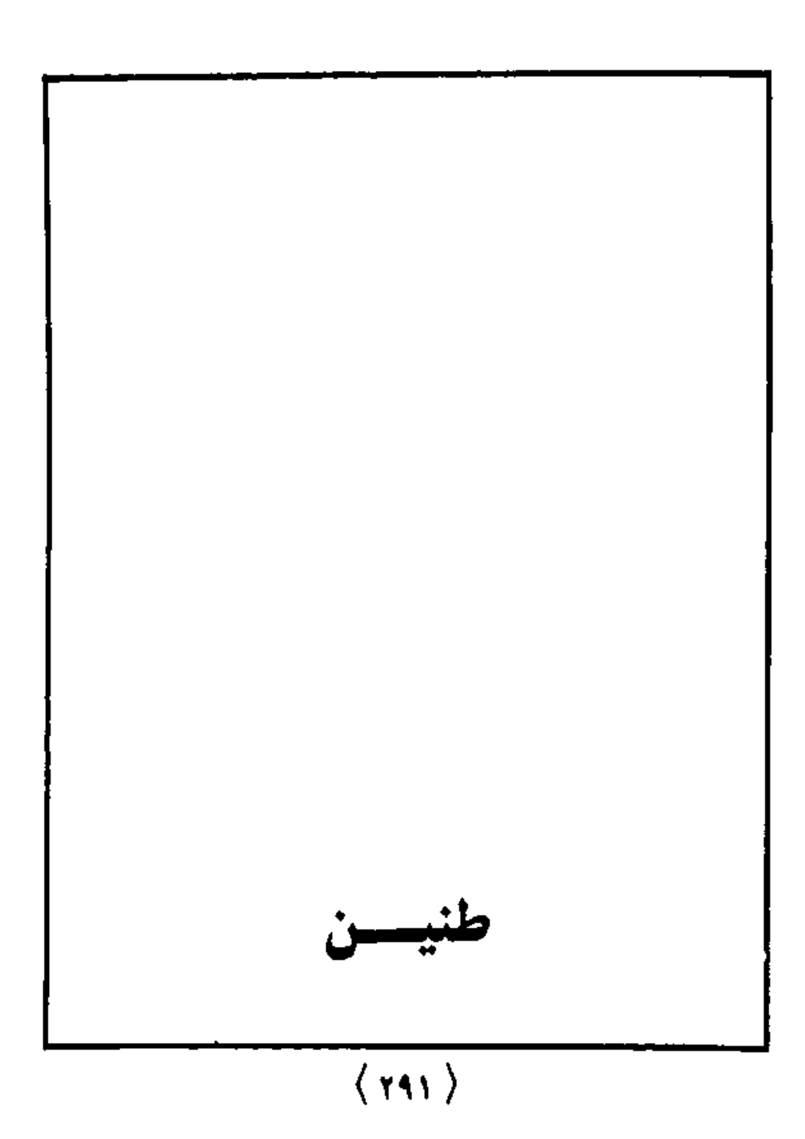
أثناء توغله رسم خرائط لمواقع العدو ومرابض مدرعاته وأنواع مدفعياته ، وارسلت هذه الخرائط إلى مصر بطرق خفية ، وأكد عدد من الأهالى أنه خرج فى قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الالغام فى الخليج . لكنه دائما يجىء إلى المرسى الراكد . يسأل « فين المراكب » يحرك المياه بضربات المجداف ، واقسمت امرأة من حى الأربعين إن الغريب القادم من مصر جاءها عندما أتاها المخاض فى الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة لبعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقتها قبل الحصار وبقائها وحيدة . بيديه انهى ولادتها العسيرة ، تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب مقهى تهدم فى الحرب إن الغريب أصلح عربة لورى معطلة وقادها عبر شوارع البلد مرتين .

أصغى الأستاذ الجواهرى بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التى نزلت على طايل أفندى حتى صار يخرج من الفندق فى السابعة صباحا يستقصى ويلتقى ويجرى المقابلات ليعود فى المساء . حتى أنه جمع معلومات دقيقة عن ملامح الغريب وطريقة مشيه ، وسجلا بالأسماء التى أطلقت عليه من الأهالى . لم يبد الأستاذ الجواهرى انفعالا . قال إنه أمر مشرف للمؤسسة أن تعلن استشهاد أحد ابنائها فى السويس . لكننا لم نعثر على أثر ، لم نجد له قبرا ولم يجمع اثنان على رواية واحدة . ثم ما هو موقف

العهدة سيارة النقل والبضاعة ، وباعتباره قضى عمرا بأكمله فى خدمة الحكومة فيما يهمه أولا الاطمئنان على أموال المؤسسة .

يصغى شفيق أفندى صامتا . صباح اليوم رواده يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . اسرع الخطى . لم يلحقه وبقى وحيدا فى هدوء شتوى يخيم فوق انقاض البيوت . ورائحة البحر فى الخليج القريب ، حتما ستجىء لحظة يلتقى فيها با لغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحكى له طويلا ، انه على وشك اتخاذ قرار بينه وبين نفسه ، أن يبقى وقتا إضافيا ولن يبالى بالأستاذ الجواهرى . طايل أفندى يقول إنه طلب زيارة الأسطى عبد الرحمن مضى إليه مع عدد من شبان المدينة ، قرأوا عليه الفاتحة ، ماذا تبقى اذن لتقتنع المؤسسة بموته وتمنحه حقوقه ، يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يكرر بهدوء إن هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذى يثبته . . أين الأدلة ؟؟

١٩٧٤



طين

.. خبطة محكمة ، بعدها هوت ، ضاعت قدرتها على الطنين ، أول حصيلة اليوم ، خطأ فوق الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت ، استطالت حشائشها ، غطت الجدران ، لحية كثيفة خضراء لم تهذب ، ضجة بمحرك سيارة ، يصغى ، يهم قليلا ناحية الباب ، يتزايد صوت المحرك ، إذ تمرق العربة أمام البيت ، يضع حدا لتساؤله ، أهى عربة جيب ، أم نقل ؟؟ كثيرا ما يبدأ رهانا مع نفسه ، أراهن أنها عربة جيب ، لو خسرت سألف الحديقة سبع مرات ، فى الليل يغطى رأسه بطاقية الصوف . أرسلتها اليه ابنته من المانيا . . . « نسجت لك يا أبى هذه الطاقية قبل دخول الشتاء ، لتدفىء رأسك فى ليالى بور سعيد الباردة ، أما الجوارب فأرجوك ألا تهمل ارتداءها ، طالما تشعر ببرودة ، لن يأتيك النوم ، واظن . . . » ماذا تظن ميسرة ابنته ؟؟ صحيح عمره سبعون عاما ، لكنه أكثر نشاطا من زوجها ،

فى السادسة والنصف تماما يقوم من نومه ، طوال نهاره ، يقضيه هنا فى حديقة البيت الأيام الأخيرة غيرت عادات قديمة ، لم يعد يخرج للتجول قرب مبنى هيئة القناة ، ينظر قبابه البيضاء وصوارى اللاسلكى والبحارة الاغراب يتحركون فوق سفنهم الراسية والقوارب الصغيرة وجنود الجمرك وراكبى الدراجات من عمال الترسانة البحرية فوق معدية بور فؤاد يرقب ترقرق أمواج البحر ، بيوت المدينة مستكينة وادعة ، تنضح رطوبة ، تنوء بهجر أصحابها ، لا طعام يطهى فى طوابقها لا صيحات أطفال تستقيم الشوارع ، فراغها حاد كأسوار سجن ، لم يعد يتجول فيها ، يصغى وشيش سعف النخيل المرشوق فى شوارع الحى الأفرنجى ، يستند إلى الفراغ ، طوال النهار يقضيه هنا ، فى حديقة بيته ، ممسكا منفضة من البلاستيك زرقاء ، أداته فى تنفيذ قراره الذى اتخذه من فترة ، الآن ، يسرى طنين هادىء واثق ، يتصلب جسده فوق المقعد ، لا يصغى إلى تنفس البحر النهارى ، يقشعر جلده انتظارا ، يدور بعينيه حوله ، يحكم أمساك المنفضة ، يبتعد الطنين ، لن يعاود الاضطجاعة المنيئة فوق المقعد ورحيله بعينى عقله إلى ابنته على الشاطىء الآخر من البحر ، كأنها ترقبه الآن ، تبادله النجوى ، سيظل منتبها يعرف طريقها ، تدور ، تدور ، تدور ، تضيق حلقات مرورها بالقرب منه ، تبتعد فجأة ، صمت المدينة يضخم الطنين ، فجأة ، ها هى فوق جلد ذراعه الأيسر ، تستند إلى ساقيها

الأماميتين ، تمد خرطومها ، تمارس طقوسا غامضة ، لغتها غير مفهومة ، لا يدرى كيف حطت صامته ؟؟ ربما هوجم باثنتين فى وقت واحد ، أى خطة ينفذها لصد الهجوم ؟؟ يوش البحر ؛ يرتد موجه ، آه . . راحت ، بلا طنين ، لن يهدأ ، لن يغفو ، طوال أيام أربعة كاملة ، لم تنجح واحدة فى ملامسة جسده ، والابتعاد حية ، أو طارت يتكدر يومه ، يبدو البحر الشاب البهيج مغارة يأوى اليها الهلاك ، أيامه الطويلة خواء مفرغة من الأخبار والأحداث وندر المفاجأت ، ترتعش أطرافه ، يهاجمه أرق لم يأته قط فى ليالى نشاط الطيران المعادى ، بأى مشاعر تتلقى ابنته نبأ هروب مصدر الطنين منه ، فشله فى إدراكه لن تسأله عما إذا كان يحرص على شرب اللبن قبل نومه أم لا ؟؟ . . دائما أراك يا أبى ، أعيش معك أول النهار عندما تصحو من نومك ترتدى ثيابك كاملة ، تطمئن على صلابة ونظافة ياقة قميصك ، تماما كأيام ذهابك اليومى إلى المستشفى ، تمد يدك تلامس ذقنى ، تميل ، تقبلنى ، عند بلوغى المرحلة الثانوية ، اضفت عادة جديدة ، اتجاهك إلى صورة المرحومة أمى فوق الجدار ، تنحنى ، تلفظ تحية الصباح وكلمات أجهلها ، لم اسمعها قط ، لم تبح بها ، فى كل يوم ، عندما أعرف أن الصباح يضم بور سعيد ، أشعر بيدك تلامس ذقنى ، أثق انك تداعب صورتى ، ربما توجه ألفاظا دقيقة إلى ، تقبل ابنى عادل ، عادل يا أبى يتحدث الألمانية بطلاقة ، لكننى أطمئنك، أنا حريصة جدا

على تعليمه لغة موطنه ، أما احمد فمشغول فى تحضير الرسالة ، استعدادا لمناقشتها فى . . . « لو أفلتت واحدة ستحزن ميسرة ، أربعة أيام طرد العشرات ، هوى بضربات قصيرة ، محكمة ، عندما يشرع المنشة تتخلى الرعدة عن يده لن يهدأ اليوم إلا إذا وضع حدا لهذا الطنين ، خطابات ميسرة تدفق التأثر إلى كيانه ، الشيء الوحيد المنتظر من العالم البعيد ، يوميا يتعجل مجيء ساعى البريد ، لو رآه الآن لن يتخلى عن ترصده ، لو زاره أيضا ضابط الموقع القريب ، هادىء الملامح ، قليل الكلمات ، يجيء يوميا ، يستند إلى السور الخشبى ، يعرف الدكتور غندر منذ شهور ، فى البداية كعادة الصحفيين ، والزائرين الغرباء ، تساءل عن السبب الذى جعل الدكتور لا يهاجر يوما واحدا ؟؟ حتى عندما اختنقت المدينة بقلة المياه العذبة ، حاصرها الطيران ، قطع شرايين الوصل ، خرج معه الدكتور وقت غروب ، توقفا أمام بيت خشبى من طابقين ، يستند إلى ثلاثة أعمدة طويلة تغوص فى الحجرة ، يستقر منكمشا بين عمارتين شاهقتين يتوارى خجلا ، بابه مغلق بقفل حديدى ضخم ، طلاؤه أخضر ، فوق درجات السلم الضيق برقت عينا قط ، أشار الدكتور إلى الطريق ، « قبل رحيلى إلى أوربا لاتعلم الطب ، سهر أقاربى هنا مع أهالى الحى ، تزوجت ابنة عمى ليلة سفرى ، أذكر رنين أوتار السمسمية ، ورقصة البمبوطية وصياح الأحبة ، لعلعة الزغاريد ، لون الرمال الأصفر المفروش أمام البيت »

إصغى إلى وقع خطواتها فى فراغ يلمع فيه الأسفلت ، وهواء مبلل بملوحة البحر ، طعم اليود ، قال إنه يعرف بيوت المدينة بيتا بيتا ، قبل التهجير يستطيع كشف الغريب فى قلب الزحام ، عندما أغلقت البيوت بدأ يطوف فى الشوارع ، حتى فى أوقات الاشتباكات ومجيء الهلاك المحلق من الشرق ، توقف ، « هل ترى هذه العمارة ، أضخم مبنى فى بورسعيد ، أنت الآن فى الحى الأفرنجى ، قال إنه يعلم خلوها من السكان ، فى أول ليل بعيد ، رأى ضوئا يلمع فى نافذة علوية ، نور وحيد معزول فى أقصى الطابق العاشر مصلوب كضوء فنار ، لكنه ثابت لا يدور ، أخذته حيرة ، ترى من بقى هنا ولا يعرفه ؟؟ من ؟؟ رأى باب العمارة مغلقا بلا قفل ، تراجع ، عاود النظر ، تبدو المسافة نائية ، لو رأته ميسرة الآن ستصبح غاضبة ، تحيطه بذراعيها ، أما المرحومة فحتما تراه ، ترعاه وتصون شيخوخته من خدش ، منذ رحيلها الأبدى يوقن من ملازمتها له ، تراه ولا يراها ، تدرى ما سيجرى له ولا تستطيع أخباره ، رجف بشفتيه معتذرا ، لعلها تقبل طلوعة ، لن يتراجع ، بدأ طلوع السلم ، المصعد هامد معلق بين الطابق الثانى والثالث ، وحشة البيوت الخالية ، الأبواب جهمة فيها صد ، شاخت قبل الميعاد ، جفف عرقه عند الطابق الثامن ، أخيراً ، يبدو الضوء من وراء زجاج الباب ، قال للشاب ، أنا الدكتور غفور طبيب المستشفى الأميرى سابقا والمحال على

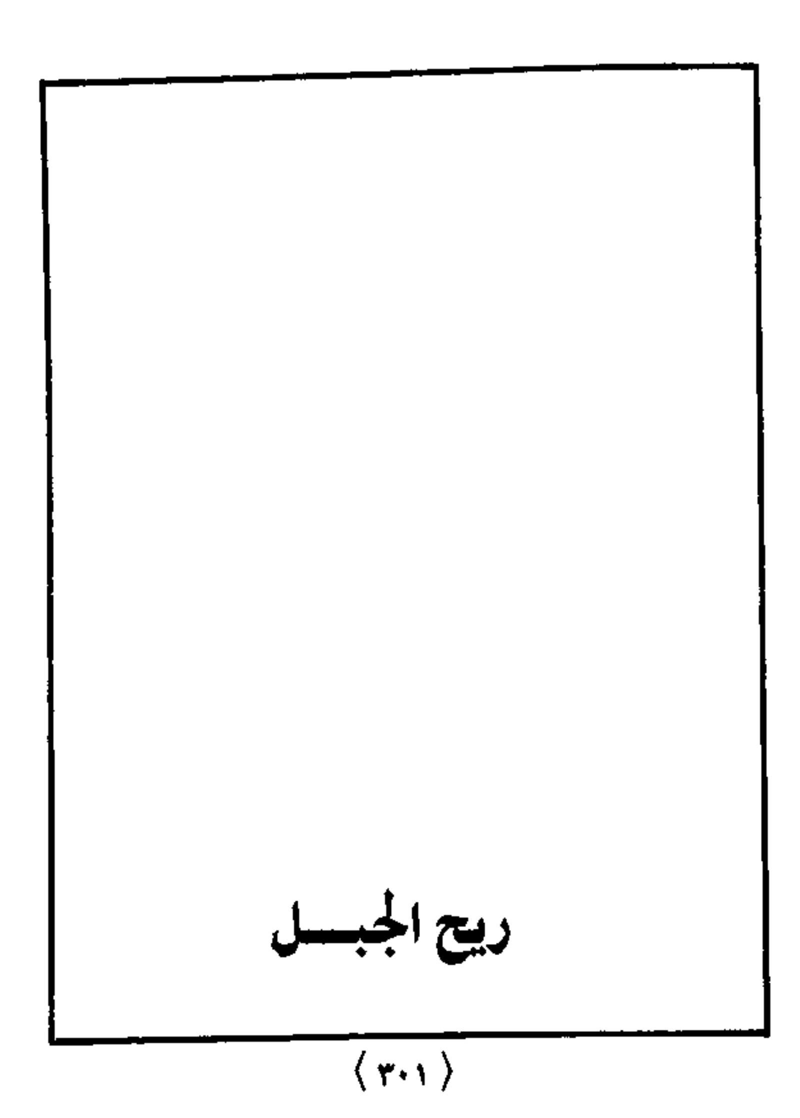
المعاش حاليا ، أنت لست من أهالى بورسعيد ، من أنت ؟؟ دخل ، فراغ مثقل برطوبة ، غرفة واحدة مضاءة ، ما تحويه سريرا حديديا صغيرا ، صحيفة فوق الجدار تدفع الجير عن ثلاثة قمصان وجاكته ، بنطلونين وبلوفر أسود ، بدأ الشاب مرتبكا ، جلس الدكتور فوق السرير ، ممسكا قمة عصاه براحتى يديه ، قال الشاب إنه من أهالى بورسعيد لكنها المرة الأولى التى يجىء إليها ، عاش عمره فى مصر درس الهندسة ، والآن يجىء ليعمل فى السنترال ، الشقة ملك لعمه ، أوصاه بالتردد عليها ، اعجبه الموقع الشاهق من الشرفة البحرية ، أطال الدكتور سهره ، تحدث إلى المهندس الشاب عن المدينة ، بساطة ورقة الحياة فيها ، لو جاء إليها قبل العدوان لأحبها الآن أكثر ، تعقب أصول الشاب ، استقصى افراد عائلته ، مضيا إلى الحى الأفرنجى ، إلى حى المناخ ، هنا سكنت عائلة فلان ، وهذا بيت فلان ، وهنا كانت تسكن عائلة استشهد كل أفرادها عام ١٩٥٦ ، بدا الشاب وكأنه يتعرف إلى المدينة لأول مرة ، أشار الدكتور الى حفرة قديمة ، هنا سقطت دانة مدفعية فى بداية الاشتباكات ، فتكت شظاياها بثلاثة عشر إنسانا ، فى الطريق المجاور خلال الحرب العالمية الأولى ، اغارت طائرات ألمانية كأقفاص الفراخ ، رمت قنابل ، أحدثت كل منها فجوة فى حجر طبق كبير ، توقفا أمام حلوانى جيانولا ، بدا الدكتور ساهما ، تبحر نظراته فوق بحر من الحزن بلا مراسى ، قال . .

هنا فى الأماسى جلست مع أم ابنتى ، بالضبط هذا موقعنا المفضل ، نتأمل وجوه الغرباء فى الصيف ، فى الشتاء نجلس بـالداخـل ، صحبنا دائـماً مهندس يونانى اسمه ديمترى ، فى أوقات فراغه يصنع نماذج دقيقة لبواخر بهيجة الالوان ، يقسم لو وضعها فى البحر لعامت ، عرفت مقصدها إلى بلاده رأسا ، بدا الدكتور خفيفا نشطاً ، أمسك كوبا زجاجيا . . بالتأكيد شربت أم ابنتى من أحدى هذه الأكواب ، يقطب حاجبيه ، كل شبر هنا اقتطع من عمره مقدارا ، يقترب الطنين ، يخلق موجات فى أذنيه ، هذا طنين ساخر لم يعرفه من قبل ، لا يرى مصدره ، يهـزا بقراره ألا تفلت واحدة قط ، ألا يدع الطنين يمرح فى خواء المدينة ، ينظر حوله ، يقشعر جلده ، أبداً ، لن تحط فق أى جزء من ثيابه حتى ، يتزايد الطنين فجأة ، خط حاد مختصر ، خروج دانة من فوهة مدفع ، يضرب الفراغ بالمنشة ، أبداً لم تهو ، بالأمس فتك بأربع عشرة واحدة ، أما هذه فتبدو وكأنها تعد بالثأر لكل ضحايا جنسها السابقين ، يخفى الصـوت الحاد اللزج ، لن يغادر الحديقة ، سيبقى كما تعود دائما جلوسه النهارى ، سيرصد حركتها ، يجيئه الآن الطنين رفيعا ، يعرف أنها تدور فى خط دائرى واسع ، ستقطعة وتتجه رأساً إليه ، آه ، ضرب ساقة بالمنشة ضربة قوية أمالت جسمه إلى أمام ، نظر ، أبدا . . كتلة سوداء صغيرة الطنين مستمر ، أى نهار هذا ؟؟ لم يعد يسمع مروق العربات ، وحشة المدينة لم تدفع بوخز إلى قلبه كهذا

الطنين ، خطابات ميسر الرقيقة ، برقيتها إليه عشية عيد ميلاده ، قبل ميعاده بيومين ، ذهب إلى ناظر محطة الأتوبيس ، رحب به ، طلب منه تكليف أحد سائقيه بشراء تورته فاضرة من دمياط ، ليلة عيد ميلاده ، حمل التورتة إلى البيت ، خفيف الخطى ، لا ينقصه إلا انتظار زوجته ومستر ديمترى وابنتاه ، رص الشموع ، فى المساء ارتدى الحلة السوداء والبابيون ، نزل إلى صالة البيت ، أضاء مصابيح النجفة كلها ، أصغى إلى إيقاع السكون الموحش ، وقف طويلا أمام الصورة المطلة عليه من عالم آخر ، بأصابعه المهتزة عود كبريت رأسه حمراء اللون ، أضاء الشموع ، ضغط زر النور ووقف ممسكا عصاه ، تزايد وشيش البحر القريب ومروق الرياح انحنى بهدوء ، استجمع قواه المشتتة عبر سنين بعيدة ، نفخ بقوة ، أطفأها كلها ، قبل صورة امرأته ، ميسرةوحفيدة عادل ، على مهل يجلس فى المقعد الكبير ، ينظر إلى الشموع المطفأة فوق التورتة الكبيرة ، عندما جاء ضابط الموقع الشاب فى صباح اليوم التالى ، رجاه أن يحملها إلى رجاله ، تورتة كاملة لم تخدش ، السكر فى دمه يمنعه من تذوقها ، أمراض العمر كلها وأوجاعه تفاجئه الآن ، تدهمه كموجة عاتية ، تهدم صفا من الأبنية ، يعود الطنين قويا حادا ، آه . . تمرق بجوار أذنه ، يضرب الفراغ بالمنشة ، يسقط فوق ركبته ، تنبىء بداية اليوم بمصائب وآلام ، اتسخ بنطلونه تلفت حوله ، لم يره أحد ، الاهتمام بهيئته لن يشغله عن متابعة

الجسم المحلق اللعين ، فى البداية لاح الأمر تحديا طريفا يقطع به الوقت ، يغالب قسوة اليوم والوحشة ، الآن . . لن يأوى إلى البيت ، سيطارد منبع الطنين ، بالضبط . . بالضبط . . ها هى . . مرت أمام عينيه ، لا تجرؤ على الاستقرار لحظة فوق جسده ، أو ثيابه ، باغتته رعشة قوية ، تصور لحظة أنها تستقرت فوق زجاج النظارة ، تنهى طيرانها فى خط مستقيم ، تدور متمهلة ، لا يلمح التفاصيل ، لا تختلف ملامحها العامة عن أية واحدة فتك بها ، يتقدم خطوات ، يتتبعها ، يبدو مسارها واضحا ، ببطء ، تنزل ، تستقر فوق السور الحديدى القريب من الكرسى ، . . ثانية واحدة ، جزء من ثانية ويستعيد صفاء جلسته ، يستعد لا ستقبال الضابط الشاب عندما يأتيه باسماً بعد الغذاء ، يخرجان إلى طرقات المدينة العذبة كأبيات فى قصيدة حزينة ، بينما يجيء الغبار المسائى من ناحية البحر ، ضربة واحدة ويروق اليوم كله ، بالضبط . . تمد خرطومها اللعين ، من أى عالم موبوء جئت ؟؟ فى صمت ، على مهل ، يرفع ذراعه ممسكا بالمنفضة إلى أعلى . . . »

١٩٧٢



ريح الجبـــل

. . ها هى أيام يناير الأخيرة تولى ، ولا يزال فوق صخور عتاقة ، بين مدقاته الضيقة ، المتعرجة ، التى تشرف فى بعض الأحيان على هاوية غير متوقعة ، بين كهوف عرف عمق بعضها ، لم يتوغل فى العديد منها لا متدادها مسافات بعيدة ، يقل الهواء داخلها فيثقل فراغها على صدره ، يجعل خطوه مضطربا ، كما تجعل الروائح الثقيلة للهواء كثافة ، روائح بقايا الوطاويط ، الفئران الجبلية ، الثعابين ، وحيوانات صغيرة ، دقيقة الحجم ، تندفع عبر تلك الانفاق الطبيعية المجهولة ، قد يجد نفسه بداخلها عرضة للحصار المفاجىء ، المباغت ، الذى لا مهرب منه ولا فكاك قد تقوم قنبلة دخان بالعمل كله او كومة أعشاب يحرقونها عند الفوهة ليختنق ، بعض هذه الكهوف يمتد عدة كيلو مترات ، تحفل

بتيارات هوائية مجهولة المصدرى داخلها ، بعضها ساخن والآخر بارد ، يقولون إن هذه الممرات تتفرع وقد تؤدى إلى عدة منافذ للكهف الواحد ، بعضها قرب القمة والآخر يلامس السفح ، يؤجل محاولة الكشف ، فى أصعب أيامه لم يأو إلى أى كهف حتى ولو بدأ كغرفة مهدتها الطبيعة ، لم يضع أى جزء من عتاده الضئيل داخل إحدها لأنها هدف مستمر للتفتيش ، تثير الشك أكثر من حفرة على جانب ملق أو تحت صخرة معلقة إلى جرف ، فى الليل يتحول الجبل إلى كهف كبير بلا جدران ، خاصة عندما يأفل القمر وينأى ، تندمج أطراف الصخور . تضيع كل التفاصيل ، تتردد مئات الأصوات مجهولة المصدر ، عواء ، صيحات ، حيوانات لا يدرى إلى أى جنس تنتمى ؟ أزيز حشرات دقيقة ، مضيئة ، لا تنشط إلا فى ليالى السواد الكامل .

سيقول إنه لا شىء يبعث الرهبة برغم ذلك الا نزول هذا السكون الأجوف ، الكلى ، فى فترة ما قبل المغيب بدءاً من شحوب العصر ، يبدو الجبل مقبرة للنهار ، يتسلل سكون موجع من المسام إلى الدم ، ينكفىء بالذكريات إلى الأيام المولية ، يوحى بضجيج المدن البعيدة ، بإيقاع الحياة الآمنة ، حيث يستيقظ الإنسان بعد إغفاءة العصر ، يتناول شايا ساخنا ، يستحم ، يرتدى ملابسه متمهلا قد يصغى إلى أغنية منبعثة من الراديو ، يحيى أمة أو امراته أو أخواته أو يسأل أو أطفاله عما يحتاجون إليه ،

ما يرغبون فى أن يعود إليهم به ، على السلم تصل أصوات البيت ، خادمة تقول . . يا ستى ، صوت طبيخ فوق موقد ، فى الشارع يحيى الجيران ، فى المقهى يلتقى بالأصدقاء .

سيقول لزملائه إنه احتمل حتى الآن اربعة وتسعين يوما ولا يدرى كم سيمر عليه إذا طال الصمت ؟ سيقول إنه رأى الثلج فى الأعالى ، بخبرته هنا حسم رهانا دار يوما بين سليمان الحلبى والبرق فى معسكر التدريب . تساءل سليمان الحلبى ، هل ينزل الثلج فوق عتاقة ؟ قال البرق ، طبعا لا . . وهل تنزل ثلوج فى مصر ؟ هنا أكد سليمان نزول الثلوج فى الأعالى ، لو دقق الواقف عند أطراف السويس سيرى الثلج ، نفى البرق ، لوح سليمان الحلبى بجنيه كامل ، قال : هذا رهان بينى وبينك ، سنتأكد عندما نطلع فى دورية إلى عتاقة وهذا منى مقابل عشرة قروش منك ، لم يأت أحدهما إلى عتاقة ، سيقول لهما أنه رأى تجمد المياه فى الشقوق ، لا ينزل الثلج من السماء ، لكنه يوجد إذ تنخفض درجة الحرارة انخفاضا مريعا بعد نزول المطر .

سيقول إنه لم ينم فى أيامه الأولى بالجبل ، أربعة أيام ، يذكرها كأنها يوم واحد ، متصل ، فى البداية احتاج إلى تأكيد كل معلوماته عن الجبل ، إلى استطلاع الموقف ، استكشاف المكان ، اصلح اماكن الايواء بالجبل طبقا للظروف الطارئة ، انه خبير بعتاقة ، لكن منذ صعوده إليه والأرض

تكتسب قيمتها ليس لمناعتها الطبيعية فقط ، انما ببعدها عن العدو أولا ، وصلاحيتها للعمل بالنسبة إليه وليس بالنسبة لأى انسان آخر ، قرر أن يبحث عن عدة اماكن تصلح لنومه وآخر يخبىء فيه مئونته القليلة ، مكان يدفن فيه نفاياته ، آخر يدفن فيه البطاريات الاحتياطية للجهاز ، ومكان يمكن منه أن يدير الجهاز يرسل اشاراته ، قرر استطلاع المدقات الصعبة التى لا تصلح لمشى العدو ، الممرات الجبلية التى تتخلل الصخور ولا تسمح للشخص الواحد الا بالمرور زحفا أو بالجنب ، الأماكن الصالحة لهبوط الهيلوكبتر وغير الصالحة ، عندما نزل الليل بسرعة أجل جولته إلى فجر اليوم التالى .

سيقول إن الرياح بدت غريبة ، هبوبها على ارتفاعات مختلفة وسرعات متعددة ، اصطدامها بالمنحنيات وأطراف الصخور والحجارة الضخمة المعلقة التى انفصلت عن الجبل فى زلازل سحيقة ، دورانها بالحفر ، ارتدادها المفاجىء ونفاذها إلى أعماق الكهوف والفتحات وخروجها من أماكن غير مرئية ، تحدث أصواتا متداخلة لم يعرف مثيلا لها فى جميع المناطق التى ارتادها فى سيناء أثناء عمله خلف الخطوط ، هنا لا يستطيع أكثر البشر خبرة معرفة اتجاه الريح أو منابعها ، من كل شبر تجىء ، إلى كل مكان فى العالم تمضى ، تسافر ، تعود ، تتنوع ، صفير متصل كاشارات جهاز اللاسلكى العاجلة ، سرب من طائرات مقاتلة

يهوى من السماء مرة واحدة ، أبواق نحاسية ، دفوف ، عويل نساء حزانى ، جنازة كونية ، أثناء التدريب حذرهم القلعاوي ، قال ان وقتا ينبغي أن يمضى حتى يتبين الحقيقي من الزائف ، وعندما تستفز غريزة القتال إلى أقصى حد يختصر هذا الوقت إلى لحظات ، اقترح القلعاوى عليهم أن يتخذ كل منهم اسما لا يعرفه إلا قلة قليلة ، يبدأ به أى نداء يوجه إليه أو يرسله ، فى الليل ابتهج زملاؤه قالوا إن كل الناس لا يختارون أسماءهم ، يشب كل انسان ليجد اسمه مقدرا قبل أن يعرف ، لا رأى له فيه ، إنما هم ستتاح لهم الفرصة من جديد .

سيقول لهم عندما يخلو إليهم ويحكى إن كل شىء خلف الخطوط يبدو كأنه يسمع أو يرى لأول مرة ، حتى لو طرق الإنسان نفس الدرب عشرات المرات ، المفاجأة محتملة ، متوقعة ، دائما ، كامنة فى الجهات الأربع الأصلية ، المفاجأة تلغى الشعور بالعادة ، من يدرى منذ ساعة خلا الطريق ، ربما جاء العدو ونصب كمينا ! ، لكن هنا فوق عتاقه يختلف الأمر ، لكل ليلة جبلية ملامحها ، لكل ساعة أصواتها ، يتغير الطقس قبل قدرة أى جهاز على التنبؤ ، خلال النهار يبدو الدفء مستقرا ، يكفى أن تجيء سحابه لتحجب قرص الشمس الذى يبدو من وديان عتاقة أكثر بعدا ، على الفور تتخذ البرودة طريقها إلى عظامه ، يزيل غياب الشمس حاجزا غير مرئى ، تطبق الظلال ذات الملمس على صدره كانهيار خيمة أو

أطباق البحر عليه وغوصه بلا توقف ، تضاعف الظلال بعد القمم ، تبدو أطراف الجبل مرسومة على صفحة السماء غير المستوية ، يشيخ النهار فجأة ، تدركه وحشة الساعات الأخيرة من النهار ، تدركه هذه الوحدة التى تباغته مع سكون النهار الأخير ، عندما تشق جدران الجبل سدودا فى وجه الفراغ ، يدرك بغريزته حركة الحيوانات والزواحف غير المرئية ، تململها فى مراقدها ، استعدادها للخروج إلى عالمها الليلى ، يتساءل عما سيأتى به الظلام ؟ ، هناك خلف الخطوط كل ما يحيط به عدو ، هنا فوق عتاقه يمكنه رؤية السويس ، إذا دقق النظر يرصد الدخان المنبعث من بعض المداخن ، حركة العربات فى طرقاتها ، العمارة التى اتخذها الوحدة مقرا لفترة قضى بها الأيام الحلوة مع الرجال ، أدهم الشرقاوى ، سيف بن ذى يزن ، الفتى مهران و البرق ، والصاعقة ، موج البحر ، أحمس الأول ، البراق ، خلال حصار العدو للمدينة لم يعمق شعوره بأن الأرض محتلة ، بعكس المسافات القصية التى يقطعها داخل سيناء التى يتواجد فيها العدو منذ سنوات ، فى عتاقة ، اعتبر وجودهم عارضا ، رصدضيقهم ، إن وجود السويس القريب منه يضاعف وحدته الجبلية بقدر ما يؤنسه ، كثيرا ما قطع دربا وعرا ليصل إلى الحافة الجنوبية المطلة على المدينة خلال الحصار ، فى الليل رأى قبضات ضوء تتوهج لثوان فوقها ، بدا بعضها كبقايا شمعة صغيرة داخل فانوس غير مرئى ، من النيران المنبعثة حول

فوهات المدافع أمكنة تحديد مواقعها استطاع تمييز لهب المدفع من طلقة الفليرز المضيئة ، تختلف عن مشاعل الطائرات التى تبدو محاذية له أثناء اشتعالها فوق المدينة ، تراقص لهبها على الصخور ، ضوء باهت استوعبه عتاقة ، محاولة فاشلة لفقأ عين الليل ، أوشك على نسيان نفسه مرات أثناء تأمله المدينة ، عندما سدد المنظار المقرب مقتحما الفراغ النهارى بعينيه تحولت المكعبات الصغيرة إلى بيوت واضحة الملامح ، ميز مدرجات الاستاد ، مبنى شركة شل ، عندما وجه المنظار صوب الأرض القريبة من الخليج رأى أنابيب مصانع الزيتية الملتوية المتفحمة فوق الأرض ، صهاريج البترول المحاطة بساتر دائرى من الطوب الأحمر ، أشعلها العدو فى اليوم التالى لإغراق المدمرة « ايلات » ، بكى عمال المصنع ، تدافع رجال الأطفاء ، وشوهد رجل عجوز لم ير بعد ذلك أبدا . عرفه العمال الموظفون بائعا للسجائر والصحف منذ انشاء المصنع لم يفارق موضعه حتى بعد التهجير ، قيل إنه حزن واحترق مع المصنع ، سواتر الطوب لم تتحمل الحرارة ، التهبت ، تطاير الطوب الساخن المشتعل كالشظايا فى كل اتجاه ، من خلال المنظار لمح عربة فوق الطريق الممتد بين السويس وبور توفيق ، عربة جيب ذات أربعة أبواب ، تخصص عادة للقادة . من اهتزازاتها يشعر بالحفر التى تمر فوقها ، توارت خلف أحد البيوت ، ظهرت . . اختفت ، ربما تمر بالشارع حيث الاستديو الذى عمل به سنوات ، لابد أن الغبار

غطى الفاترينة الزجاجية التى تتصدر واجهة العمارة وتزدحم بعشرات الصور ، ربما انهار البيت ، لا يمكنه رؤ يته من الجبل ، على بعد امتار من الاستديو مطعم أبى أمل المتخصص فى السمك المشوى ، عندما تتاب أحد زملائه نوبة تحد أو كرم يصيح . . والله أدعوكم للغذاء عند أبو أمل ، أغلق بعد التهجير ، سمع أنه فتح فى طنطا لكن لم يقبل عليه أحد ، يذكر واجهته عندما رآه مغلقا فى آخر مرة رأى السويس قبل ذهابه إلى سيناء ، قائمة الأسعار بهتت الوانها ، تطل ملتصقة بالزجاج ، زهور صناعية مطلة من إناء خزفى فوق منضدة مهجورة ، ما أثار حزنه طوال تردده على السويس أو أقامته بها رؤ ية دكان مغلق يحمل اسم صاحبه أو ثلاجة زجاجات كوكا كولا تستقر بين الأنقاض كأنها وضعت بعناية ، أو لافتة طبيب تطل من بين الأنقاض أو زجاجة دواءبها بقايا لم تستعمل ، نسيها أصحابها أثناء رحيلهم وبطريقة ما طفت فوق الأنقاض ، مضت عربة الجيب ولم يرها ، ربما عبرت أمام البرق ، أو أدهم الشرقاوى ، ربما ركبها أحدهم ، ترى . . كم بقى منهم ؟ إلى أين رحل سليمان الحلبى ؟ أى مهمة أو كلت إليه ، وهل عاد سالما ؟ . أين مضى البراق ؟ ماذا فعل الفتى مهران يوم الرابع والعشرين من اكتوبر عندما هاجموا المدينة ، قاتل من ؟ بمن التحم ؟ هل غطاه سيف بن ذى يزن ؟ عملا دائما متلازمين ، تجاوروا فوق دكة واحدة بالمدرسة ، وعندما عينا التحقا بمجلس المدينة ، فى الدوريات القتالية التى

خرجوا فيها ، ينضم الفتى مهران إلى مجموعة الاقتحام دائما ، ويبقى سيف بن ذى يزن فى مجموعة الأستاذ ، ترى على من انقض الصاعقة ؟ من مضى ؟ من جرح ؟ المدينة فى متناول نظره ، يمد يديه فيحضنها كلها ، يجهل أيامهم التى عاشوها بدونه . بعد عملية عبور الشط التى تمت منذ أربع سنوات وقام بها أعضاء الوحدة القدامى . لم يمض على تطوعه وقتئذ سوى أربعة أشهر ، انتظرهم فى مركز التجمع فوق الضفة الغربية . فى الفجر بدت ملامح سليمان الحلبى قاسية ، كأنه سافر أياما طويلة بلا راحة . قال بايجاز كالأوامر . .

« صرنا سبعة . . . . . » .

ضاعت كل ألفاظ الترحيب والحماس التى توقع أن يفوه بها . . قال سليمان الحلبى . .

« طومان باى » .

قال إنهم عادوا بجثمانه ، هل يتطلع سليمان الآن إلى احدهم ، يقول . . « صرنا . . . » . يسكت ثم يقول بأسى موجع « ريح الجبل » ، لكن أين جثمانه ؟ ان مثواه غير معروف بالنسبة إليهم ، يود لو أتصل بهم ، يطمئنهم ، أثناء الحصار ودلو حقق اتصالا بهم ، لم يدر كيف . تملكته رغبة أن يعرفوا وجوده فوق عتاقه ، كلما تطلعوا إلى الجبل

الذى يسد الأفق ، ويضع حدا للفراغ الجنوبى حول المدينة ، يود لو عرفوا الآن أنه هنا ، أنه باق حتى الآن بعد انسحاب العدو من الجبل ، أنه لم يفارق الصخور ، أنه يفتح الجهاز بين الحين والحين ليزعق . .

« أنا ريح الجبل . . . هل تسمعنى ؟ » .

لا يدرى كيف سيبدأ حديثه عندما يلتقى بهم ؟ سيبحث عن الوجوه التى عرف معها الخطر ، ربما جهلوا شكله ، يتحسس لحيته التى طالت ، تعقدت ، أحاطت بوجهه ، منذ حين لم ينظر فى المرآة ، ظلال الجبل تجعل المياه معتمة ، المقادير المتجمعة منها لا تسمح بانعكاس وجهه ، انه لم يغتسل بصابون ، فى الشتاء لا أثر للغبار فوق عتاقة ، ربما تغير لون جلده ، ربما تغيرت ملامحه . لكثرة ما تعاقب عليه من انفعالات . وتوقع عشرات المواقف ، لطول ما صفعته الرياح الملحة ، الدائمة ، ربما جهلوا شكله ، تدركهم حيرة . .

« أنا ريح الجبل . . . . هل تسمعنى ؟ » .

يرجىء تخيله للقائه بهم لعجزه عن تصور ما سيحدث ، سيحكى لهم عن أيامه . . ، لا . . سيطلب كوبا من الشاى الساخن ، منذ اربعة وتسعين يوما لم يذق طعاما له قوام ، لم يقطع رغيفا ، ولم يشعر بمرقد دافىء ، سيبدو الكوب الساخن غريبا بين يديه ، سيتحسسه ، يقربه من

فمه ثم يعيده ، نسى ملمس الزجاج عند الشفتين ، دخول المشروب الحار إلى الفم ثم إلى المعدة ، نسى متعة الطعام مع الآخرين ، عندما يأكل الانسان بمفرده يصبح الطعام متشابها ، لا يثير شهية ، لا يلحظ الفرق بين طعم وآخر ، عندما تتكرر الأيام ولا يتحدث وقت الطعام إلى أحمس الأول ، إلى الصعيد الأعلى الذى يهوى قص الحكايات والنوادر وقت الغذاء أو العشاء ، إلى أدهم الشرقاوى بطريقته الوثيرة فى المضغ ومشاكله مع الفتى مهران إذا أكلا من طبق واحد . الفتى مهران يلتهم الأكل بسرعة كواجب ثقيل فرض عليه ، سيقول إنه ذاق جميع أنواع الحشائش التى تنمو فى الجبل ؛ القصير والطويل ، النحيل والغليظ الذى يفرز مادة تشبه اللبن ، افتقد الأحساس بالمذاق بعد أسابيع من تكرار أكله لها ، سيتطلعون إليه ، سيسأله أحمس الأول عن بداية الظروف فوق عتاقة . سيقول أنه كلف بمهمة خلف الخطوط ، لكن لكم ستبدو أصوات الآخرين غريبة فى أذنيه ؟ منذ أربعة وتسعين يوما لم يحاور إنسانا ، لم يصغ إليه آخر يجلس فى مواجهته ، لم يسأله مخلوق ليجيب ، لم يسمع إلا أصوات الراديو ، أصواتا مجهولة المنبع تتحاور عبر الجهاز فى الثوانى القليلة التى يفتحه فيها ليرسل برقية أو يبلغ رسالة ، أثناء تواجد العدو واقترابه من مواقعه أصغى إلى أحاديث ليلية بالعبرية أمكنه التقاطها فى لحظات هبوب الرياح باتجاهه ، لكنها أصوات عدو ، لا يمكن أن يحاورها ، يتلقاها

فقط ، يدون ما يدركه منها فى ذاكرته ، قديما ألح عليه تساؤ ل ، هل يمكن للإنسان أن يتحدث ويستمع إلى صوته فى نفس الوقت ؟ ولماذا يبدو الصوت غريبا فى أذنى صاحبه إذا استمع إليه مسجلا ؟، بعد انسحاب العدو فوجىء بنفسه يتحدث بصوت مرتفع ، وبدا ذلك غريبا فى صمت الجبال الأزلى الدائم ، تعيد إليه الصخور كل ما يلفظه محورا ، غريبا ، ثم صمت عندما أدرك احتمال وجود أجهزة ما تركها العدو ، هل استمع إلى نفسه ؟ لا يدرى ، سيحرص على قص كل التفاصيل ، أى متعة سيلقاها فى تحريك شفتيه ، والتعبير عما يقوله بيديه ، وإشارات أصابعه ، سيتحدث هادئا ، واثقا ، كل من سيصغون أصدقاء ، سيقول إنه كلف بمهمة خلف الخطوط فى اليوم الثانى للحرب ، لم يعمل معه دليل من بدو سيناء . يعرفون أنه يحفظ الدروب والمسالك ، لو أغلق عينيه يستطيع رؤ ية الصخور عند الكيلو ٦٠ على الطريق الأوسط ، يرى المنطقة الواقعة جنوب سدر بكل ما تحويه من صخور ذات أشكال آدمية ، كأنهم رجال تاهوا فى الصحراء ثم وقفوا يسددون البصر فى اتجاه واحد ، لم يستطع النوم فى هذه المنطقة ، قضى ليلته الوحيدة بها مستيقظا ، فى كل ثانية يحمل الليل نذرا مجهولة ، تطلع إلى السماء ورأى السحب تمر أمام القمر ، خيل إليه أن الحياة دبت فى الحجارة ، يعرف زملاؤه أن المقاتل خلف الخطوط لا ينتظر معونة من أحد ، يصبح المنفذ والمخطط وصاحب القرار ، تنأى

الصداقات ، وينعدم العون المباشر ، يشده إلى دنياه ، إلى أصحابه ، إلى ما انقضى من عمره ، إلى ما هو مقبل ، ذلك النداء الموجز الذى يأتيه وسط البرامج الاذاعية فى لحظة معينة ، تدب الحرارة الهادئة فى عروقه إذ يصغى إلى صوت المذيع الهادىء . .

من الوادى إلى ريح الجبل . .

أحيانا يبتسم ، كأنه يجاوب هذا المذيع الذى يجلس فى أستديو مغلق ، يتلو كلمات لا يدرى إلى من توجه ، وماذا تعنى ؟. لا يدرى ما أحدثه من أثر فى روحه خاصة إذ ينهى الرسالة قائلا . . الله معك . . فى ساعة معينة يستطلع كل شبر يحيطه ، حتى ظلال السحب وزحفها فوق الرمال ، وآثار الحشرات والثعابين ، ربما أخفت فيها بينها آثارا آدمية ، يتجنب الطرق المرصوفة ، يتأكد خلو السماء من الهيلوكبتر أشد ما يحذره خلف الخطوط .

من ريح الجبل إلى الوادى . . هل تسمعنى ؟

عندما كان يجيئه الصوت ، عندما كان الرد يأتى فورا ، يدركه حماس ، كأنه يمر بكل البيوت والطرقات والأهل والمدن التى تعبرها تلك الإشارات غير المرئية ، كلمة واحدة فقط .

نعم . .

ويبدأ أرساله ، يطمئن إلى أصغاء آذان من يعرفهم ، تردد صوته هناك ، آلة تسجل ، أقلام تكتب ، رموز تفك ، عندما انهى مهمته خلف الخطوط عبر خليج السويس فى الموضع المحدد له تماما ، لأمر ما ، ربما العادة ، ابتعد عن الطرق الرئيسية ، ربما لشعور خفى يكتسبه المقاتل خاصة رجل الاستطلاع ، فضل أن يطرق دربا مهجورا لينزل منه إلى السويس ، انتقل وثبا ، أوشك أحيانا أن يحبو حتى لا يتيح لمراقب بالمنظار أو أجهزة الرؤ ية رصده ، فى هذا الوقت لم يحمل بطاقة أو علامة ، هكذا من يذهب إلى خلف خطوط ، ربما تعرض لمضايقة لو لمحه أحد الجنود من زملائه ، فى تلك اللحظات تخيل لقاءه بأصحابه داخل السويس . قفز ، جرى ، تخيل حديثهم معه فى الليلة الأولى ، كيف نصبت المعابر ؟ كيف عاشت المدينة ؟ كم عملية قاموا بها ؟ ثم نومه فى مكانه المعتاد ، رائحة العرق ، رائحة الزيت المستخدم لتليين السلاح ، قطع الكهنة القديمة اللازمة لتنظيف المدافع والبنادق ، الطعام المعد بسرعة ، فى ذلك اليوم ظن أنه سيلتقى بهم بعد دقائق أو ساعات على أكثر تقدير لو أنهم تحركوا الى جهة ما ، أو نقلوا مقر اقامتهم . لكن تلك الدقائق استمرت أياما وشهورا ولا تزال ، لم يرهم حتى الآن ، ولم يفتح الطريق بعد لرؤ ية الأحباب ، قبل وصوله أطراف المدينة الشمالية لمح عربة مدرعة مما يستعمله العدو ، ماذا جرى ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ هل استولى عليها الرجال ؟. قبل

المغيب فى نفس الميعاد . تلا المذيع بسرعة . .

« من الوادى إلى ريح الجبل ، الزم الأعالى ، الهدف محاصر ، الزم الأعالى . . » .

بعد لحظات امتدت إلى مفتاح الأرسال ، لم يقم بالاحتياطات اللازمة ، ربما لادراكه أنه عاد من خلف الخطوط .

« من ريح الجبل إلى الوادى . . علم . . هل تسمعنى ؟ » .

تساءل وقتئذ ، إلى أين سيمضى ، أين سيبقى ؟ ما هى المهام التى سيقوم بها ؟ كيف ؟ لم يتبق معه الا القليل من المؤ ن ، باكوبقسماط ، ربع زمزمية ماء ، ما يرتديه أفرول كاكى صيفى خفيف ، لديه بطانية واحدة يطبقها ويحملها فوق ظهره ، مرة أخرى حرص على التوارى عن الأنظار ، ابتعد عن طريق السويس ــ الأدبية ــ قطع المنطقة الرملية بسرعة ، وصل إلى سفوح عتاقة المواجهة للمدينة ، يعرف كل شبر يبدأ من هنا ، تسلق المرتفعات التى تندرج على مهل ، تزايدت سرعته ، لمدة ساعة كاملة لم يتوقف لحظة واحدة ، أثار ذرات رمال التصقت بالصخور ربما لم يرها أحد من قبل ، ودار حول المرتفع الجبلى الحاد الذى يشبه سنام الجمل ، لم يتوقف ألا فى منطقة بقلب الجبل ، تشبه غرفة صخرية طبيعية ، تعلو جدرانها حوله حتى لتحجب بقية الصخور ، والقمة الحقيقية المرتفعة المطلة

على الوادى ، داخل هذه المنطقة جلس ، هدأ قليلا ، المدينة بعيدة عنه الآن ، يمكنه لو وصل أعلى نقطة أن يرى الأضواء بها ، لكن جدرانا ضخمة من الصخور عزلته وقتئذ ، فى هذه الساعات الأولى لم يفكر كثيرا فى السويس ، ما شغله كيف سيقضى الوقت الذى لا يدرى مقداره فى عتاقه ؟ كيف سيقضى أموره بما لديه من مؤ ن ضيئلة ؟ فى أيام التدريب الأولى جاء إليهم العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى ، قائد المجموعة السابعة قتال ، يذكر ملامحه الهادئة ، وقفته المستقيمة ويداه تلامسان خصره ، يومها قال لهم « لا حدود لقدرة الانسان على التحمل ، كما أن قدرته على التكيف هائلة » لا يدرى ماذا قام به القلعاوى خلال الحرب ؟ لا يدرى أين هو الآن . . هل . . حاول طرد الأفكار السوداء ، عندما فكر فى القلعاوى خطر له دائما . . انه يحارب الآن . . سيقول انه فى الليل الجبلى الوعر يختلف تفكير الانسان ، ربما لتحفز حواسه كلها واستعدادها لتلقى المفاجآت الجبلية ، ما قد يأتى به الظلام ، ربما التقى جنديان صديقان فى العتمة الحجرية واقتتلا بدون أن يدرك كل منهما حقيقة الآخر ، يعرف أن عتاقة ملىء بدروب وممرات خفية لم يحط بها انسان واحد ، سيقولون له ولكنك أكثرنا معرفة بالجبل قبل صعودك إليه ، سيقول لهم أنه اكتشف طرقا فى الذرى لم يتخيل وجودها أبدا ، ومدقات لا يمكن أن تظهر فى أى صور تلتقط من الجو ، وانفاق تؤدى إلى وديان بعيدة يمر بها الانسان

ولا يكاد يلحظها فكأنها ظللت كلها بنسيج عنكبوت غير مرئى كغار حراء ، حتى اعتى مهربى المخدرات وأكثرهم استخداما للجبل يجهلون معظم أسراره ، سيسأله سليمان الحلبى عن حقيقة هذا الدرب المؤدى إلى مصر ، أقاويل كثيرة تتردد عنه ، يكفى ان يكتشفه ليصبح بعد مسيرة خمس دقائق أو سبع على أكثر تقدير فى قلب مصر ، ينزل إلى ضاحية المعادى ، ثم يقطع الشوارع الممهدة ، ويدور مع المنحنيات ، ويتأمل الشرفات ، والنوافذ المفتوحة ، والنوافذ المغلقة ، والضوء الناعم المنبعث من النجف خلف الستائر المسدلة والموحى بلقاءات أسرية دافئة ، وحياة مستقرة ، درب قصير يمضى عبره إلى الأمسيات بين الناس ، والمشى بشكل طبيعى ، وتأمل الفتيات مع أصدقائهن فى الطرقات الجانبية ، واذا يمر أمام أبواب العمارات الضخمة تهب عليه رائحة رطوبة معتقة ، مزيج من رائحة السلالم الرخامية الممسوحة ورائحة الأخشاب القديمة ، وانفاس أسرية ، ثم الذهاب إلى بيته ، تناوله العشاء ، يقطع رغيفا ، يمضغ ، ثم ينام فوق حشية قطنية ، يضع رأسه فوق وسادة . . . سيقول لسليمان الحلبى انه لم يكتشف هذا الدرب ، لم يهتد إليه ، فى ليلته الأولى بدأ قصف جوى فوق المدينة ، أصغى متلفعا بالليل والجبل ، غارة متصلة ، يعرف صوت قنابل الطائرات خاصة الألف رطل التى تفجر المياه من باطن الأرض ، فى لحظات التحامه بالعدو أو اجتيازه أقسى مراحل الخطر ، فى

قلب جنون القتال الذى يمسك الانسان تماما ، يركز عينيه وحواسه ليلتقط لحظة معينة لا تفلت من وعيه ، لحظة ملامسه الخنجر للرقبة ، الوضع الملتوى للجسم الآدمى بتأثير المفاجأة والرعب ، اتساع العينين ، ابتلاع اللعاب ، يذكر جندى عدو فوجىء بهجوم الجماعة على العربة المدرعة ، راح يجرى إلى الخلف والبندقية معلقة إلى كتفه ، لم يفكر حتى فى أشهارها . . المفاجأة أخطر ما يحويه ليل الجبل ، هذا ما يجب أن يحذره ، ستجيىء لحظات يتأمل فيها على مهل ، سيقول لهم أنه تساءل أول ليلة أثناء الغارة ، أين تنزل قنابل الألف رطل ؟ هل أصيب أحد زملائه ؟ هل دمر مقر الوحدة ؟ هل القصف ضد أهداف معينة أم انه طائش ، أعمى ؟ تأكد من وجود العدو تحت الجبل وحول المدينة ، استمرار القصف الجوى الليلى يعنى أن العدو لم يقتحم البيوت والطرقات وأماكن الذكريات وبيت الأسرة ، ما استبد به القلق على الرجال . . لابد انهم فى نقطة ما من هذا الليل الوسيع يقومون بعمل ما ضد العدو ، أين هم ؟ للحظات خاطفة يضاء الجبل باصداء الأضواء البعيدة كأنه البرق فوق بلاد مجاورة ، للمحة عين تبدو أشكال الصخور ، قرب الفجر الحت عليه الرغبة فى رؤ يتهم ، داخله شعور خفيف بالبهجة لمرور أول ليلة عليه ، مجيء النهار ، ولم يكن بعد قد عرف ما تعنيه لحظات الضوء الأولى وسكون الساعات الأخيرة من اليوم ، الساعات الممتدة أمام الليل الوحشى ، استبد بـه القلق عليهم

عندما وصل إلى قمة الجبل وتطلع باتجاه المدينة ، رأى دخانا ، قدر حجم الحرائق ، سيقول لهم انه لم يتخذ أصحابا فى المدرسة ، لم يتخذ صديقا حميا عندما عمل فى استديو فكرى للتصوير بعد خروجه من الدراسة أثر رحيل والده ، لم يشترك مع أبناء الحى فى مغامراتهم ، لم يعاكس بنات حى الأربعين أو درب أو الهاويس ، اذا تصادف مشيه فى الطريق خلف فتاة يسرع حتى يتجاوزها لكيلا يراه أحد المعارف فيظن أنه يقتفى أثرها ، سيقول أنه لم يشعر بنعمة الصداقة الا بعد التحاقه بالوحدة ، اكتشف من جديد أبناء السويس الذين تطوعوا معه ، كأنه عرفهم لأول مرة مع أنهم زاملوه زمنا ، فى معسكرات التدريب مضى الوقت كله عليهم معا ، فى دوريات المشى الطويلة عبر الصحراء ، يضحكون ، يتحدثون عن الضباط ، عن الباشجاويش وقسوته التى لا يلمحون غيرها ثم رقته المفاجأة نحوهم عندما حزموا عتادهم واستعدوا للالتحاق بالوحدة يومها أقيم احتفال قصير بتخرجهم ، اصطفوا فى مربع ينقص ضلعا ، نزل الجاويش الى المدينة القريبة ، اشترى الحلوى ، اشرف على توزيعها فى الأطباق عند اعداد الميس ، عند باب المعسكر وقف يرمقهم . أخذ سيف بن ذى يزن زمام المبادرة . عانقه . . اقبلوا واحدا ، واحدا ، رصد فى عينيه دموعا ، عندما خرجوا معا فى دورية سير لمسافة مئات الكيلو مترات بالصحراء الغربية ، دليلهم النجوم وعلامات قليلة ترشدهم إلى نقطة

الوصول . توقف موج البحر ، اقترب مادا يده ، ضاما قبضته وكأنها ميكرفون إذاعى . .

سيداتى آنساتى سادتى ، على ناصية ما من الصحراء الغربية تلتكى ـ نلتقى ـ بمجموعة من المكاتلين ـ المقاتلين .

نكدر ـ نقدر ـ نتعرف بسيادتك .

سليمان الحلبى ، أنا موظف بشركة النصر للبترول ، متطوع .

أخ سليمان . . ممكن تعطينا فكرة عن بطولاتك . .

قتلت الجنرال كليبر . . ورجعت بأسير اسرائيلى . .

هايل . . برافو . . انت لكنت ـ لقنت الأعداء دراسا لن ينسوه عندما كتلت ـ قتلت ـ الجنرال كليبر الصهيونى . . .

يا أفندم الجنرال كليبر فرنسى . . قتلته من مائة وسبعين سنه . . لا يختلف الأمر كثيرا . . تفضل أى أغنية ؟

وهنا يصيح أحمس الأول . .

أنا كلبى ـ قلبى . . إليك ميال . .

يضحكون ، ينطلق موج البحر مغنيا وكأنه يلبى بالفعل ما طلبه

سليمان الحلبى وأحمس الأول ، فى الصحراء يصيح أدهم الشرقاوى . .
يا ريح الجبل . . تلقف هذه . .

يلتفت . أدهم يمسك بدانة مدفع قديمة لم تنفجر ، كأنه على وشك إلقائها باتجاهه . تعلو يده ثم تنزل على مهل ممسكة بالدانة حتى يضعها فوق الرمال . فى الليل عندما يستعد بعضهم للنوم ، ويبقى آخرون مستيقظون ، يتحدثون عن المدينة الكبيرة ، وازدحام الشوارع فى المغيب ، يقوم البرق قائلا إنه بمجرد انتهاء الدورية ونزولهم أجازة سيمشى فى شارع سليمان باشا ، يتفرج على الفتارين المضيئة والفتيات الجميلات ، ثم يأكل فولا وطعمية عند الدمياطى . هنا يقول موج البحر : أهذا كل ما تحلم به ؟ هناك من ينفق الف جنيه فى ليلة واحدة ، تساءل الصاعقة عن حقيقة ذلك ، وهل يمكن صرف مثل هذا المبلغ فى ليلة واحدة ، أكد موج البحر أن هذا ممكن فى شارع الهرم ، استفسر الصعيد الأعلى عن حقيقة ما يقال حول أسعار المبيت فى فندق الشيراتون ، وهل تبلغ حقا عشرين جنيها للسرير الواحد فى الليلة الواحدة ؟ قال البرق ؟ انها تبلغ أكثر من ذلك قال الصعيد الأعلى ، إنه لو نام فى غرفة كهذه سيظل يرتعش طوال الليل . تساءل الفتى مهران ، من الخوف أم من التكييف ؟ ضحكوا . . قال سليمان الحلبى هذا عالم غريب . .

لا يدرى ريح الجبل أين هم الآن ؟ ربما يتجمعون معا ، ربما عاد بعضهم إلى الوحدة . يود أن يرى أحدهم ، يشكو له برودة الجبل ، خاصة برد العصارى المصحوب بالسكون القاصى ، يعرف أن الحركة تبلغ ذروتها فى الطرقات قبل المغيب ، حتى فى المعسكرات النائية البعيدة تتخذ الحركة ايقاعا سريعا مع اقتراب الليل ، وكأنها لمسات أخيرة يضعها الانسان على نهار مول ، ينقل الجنود أوانى الطبيخ ، يذهب البعض إلى الحمامات ليستحمون بعد طابور الرياضة . يلعب آخرون الكرة ، يستعد الجندى المسئول عن النادى لتشغيل التليفزيون . سكون عتاقة ينأى بالمدن الى عالم آخر . يجعلها تبدو شاحبة كنسمة خفيفة تمت إلى الحقول . لابد أن كثيرين من الجنود عادوا إلى زوجاتهم وأمهاتهم . يجلسون معهم الآن . بعضهم خرجوا إلى الطرقات مع أطفالهم . أو ذهبوا لزيارة أقاربهم ، يحكون عن الحرب كذكريات ، طومانباى خرج ولم يعد الى أمه منذ أربع سنوات ، عندما مضوا إليها عال كل منهم هم اللقاء ، ماذا سيقول وأى كلمات عزاء ؟ قال سعيد مهران إنه يمكنه جز رقبه جندى عدو ، لكنه لا يطيق رؤ ية أم زميل ذهب ولم يعد . قال سليمان الحلبى إن طومانباى مات ميتة نحسده عليها « الهم والباقى علينا نحن » ، طلب منه سيف بن ذى يزن الا يتحدث هكذا أمام أم طومانباى . أن يراعى شعورها . لاقتهم عند الباب ، نحيلة ، قصيرة القامة ، ولى شبابها مبكرا قبل

الأوان ، يعرفون أن والد طومانباى رحل وهى فى الثالثة والعشرين ، تفرغت تماما لتربية ولديها . أشرفت أشجار الفاكهة المملوكة لهم فى قرية الجناين ، جادلت التجار ، ناقشت الرجال ، رفضت كل من تقدم إليها ، امتلأ وجهها بتجاعيد وآثار العناء ، تلك العلامات التى ترى على وجوه الفقراء ومن قاسوا طويلا . .

« اهلا بحبايب ابنى . . » .

بدت متماسكة أكثر من القادمين لعزائها ، فكر ريح الجبل ، ما أقسى لوعة الأم التى تعيش موت ابنها بعد كل ما قاسته من آلام حمل ووضع وسهر ليال ، لم تبد أم طومانباى شيئا من هذا ، بعد لحظات صمت دارت بعينيها فى وجوههم ، سألت عمن جاوره أو اقترب منه ؟ قال خالد بن الوليد أن كتفه لامسه طوال العملية ، قال الحسين أن بصره لم يفارقه ، طلبت أن تسمع ما قام به أبنها ، تلاقت العيون فى حيرة ، ثم استقرت على سليمان الحلبى ، بدأ يحكى وهى تسمع ، أبدت اهتمام عندما قال أن العدو أجهد نفسه فى معرفة شخصيته لكثرة ما كبده من خسائر ، قال انه بينه وبين العدو دما كثيرا . برقت عيناها عندما وصل سليمان الحلبى إلى لحظة رفع العلم على الضفة الشرقية ، فى أول عملية عبور تتم فى وضح النهار ، قال إن العلم ما زال مرفوعاً وجنود الموقع المقابل خصصوا كمية من الذخيرة لحمايته ، وجنود المواقع القريبة يفدون لرؤ ية العلم الذى رفعه

المرحوم اصغت صامته ، وأبدت بعض الاستفسارات . ثم أطرقت لحظات ، رفعت رأسها . .

البركة فيكم . .

أصرت على المشى معهم فى الدرب الصغير المؤدى إلى طريق القرية العام ، عند انصرافهم قالت هامسة . .

طلوا على يا أولاد . . ولا تنسونى . .

انقبض ريح الجبل ، هذه الكلمات القليلة يذكرها الآن ، تجسد وحلة مرة بعد رحيل حبيب ، تماما كليل الجبل المقبل والذى لا راد ولا مانع ، صار يزورها بانتظام ، فى المواسم الأعياد ، زارها مرارا سعيد مهران ، والحسين ، وسليمان ، وخالد بن الوليد ، والبراق ، والصاعقة ، وأول ضوء ، لكن ريح الجبل وأظب على الذهاب ، يقص فى كل مرة تفاصيل مما رآه من طومانباى ، حكى أيضا عن ظروف اختياره لهذا الاسم ، وقال انه عاشق للتاريخ ، وهو الذى اختار الاسم لسليمان الحلبى ، وللحسين ، قامت الأم ، جاءت بصندوق كتب خشبى ، راحت تخرج كل كتاب بعناية ، تريه لريح الجبل ، أحيانا تمسك كتابا مقلوبا ، قالت إن المرحوم لم يبخل على القراءة بمليم ، وأحيانا قالت له ، ارحم عينيك لأن البيت لم يصله ضوء الكهرباء ، قلب ريح الجبل

الكتب ، أعادت ترتيبها ، فى كل مرة تقول ، عندما تأتى فكأننى أرى المرحوم .

سيقول لها بعد أن يصله النداء أنه يعتذر لانقطاعه عنها ، وأن أحوالها شغلته خلال حصار السويس ، إن قلبه حدثه بأنها لم تفارق الأرض سيطلب منهاأن تسامحه لأنه لم يأت بسبب غيبته فوق الجبل ، لكنه لم ينسها أبدا ، فكر فيها كثيرا ، وتمنى لو أنها دعت له بالسلامة ، سيقول لها أنه حرم من نظرة الأم ولهفتها منذ وقت كبير ، سيحكى لها عن أيامه أيضا .

سيقول لأصحابه إنه لم يفاجأ بقتله طومانباى فوق الجبل ، بهدوء أحصى عددهم ، رأى معاطفهم الثقيلة بألوانها الزيتونية ، رشاشات العوزى القصيرة . البنادق الأمريكية سريعة الطلقات . كانوا محاربين من سلاح المظلات ، تساءل ، هل سيقون ؟ بدا واضحا أنهم دورية استطلاع ، حمل بعضهم أوراقا ، أمسك أحدهم دفترا عريضا يضم صورا جوية ، هذا يعنى أنه لا توجد لديهم خرائط لممرات الجبل ومدقاته . .

سيبتسم البرق قائلا . .

ومن أعد خرائط لعتاقة ؟ ألأن دروبه محفوظة فى أذهان رواده . .

سيكرر سليمان الحلبى سؤاله عن ذلك الدرب القصير الذى يصل إلى مصر ؟

سيقول إن الجبل سيظل لغزا مستعصيا ، فى طفولته رأى عتاقة حدود الدنيا ، لا مدن وراءه ، لا صحارى ، يعيش به جن أخيار ، وجن أشرار ، الشمس تسكن فيه ، السحب تنبع منه ، مع تقدم عمره سمع عن الدروب الخفية التى لا تبوح بنفسها إلا لمن تردد عليها مرات ومرات ، من يعرفها يصل إلى أى مكان فى بر مصر ، من يجهلها يهلك وهو على مرمى حجر من مصدر ماء ، أو ملق ترابى يؤدى به إلى النجاة ، منذ ظهورهم لم يعد همه الوحيد مواجهة الشتاء فوق الجبل مرتديا افرولا صيفيا ، بلا مؤن ، إنما أصبح عليه أن يواجه العدو أيضا ، فى البداية لم يقل له النداء كيف يدبر مأواه وطعامه ؟ . فى صباه حلم بالوقوف فوق أعلى نقطة . لكن ما شغله طوال هذه الأيام العثور على أصلح مكان للعمل ، ما أقلقه ليس ظهور دورية الاستطلاع المعادية ، إنما تلك الساعات الأخيرة من الليل ، عندما يمتلىء الفراغ بشفرات جليدية تحز الجلد وتنفذ الى العظام ، لا يذكر من قال يوما أنه لا يستطيع النوم طالما بقيت أطرافه باردة ، يبتسم ، من يتخيل نوعية البرد بنزل آخر الليل هنا ؟ يفقد انفه أحيانا ، يدلكه بأصابعه حتى يعيده إلى مكانه . مع البرد يزداد جلد الحذاء صلابة ، فى بداية الليل يشع الصخر دفئا غامضا سرعان ما يتلاشى ، فى البداية تساءل ، كيف ستمضى الأيام هنا ؟ خيل اليه انه لن يحتمل ليلة واحدة ، ماذا سيقوم به ؟ لا يحتمل الأيام الخالية من العلامات ، فى المدينة

أو التدريب أو خلف الخطوط يلتزم الإنسان بمواعيد محددة ومهام معينة تكسب الأيام ملامح وسمات . تجعل هذا يوم اثنين وذلك يوم ثلاثاء ، لم يتم بتدوين علامات تذكره بالأيام . عندما توالت الليالى عليه ، لم يتجمد ، لم يمت ، اختلطت عليه الساعات والأيام ، كيف يدرك أن هذا النهار ثلاثاء وليس أربعاء ؟ أدرك أهمية ذلك عندما ظهرت دورية الاستطلاع المعادية ، ظهورها يوافق مضى سبعة أيام عليه ، فكر فى حفر علامة بسيطة على الصخر فى موضع معين ، لكن ربما لمحها أحد ، يدرك انها نتاج فعل انسان ، جمع سبع زلطات صغار ، يضع واحدة فى يوم السبت قرب مكان نومه الرئيسى ، اثنتين يوم الأحد قرب مكان البطاريات الاحتياطية ، الأيام تولى والبرد يتضاعف .

فى اليوم التالى لذهاب الدورية جاءوا . سيقول إنه لن ينسى أبدا ملامح أول من رآهم قادمون للإقامة ، ليس لأنه يجتهد فى التقاط التفاصيل ، حتى لايضطر إلى استعمال أى نوع من التدوين المكتوب ، إنما لأنهم أول افراد رآهم وعليه متابعتهم . أحدهم غطى رأسه بقلنسوة صوفية ، يبدو من تحتها شعره الطويل ، جندى آخر أسود اللون قدر أنه من جنوب افريقيا ، ثالث لم يزد عمره على سبعة عشر عاما ، ذو الشعر الطويل يتولى القيادة . هدف ممتاز لقناص ، لكن الظروف لا تسمح ، أشار بيده مرات ، حاول الأسود الانحناء وأشعال سيجارة . لحسن حظه أنه لم

يدخن طوال حياته ، بمعنى أنه لم يدمن التدخين فى ليلة حنة سويسية ، أو فى فرح أحد الأصحاب ، دخن سيجارة واحدة ، لو افتقد التدخين لأضاف هذا متاعب إليه .

سيقول إن وجود العدو أثار اهتمامه . أدرك أنه بدأ يعمل . لم يعد الجبل خاليا ، الأمر يختلف عن عمله خلف الخطوط ، هناك الصحراء فسيحة كالبحر . هنا المسافات المستوية محدودة . أماكن المشى شحيحة . اقتفاء الأثر أسهل ، التعرض للرؤية محتمل أكثر . نسب الجبل تتغير ، فى الليل يزداد ضيقا ويبدو مرتفعا أكثر ، ثم المفاجأة ، كل قمة تخفى المفاجأة . قبل مغيب اليوم فتح الارسال ، فرح ، أخيرا يعود اتصاله ، فى الليلة نفسها قال المذيع بصوت هادىء .

« إلى ريح الجبل ، لمسنا آثارك . . نتتظر هبوبا أكثر . . . » .

ثم بدأت موسيقى . لم يصغ الا لحظات ، بمجرد انتهاء النداء أغلق الجهاز ، هز رأسه كأنه يخاطب شخصا غير مرئى ، ادخل الجهاز فى الجراب الكاكى ، حمله بعناية وحذر إلى مخبئه . فى نفس اليوم جاء الصوت الكريه . إن طائرة الفانتوم مقيتة الأزير ، تثير غثيانا ، ربما روعى هذا فى تصميم محركها ، لكنها لا تثير الاحساس بالمطاردة الشخصية ، مثل الهيلوكبتر التى تطير متباطئة هدفها حركة الانسان فوق الأرض ، جرادة

ضخمة معدنية ، جاء جنود كثيرون فى ثلاث طائرات ، الأولى من طراز سيكورسكى ، الأخرتان من طراز ـ ايلويت ـ ، استمرت المراوح المعدنية فى الدوران ، لم تتوقف ، وبدت دوائر من الظلال فوق الأرض ، أخرجوا صناديق متوسطة الحجم ، قرب السيكورسكى وقف ضابط القوة ، مرة أخرى نظر بعينى قناص ، فى مثل هذه اللحظات يتحول وجوده الى عينين ، إلى ذاكرة ترصد وتعى . نصبوا خياما صغيرة صفراء مبطنة بمطاط أحمر يبدو أنه عازل للحرارة وللبرد . نفخوا وسائد مطاطية ، أشعل أحدهم موقدا ميدانيا بآلة مستطيلة كمقبض العصا ، ابتعدوا عن الطائرة ، دارت المراوح بسرعة أكبر ، اهتزت الطائرات . مالت مقدماتها إلى الأمام . أحس بضغط الهواء الذى احدثه مرور الطائرات فوق رأسه عندما توارى فى حفرة ، منذ هذه اللحظة أصبح يعيش بينهم ، أحيانا يبتعدون عنه ، أحيانا يقترب منهم حتى لا يفصله عنهم الا أمتار قليلة ، فى الليل يصغى إلى صيحاتهم المفاجئة يحاولون طمأنة أرواحهم ، أو اصداء أحاديثهم الخافتة داخل خيام النوم ، سعال أحدهم ، أو غناء خافت يصمت فجأة عندما يتحول اتجاه الريح أو عندما يسكت صاحبه فى صباح اليوم التالى طلب منه المذيع أن يعبر الوديان بقوة ، الا يهمل شروق الشمس ، فى المغرب أرسل ريح الجبل وصفا دقيقا للقادمين الجدد ، قال ان ثلاث طائرات جاءت مع آخر ضوء ، تم ابرار مائة جندى وثمانية

ضباط أحدهم برتبة ميجور ، فوق القمة رقم (٣) جاءت سرية من جنود المظلات ، انتشرت الأسلحة الفردية ، رشاشات جليل ، مدافع الهاون ٨١ مللى ، لدى القوة جهاز للرؤ ية الليلية ، كميات ذخيرة ثم تشوينها عند النقطة « هـ » قرب منتصف الجبل ، تم نصب مطبخ ميدانى إلى الشمال من ــ ك ــ ، وحمام ميدانى ، العدو يطلق مشاعل مضيئة ليلا بمعدل قذيفة كل ثلاثين ثانية لمدة نصف ساعة ، ثم يستأنف الاطلاق بفاصل زمنى قدره عشر دقائق . وأحيانا خمس دقائق عندما يتحول صوت الريح إلى ما يشبه جرى الأقدام وحديث البشر ، يطلقون دفعات متتابعة من الرشاشات فى جميع الاتجاهات ، يكفون تماما عند الفجر ، تتخلل دفعات الرصاص طلقات حمراء كاشفة ، فى تلك الليلة تلا المذيع رسالة موجزة ، من الوادى إلى الجبل ، قال إنهم يتابعون العاصفة .

سيقول إنه تمنى لو أمتلك معطفا كاكيا ، طوال أيامه الجبلية يقمع أى رجاء بالأفضل ، ولكن عندما يثقل البرد ولا تكفى الحشائش الجبلية سد جوعه الدائم ، يتخيل جمرا موقدا ، أو أغطية ، سقف حجرة ، تذكر رحلة مدرسية نظمت إلى عيون موسى عند وقوف الطلبة آخر النهار منتظرين أوتوبيس الرحلة ، اصطفوا فى طابور عفوى ، كل منهم يحاول الاحتماء بالآخر ، أول فتى فى الطابور لم يحاول الاختفاء وراء أحد ، نسى اسمه ، قصير ، لم يرتد إلا قميصا بدون بلوفر ، عندما اقترب منه سمع

اصطكاك أسنانه . تصدى للريح وكأنه يثبت لزملائه أن نقصه سترة ثقيلة لا يؤثر عليه .

انه يكاد أن يرى زملاءه يتساءلون بعد عودته . كيف احتمل الشتاء كله فوق عتاقه ؟ كيف نام ؟ .

سيقول للحسين ، وللفتى مهران ، للبرق ، للعاصفة ، لخالد بن الوليد ، لسليمان الحلبى ، لأم طومانباى ، للصعيد الأعلى ، لأدهم ، لسيف ، انه نام منحنيا حتى لتلامس ركبتيه ذقنه . ساعات نومه غير متصلة ، بعضها فى النهار ، الليل فرصته للحركة الآمنة ، يتجمع فيه العدو . لا ينتشر ، سيقول إنه غفا ذات ليلة فوق صخرة مدببة قريبة من حافة الجبل ، استيقظ وللحظات قصار خيل إليه أنه يرقد فوق وسادة ، ويظلله سقف ، ويصغى إلى البرد فى الطرقات من خلال جدران ونوافذ مغلقة ، عندما رأى النجوم الكثيفة ، وأحس بالفراغ أدركته خيبة لم تدم إلا للحظات ، فى تلك الليلة فكر طويلا فى صوت غامض سمعه خلف الخطوط فى سيناء ، وأصوات الصحراء محدودة جدا بالقياس إلى أصوات الجبل ، لكن هذا الصوت لم يدر ما هو حتى الآن ، صوت مكتوم ، متقطع ، آنين مخلوق ضخم ، عريض ، هائل الحنجرة ، كأنه يصدر من كل مكان فى الصحراء ، أهو صوت غولة خرافية تتألم لسبب ما ؟ أم أصداء غامضة ؟ تدركه رعدة كلما فكر فيه . فى الليل زحف حذرا إلى الشقوق

الصغيرة حيث تتجمع قطرات المطر ، إلى الحشائش الجبلية ، الناظر من بعيد يخيل إليه أن الصخور مجدية ، الاقتراب منها يكشف أنواعا من الزهور ، والحشائش ، والزهور الرقيقة التي لم تقطف ، تنمو وتموت بعيدا عن يد الإنسان ، تأمل أنواعا لا حصر لها من السحالي الملونة والحشرات الغريبة ، وفراشات كبيرة لا تعبأ به إذ يمد يده محاولا امساكها . كثيرا ما تابعها أثناء تناولها طعامها ، بالضبط في الساعة ١٣٠٠ . صوب منظارة عكس اتجاه الشمس حتى لا تنعكس أشعتها على عدستيه وتحدث بريقا يلفت الأنظار اليه ، رأى بخار الشوربة الساخن ، أحس بطراوة الخبز المستطيل ، رأى يوما جنديا المانى الأصل يقشر برتقالة ، رصد مكان تساقط قشور البرتقال حتى يزحف ليلا ويحاول التقاطها ، هذا الجندي ينهى طعامه عادة بسرعة ، أحيانا يمد يده إلى أطباق زملائه ، يخفونها عنه بأجسادهم ، أو يزجرونه . يقوم آخر يبدو أنه فرنسى ، يبدأ في غسل يديه بالصابون ، يتدفق الماء من إناء البلاستيك برتقالى الشكل ، ينتهى بصنبور صغير لا يسمح الا لخيط نحيل من المياه بلا تدفق ، عليه كتابة لونها أحمر الإنجليزية تشير إلى مصنع هولندى في أمستردام ، يطيل الفرنسى غسل يديه ، يتمضمض أربع أو خمس مرات ، قصير القامة ، النحيل ، لا يدرى ريح الجبل إلى أى أرض ينتمى ؟ يبدو غير مهتم بغسيل يديه أو فمه ، البندقية سريعة الطلقات لا تفارق كتفه حتى أثناء تناوله الطعام ، أو

خلال اضطجاعته داخل الخيمة ، شاب آخر يبدو أنه لم يتجاوز السادسة عشرة ، لحيته لم تنبت بعد ، يتطلع إلى أنحاء الجبل كثيرا ، بل أن عينيه لا تفارقان الصخور البعيدة حتى عندما يتحدث إلى زملائه . أو يجلس بينهم ، يشد على شفتيه ، كأنه يتوقع حدوث شيء ما . فى الصباح تبدو خطواتهم أوسع ، يتحركون هنا وهناك ، يتفحصون الجبل ، يمدون لفات الأسلاك الشائكة ، رصد ريح الجبل عدد اللفات ، ومواقع رص الألغام المضادة للأفراد التى بثوها فى المدقات ، لا حاجة بهم إلى ذرع الألغام المضادة للدبابات أو الآليات ، تضاريس الجبل موانع طبيعية ، لاحظ أنهم نثروا نوعا من الشراك الخداعية ، خاصة بالقرب من القمم ، شراك على هيئة علب مربى ، علب سجائر ، كاميرا ، أقلام حبر ، استنتج أنهم لا يحكمون قبضتهم على الجبل ، لا يمسكون بخفاياه . يتوقعون هجوما فى أى وقت ، يأملون فى التقاط أحد أو بعض افراد الدوريات المقاتلة ، أو رجال الاستطلاع هذه الشراك ، فى الصباح يروحون ويجيئون بدون معاطف ثقيلة ، لا حظ أنهم يرتدونها عند تناولهم الطعام ، ربما لأن ما يتناولونه يسبب برودة الجسم وتراخى الأطراف . بعد الظهر لا يمكن رؤ ية أحدهم يمشى منفردا ، يتجولون فى جماعات ، إذا تصادف وتأخر جندى أو اثنان بخطوة أو خطوتين يتلفتون إلى الجبل . يسرعون حتى يحاذون رفاقهم . كل منهم كأنه يحتمى بالآخر من طلقة مفاجئة قد تجىء ،

تصل إليه أصواتهم مع اتجاه الريح نحوه ، ثم تبتعد عندما تولى الريح بعيدا عنه ، لاحظ وجود جوارب نسائية وملابس داخلية معهم . لكنه لم يرصد وجود أى امرأة . مع إقتراب الليل يعودون إلى الخيام . لمح أحدهم يكتب ، من ملامحه ، وتوقفه بين لحظة وأخرى ، قدر أنه يكتب خطابا ، أو شيئا خاصا ، لاحظ أن قائد القوة يمشى دائما بين جنديين ، عندما يبدأ الليل الجبلى فى النزول يختفون كلهم داخل الخيام ، لا يبقى منهم إلا المكلفون بالخدمات ، لا ينفرد أحدهم بنفسه ، يتجمعون ، تعلو النداءات بالعبرية ، بالإنجليزية ، بالفرنسية ، بلغات أخرى لا يعرف منها حرفا ، حتى الخيام تبدو كأنها تتوارى فى بعضها ، رصد قدمين لجندى داخل خيمة منخفضة . حدد الخيمة التى يأوى إليها قائد المجموعة . لم يلحظ مرحا متبادلا بينهم ، ولم يسمع ضحكات حتى عندما يتجمعون داخل مراقدهم ، لم ير ابتسامة تصدر عن أحدهم فى وجه النهار ، الشفاه مضمومة ، الأكل بسرعة ، تجنب الصعود إلى القمم ، ربما لا بتعادهم عن مجال الرؤية الواضحة . لكن من الواضح أن مرمى نيرانهم يغطى تلك القمم .

سيقول إن أيامه الطويلة عرفت الفرح ، تمنى لو معه سعيد مهران أو سيف بن ذى يزن أو أحمس الأول ثم البراق ، تمنى لو جاءوا كلهم إليه ، فالفرح بحاجة إلى آخر قريب ليظهر ويتألق ويبهج . لكنه فى وحدته عرف

فرحه هو . الذى يبديه بدون انتظار رد فعل من آخر ، فرح غامر كاد يدفع
به إلى المشى منتصبا على قدميه بلا انحناء ، بلا حذر ، أو القفز من أعلى
الصخور إلى الوادى ، أو تحريك الأيدى والأطراف كما يشاء اذ لا أحد
يرقب أو يمنع أو يلوم . فرح كالريح الجبلية الجارفة التى تهب عند الفجر .
يختلف عما يشعر به من بهجة اذ يتلقى رسالة ، أو ينهمك فى أرسال
معلومات يدرك أن هناك من يتلقاها فى نفس اللحظة . حدث ذلك لحظة
استطاعته تمييز صوت طائرة الميج ٢١ . فى البداية حومت صوب الجبل ،
ثم ارتفعت فى خط منحن الى مركز السماء ، بدت نقطة بيضاء متحركة فى
الفراغ ، وعندما غيرت اتجاهها لمع جسمها المعدنى لبرهة كالبرق ، ثم
بدأت تهوى ، كأن الطيار فقد كل سيطرة عليها ، أمسك أنفاسه ،
استقامت فجأة . بدأت طلقات المدفعية الخفيفة المضادة تخدش زرقة
السماء بقبضات من دخان ظلت معلقة وكأنها من حجارة . قلق ، هل
أضافوا مدافع جديدة فى مواقع لم يبلغ عنها ؟ دارت الطائرة فى اتجاه
معاكس ، تجنب الطيار المرمى المؤثر لمدفعية العدو ، ابتسم وحيدا ، انه
شغله ، نتاج عمله . معلوماته . اختفى صوت الطائرة ، تماما ، هل
ذهبت ؟ لكنه لمح الجسم المعدنى منخفضا حتى ليكاد يلامس سن الجبل ،
اندفع فوقه بلا صوت ، ميز كابينة الطيار ، وتقسيمات الجناحين ، بعد
ابتعاد الطائرة علا صوتها مترددا بين الصخور ، هديرا مدويا بعشرات

الأصداء منطق الجبل وتوالت طقطقات المدافع المضادة للجو فبدت كمشاة يحاولون اللحاق بسيارة تجرى مسرعة ، بعثت فيه حركة الطائرة دفئا لا يمت إلى شهر أو زمن ، كأنه رأى كل الأصحاب والأحباب ، عانق الحسين ، وشكا اليه برودة الجو آخر الليالى ، ربت الفتى مهران على كتفه مبتسما ، « أنت لها » انحنى عليه سليمان الحلبى ، قبله ثم صمت ، هكذا اعتاده اذ يعبر عن عواطفه فجأة ثم يسكت ، ود لو رأى افراد العدو كلهم الطائرة ، سينظر اليهم من مكمنة آخر النهار متباهيا « لقد حلقنا فوقكم » ، هذه الطائرة تضم شابا جدعا ، مراوغا ، جريئا ، ربما التقيا من قبل ربما احتكت ايديهما فى طريق عام بالقاهرة ، بالسويس . ربما تواجهها فى قطار ما . ربما مرا فى شارع واحد يوما ، فى نفس اللحظة يود لو تعرف اليه دقيقة فقط ، يحدثه عن البهجة التى غمرته أياما متتالية بعد تحليقه ، لكنهما ربما لن يلتقيا ولن يعرف اسمه حتى . ستؤكد الصور الملتقطة ما أرسله من معلومات ، سيقول الطيارون أن دقة تحديد مواقع المدفعية المضادة جعلتهم أكثر أمنا .

طوال اليومين المتتاليين لتحليق الطائرة ظل بصره يروح ويجىء إلى الفراغ ، متوقعا ظهور الطائرة فجأة ، امتلأ الجبل بهديرها أو انزلاقها الصامت ، لحظات الفرح الأخرى جاءته ليلا . عندما اتخذ وضع الجنين

لينام ، عندما تحسس ركبته العارية ، برد ديسمبر القاسي تبدد عندما اصغى إلى طلقات متبادلة ، حوار ناري ، العدو لا يطلق النيران من طرف واحد ، قفز واقفا ، التف حول الصخرة التي يحتمي بها من الريح ، صعد مدقا صغيرا ، في نهايته يشرف على موقع العدو ، ميز طلقات الجرينوف الكلاشنكوف ، طلقة آر ـ بي ـ جي اخترقت الظلام وضجيج الأسلحة الأخرى ، طلقات حارقة اصابت الخيام ، اشتعلت جدرانها ، تناقلت الرياح السنة اللهب فيما بينها ثم استقرت في اتجاه واحد ، تتراقص ألسنة نارية على الصخر البعيدة ، خيل إليه أنه لمح حيوانا يعدو ، صرخات تعلو ، بعضهم يندفعون في اتجاهات مختلفة ، تدافعت الدماء إلى رأسه . تبدد آخر ما تبقى من الأحساس بالبرد ، انفجارات حادة ، ثاقبة ، قبضات حمراء تتطاير في الهواء متوالية كالصواريخ النارية ، عرف الرجال أماكن تشوين الذخيرة . لم يخطئوا واحدا ، يقرأون الظلام ، قبض بيده على حافة الصخر ، على ضوء اللهب يمكنه رصد المفاجأة التامة ، المباغتة ، توقف جندي يهودي ، طويل ، رفع يديه إلى أعلى بدا في اللهب بلا ملامح ، ظل أسود متحرك ، صراخ ، صرخة قصيرة ظل آخر يندفع في اتجاه ريح الجبل ، يبدو أنه فقد القدرة على التحقق من الاتجاه ، يندفع إلى الاتجاه المعاكس ، يسقط إلى الأمام وكأنه يرتمي على شيء محاولا الامساك به ، تختلط الظلال ، الصرخات ، أدرك ان اقتحام الموقع يبدأ ،

هذه الظلال التى تتداخل تبدو فى لهب النيران كمخلوقات قدمت من عالم غريب ، من يدرى ربما يهاجم الحسين الآن ، ربما يقتحم الفتى مهران خيمة أرسل وصفها منذ أيام ، سيف بن ذى يزن ، خالد ، الصاعقة ، البرق ، البراق ، كلهم الآن فى الجبل ، عتاقة فى هذه اللحظات فيه آخرون يعرفهم ، يتكلمون مثله ، اذا صمت لحظة قد يدرك الواحد منهم ما يجول بخاطره ، ربما اقترب منه ، احاطه بيده متسائلا « لماذا تبدو مهموما ؟ » ملامحهم يعرفها جيدا ، لا يوجد بينهم المانى ، فرنسى ، مجهول الجنسية ، سليمان الحلبى يتقدم الرجال ، يتقن القتال المتلاحم حتى ذاعت شهرته فى كافة وحدات القتال الخاصة ، أيدى ترتفع ، هل تضوى الخناجر فى اللهب المتزايد ؟ يعرف سليمان الحلبى أحوال الرجال أثناء العملية ، اندفاع سعيد مهران ـ وبسالة الحسين ، وقدرة البراق الفائقة على التنقل السريع مطلقا نيرانه من مواضع عديدة ، قدرة الفتى مهران على استعمال السلاح الأبيض ، دقة أدهم الشرقاوى المخيفة فى اصابة الهدف ، اذ يتحدثون عنه يقولون : « الطلقة منه تساوى رجلا . . » آه لو اندفع مناديا كل منهم ، سيقول انه لم يشعر أنه موثق الا فى هذه الليلة ، انتبه إلى نفسه عندما استنشق رائحة بارود قوية جرحت صدره . سعل ، تابع الاقتحام مفتوح الفم ، لو عرف أى طريق سيسلكونه عند العودة ، فقط يبادلهم الكلام لحظات ثم يولى ، يعانق

الحسين ، يشد على يد سليمان الحلبى ، يقول لـه « كل شىء تمـاما يا أفندم » . هل يتمركزون بالجبل ؟ هل يختبئون بإحدى مغاراته ؟ هل يعرفون بوجوده ؟ هل يحملون إليه مددا ؟ هل فى خطتهم الاتصال بهم ، لو رافقهم قليلا ، عندما ينظرون إلى أفروله الصيفى ، إلى تمزقـه . إلى اتساعه عليه إذ نحل جسمه ، سيخلع البرق معطفه ويتركه له ، سيقدم الحسين إليه كل ما لـديه سيقـول إنه اعتـاد برد الجبـل وطعم حشائشـه سيحاول منع ترقرق دموع فى عينيه حتى لا يمضوا متأثرين .

لم يستسلم طويلا لأفكاره ، عليه عمـل يجب أن ينجزه فى ظـروف مختلفة ، عند الفجر استمر جنود العدو يطلقون مدافع رشاشاتهم وقذائف الهاون فى كل اتجاه ، اضطر إلى الانبطاح أكثر من مرة ، انفجار دانات الهاون فوق الصخور الحادة يدفع بالشظايا إلى مسافات بعيدة . زحف ، جرحت ركبته . لم يتوقف ، يعرف أن فرصته فى استطلاع الموقع حتى أول ضوء ، مع بداية النهار سيحاولون حصار الجبل ، مع الضياء الأول رأى الخيام المحترقة واحصى عشر جثث ملقاة متباعـدة ، بدا بعضهـا وكأنها أجساد آدمية لم تستيقظ بعد ، ظهر جنديان يحملان نقالة عليها جندى مبتور الساق ، يصرخ . . آه . . آه . . ويدا صوته نحيلا ، متسلخا ، غريبا فى بداية النهار الجبلية ، من خلف صخـرة ظهر جنـدى آخر يستنـد بذراع

واحدة إلى أحدهم ، ثمة بقع سوداء فوق الأرض ، وآثار مادة كيماوية لاطفاء الحريق ، وصناديق ذخيرة فارغة . أدوات طعام منفرطة . حقائب طبية ميدانية مفتوحة ، شرائط ذخيرة لمدفع « جليل » الرشاش متناثرة لم تمس ، مع بداية تزايد الحركة فى المدن البعيدة ، أبرق ريح الجبل إلى الوادى رسالة عاجلة ، اشتعلت النيران فى مركز القيادة ، ثلاثة عشر قتيلا ، ضابطان جريحان ، ثلاث طائرات من طراز « ايلويت » نقلوا عددا من الجرحى ، تدمير الموقع ، مركزا لتشوين الذخيرة ، مركز القيادة .

أدرك أنهم سيقلبون الدنيا بحثا عنه ، بدا أمامه أكثر من تصرف . أما اختفائه فى مكان شديد القرب من المواقع ، أو ابتعاده إلى مكان قصى يمكنه ممارسة عمله منه ، بدا قربه أكثر عرضة للخطر وعائقا بالنسبة لاتصاله المباشر ، قرر الاتجاه إلى القطاع الجنوبى من عتاقة . سيجمد حركته يومين ، ثم يعود أشد قربا . قبل تحركه ألقى على الأسلاك الشائكة المقصوصة . يرصون الجثث إلى جوار بعضها ، تعلو فجأة صرخات حادة ثم تنقطع فجأة ، يظهر جنديان يحملان ضابطا برتبة ملازم فوق نقالة . يرفع يديه وكأنه سيمسك بشىء ما ، الحركة سريعة مذعورة ، اختل ميعاد الافطار اليومى الثابت ، فى تلك اللحظة بدا كأنه يلمح معنى غير مرئى فوق الموقع كله . معنى أحسه من قبل . لكنه لم يجد التعبير المباشر عنه . انه أمام عدو ، من خلال حركتهم ، سحنهم ، متابعته لأحاديثهم اليومية ،

لطريقة أيديهم فى التلويح والاشارة ، تناولهم الطعام ، ثم ما لحقهم من اضطراب ، تدمير ، هذا عدو . وهل يبدو المعنى جديدا ؟ ربما سخر منه أدهم الشرقاوى لو سمع أفكاره . سيقول ريح الجبل أنه هاجم العدو من قبل الليل . فى وضح النهار ، قضى خلف الخطوط أياما طويلة ، لكنه لم يعايش العدو بمثل هذا القرب ، لم يتابع ملامحه بمثل هذه الدقة ، لم يرصد نظام حياته ثم اختلالها مثلما فعل فى عتاقه . خلال الهجوم لا تتاح الفرصة للرصد المتأنى ، يجرى كل شىء بسرعة البرق ، فى أيامه الجبلية رأى تلك السحن الغريبة عنه . أصغى إلى الألسنة المعوجة . مهما جرى فلن يقف احدهما أمام الآخر ويتركه يمضى ، سيحاول كل منهما القضاء على الآخر هذه الخيام المنصوبة ، الأسلاك الشائكة ، الشراك الخداعية ، المعدات المطاطية ، المجمعة من كل عواصم الدنيا ، كل هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتبادلة عبر أجهزة إتصالهم ، كل هذا ، الغرض منه ادخال قطعة حديد ساخنة إلى جسده . إلى جسد الحسين ، إلى أحمس الأول ، إلى سيف ، إلى سليمان الحلبى الهادىء ، الواثق ، الموحى ، إلى عبد الله القلعاوى ، ربما يعرف العدو بعضهم ويجد فى أثرهم . عندما ولى وجهه تجاه الجزء الجنوبى لازمته فكرة أن هؤلاء . . عدو . . حامت طائرات الهيلوكبتر كما توقع ، عادة لا يغير موقعه إلا مع مجىء قوات جديدة للعدو ، يغيرون رجالهم فى الجبل كل سبعة أيام ، لا يكاد يحفظ ملامح

القوة حتى يتم تغييرها . . أيام وصولهم الأولى تتزايـد طلقاتهم ، يلتـزم الحذر لأن افراد القوة الجدد تنتابهم رغبة فى استطلاع ما يحيطهم ، يكثرون من الحركة فى اليومين الأول والثانى ، ثم يتصرفون بتلقائية أكثر مع اليوم الثالث ، لم يدر إلى أى اتجاه مضى سليمان الحلبى والـرجال ؟ لم يحقق اتصالا بهم ، ربما التقطتهم طائرة هيلوكبتر ، تناولوا افطارهم الساخن فى ميس القاعدة ، بعد تقديم تقاريرهـم عن الهجوم يشيدون بالمعلومات التى يرسلها ريح الجبل ، من خلالها عرفوا المداخل الخـالية من الألغـام إلى القاعدة . معرفتهم أماكن النوم والخيام الخالية المنصوبة بغرض الخداع ، من موقعه الجنوبى عمل فى نفس اليوم ، وجه رسالة من ريح الجبل إلى الوادى ، أجرى العدو سلسلة من التفجيرات بغرض انشاء موقع ملاحظة جديد . تم تـدعيم القوة بسـرية من جنـود المظلات . تقـوم الهيلوكبتر المسلحة بدوريات منتظمة فى السادسة إلا عشر دقائق . التاسعة . العاشرة والنصف . الرابعة مساء ، لم يطر الطيارون على ارتفاعـات منخفضة ، حوالى الثامنة مساء سقط المطر فجأة ، بغزارة ، وبدا صوت أصطدامـه بالصخور كأنه صدى لطلقات بعيدة ، انكمش الجبل ، وتحركت السحب بنشاط فى المساء ، حجبت النجوم الكثيفة ، ولامس بعضها قمة عتاقة . اقتحم البرد عظامه فى موجات متتالية حتى لامس نخاعه ، قطرات المطر كأنها تسقط فى قلبه . بدأ الماء يتجمع فى خيوط تتخذ طريقها بين الصخور

محدثا خريرا ، غـامت عيناه . بـدأ فى أذنيه وشيش منبعـه داخل رأسـه مصحوب بصفير نحيل حاد متصل ، هل سيمـوت ؟ فكر فى الجهـاز . لحسن حظه انه يحفظ الشفرة ، ستروح معه ، عند منتصف الليل خف الوشيش . اصغى ، أهوالوهم ؟ هل بدأت التخيلات ؟ ماذا إذن ؟ فى بداية الليل ظن الموت قريبا وها هو يعيش ، ويأمل فى قضاء العديد من المهام غدا ، وبعد غد ، لا . . ليس هذا وهما ، الجبل يردد الصدى الذى اخترق المطر ، ثمة نداء يطلقه جندى ما ، فى البداية بدأ قصيرا موجزا ، وعندما تكرر ازداد طولا ، زحف فـوق الصخور المبللة بـالمياه . ود لـو اخترقت عيناه السواد . حتى ضوء النجوم الباهت تـوارى خلف الغيوم الثقال ، انتظر حتى يتكرر النداء مرة ثالثة ، ثم يحاول رصـد اتجاهـه ، سيثبت فوق أعتى الصخور إليه ، سيحذر صـاحب الصوت أولا ، من الصباح لأن العدو فى الجبل ويرصد الخطوة ، والهمسة . ثم يزوده بما يطلبه من معلومات ، يتحدث ، يتكلم يقول الفاظا ويلقى ردا ، ويتأمل ملامح مألوفة ، سيتمنى لو أن لديه ما يفيض ليعطيه ما قد يحتاج إليـه لكن . . سيرى ابتسامة الود ، ثم العناق الذى يبدد البلل ، والبرد الكاوى ، متى يجىء النداء الثالث ؟ لماذا تأخر فى رصد مصدر الصوت ؟ لماذا لم يتتبعه بعد أول نداء ، يلوم نفسه ثم يصغى ، أين ، متى ، حتى الفجر لم يصغ إلى أى صوت ، ربما عثر زميله على من نادى عليه . قابل النهـار بخيبة ، قـرر

التجول فى لحظات اشراق الشمس الضئيلة لتجفيف ثيابه ، خاصة انها التصقت بجسده ونفذت رائحة القماش إلى أنفه ، ولاستطلاع مواضع نمو الحشائش التى يمكنه أكلها ، سيصف لزملائه فرحته عندما رأى قشرة صفراء مستقرة بين الصخور كالنداء ، كالرسالة ، كالشفرة التى تطلب حلا ، قشرة ثمرة يوسفى . دار حولها على أربع ، بالتأكيد ليست شركا خداعيا ، كلها فى متناول بصره ، لا تتصل بشىء قريب أو بعيد ، لا ينمو اليوسفى بهذا الحجم إلا فى شتاء مصر ، ومصر فقط ، أحد الرجال القاها ، ربما أثناء تجواله ، خلال قيامه بمهمة ، التقطها بسرعة ، ضمها إلى يديه . بسط راحتيه ، تأملها ، تشممها ، قضم قطعة منها ، بدأ الطعم الحامز غريبا فى فمه ، دار بعينيه حوله ، بعد عشر خطوات قطعها منحنى الظهر لمح ثلاث بذور ، لكنه لم ير أثرا بعد ذلك ولمسافة أكثر من كيلو متر فى اتجاه الوادى ، وإلى طريق المدينة ، فى هذا اليوم فاجأته الوحشة مع مجىء الشفق إلى السماء الصافية المغسولة بالمطر ، سيقول إنه احتمل ، سيدور الحديث بين زملائه داخل مقهى بين ضجيج لاعبى الورق . مرور السيارات فى الطريق . دوران الملاعق فى أكواب الشاى ، قرقرة النراجيل ، سيتابع حركة الناس فى الطرقات ، إيقاع الحياة فى الأماكن الآمنة . وحركة الحياة التى لا تهددها أخطار ، ولا تنوء فوقها

وحشة جبلية ، سيصغى دائما إلى الراديو فى نفس الميعاد ، ربما جاء النداء بعد حين ، بعد سنة ، بعد عشر سنوات ، بعد أربعين عاما .

من الوادى إلى ريح الجبل . . .

وعندئذ يفارق أمن المدن . يرحل إلى مكان يطلب منه التواجد فيه . سيقول إنه قبل صعوده عتاقه لو عرضوا عليه قضاء ليلة واحدة مقابل ألف جنيه لرفض ، وها هى الأيام تتجاوز المائة ، هل سيفتح نافذة بيته يوما ويتطلع إلى عتاقة الباقى أبدا . عتاقة الراسى ، ويسأل نفسه ، هل قضيت كل هذه الأيام الشتوية فوقه ، عندما يسألونه عن أشد ما أوجعه ، سيقول ، خفوت النداء خلال الأيام الأخيرة ، لكنه لن يسترسل فى سرد أوجاعه ، سيغير الحديث . سيبعث الضحك إلى قلوبهم ، تماما كما حدث أثناء التدريب . سيقول إذا استمع إلى نكته أو حادثه طريفة يدخرها ، يجهد نفسه فى تذكر تفاصيلها ، يحكيها لزملائه فى المعسكر ، سيقول إن أثناء استطلاعه للقطاع الجنوبى من عتاقة ، توقف فجأة ، توارى فى شق ضيق بالجبل ، ثم عاود النظر ، أمامه ، باتجاه الوادى ، على بعد حوالى نصف كيلومتر ، فوق الصخور النارية المدببة الحادة استقرت عربة مجنزرة ، تقف بمواجهتها ، كيف جاءت إلى هنا ؟ لا يمكن للجنزير صعود هذا المنحدر الوعر . ولا يمكن أن يتحرك فوق هذه التضاريس الوعرة ؟ ماذا . . هل ينصبون له كمينا ؟ أهذه عربة هيكلية جاءوا بها للتضليل ،

ضيق عينيه . لم يخطىء ، فعلاً عربة مجنزرة ، تقف هامدة ، خالية من الحركة ، لا يوجد جندى واحد حولها أو داخلها ، هل أنزلتها إحدى طائرات الهيلوكبتر . متى . أدركته حيرة . بدأ الجبل كله لغزا مستعصيا على الاستطلاع أو الاكتشاف يفاجئه كل لحظة بما هو غير متوقع . هذا الصمت الذى تغرق فيه العربة يحيره . ربما يكمنون بالقرب منها ، ربما تحقق خلوها ، عندئذ يمضى إليها ، يفتشها ، ربما عثر على شىء ، تسلق المرتفع قفزا ، غابت العربة لحظات عن عينيه ، بدت الظلال ثقيلة لها قوام ، تنأى بالعالم عنه . كأنه أفلت من جاذبية الأرض أو سبح فى فراغ ، عندما أطل من بين الصخور ليرصد العربة كاد يضحك . . ما ظنه عربة مدرعة ليس إلا صخرة نحتتها الطبيعة بعناية ، سوت أطرافها حتى لتبدو من بعيد كمجنزرة ، قطعة من الصخر الرمادى المصقول يختلف صخره عن طبيعة المكان . .

سيقول إنها ليست المرة الأولى ، فأثناء تطلعه من خلال منظاره المقرب ، رصد بقعة سوداء ضخمة فى الوادى ، بقعة ثابتة . مستديرة الشكل ، حار فى تحديدها وبعد لحظات أكتشف أنها نقطة سوداء التصقت بزجاج المنظار المستدير ، خفق قلبه . هل بدا بصره يرصد ما هو غير موجود . إن دوارا يباغته على فترات متقطعة . لكنه لا يبالى . يمضغ بعض الحشائش الجبلية الطرية التى تفرز عصيرا غليظ القوام كالصمغ ، تدب فى

عروقه حرارة ، تمتلىء معدته بالعجينة الخضراء الثقيلة ، ربما احتاج وقتا حتى يستعيد قدرتها على هضم الأرغفة ، والخضار المطبوخ ، واللحم ، والحلوى . .

فى هذه الأمسية الآتية التى لا يدرك متى تجىء ، سيسأله سعيد مهران مداعبا :

والنساء . . وماذا عن النساء ؟

لن يدركه خجل ، ! لكنه سيقول إنه لم يفكر فى امرأة معينة بالذات ، ولم يستعد حوارا جرى ذات يوم ، ولم توجعه ذكرى أمسية ناعمة . عندما يتحول كيان الإنسان كله إلى توقع وانتظار ، عندما يعيش الجسد حالة ترقب دائمة ، لا يدرى متى سيصطدم بالعدو؟ لا يدرى إلى أى حد سيقاوم البرد والمطر والجوع ، فلا مجال للرؤىء الناعمة ، سيصمت قليلا . يعرف أنهم يصدقونه ، كلهم قضوا فترات طويلة خلف الخطوط ، الحسين أمضى ثلاثة شهور بصحبة البراق يستطلع ما حوله شرم الشيخ ، سليمان الحلبى قاد دورية قتال هاجمت محطة رادار غربى رأس سدر ، ثم اختفوا شهرا حتى عادوا إلى الوحدة . لكنه سيكون صريحا معهم . سيقول . . « هل تذكرون عندما خرجنا إلى القناطر الخيرية معا ، تذكرون أننى تغيبت عنكم وقتا . . » . فى هذا اليوم أثناء تمدده تحت شجيرة خضراء تلقى حولها ظلا ، رصد فتاة نحيلة ، متوسطة الطول ، شعرها

ناعم كليل أحكم إطفاء كل ذرة ضوء فيه . وجهها محدد الملامح ، متسعة العينين ، جمالها برى ، صريح ، اقتحمه اقتحامـا . لم يدر أين رآهـا ؟ اتشبـه نجمة سينمـائية أجنبيـة رآها فى صبـاه ؟ أتشبه خيـالا حلم به ؟ لا يدرى لكنه وجد نفسه يقوم ، واتته جرأة كلحظة الاقتحام التى تنأى فيها كل الاهتمامـات والأفكار التى لا صلة لهـا باللحـظة ، غير أن مشـاعره ارتجفت وقتئذ عندما تتبعها ، طريقة مشيهـا أعجبته . كـأنها تخطو عـلى أطراف أصابعها ، يدها تعبث بعقد بسيط تدلى حول عنقها الذى بدت مساحة كبيرة منه ، زرار القميص الأعلى تركته مفتوحا بإهمال ، أحست أن هناك من يتبعها ، رمقته بعينين سوداوين كعيون الفجر ، وخيل إليه أن شفتيها المحددتين صرحتا لابتسامة بالظهور ، لم تفارقه لحظة الاقتحام . تحدثت إلى بعض صديقاتها ، وقف يرقبها من بعيد ، استنتج أنها جاءت إلى الحدائق فى رحلة جماعية . التفتت ضاحكة ، غاصت داخله بعنف ، مشت بمفردها بعيدا عن رفيقاتها ، اقتفى خطواتها ، تحت شجيرة قريبة من النيل قعدت فجأة ، استندت بظهرها إلى جذع الشجرة ، واجه الجمال البرى المتألق والحمرة التى تنبع من ملامح الوجه كما ينبع الشفق من السماء البعيدة ، سألها أهى من جامعة القاهرة ؟ قالت بـإيجاز كشفـرة أنها من الاسكندرية ، لا يدرى لماذا خفق قلبه عندما قالت ، الاسكندرية ، ربما لأنه يفكر فى المدينة كهدف للراحة ، كثيرا ما فكر فى الذهاب إليها مـع

زملائه ليلة واحدة . يرى البحر الممتد الآمن ، البحر المختلف عن الخليج المحدود بشاطئين يقعان فى نطاق النظر ، قالت إن اسمها « أروى » ، كأنه يخترق نطاق الدفاعات الأولى ، الجملة تلى الجملة ، وتجىء لحظة قريبة يمشيان فى بريق هادىء ، يمسك يدها ، ترمقه بعينيها الواسعتين ، فجأة قامت كالبغتة ، لوحت بيدها ، توقف ، لم يمض خلفها ، فى اليوم الأول بدا ما حدث عبثا صبيانيا لا يليق به . وفكر أنه أخطأ ، ولن يقص ما حدث لانسان ، لكن فى الأيام التالية فوجىء بطيفها يقتفى أثره . كلما استدعاها إلى ذهنه بدت ملامحها الصافية كسماء صالحة للطيران واضحة ، يخفق قلبه ، يدركه حنين غامض إلى لقاء رهيف . وهمس ناعم . وأشواق متبادلة ، وانتظار حلو ، ولقاء حار ، ملامحها تمثل كل ما تعد به الحياة الآمنة . فى الجبل جاءت إليه من كل اتجاه ، فى لحظة معينة إتكأت على كل الصخور الوعرة ، المجدبة ، القاحلة ؛ زرعتها بابتسامات لا تحصى ، ورقة لا تبين ، وكاد يسمع صوتها يهمس ، أروى ، لو خطا خطوات لـ . . لو امتد الحديث ، تساءل عما تفعله الآن ، ورآها تجلس فى حجرة ، أو تمشى فى طريق ، أو تتأمل البحر . عندما ألحت عليه فى هذا القطاع الجنوبى خيل إليه أنه تجاوز حياته العادية بمراحل ، وأن ما جرى جرى ، وما يفكر فيه حدث فى تاريخ مضى ولا يبعث إليه إلا الأسى . . حاول غض البصر عن ملامحها وكأنه يغلق أذنه عن نداء ناعم يستهدف التفاته إلى

الخلف ، وهلاكه فى الوديان ، فى الليل المثقل بالنجوم بدا القمر رقيقا يشف عما وراءه ، وفوق حافة الجبل ، على شاشة السماء رصد ثلاثة حيوانات قدر أنها ذئاب ، تمشى فى طابور ، أهذا إذن مصدر العواء الذى يخترق أحشاء الجبل ؟ . انتبه إلى همسات النجوم الخفية ، تأكد أن للنجوم لغة ، وعيونا ترقبه من خلالها ، رصد نقطا مضيئة تتحرك فى السماء ، بعضها يظهر كل ليلة فى ميعاد ثابت ، أقمار صناعية ، من ميعاد مرورها يمكنه تقدير الوقت بدون النظر إلى ساعته ، لا يحتاج إلى أى تنبيه ليوقظ ، يكفى أغماض عينيه وقرار منه بأن يصحو بعد نصف ساعة ، لا يتجاوز الوقت الذى حدده لنومه بدقيقة واحدة مهما هاجمه التعب وتزايدت وحدته ، إذا صدر صوت لا ينتمى إلى الجبل يفتح عينيه فورا . لو تغير ايقاع المطر ، لو تحول إلى سيل فورا ، بدا كأن هناك حواسا جديدة اكتسبها خلال هذه الأيام المتعاقبة ، المتوالية فى أصرار لا يوقفه الجيل حولى تجعله ينحنى فجأة وبعد لحظات تهدر طائرة هيلوكبتر ، يدرك اقترابها قبل أن يسمع أى مقدمات لدوران محركها أو مراوحها ، هكذا قرر فجأة الانتقال من المنطقة الجنوبية للجبل إلى القطاع الذى يتواجد فيه العدو .

سيسألونه . هل فوجىء بانسحاب العدو . سيقول إنه فوجىء إلى حد ما ، فبالنسبة لما أبدوه من استعدادات . وما اقاموه من منشآت قدر



فترة طويلة لبقائهم ، سيقول ان طائرات الميج اغارت ثلاث مرات على مواقع العدو قبل انسحابه . وإن صوت اطلاق الفيكرز جسد له شجاعة الطيارين الذين هبطوا حتى كادت بطون الطائرات تحتك بالصخور ، طاردوا افراد العدو ، فى البداية لاحظ انسحابهم من نقاط أنشأوها إلى مواقعهم الرئيسية ، ثم جاءت طائرات الهيلوكبتر ، نقلت بعضهم ، لم تعد بقوة بديلة ، رصد فرح الجنود واحدهم يرقص رافعا يديه . تابعهم بدقة ، ربما اخفوا بعض المعدات ، ربما عمدوا إلى تشوين ذخيرة أو سلاح فى مخابىء سرية احتياطا لعودتهم ، ربما تركوا آلات دقيقة تحصى الحركات ، وتلتقط الصور ، بعد خلو الجبل منهم مشى حذرا ، المدقات ملغومة ، من يدريه ما يحفل به الجبل ؟ عاد يرقب مدينة السويس ، انتظر النداء ليعرف التعليمات التالية ، حتى يجىء قدر إلا يتحرك إلا وثبا كعادته ، ولا يمشى إلا حذرا ، ولا يتطلع إلى السماء إلا متخفيا ، استمر ينأى عن المدقات المعروفة بسهولة المشى فيها ، من يدرى ما يبطنه الجبل ، قبيل الغروب تقدم باتجاه الموقع المعادى ، تجنب وطء المواضع الرخوة ، مشى فوق الصخور الصلدة ، لم يعد فى حاجة إلى لف حذائه بفرو الخروف حتى لا يدع أثرا لقدميه ، لكن الحذر لم يفارقه ، تأمل الموقع الرئيسى الذى يخطو فوقه لأول مرة ، المكان الذى طالما مسحه بعينيه ، دار حوله ، هكذا رأى جنود العدو الأماكن التى كمن فيها ، تحرك خلالها ، أدرك إلى أى حد

كان معرضا لأبصارهم ! ابتسم ، ألم ينجز مهمته ؟ لكن ما للنداء تأخر ؟ فى ضوء الغروب راح يتأمل البقايا ، زجاجات مياه فارغة ملاعق بلاستيك ، علب بيرة مغلقة كتب عليها بالألمانية ، علب مربى ، علب سجق ، هكذا يبدو من الرسم الموضح ، تزايد انحناؤه ، حتى جلس القرفصاء ، دار بعينيه حول علب الطعام المحفوظ ، بقايا معجون أسنان ، هل يمد يده ، يلتقط أحدى العلب ، يتذوق ما لم يقرب فمه منذ أيام طويلة ؟ أى جوع باغته أمام علبة سردين مستطيلة ، أنه يحب السردين لكن أصابعه ظلت محيطة بخصره ، ربما انفجر الهلاك كله ، على مهل قام واقفا ، تلفت حوله ، هل يرقبه أحد ؟ علب ملقاه عمدا ، متناثرة فى المكان كله ، بعضها ليوهم العدو ريح الجبل وزملاءه بالمستوى المرتفع لنوعية طعامه ، بعضها شراك خداعية ، ترددت عيناه كثيرا ، اقدمت نظراته ثم احجمت ، طعام العدو ، تلفت حوله ، عاد يسلك الممر الضيق ، تأمل نزول الليل وفى اللحظات غزاه السكون الموحش ، سينام حذراً ، ولن يستسلم لبرد الجبل ، أضواء متناثرة تنبعث من مدينة السويس ، وكلما تزايد الليل كلما اختفت ملامح البيوت وبدت الأضواء الباهتة وكأنها تسبح فى بحر من العتمة ، فى الصباح ينتابه نشاط ، يمضى إلى كافة القطاعات ، يقفز فوق الصخور ، يتوارى ، سيقول إنه خلال تلك الأيام واجه صعوبة فى المشى بقامته مفرودة ، يبلغ اقصى سرعته إذ

يندفع منحنيا ، تكاد يداه أن تلامسا الأرض الصخرية ، تردد أمام بعض الكهوف العميقة لكن من يدرى بماذا يأتى به الجبل ؟

سيقول إنه عندما رصد الجندى لم يصدق عينيه فى البداية ، فوق أعلى الذرى ، حيث يبدو الوادى إلى اليمين كوعاء ضخم من الصخر والنتوءات ، وإلى الخلف ، بعيدا ، يمتد خليج السويس نائيا تسبح فوقه سفن ، تبدو صغيرة ثابتة ، لا تتحرك ، لكنه لو عاود النظر بعد ساعة سيجدها اختفت ، فى هذه النقطة بالذات رآه ، رصد ملابسه وملامحه وطريقة مشيه ، وظله الذى تحرك على الصخور الرمادية ملاصقا له ، خفق قلبه ، وثب فوق الصخور ، قرر أن يواجهه من الأمام ، ربما لو صاح عليه من بعيد ينبطح الجندى ويصوب سلاحه إليه ، عندما يرى زميلا له يبدو أمامه فجأة سيدركه فرح إذ يلتقى بأحد رفاقه هنا فى هذا الجبل ، سيحاول تخفيف المفاجأة إلى أقصى حد . بعد بريق اللقاء يتعرفان ، سيبلغه ما يود نقله إلى الوادى ، إلى سليمان الحلبى وبقية الأحباب والرجال . سيقدم كل ما يطلبه ، أى معاونة ممكنة . قفز من فوق صخر مدببة حادة إلى المدق مباشرة ، دار حولها ، أصبح فى مواجهته ، لم يفاجأ عندما شهر الجندى مدفعه ، لكنه فوجىء بالملامح ، يعرف الرجل ، لكن الذاكرة لم تسعفه فورا ، ابتسم بود ، بدا انفعاله واضحا . .

أنا ريح الجبل . . .

تراجع الجندى إلى الخلف ، أدرك ربح الجبل أى مفاجأة مزعجة يمثلها بالنسبة لهذا المقاتل الذى يقوم بمهمة ما فى الجبل . رأى نفسه بعينى الجندى ، وقفته على أطراف أصابع قدميه ، انحناءته . لحيته الكثيفة ، عيناه الغائرتان ، كما أنه لم يدر أى لون أصبحت بشرته بعد أكله الحشائش الجبلية طوال هذه المدة كلها . .

لا تؤاخذنى . . امضيت حتى الآن مائة يوم وسبعة أيام . .

هز الجندى رأسه ، ما زال مباغتا .

يمكننى أن أقدم إليك كل مساعدة أقدر عليها . . اننى أعرف الجبل كما أعرف كفى . .

خطا تجاه الجندى ، فوجىء بزعقة . . .

قف مكانك .

فوجىء بالصرخة ، فوجىء بإيقاع الصوت الآدمى فى أذنيه . فوجىء بأنه يعرف الجندى ، قفز الاسم فجأة إلى ذهنه كتمهيد نيرانى . .

أنت صابر . . الباشجاويش . . من استطلاع الدفاع الجوى . .

هز الجندى رأسه . .

لا . . . .

اقترب خطوتين ، لا يهمه اطلاق النيران عليه ، صوته يخرج مضطربا ، أنه مفاجأ بإيقاع الصوت الآدمى ، لا يبالى بجفاء الباشجاويش ، سيزول هذا حتما وبعد لحظات يتبادلان الود ، ويحكى كل منهما عن حكايته تماما كالمجندين الجدد فى تعارفهم الأول إلى بعضهم . يتراجع الباشجاويش بقدر ما يتقدم من خطوات . .

إننى أعرفك . . جئت إلينا فى المركز للتدريب على وسائل الاستطلاع البصرية . .

بدا الجندى مترددا ، توقف عن التراجع ، ها هى اللحظات المنشودة تدنو . لكنه فوجىء مرة أخرى بصياح الرجل . .

ابق مكانك . .

توقف ريح الجبل .

اعرف أن موقفك صحيح ، تصرفك سليم تماما . . لكن يجب أن تسمعنى . . أنا أتكلم لأول مرة منذ مائة يوم وسبعة . . حتى تطمئن . . الم تقض فى المركز أربعة أسابيع .

قال الباشجاويش وهو يتراجع خطوة أخرى . .

صف لى المركز . .

سيقول إنه ولى بنظره بعيدا لمدة لحظات ، ثم بدأ يستعيد كل التفاصيل ، مدخل الباب ، كشك الحراسة ، المزلقان الخشبى ، مكتب قائد سرية الحراسة إلى اليمين ، وصف كل ما يمكن أن يراه المار من أمام المركز ، ثم ذكر اسم الضابط الذى أشرف على تدريب الجاويش ، سكت لحظة ، نظر إليه الباشجاويش ، يغوص بأسنانه فى شفتيه ، هبت رياح باردة ، خفيفة لكنها حادة ، بحركة لا أرادية غاصت عنق ريح الجبل بين كتفيه ، هل يقف أمامه حقيقة رجل يعرفه ، وأين ؟ فى دروب عتاقة ، للحظة خيل إليه أن ما رآه وهم . لكنه تحدث إليه ، يراه . لو مد يده سليمسه . لأول مرة يصغى إلى صوت آدمى لا يأتيه عبر الراديو ، أو يصله مع هبات الرياح همسا من مواقع العدو . .

. . غير صحيح . . أنا لا أعرف ما قلت . . ولا أعرفك . .

سيقول للحسين أنه لم يدر سببا لانكار الباشجاويش بعد كل ما ذكره . ربما أراد الاستزادة بذكر الأدلة . ظن أنه عبر حاجز الحذر إلى الباشجاويش تأكد أنه هو صابر بعينه .

اسم غير صحيح . . ليس اسمى صابر . .

توقف ريح الجبل مكانه ، لا يدرى لماذا شعر بخيبة فجأة ، ربما لادراكه أن الحاجز لن يزول ، مهما فعل فلن يتحدث إليه الباشجاويش ،

ربما يلتزم التعليمات بعدم الكشف عن شخصيته خلال مهمته فوق الجبل ، ربما يخشى شيئا ما ، لكن .. هل يدعه يفلت هكذا ؟ الإنسان الوحيد الذى إلتقى به ..

يجب أن تسمعنى ..

يتراجع الباشجاويش .

لا أعرفك .. ابق مكانك ..

يزعق ريح الجبل .

باشجاويش صابر ..

يصيح الباشجاويش والمسافة تتزايد بينهما ..

ليس اسمى صابر .. قف مكانك ..

يوشك أن يتعثر أثناء ابتعاده ، يزعق ريح الجبل ..

انتبه خلفك صخرة ..

يتوقف الباشجاويش شاكا ، يلتفت بسرعة ، على مهل يستدير ، يختفى عند المنحنى ، يعلو ريح الجبل الصخور ، يتخلل الشقوق ، المدقات الصغيرة ، يشرف على الوادى كله ، والخليج ، يلمح

الباشجاويش ، مبتعدا هناك ، أدركه دوار ، وغصة زحمت حلقة ، هل يدعه يمضى هكذا . .

أنا ريح الجبل . . قل لهم انى هنا . . انتظر النداء . .

التفت الباشجاويش إلى أعلى . . بدأ كأنه قال شيئا . .

ماذا تقول ؟؟

لم يجبه ، استمر مبتعدا ، سيقول لسليمان الحلبى أن هذا اوجعه ، ما آلمه أكثر انه فتح الراديو فى الميعاد ، تحدث مذيع ، تحدثت مذيعة . .

أصدقائى . . صديقاتى . .

يؤكد صوت ناعم أن ساعات كولمانت العصرية أدق آلات ضبط الوقت . .

يسجل ضيف أحد البرامج ، يقول . . انها لبادرة طيبة . .

فى محطة أخرى ينصح صوت غليظ المواطنين باليقظة والتزام الحذر . .

دار بعينيه فى الوادى ، اختفى الباشجاويش ، عند العصر والسكون الموحش يهدده بغزوة ، رآهم عند خط السماء ، حيث تلتقى شواهد الصخور المطلة على الوادى بالفراغ اللانهائى ، قفز فوق صخور حادة

يصعب المشى فوقها ، تأكد أنه رآهم ، أربعة جنود وضابط . مروا أمام صخرة معلقة ، خيل إليه أن الباشجاويش بينهم ، يبحثون عنه ، قرر اختراق أقصر المدقات اليهم ، علت به الصخور ثم انخفضت ، عندما نظر إلى نفس الموضع لم يرهم ، جاءوا اليه ، أنهم على بعد خطوات منه ، سيبادلونه الحديث حتى لا ينسى الكلام ، ربما رأى فيهم أدهم الشرقاوى ، الفتى مهران ، البراق ، لكن أين مضوا ، الى أين ، الليل المقبل الذى لن تطلع شمسه أبدا ، تلفت حوله ، حتما سيجيئون ، سيتقدم منه سليمان الحلبى ، ضابطهم الشاب ، سيقول . .

« أدوا التحية لمن قضى فوق الجبل مائة يوم وازدادوا سبعة . . » .

سيقدمون اليه ماكينة حلاقة . ومعطفا ، وصابونا ، لكنه سيابى ، لابد أن يواجه كل زملائه ، سيرى انطباعهم الأول ، سيجهد نفسه ألا يبكى ، إذا لم يعرفوه ، سيبقى فى أنتظارهم ، ربما جاءوا إليه الآن ، لا يدرى متى سيجيئون ؟ ولا بأى أرض يموت ؟

« أدو التحية لمن قضى فوق الجبل مائة عام وازدادوا سبعة . . » .

فى الليل سيحاول تفسير لغة النجوم . ربما تضمنت همهساتها نداءً خفيا ، أنه يتلفت حوله ، السكون الموحش قادم ، حثيث الخطى ، يقوم ، يحبو على أربع فوق صخرة مدببة ، يقف عند أعلى نقطة فوق

الجبل ، يحيط فمه بيديه . يزعق من فص الحنجرة مناديا :

« يا حسين . .

يا سليمان يا حلبى . .

يا أدهم . .

يا براق . .

يا سيف بن ذى يزن .

يا صاعقة .

يا . . كل الأحباب . .

أنا ريح الجبل . .

أنا ريح الجبل . . هل تسمعنى ؟؟

يونيو ١٩٧٦

الرفاعى



العدّ التنازلى

« اليوم الثالث عشر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة ١٥٣٠ .. »

يمضى الطريق الى مركز السماء ، فى المقعد ذاته يجلس الرفاعى عاقدا يديه أمام صدره ، يتابع فراغ الصحراء وتنوع صفرة الرمال وبروز الصخور ، يصغى الى صوت المحرك الرتيب الذى استقر منذ فترة على ايقاع لا يتغير ، يزداد ابتعادا عن البيوت والزحام والضجيج ، آخر من رآهم قبل التوغل فى الصحراء مجموعة من الفلاحين أمام دكان بقالة صغير يقع عند نهاية آخر قرى مركز الصف المطلة على الصحراء .

قبل اقترابهم من القرية هدأ عبد المؤمن من سرعته . يعرف ما سيقوله الرفاعى لو اخترق الشارع الرئيسى بنفس الاندفاع ، أثناء ركوبهم الجيب التى تحمل أرقاما عسكرية يقف عند كافة نقاط الشرطة العسكرية . فى المرة الأولى أثناء عودتهم الليلية من صحراء دهشور بدا متعبا ، عند آخر نطاق الفرقة لم يهدىء عبد المؤمن من سرعته . ان العربة ذات اربعة أبواب ولا يركبها الا القادة ، اعتدل يومها قال فى صوت فاتر ، هادىء « قف » ، تقدم جندى الشرطة ، قدم اليه بطاقته « تمام يا أفندم » ، أصغى عبد المؤمن الى صوت احتكاك الحذاء بالارض الصلبة المغطاة بذرات الرمال عند أداء الجندى للتحية ، انطلق عبر الطريق الذى يدور حوله هضبة الاهرام ، ود لو ينهى الرفاعى ذلك الصمت ، استعاد بعض أحاديثه مع الجنود أثناء انتظاره فى الخلاء المعبأ بالنجوم وضباب بعيد فى أعماق الكون ، بحذر بدأ القيادة عند ما دخل فى شارع الهرم ، فى تلك الساعات المتأخرة يمتلىء الطريق بالسكارى والحوادث وأعمدة النور المنهارة والأضواء الملونة والعربات التى تحمل أرقام الجمارك وهياكل المبانى الخرسانية ، رائحة المزارع التى تتخلل البيوت . لا يدرى عند أى نقطة من الطريق فاجأه الصوت المفاجىء ذو المستوى الواحد ، « لابد أن تقف عندما يصبح الوقوف واجبا » بوغت وقال « تمام يا أفندم » ، عاد الصمت ، فى ميدان الدقى جاءه نفس الصوت « لو أنه لم يوقفك لطلبت مجازاته » ، أومأ برأسه

والصوت الهادىء يرسل فيه احساسا بالذنب وخشية لم يعهدها من قبل مع جميع من عمل معهم .

إن الرفاعى الآن يتذكر هؤلاء الفلاحين ، عند خروجه من المدينة يستعيد آخر من رآهم يسعون عبر الطرقات أو يخطون فوق الارصفة ، الملامح المرهقة ، الاستسلام الغريب ، الضحكة الضائعة ، والنظرة الولهى من عينى مجهول ، وشظايا عبارات متطايرة ، بيوت مسكونة بالاسرار والماضى ، دائما يخرج من المدينة عبر ثلاث نقاط ، طريق السويس المزدحم بالثكنات حتى الكيلو ٤,٥ أوشكت حركة العمران ان تصل الى هناك ، ثم طريق الاسماعيلية المحاذى لمطار القاهرة ، ثم هذا الطريق المؤدى الى بطن الصحراء الشرقية ، ان آخر الأشياء والمرئيات تمر به عند الخروج الى القتال ، آخر من تحدث اليه ، ملامح نادية ، آخر عبارات تبادلها مع الضباط والجنود الذين لم يخرجوا معه ، يذكر الآن آخر اشتباك فى صيف عام ١٩٧٠ ، تمتد الصحراء الآن صامته ، بحر تجمد منذ عصور سحيقة ، لكن هذه المسافات الشاسعة حبلى بحركة خفية ، اليوم يختلف الأمر عن خروجهم فى المرات السابقة ، انهم الآن جزء من كل ، لا يلتفت الى من معه لكنه يدرك الانطباعات ، حدة العقيد علاء التى توحى بأنه سيشترك فورا ، جلوسه بميل الى الامام ، وضع الملاكم قبل تسديد الضربة ، أبو الفضل الصعيدى وملامحه التى تعكس احساسا

بالانتظار ، مصطفى المتأهب دائما لتلقى الامر ، أبو الحسن وشبح ابتسامة دائمة قد تظهر فى أى لحظة ، ان الرفاعى يرى تلك الروابط الخفية ، تشد كلا منهم الى الآخر ، قبل العبور لملاقاة الحرب يصبح كل منهم أكثر احساسا بالآخر . أى كلمة تقال تلقى موضعا وثيراً فى آذانهم . أى لمحة ساخرة تفجر الضحك من أعماقهم . اثناء الانطلاق تتعانق أذرع غير ممتدة . وتتماس خطوط البصر المستقيمة ، بعد قليل سيواجه كل منهم الموت ، والموت يحوم فوق الجماعة ثم ينقض فوق الانسان الفرد ، الشظية لا يوقفها إلا جسم واحد ، يصبح الإنسان شديد الوحدة فى مواجهة الموت ، ان تجاورهم ، ومد جسور العواطف واستعادة الذكريات ، كل ذلك يحصنهم ضد اللحظة المؤجلة .

يتساءل المساعد حسن . .

ـ لماذا قال البيان إنهم بدأوا بالعدوان ؟

يجيب العقيد علاء . .

إنها اعتبارات دولية . .

يقول المساعد حسن . .

أتمنى لو قلنا إننا بدأنا الهجوم . .

يضم العقيد علاء أصابع يده ، يهزها من أعلى إلى أسفل ، يضيق الرفاعى عينيه بعد اصغائه الى هذا الحوار القصير ، ينظر الى تل رملى مرتفع عند خط السماء ، يدور ايريال ضخم لمحطة رادار ، يلتوى الطريق بحدة ، يتبع الاسفلت منحنيات الصحراء ، يهدىء عبد المؤمن ، ينظرون الى سيارات النقل الضخمة ، صناديق الذخيرة الرمادية ، فذائف هاون عيار ١٦٠ مللى ، كان الطيران الاسرائيلى يجىء الى مواقع هذه المدافع بمجرد حفر خنادق الجنود حتى قيل ان الطائرات بها جهاز خاص لشم رائحة الهاون ١٦٠ مللى ، وجهاز آخر لشم رائحة العمال الصعايدة بناة مواقع الصواريخ ، لا يذكر من قال « ربما كان ذلك تطبيقا عمليا لما يسمى بالاستشعار عن بعد » كانت الطائرات تجيىء من الاعالى كأنها أقلعت من مطارات خفية فى أعماق الفضاء ، يبرق معدنها المواجه للشمس كنصل الموسى ، تنزلق ، يختلط الاسمنت بالدماء وبقايا الطعام والملابس التى تثير الشفقة بعد انتهاء الغارة ، خرج ضابط من موقع مدمر ، ضرب بالألف رطل ، صرخ .. لماذا .. لماذا .. ؟؟ عيناه داميتان مشدودتان إلى السماء التى بدت بعيدة ، نائية ، لا تجيب ، نزل الرفاعى من السيارة ، لم يكن يصحبه إلا مصطفى ، خاضا فى الحطام ، وبقايا طعام ، وفردة حذاء قديم ، وعلب طعم محفوظة فارغة ، وأوراق محترقة ، وبقايا تليفون ميدانى ، صاح صوت من بعيد ، احذروا .. قنابل زمنية » ، زعق

الرفاعى ، « تعالوا . . إنها قنابل كاذبة » هز كتفى الضابط ، لم يتوقف عن التساؤ ل ، « لماذا . . لماذا » جاء جندى قصير القامة حذرا ، اقترب عامل صعيدى ، ظهر ثلاثة جنود خمن أنهم من الصاعقة ، انحنوا حتى تمكنوا من زحزحة كتلة الاسمنت ، حادت عينا مصطفى عن النصف الأدمى المقطوع الصلة بنصفه الأسفل .

كأن ما جرى يمت الى بشر آخرين ، لكم تبدو تلك الايام نائية ، كانت الجبهة وقتئذ عارية ، يجيء الطيران فى مواعيد لا تتغير امعانا فى التحدى ، يختار الطيارون أهدافهم . يضربون عربة ويتركون الأخرى ، يقصفون موقعا ويتركون الآخر ، بينما تبدو انفجارات قذائف المدفعية المضادة للطائرات كبقايا قطن رخوة فى الفراغ .

الآن انتهى عرى الجبهة ، نبتت الصواريخ من كل الانواع ، مصوبة الى كل الاتجاهات ، قال ذلك اللواء ضاحكا منذ ثلاث سنوات « فى المساء لم يرصد العدو أى شىء وفى الصباح ركبهم الذعر والغضب ، لقد طرحت الارض كافة أنواع الصواريخ » ، يمضى طابور النقل ، يحاذى الميكروباس منتصف القول ، يزيد عبد المؤمن السرعة حتى يتجاوزه . فوق الصناديق بطاطين ومعاطف ، يجلس عدد من الجنود ، يحملون اسلحة أوتوماتيكية ، احدهم يأكل ، يشيرون الى راكبى الميكروباس الأبيض ذى الأرقام

المدنية ، ينحنى عبد المؤمن قليلا فوق عجلة القيادة ليوسع من دائرة ابصاره ، كلا الجانبين لا يدرى الى اين يتجه الآخر ؟، لكن التحرك فوق هذا الطريق ، فى مثل هذا التوقيت ، يعنى ان كلا منهم يتجه الى المعركة التى بدأت فى الثانية ، لم تسمع قذائف بعد ، لكن تبدو الحركة كالدماء التى تهرع فى الشرايين لتغذى قلبا ينزف ، فى المقدمة عربة نقل تجر مدفع هاوتزر مكشوف الفوهة ، عربة أخرى تجر مدفعا مضادا للطائرات ، يرتدى طاقمه الخوذات ، يحتل موقعه فوق المقاعد الصغيرة المثبتة الى القاعدة الدائرية ، تنأى صيحات الجنود ، ينحنى الطريق ثم يستقيم ، تبتعد الملامح والخوذات وتحية المتوجهين الى القتال ، يوشك الرفاعى أن يبدى ابتسامة ، منذ فترة بعيدة لم يخرج مع الرجال إلى الضفة الأخرى .

يدرك الآن اثناء الصمت الآدمى الذى يغطى على ازيز المحرك ان الكل يسبح فى شعور الرفقة ، يهدىء عبد المؤمن من سرعة السيارة ، يقترب من مدق جانبى ، ترتفع مقدمة الميكروباس ، يتغير ايقاع العجلات ، فى المرآة يلمح أبو الفضل منحنيا ، أبو الفضل لا يستعيد الآن ذكريات لقاء أخير مع أسرة ، لا أصوات اطفال تتردد فى ذاكرته ، أو رائحة خبيز بيتى تنتظره فى أجازة قادمة ، انه يصحب الآن كل ماضيه ولا يدع وراءه أى مخلفات للذكريات أو الحنين ، يحمل حياته كلها على كتفيه ويجىء بها ، يلتفت اليه الرفاعى مناوشا . .

« اليوم للصعايدة » . .

تطلعوا إلى ابو الفضل ، وسرى بينهم عبير أخوة غامض . . الصعيد كله يعيش فى انتظار هذا اليوم ، بعد الهزيمة قامت النيران كبئر بترول بلا قرار

يضحك أبو الحسن

أنه لا يفكر الا فى آبار البترول . .

تغرب التقطية على جبين أبو الفضل ، يبدو الآن هادئا كنداء خافت فى ليل متقدم . . يقول العقيد علاء . .

أبو الفضل لا يرى فى مصر الا صعايدة ، الناس فى رأيه اما صعايدة أو أجانب . .

يتدخل عبد المؤمن . .

طبعا يا أفندم . . الصعايدة اجدع ناس . .

يتساءل أبو الحسن . .

الا يوجد مكان للاسكندرانية ؟

يقول العقيد علاء . .

سيادة العميد وزع صباه وشبابه على كل البلاد .

يهز الرفاعى رأسه مبتسما . .

كنت أعد نفسى لقيادة المجموعة . .

منذ الآن لن يستقر الصمت ، تسرى حميمية ، صوت مصطفى هادىء سريع .

لكن سيادة العميد الرفاعى من مواليد بلقاس . .

يقول العقيد علاء . .

هذا صحيح . . ولكن كل بلد أخذ منه مقدارا . .

يقول ابو الفضل . .

مجموع ما قضاه فى الصعيد يفوق ذلك بكثير . .

يضحك أبو الحسن . .

لكن أى المناطق تعتبر صعيدا . . اذا ذهبت الى اسيوط وقلت لهم انا من بنى سويف . . قالوا لك انت من بحرى . . نفس الامر اذا ذهب الاسيوطى الى سوهاج والسوهاجى الى قنا . .

يبتسم أبو الفضل . .

الصعيد الحقيقى يبدأ من سوهاج . .

لا يدع أبو الفضل فرصة إلا ويتحدث عن الصعيد الذى عرب عنه طفلا . من يسمعه يتحدث عن قريته ، يصف طرقاتها ومنحنياتها وقعدة العصارى فى الرحبة ولون البلح عندما ينضج فوق النخيل ثم تساقط الثمرات فوق الأرض ورائحة الخبز فى الظهيرة وسوة الاثنين والمندرة

ومخزن الغلال وأحاديث الرجال الليلية ، من يسمعه يخيل إليه أنه عاد بالامس من أجازة هنية قضاها يتمتع بحنان الام ويصغى الى دعوات الاخت ويلتحف بليل اسرى دافىء قبل عودته إلى الوحدة ، لا يؤلم الرفاعى الا رؤ ية ابو الفضل وحيدا عند نزول زملاءه الى المدن والقرى فى أجازاتهم ، دائما ينحاز اليه فى أى وقت نقاش دائر ، مرات عديدة حذر العقيد علاء من توجيه أى عبارة اليه قد تخدش احاسيسه ، تمضى السيارة مهتزة أو مستقرة ، الى الخلف زوبعة أثارتها العجلات ، تجىء عربة جيب من الاتجاه المقابل ، ويضغط عبد المؤمن الكلاكس ثلاث مرات ، يجيبه كلاكس الجيب .

« أهذه شفرة »

يرد أبو الحسن بسرعة . .

« لا ياأفندم . . هذه عزومة مراكبيه »

على الطرقات المتباعدة يحيى السائقون بعضهم ولا يرى الواحد منهم الآخر . تقاليد مجهولة المصدر ، تبدو عربة استطلاع ، يطل من الفتحة الرئيسية ضابط ، لم يستطع التحقق ن الرتبة ، يرتدى خوذة ، لا يوجد مقاتل فى المجموعة يرتدى خوذة ، هل نذهب إلى العدو مختمين بالخوذات ؟ الخوذة ثقل اضافى ، قال عصام يوما ان فائدتها الوحيدة منع

العقل من التفكير ضحك الرفاعى ، تبدو من بعيد الانشاءات السريعة القليلة لهذا المطار الذى أنشىء بسرعة فى أواخر الستينيات ، صناديق خشبية ملقاة فى العراء ، لفات من الاسلاك الشائكة ، أكياس بلاستيك فارغة ، خطأ يجب التنبيه اليه ، لو الصناديق فارغة ستسهم فى تأجيج حريق قد ينشب مع أى قصف ، ولو بها معدات فتلك خسارة ما بعدها خسارة ، يقترب مطار الاقلاع ، يمكنه تمييز الدشم الخرسانية ، لم يعرف بعد ، هل سيجد الطيارين الذين اعتاد الخروج معهم ، هل سيجد النقيب سيد أو سيد بلاعيم كما يسميه رجال المجموعة لتعدد مرات طيرانه فوق حقول البترول ببلاعيم ، كذلك الرائد نبيل ، هؤلاء الذين اخترقوا به تحصينات الليالى السود ، وثغرات دفاع العدو الجوى ، قبل مغادرتهم حضر المجموعة فى الضواحى ، اجتمع بالرجال ، فى البداية استعاد ايام ما قبل وقف اطلاق النار ، قال ان اليوم يومهم ، والسنوات التى انقضت ما هى الا مقدمة لهذا اليوم ، قال ان الشغل الحقيقى سيبدأ من اليوم ، قال لابد من الحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو ، سيمضون اليه فى المواقع التى يعرفونها جيدا ، وتلك التى يجهلونها ، وأن يستعدوا لتلبية أى واجب قتالى يطلب منهم ، قال ان الوضع يختلف اليوم ، انهم لا يعبرون الى الشرق بمفردهم انما هم الآن جزء من كل ، قال ان خطة الهجوم على بلاعيم مصدق عليها من القيادة ، يجب تحويل كل شبر الى جهنم . أشار

الى نموذج مجسم من الجبس ، تطلع الرجال وكأنهم ينظرون من خلال منظار يصغر الاشياء مياه الخليج ، الصهاريج الضخمة المحاطة بسواتر دائرية من الطوب الأحمر ، مواقع المدفعية المضادة ، محاور الطرقات الرئيسية ، مبانى الادارة ، ميس الطعام ، مواقع الحراسة القريبة من الخليج ، أشار الى النقاط المحتمل أن يدفع العدو اليها بكمائن ليلية . قال ان الهدف هو الصواريخ وكل عدو يتحرك هنا أو هناك ، كل عدو حى ، سيتم الهجوم بطريقة من طريقتين ، قال انه يود لو سمع أى ملاحظات ، طافت نظراته تستحث ، تشجع ، أمامهم سبع عشرة دقيقة للتحرك ، من غير المسموح به اطلاقا مناقشة أى تفاصيل بعد مغادرة هذه القاعدة ، ممنوع بشكل مطلق أى استفسار هامس أو جانبى ، كل التعليقات حتى المرحة يجب أن تقال هنا ، تساءل أبو الفضل عن المدى الذى يمكن أن تهبط اليه الطائرات فى حالة تنفيذ الخطة الاولى ؟ قال الرفاعى انه اقل ارتفاع ممكن ، جالت عيناه مرة اخرى فى الملامح ، بعد لحظات من الصمت تناول لفافة صور ، فردها على امتداد جسده ، بدأ أصبعه يقوم بالاشارة ، هذه الصور التقطت بواسطة الاستطلاع الجوى منذ اثنين وسبعين ساعة ، قال ان كل ما استجد منذ اعداد الماكيت نقطة استطلاع جوى وموقعها هنا ، تقدم كل منهم الى الصور ، تفحصوا الخطوط والظلال ، فى الدقائق القليلة المتبقية اتم جولته السريعة المعتادة والتى يسمونها « اللمسات النهائية » .

يتوقف الميكروباس بالقرب من مبنى منخفض ، للحرب هنا ملامح وتجاعيد ، يقفز الرفاعي ، رصد نظرة حادة في عيني العقيد علاء ، القتال عند علاء يعني الالتحام ، والمباغتة ثم أطفاء البريق في العيون . كل منهم ادخر كثيرا من الصرخات داخله طوال الاعوام الثلاثة الماضية ، قال الرفاعي لعلاء بعد العودة من لسان التمساح أود ان تصغى إلى نفسك يوما ، من يرك أثناء الاشتباك لا يتخيل انك طبيب وطبيب اعصاب بالذات ، قال علاء ان الطبيب يداوى الجراح المحدودة اما نحن فنعالج جراح التاريخ ، اثناء القتال يشتبك بالواقع والمصير واللحظة ويسدد الطعنة قبل ان تناله الطعنة المقابلة ، يتلاشى تماما ، يتعايش فيه الوعي واللا وعى ، الرفاعي يرصد كل التفاصيل ، لا يفلت منه أى جزء من الموقف ، لا الملامح ولا نهاية مسارات الشظايا ، لا يفقد الرؤ ية في سحابات الدخان غليظة القوام ، في اللحظة يتنبه للخطر المباغت الذى يطل فجأة من قلب الدوامات واختلاط الرواح بالمجىء ، عندما يتبادل الجنوب والشمال مواضعها وتصبح الدائرة خطا مستقيما والواحد يغدو اثنين ، قال علاء ان القتال الحقيقي هو : الالتحام بالسلاح الأبيض ، ليس القصف بالطيران أو المعارك التصادمية بالدبابات .

هيا يا وحوش . .

يتنتحى بالعقيد علاء جانبا ، يتساءل علاء . .

ـ يعنى هل تعذر توفير الجهد المطلوب ؟

ينظر اليه الرفاعى معاتبا . .

ـ لا داعى للحدة . . هذه الحدة ستحتاج اليها بعد قليل . .

صمت لحظة . .

لا تنس أن الحرب مشتعلة على طول الجبهة . . نحن لا نعمل بمفردنا . .

يبدو أن العقيد علاء لم يقتنع ، لا يريد ان يسب ويلعن فى هذا اليوم كعادته عندما يواجه أمرا لا يعجبه ، يتقدم الرفاعى باتجاه ثلاث طائرات هيلوكبتر ، أزيح عن كل منها غطاء التمويه ، يصافح الطيارين ، يتحدث اليهم ، يرتدى قفازه الجلدى الخفيف .

ليتأكد كل منكم من ضبط زوايا المدافع . .

تحين اللحظة التى سيفترقون فيها ، يثب العقيد علاء إلى الطائرة رقم ٢ ، فى أثره المساعد أبو الحسن . . قبل ان يختفى أبو الفضل فى جوف الطائرة ينظر الى الرفاعى ، ما يمكن قوله كثير لكن الالفاظ شحيحه ، الرفاعى مطمئن الآن كأنهم لم ينقطعوا عن الخروج معا طوال الاعوام الثلاثة الماضية ، يشير الى الجاويش مصطفى . .

ـ هيا يا وحش . .

يحتوى بعينيه المطار والمنشآت والرجال ، ونور أحمر يلمع فى مؤخرة طائرة تقف بعيدا عن دشمتها الخرسانية ، وهيكل خشبى لطائرة قتال ، وإيريال رادار يدور فوق مرتفع ، وثلاثة رجال يحملون صندوقا يحوى شيئا ما ، وجندى يقف وحيدا ، تذكر طفلا يطل من شرفة بيت من طابقين ، ورجلا يختفى عند منحنى طريق ضيق مفروش بالظلال ، بالقرب من مبنى ادارة المطار يقف عبد المؤمن ، يعرف انه لن يظل وحيدا ، سيتعرف الى الآخرين بسرعة ، سيبادلهم الحديث ثم يحكى له ما جرى ، يغلق الباب الخلفى للطائرة ، يسرى تيار نحيل من الحركة ، كم مرة طارت ؟ كم مرة ستطير ؟ الى أى الجهات وصلت ؟ يشد على كتف مصطفى ، يتجه الى كابينة الطيار ، يجلس فى مقعد المساعد ، يضع السماعتين فوق اذنيه ، سيقوم بمهمة الملاح ، انه يحفظ ملامح الطريق والمعالم الارضية ، خاصة بعد عبور الخليج والطيران فوق سيناء ، ليست المرة الاولى التى يتجه فيها الى بلاعيم .

يهتز الجسم المعدنى فى ثباته ، فوق الارض يبدأ ظل المروحة الرئيسية فى الدوران ، يضغط الطيار ازرارا عديدة فى اللوحة المزدحمة بالمؤشرات والعدادات بنظرة جانبية يرمق وجه الطيار الذى يخرج معه لاول مرة ، ملامحه ثابتة كأنه على وشك الشروع فى ابتسامة ، يذكر الجرجاوى ، الجندى الذى لا يعبس أبدا ، كلما نظر اليه يراه مبتسما ، يبدو راضيا عن

الدنيا ، يشعر بابتسامة اثناء الخطو الحذر فوق الارض هناك ، يجذب الطيار العصا القصيرة ، تميل مقدمة الطائرة ، انها معلقة الآن ، تنتظم الحركة ، تتسع المسافة بين الارض والطائرة ، يتضاءل حجم المنشآت ، يلمح رجلا يلوح بيده ، يرفع يده بتلقائية على الرغم من ان الآخر لن يلمح ردة ، تدور الطائرة ثم تستقر باتجاه الشرق ، الشمس خلفهم الآن ، ما تزال النجوم بعيدة عن السماء ، بعد ربع ساعة سيجتمع الناس حول موائد الافطار ، كل ما يقومون به الآن وما سيمرون به سيصبح بيانا عسكريا ، اذ يقرأ عن المعارك التى خاضها الآخرون لا تخدعه اختزال السطور لما جرى ، يجسد ألم الجراح ولحظة الاشتباك والصيحات الليلية والرعب الانسانى ، مروق الطلقة بين الجندى والجندى والألم الخاطف المركز السريع الذى ينتهى فجأة ثم تنفذ الشظية إلى ما وراء الاذن ، الحرب هى ان تنجح فى ادخال هذه الشظية الى جسم العدو ، سواء صدرت الشظية عن طلقة مسدس أو قنبلة مدفع أو دانة دبابة أو صاروخ معقد ، الطرق تتعدد ولا تحصى لكن الموت فى النهاية واحد ، لا يوجد من يصحب معه قدرا من الدنيا اكثر من الآخر ، فى لحظة معينة من هذا الليل سيرسل عشرات الشظايا ، لابد ان يوجعهم ، ان يسدد الضربات الصحيحة ، ان يحدث آثارا لا يمحوها الزمن بسهولة ، لو رحل الى الأبد سيبقى بين الاحياء بقدر ما يحدثه من أثر فى العدو ، كل شيء مدرك بالزمن ،

والملموس يخسر السباق معه دائما ، تلك اللحظة الآن أصبحت الآن ماضيا ، المكان الذى تشغله الطائرة يتغير ، والفراغ ليس بواحد ، المهم تسديد الضربة ، كل شىء يفلت ويمرق ، لكن يجب الا يمر بالعالم صامتا ، كثيرا ما قال للعقيد علاء وللشهيد عصام أن القتال كأى شىء تتعهده وترعاه ، كلما بذلت معه جهدا جنيت منه أكثر ، لم يتجه الى العدو يوما ليسدد ضربة خفيفة ، محدودة الأثر ، انما يوحد كل ما للرجال من قدرات ، ليفجر كل ما يستحوذون عليه من طاقات ، يود لو يشمل الانفجار عناصر الطبيعة نفسها ، يفجر القوانين التى تحفظ ثبات الارض تحت العدو ، وسيولة البحر ، والهواء الصالح للتنفس ، يود لو خرج من اسر جلده وجاء بالنيازك الضالة فى الفضاء وخلق الوسيلة لتوجيه الشهب الحارقة وسددها الى قلب العدو ، يضنيه التفكير فى اختيار الهدف ، ثم تضنيه الرغبة فى تفجير كل ما يتعلق به من موجودات ، يتجه الآن الى العدو بعد توقف قسرى دام ثلاث سنوات ، ضاق بالحركة اليومية الرتيبة ، اضنته آلام القرحة ، الليلة سيزرع لسانا من اللهب يصهر سواد السماء والنجوم ويحجب الكواكب البعيدة ، نيران تفح حرارتها فتعم وتشمل وتقول بالحرق واللسع ان فى هذه البلدة رجالا ، كل ما مضى من سنين وشهور ولحظات معاناة مقدمات لما هم مقبلون عليه .

تعبر الطائرة سلسلة جبال الجلالة ، سيمكن رؤية مياه الخليج بالنظر بعد ثوان . .

لنهبط الى ارتفاع عشرة أمتار . .

إن اصواتا عديدة تتداخل فى السماعات ، المطار ، الطائرات فى السماء ، القواعد ، الصواريخ ، أصوات مجهولة واشارات غامضة ، طنين كونى ، ستطير الهليوكبتر بمحاذاة الخليج حتى رؤية الاشارة الضوئية ، يتابع الطيار عداد الارتفاع . .

إن الطيار يرمق الرفاعى بسرعة ، فى اللحظات الأولى رأى ضابطا هادىء الملامح يقف ملامسا خصرة براحتى يديه ، هل هذا هو الرفاعى ، كثيرون من طيارى الهليوكبتر اعتبروا الطيران معه عملا يميزهم عن الآخرين ، عندما ابلغوه قالوا له ان الطلعة اليوم رفاعية ، ضحك ، قال هذه بداية جيدة للحرب ، يسأل نفسه متى الم الرجل بهذه التضاريس ؟ كثير منها سكان الصحراء انفسهم الذين يعرفون طوال حياتهم دربا أو دربين ، أنه يعرف اتجاهه ، لا يدرى متى تسرب اليه هذا الاحساس بالثقة ؟ هل بدأ لحظة دخول الكابينة ؟ لحظة تأمله لملامحه الهادئة ؟ أصابعه الطويلة النحيلة المغطاة بالقفار والحذاء الأسود ذى الرقبة الذى يغطى ساقيه ويلملم بنطلونه ، حوله تلتف خيوط النايلون التى يستخدمها رجال

المظلات ، فى صوته ثقة وفى ملامحه ود ، وعندما يجلس يسرى هذا الشعور الرجولى الذى يعم المقاتلين وهم على وشك القيام بعمل قتالى ، هذا التضامن ، والمرح المستور الذى يخفف وطأة ما هو منتظر ، هل شعر بالثقة بعد تلقيه أوامر الرفاعى الواثقة التى تعكس معرفة صاحبها بالطريق . . انه يتابع الأرض ، الصمت اللاسلكى تام الآن بين الطائرات الثلاث .

نقطة ضوء فى بحر العتمة . .

يلتفت الى الطيار ، الملامح تبدو على ضوء العدادات الصغيرة فى لوحة القيادة ، يشير بيده الى الأمام ، آخر نقطة أرضية ترمقهم منها عيون الأصحاب والأقارب ، انه يرى الطائرة بعيون الواقفين هناك ، يضيئون لارشادها الى الطريق الصحيح ، من المؤكد أنهم قفزوا وصاحوا للرجال الماضين الى قتال العدو على الرغم من ثقتهم بأن من فى الطائرة لن يسمعوهم، فى صيف عام ١٩٦٩ مرقت ثلاث طائرات ميج ١٧ فوق مواقع مدفعية الهاون القريبة من مياه القناة ، رؤية طيراننا فى حد ذاتها وقتئذ تثير الحماس والأمل ، صفق الجنود وصاحوا مهللين ، ورمق ضابط الموقع الشاب الذى مد ذراعه محييا ، بعد ثوان جاء صوت القصف المكتوم البعيد ، لحظات ثم تتابعت الأصداء المعدنية لانفجارات المدفعية المضادة للعدو ، أظلم وجه الجنود ، بدا الضابط الشاب مكتئبا ، فجأة مرقت طائرتان على ارتفاع

منخفض جدا ، اتسعت العيون ، سادت خنادق المواصلات وحشة ، أين الثالثة ؟ سؤال ردده الصمت ولم يجرؤ أحد على نطقه ، أدار الضابط التليفون الميدانى ، سأل المواقع القريبة ، غير أن أحدا لم يرصد الميج ١٧ أثناء عودتها ، بعد أربع دقائق صرخ أحد الجنود أطلت الرؤوس تتابع الطائرة الجريحة التى راحت تتقدم باتجاه الغرب تجر وراءها ذيلا من الدخان ، ارتفعت الصيحات ، وكأن الطيار أحس بما يجرى فهز جناحى الطائرة محييا .

إنه يشعر الآن بابتعاده عن الأرض الصلبة ، اللون الآن أكثر قتامة ، سيخف تدريجيا كلما اقتربوا من البحر ، يستعيد أدق التفاصيل ، لم ينس شيئا ، يلمس ذراع الطيار الأيمن المواجه له ، يشير الى اليسار ، هل يختلف احساس الانسان عندما يطير فوق الماء ؟ الآن ايقاع الزمن أدق ، يشير إلى اسفل ، تهبط الطائرة مترين ، سيلتقون بسيناء وهم على ارتفاع ثمانية أمتار ، يصغى الى صوت الطائرة ، الى الليل ، ينظر الى عقارب الساعة الفوسفورية ، يتوغلون داخل سيناء ، خمس دقائق ، يشير الى الطيار ، تعود أضواء الطائرات الخارجية ، تستدير المقدمات ، يهم بالقيام ، يشير بيده ، يضيىء الطيار الكشاف الرئيسى ، يغادر الكابينة ، مصطفى يفتح الباب ، يتمنطق بحزام القنابل ، يتناول المدفع الذى تسميه المجموعة بالرفاعى ، أمريكى الصنع عيار ٥٧ مللى ، حصل عليه من داخل احدى

الدشم بلسان التمساح ، الباب الجانبى مفتوح ، تبـدو الطائـرات الآن وكأنها قادمة من داخل الأراضى المحتلة ، اذا لم يكتشفهم العدو فسينزلون فى المطار الصغير الممهد لاستقبال الهليـوكبتر ، عنـدئذ يبـدأ الفتك بمن يواجهونه منذ لحظة خروجهم ثم يشقون طريقهم الى أقرب المستودعات وتفجير الصهاريج ، حتى الآن لا تلتقط أذناه أى أصوات غير عـادية ، النجوم تتمايل فى السماء ، تتجه الطائرة الى اليمين ، يمرق شريط أبيض نحيل الى أعلى ، حرارة تلفح وجهه اذن لن تلامس أقدامهم الأرض ، تنحنى الطائرة ، تستدير حول الموقع ، الصهاريج تبدو دوائر ضخمة فى السواد ، يحرك مصطفى فوهة مدفعه فى أكثر من اتجاه ، تمتد ذراع الرفاعى ممسكة بقنبلة يدوية ، يحومون حول فوهة فرن ضخم ، تتفجر الصواريخ بغزارة ، كأن الدنيا تمطر شظايا ولهب بالمقلوب ، من الأرض الى السماء ، مدفع الرفاعى يرتد كلما شيع قذيفة ، تختلط الأصوات والانفجارات وتهب الى أعلى كرة من النيران كبالون ضخم من اللهب انتفخ فجأة .

اليوم الثانى عشر
٧ أكتوبر ١٩٧٣ . .
اليوم الحادى عشر
٨ أكتوبر ١٩٧٣ . .

. . يواجه البحر ضاما شفتيه ، تتقدم الأمواج وتتراجع كتنفس بطىء غامض للكون ، فوق الصخور الوعرة حمراء اللون يتمدد الرجال ، طلب منهم أن يستريحوا ثم ارتقى الصخور التى تشبه القباب الناقصة المتصلة ، امتداد البحر حتى خط السماء يحوى تحديا خفيا ، هل يصبح المبصر كالأعمى فى مواجهة هذا اللانهائى ؟ ما حان دون الوصول الى الهدف قوانين خفية ، تعلو بالموج ، وتزيد سرعة الرياح ، وتجعل من أثقل القوارب أجساما خفيفة ، عندما قال له وسام ان البحر عال فى هذه الليلة لم

يثنه ذلك عن قراره ، ألم تعلمه التجربة انها أفضل الظروف لمفاجأة العدو ، فى مثل هذه الليلة لا يتوقع انسان مجىء انسان ، سبق لهم أن تعاملوا مع بحر مماثل وأمواج أشد عنفا ، إنه ينظر إلى البحر الآن ، يوشك ان يتحدث بصوت عال ، يضيق بضياع يوم آخر ، يصغى الى صوت البحر القادم من كل اتجاه ، يتأمله بينما يمضى البحر الى كل الزوايا والأركان ، خصمان تنازلا طويلا ثم وقف كل منهما يرقب الآخر قبل استئناف القتال ، عندما انقلب القارب الرابع أمر بالوقوف ، طافت العيون بالعتمة ، تشابكت الصيحات ، ارتفعت أيد ممسكة بأيد وصواريخ وصناديق ابتلت ، رأى الرفاعى قسوة الليل ، حمولة أربعة قوارب فى ثلاثة فقط ، لن يواصلوا الطريق الا إذا جاء التمام من كافة القوارب ، الجندى فرغلى مفقود ، راح يوغل بنظرة فى البحر الوعر ، يعرف ما جال بخاطر الكثيرين ، لكن هل يدع أحد رجاله فى هذه المتاهة من الموج والقرش وأنواع أخرى من الهلاك لم يعرفها الانسان ، لتتخذ القوارب تشكيلا دائريا ولتبحث فى الدائرة المحصورة ، الجهد المبذول مروع ، كأنهم يبحثون فى أعماق النجوم السحيقة عن فرغلى ، لكن كيف يستمر وأحد الرجال تعتصره هذه المتاهة الجبارة ؟ اذا كان من المحتم ان يرحل الى الأبد ، فليمض هناك فى شرم الشيخ ، فى مواجهة العدو ، لكن ماذا فعل الآن حتى يغوص الى لب الأعماق ، لتبذل كل جهود المجموعة للعثور عليه انه لم يقم بعمل بعد ، لم

يحمل صاروخا ولم يطلق مدفعا ، فى لحظة خيل اليه ان الكرة الأرضية مالت عن وضعها الطبيعى ، أدركه دوار والبحر يأبى البوح بمكان فرغلى ، حوالى الساعة الثانية وعشر دقائق جاء بلاغ من القارب رقم (٢) .. تم الانقاذ . استقام الاتجاه ، بدا له انه من الممكن الوصول الى الهدف قبل الفجر ، يتم نصب الصواريخ ثم يرى انطلاقها من عرض البحر ، لا يهمه طلوع النهار عليهم فى البحر ، المهم انطلاق الصواريخ ، وقبل ذلك كله قهر العتمة ، وشراسة البحر ، لم يره فى مرات خروجه العديدة بمثل هذه الغلظة ، أقام الليل أمامهم حواجز من العتمة والضباب الأسود الكثيف ، علا الموج حتى بدت القوارب وكأنها تسير فوق بعضها فى بحر من ثلاث طبقات ، ثم تتبادل الأوضاع أعلى ، أسفل ، جز على أسنانه ، حوله جدران شاهقة من الماء ، فى لحظة تبدو السماء عالية ، نائية جدا ، لا يدركها بصر ، ولا تلوح فيها نجوم ، فى لحظة تالية يعلو القارب ، يشعر كل من فيه انه معلق ، لا جاذبية تشده ، ولا ثقل يحفظ اتزانه فى لحظة أخرى تبدو القوارب وكأنها تدور حول نفسها ، قبض بشدة على عجلة القيادة ، وأصغى الى كل ما يجيئه من أصوات عبر السماعات ، لمح ضوءا خافتا فى جوف العتمة الكونية ، بدا قريبا ، ثم بعيدا ، اختفى ثوان ، ثم عاد الى الظهور ، علمه اقتحام الليل ، والعبور الى الارض كل ما فوقها معادلة ألا تهتز أعصابه من المفاجأة ، لكن كثيرا ما تلفت نظرة الظواهر

العارضة ، تستوقفه طويلا عند استعادتها بعد انقضاء زمن حدوثها ، يفكر في صوت عابر غامض سمعه ليلا ، ربما انسان يتألم ، أو صراخ حيوان ضال ، أو مرور تيار الهواء بين شقي جبل أو تزحزح صخرة عن موقعها ،

أو حدوث صدى لشيء غامض يسبح أو يتحرك ، ليلة أمس حار في تفسير هذا الضوء لم ترصد أجهزة الرادار في القوارب أي سفن قريبة ، لم تدرك الأبصار مقدار المسافة التي تفصلهم عن الضوء ، قال أحد الجنود ، ربما أرسل العدو قاربا للتفتيش ، وقال آخر ان البحر يضيء في مواضع معينة لأن الشعاب المرجانية تتوهج في القاع ، قال آخرون ان هذا الضوء متحرك ، لم يستمر الضوء الغريب انما اختفى فجأة كظهوره الغامض ، لم يستطع الرفاعي ان يمنع نفسه من التساؤل ، ما مصدر الضوء ؟ المفاجأة لا ترهبه والمجهول لا يخفيه ، ولكنه يود دائما ان يعرف ، لكي يحدد موقع الخطوة التالية ، ضاع الضوء ولم يهدأ البحر ، في الثانية والنصف جاء بلاغ عن تسرب الماء الى القارب رقم (٣) ، جز على اسنانه ، هذه العتمة وهذا الهياج ، والبحر والرجال المسئولون عن صيانة القوارب واصلاحها ، والقوانين التي تحول بين الانسان والمشي فوق الماء أو التنفس قرب الأعماق كل هذه العناصر تعاندة ، ملامح الرجال مرهقة ، المياة تغمر جاكتات الانقاذ ، وعندما أصدر الأمر ، وأدار ظهره للبحر والريح ونأى عن الهدف

المرجو بدا وكأنه يقتطع من عمره عشر سنوات كاملة ويرميها الى أعماق هذا السديم المائى الجبار .

انه الآن البحر وحيدا . لا يقربه أحد ، أمرهم بالراحة يكره رؤ ية رجاله متعبين ، لم يقبل أن يصحبه أحد عند ذهابه الى الغردقة فيما عدا مصطفى ، وعندما عادا الى شدوان أمر مصطفى بالتوجه للراحة ، أما هو ، ، فارتقى هذه الصخرة التى تبدو كشرفة عالية مطلة على البحر الذى يبدو هادئا الآن ، مخادع إلى آخر مدى ، فى أكثر من مرة هاجم تحصينات العدو بالمواجهة ، لم يلف ، لم يناور ، مالا يتوقعه العدو اما المستحيل أو غير المعقول ، اخترق كلا الحاجزين ، لكن هذا الحصن الكونى الأزرق ، من أين ينفذ اليه ؟

اليوم العاشر
٩ أكتوبر ١٩٧٣

استعد للاشتباك . . .

لم يعد البحر محور التركيز الوحيد ، ظهرت لنشات العدو ، يمكن تقدير حجم اللنش ونوعه وحمولته من زبد الماء الأبيض الناتج عن شق المقدمة النحيلة الحادة ، وبالتالى تحديد سرعته وتسليحه وعدد طاقمه ، ان عقلة الآن يعمل بسرعة ، ماذا يريد العدو ان يفعل ؟ ان المسافة التى تفصلهم عن الشاطىء لم تعد بعيدة ، ينتبه الى استدارتهم ، عدد اللنشات اما ثمانية أو سبعة ، انهم يحاولون دفع الزوارق الى الساحل ، ربما لحصرهم بين نيران المدفعية الأرضية ونيران اللنشات . .

الرفاعى ينادى . . الرفاعى ينادى . .

اللنش الذى يقوده وسام لا يجيب ، يكره الغموض ، يمقت ابتعاده عن الرجال حتى ولو فى عرض البحر حيث المسافات غير متصلة ، وكل زورق يمثل وحدة قائمة بذاتها عند التوقيت المناسب ، يتأكد من محاولة العدو حصرهم ، إذن ليقم بمناورة ، إنه يستدير ، يطلق نيران مدافعه الرشاشة ، يلفت إليه الانتباه ، ثم يتخذ أقصى سرعة مع استمرار الاشتباك ، ربما أتاح الفرصة لبعض الزوارق كى تصل الشاطىء ، تنصب الصواريخ ، لكن لاشك أن أنظار العدو كلها مركزة الآن فوق هذه المنطقة ، المهم الآن ان يجر وراءه هذه اللنشات ، يتجه الى جنوب شرق حيث الساحل السعودى ، كمية البنزين تكفى ونوعية الزورق أسرع من لنشات العدو بسرعة ينتقل مصطفى من مقدمة الزورق إلى مؤخرته ، ترى ماذا يفعل الرجال الآن ، كيف يتصرفون ؟ أيقف البحر فى مواجهته هذه الليلة أيضا ؟ بالأمس علت الأمواج ، والبرودة واليوم يجىء العدو ، لن تستدير مقدمة القارب إلا عند السطر الأخير ، فى اللحظة التى لن تليها لحظة أخرى ، ليته يمتلك القدرة التى تجعله قادرا على إطالة مدى الموجة اللاسلكية لتصل الى رجاله فى بقية اللنشات ، لا يمكنه مد البصر والحواس ليدرك ماذا يفعلون الآن لا يمكنه مد عتمة الليل حتى يتم مناوراته ثم يعود ليلتحم بهم ، لا يمكنه تهدئة الموج ، المدى محدود بما يضمه هذا الخزان من وقود ، ما تشير اليه الابرة المعدنية .

ينطلق مدفع مصطفى الأربى جى . .

سيف من اللهب يخترق الظلمة ، يبعث نافورة من نار فى قلب البحر . .

أصيب قارب معاد ، القارب يغرق ، لتستمر المطاردة ، لا تسمح الظروف بالعودة ، وأسر الغرقى ، فى السماء تتحول النجوم عن مواضعها ، وصوت يشبه أزيز طائرة ، لم يتأكد بعد ، لا يكف عن المناورة ، ان لم ينفذ من هذا الجانب فليأت من جانب آخر للدنيا أربع جهات أصلية وأخرى فرعية ، لو أمكن اغراق زورق آخر منذ سنة يعد لهذه المهمة ، استطلع البحر مرات ، وعرفه بالنظر ، وبالإبحار ، وعيون الأدلة ، يأبى التفكير فى أن البحر أجبره على العودة ليلة أمس ، إنما يتعلق الأمر بتقصير ما فى خطوات التجهيز لم يهدأ بعد العودة إلى شدوان ، لم ينم حتى الآن ، ذهب الى الغردقة ليعود بزورقين آخرين ، واعاد توزيع الحمولات ، تفحص أدق الأشياء ، الليلة يظهر العدو ، الزورق لم يتوقف عن الإندفاع ، لا يعنيه ما يجرى له لأن ، ما يقلقه موقف وسام ورجاله وأبو الحسن ومن معه والملازم أول صابر فجأة يشعر وكأنه ، سائق قاطرة انفصلت عن مركبات القطار ، انه يحدق الى شاشة الرادار المستديرة ، لا أهداف ، يلملم أطراف الزورق بعينيه ، مصطفى يحدق فى العتمة ،

عند الأفق الذى بدا قريبا تتدلى النجوم منغمسة فى البحر ، ضجيج المحرك ، صياح الرجال الذى اتخذ إيقاعا منتظما منذ بدء المطاردة ، تكبيرات العيد ، الله أكبر كبيرا . . والحمد لله كثيرا . . الصوت الجماعى المهيب ، كل هذا لم يحجب عنه الهدوء الذى خيم خارج هذا النطاق ، محرك الزورق لم يطرأ على صوته خلل ينبىء بخطأ ما ، لم تشحط الآلات لم تتوقف ، لكن ثمة شيء تغير فى الواقع الخارجى ، انسحب العدو ، عادت الزوارق ، أما عجزا أو يأسا ، لكنه يضع نفسه مكان قائد اللنشات المعادى ، لماذا التوقف ؟ ربما لقرب نفاذ الوقود ، ربما لاستدعاء طائرات الهليوكبتر ، فى حالة استئناف المطاردة لابد من البحث فى نفس الاتجاه . . يستدير فى الليل الذاخر بالأمواج والنجوم ، يود لم ان هذه اللحظة شهدت تصرفا مختلفا ، ان وجهه يتقلص فجأة ، هذه أول مرة لا يصل فيها الى الهدف ، كيف ؟ كيف سيفكر فى هذه العملية عندما يصبح وحيدا ، أى المبررات قد يرددها بينه وبين نفسه هو الذى لم يلجأ الى المبررات قط ، تم اغراق زورقين رآهما بعينيه وربما أغرق الرجال زوارق أخرى ، تلك خسارة فادحة ، ان عينيه تضيقان ، هل تحين لحظة من عمره ليجد العزاء فى إستبداله هدفاً بآخر لتغرق عشرات اللنشات ، ولكن محطة الرادار البحرية لاتزال تدور عند المرتفع الصخرى القريب من شرم الشيخ ، وصواريخ الكاتيوشا التى لاتزال متمددة فى الزورق لم تلتحم بها ، ثم ما هذا ؟ ربما

أغرق الرجال ، ربما أصاب الرجال ، كلهم فى مهمة واحدة ويضطر إلى التخمين . . ربما . . ربما . . ، لكنه أبعد العدو عن زوارقهم ، سبب ارباكا له أليس مجرد ظهوره فى هذه المنطقة فيه ارباك للعدو ، انه يعرفهم جيدا ، ستبذل عشرات التحليلات ، لماذا ظهرت القوات المصرية فى هذه المنطقة ؟ لماذا جاءت ؟ أى أهداف تقصد ؟ ثم يلى ذلك اجراءات وزواق تتحرك . . أليس فى هذا تعطيلا لجزء من قوات العدو ؟ . . إنه يأبى الأفكار التى تحوى شبهة العزاء مهما قيل ، فهو لم يضع قدمه على صخور شرم الشيخ ولم يسكت محطة الرادار ، لم يلتحم ، فى ساحة الكلية الحربية ، قبل مباراة الكرة ، فى نادى الجيش الرياضى ، يجرى ، يجرى ، يتبادل الكرة مع أعضاء فريقه ، قبل النزول إلى الملعب يقول ،

لن نعرف الهزيمة ، ضحك . . قال ، لو شعرنا ان الهزيمة قادمة فلينته اللعب بأى صورة . . لكن لن ينتهى بهزيمة . . هل يتجه الى شرم الشيخ الآن ؟ هل يوجه المقدمة إلى الأهداف الأصلية ؟ والعودة ؟ ليس مهما التفكير فى العودة ، ما يؤلمه أن يظل بعيدا عن الهدف ، الهدف الذى اختاره بنفسه ؟ درسه بعناية ، قضى الساعات الطوال يتفحص صور الاستطلاع ، يدرس التيارات وتقارير الضفادع البشرية عن مناطق الرسو ، العمق والضحالة أى كدر ليلى ثقيل ينزل فوقه ؟ ، حتى الموج هدأ

والريح استقرت على صوت واحد كالعويل البطيء الملوع ، يخلو البحر تماما يبدو امتداده بليدا ، باردا . . وكأن شيئا لم يحدث . .

اليوم الخامس
١٤ أكتوبر ١٩٧٣

أبدى الرائد وسام ملاحظة . .

لكن هذه المنطقة مليئة بالشعاب المرجانية . .

قال الرفاعى . .

لهذا سنجىء إليهم من هنا . .

الآن تطير قوارب الزودياك فوق رذاذ الماء المتناثر ، يستند الرفاعى إلى حافة الزورق بيده ، يمسك بيده اليسرى مدفعه ، يتطاير رذاذ ويصخب الموج ، وتشهق سماء زرقاء زجاجية ، يبدو شاطىء شلاطيم صخريا وعرا ، يهدىء الرفاعى من سرعة قاربه ، يبدو أن العدو لم يتوقع قدوم أحد من هذه المنطقة ، لم تظهر دوريات ساحلية ، لم تحوم أى هليوكبترات فى السماء ، ترتفع يده ، تتوقف المحركات المركبة فى مؤخرات الزوارق ،

يقف الرفاعى غير منحن فى القارب ، يمسك أبو الفضل بمجداف قصير ، يضرب الماء بسرعة ، يتراجع القارب قليلا ، لكل خطوة حسابها ، كل ما يقومون به معروف من قبل ، يتراجع البحر ، فجأة تبدو خطوط بيضاء غليظة قادمة من الخلف ، يتسابق الموج ، يتحفز الرفاعى كأنه يوجد تنسيقا خفيا بين حركة الزورق ، وحركة الأمواج ، تدرك الخطوط البيضاء القارب ، تعلو به ، يخف الوزن ، لو اختل التقدير سيهوى القارب فوق الشعاب المرجانية ، ستارة الخوازيق المثبتة فى القاع ، حراب ملونة ، خادعة ، تحمل الأمواج القوارب إلى الماء الضحل ، يقفز الرفاعى ، يمسك مقدمة الزودياك ، يثبت أبو الفضل المخطاف بين الصخور ، يشير بيده الى الزورقين الآخرين ، فى أولها العقيد علاء ، يقف عند مقدمة الثانى وسام ، انه لا يرى ملامح وسام لكنه يشعر براحته لأنه صاحب الاقتراح بتخطى الحواجز المرجانية هكذا ، يخطو الرفاعى ، لا يتقدمه أبو الفضل ولا يتجاوزه علاء ، فى الهجوم هو الحرف الأول ، وفى العودة هو اللفظ الأخير ، لحظة الاشتباك طلقته تسبق كل الطلقات ، عندما يخرج فى النهار فكأنه يرتدى ثيابا خفيفة والبرد شتوى قارس ، لكن حركة المد والجزر الآن تناسب حركة القوارب ، فى الليل ينحاز الى جانبه عنصر المفاجأة ، ويمسك بزمام المبادرة ، من حنايا السواد يرصد الخطر ، حتى الآن لم ينبهه ذلك الهاجس الخفى الى انهم اكتشفوا أو رصدوا ، وأجاد العدو استغلال الليل

فى شرم الشيخ ، لكنـه يجيء إليهم هنا فى وضـح النهار ، وفى ظـروف لا يتوقعونها أبدا ، وفى قوارب لم يحدث ان جرؤ انسان على عبور الخليج بها ، اذا كانت زوارقهم أجبرته على اصدار أوامره الى رجاله بالتفرق وان يتصرف كل منهم كوحدة مستقلة ، اذا كانوا قد حالوا بينه وبين النزول على صخور شرم الشيخ ، اذا كانت مناوراتهم استهدفت حصره بين الهلاك العائم فى البحر والهلاك المثبت إلى اليابسة ، اذا كانت طائراتهم اكتشفته وأبلغت فكمنوا له وترصدوه فانه يجيء الآن وعيون الدنيا مفتوحة ، ويعبر الخليج فى الزودياك يخلق الصعوبة ويمتلك القدرة على قهرها ، وهكذا يبرز أمام العدو عنصر مفاجأة غير متوقع ، حتى وسام أبدى دهشة عندما سمع الاقتراح ، قال أن هذا صعب ، الخليج عات على الزودياك ، مع أن وسام ابن بحر ، يعرف ما سيقوم به العدو لو جهز لعمليـة مشابهـة ، سيوفـر أحدث المعدات لضمان حياة أفراده ، غطاء جوى وغطاء بحرى وربما دفع بغواصة للحراسة ، ثم قصف جوى على الهدف ، وعندما تصبح الظروف وثيرة تماما يدفع برجاله ، من قال احرص على الموت توهب لك الحياة ؟ عندما عاد بعد المطاردة إلى شدوان رأى الزوارق الثلاثة ، راحت نظراته تعدو على وجوه الرجال ، ابتسم علاء ، قال : اطمئن يا أفندم لقد عدنا كلنا ودمرنا ثلاثة لنشات معادية ، أدى أبو الفضل التحية العسكريـة ، عانقه أبو الحسن ، قال انه فى البداية سادة ارتباك لانهم اعتادوا ان يذهبوا

مع الرفاعى وان يعود هـو بهم ، لكنه تقمص روح الرفاعى ، وسـأله نفسه ، ماذا يفعل فى مثل هذا الموقف ، وأى قرار يتخذ ، هكذا عادوا الى شدوان ، عادوا بدونه ، عادوا زورقا وراء الآخر ، يفصل الأول عن الثانى مسافة زمنية لم تحدد من قبل ، ولم توضع فى خطة ، لم يهدئه انهم أبدوا تأثرهم لأنه حول نفسه الى هدف وأبعد العدو ، لا يعنى هذا ان ايريال الرادار البحرى كف عن الدوران فى شرم الشيخ .

من فوق الصخور القائمة عند نهاية المـلق الملتوى بـدت صهاريـج البترول ، تسعة ، لم يـطرأ أى تغيير ملفت للنـظر منذ استـطلاعه لهـذه المنطقة ، الصهاريج هنا غير محاطة بسواتر من الطوب لبعدها ووقوعها فى منطقة وعرة نائية ، رصد عدة جنود يمشون بين الصهاريج ، هـذه معالم تغيير ، بالطبع لابد أن تزيد الحراسة فى زمن الحرب ، يلتفت حوله ، تشير يده الى عدة جهات ، يسرع الرجال منحنين اليها ، يقف برداء الضفادع البشـرية الأسـود ، المطاطى ، الملتصق بجسـده ، بدا قـادمـا من عـالم غامض .. لحظة التصويب ، التسديـد الى الهدف ، تتنـاثر الشـظايا ، ينبطح بعض الجنود أرضا ، تتصاعد هذه الصيحات المدموغة الغـامضة النابعة من عمق غير مرئى فى الصدور ، صرخات تكون حاجزا يحجب كل شىء عدا القتال ــ يرفع يـده ، لم تشتعل النيـران فى صهريـج واحد ،

الصهاريج خالية ، فرغها العدو ، حراسة خداعية ، ليتركز الهجوم الآن على الافراد ، يجيء الرد ، يبدأ الحوار النيرانى ، لكن هذه المواسير المتراصة المتجاورة ، إلى اين تؤدى ؟ ينظر الى علاء ، إلى مصطفى ، إلى ابو الفضل ، ليبق علاء ، ابو الفضل ، ليأت مصطفى ينحدران بسرعة فوق الصخور ، يمسك المحبس المعدنى ، ليتتبعا هذه المواسير ، اخطأ عندما تصور أن جديدا لم يضف ، ستأتى النجدات خلال ثلاث أو أربع دقائق ، قد يتدخل الهيلوكبتر لأن المنطقة وعرة ، لكن لن يستخدم العدو الطيران المقاتل يمشى الرفاعى منتصف القامة يمسك المحبس كعصا يتوكأ عليها ، فجأة يثب ، على بعد مترين منه يشهر مصطفى مدفعه الأتوماتيكى السريع ، سبعة أنابيب ، قطر الواحد العشرين سنتيمترا ، تنبه الرفاعى الى انها تعبر الصهاريج ولا تتصل بهم ، تتجاوز الموقع ، اين البداية ، أين النهاية ؟ يوازن خطأه ، يلتفت حوله ، انه مكشوف الآن ، يمكن لكل الرجال عد أزرار ثيابه من مكانهم ، اما العدو فلن يستخدم جهاز التنشين الآلى اذا ما صوب اليه فوهة ، يدس المحبس ، الانبوب الاول ، الثالث ، الخامس ، التاسع ، ما من بترول ، بعض شفقه ، يخطو ثلاث خطوات إلى الشمال ، تبدو مشيته مترنحة ، يضوى الرصاص ، يدفق قلب مصطفى حفنات من الدم فى خفقات متتالية ، الطلقات ترشق حول الرفاعى ، يضغط زناد المدفع ، دفعات متتالية ، لم ير أحدا ، لكنه أطلق

النار ، ربما أربك ، ربما أصاب ، يحدث ازعاجا يمنع من اصابة الرفاعى ، الهدف الواضح الجلى ، أنه يقفز ، شظايا رفيعة ، بقع حمراء على ضوء النهار ، يتراجع فوق شريط رخو من الرمال محفوف بصخور متدحرجة متباعدة ، يزداد اقترابا من مصطفى ، إلى الأمام تستقر دفعة رشاش .

يشتد اللهب . .

نافورة حادة فحيلة تنبثق من الأرض ، تتضخم ، تنتفخ ، تأخذه الدهشة ، الأرض ألسنة من النيران البرتقالية ، تختلط بزرقة حادة كضوء لحام الاكسجين ، يتبدد شتاء سيناء القارس ، ترتفع الحرارة .

البترول . . الانابيب مدفونة . .

يصوب باتجاه الأرض الرخوة ، لن تفرغ جعبة العدو من جديد ، المواسير الحقيقية تحت الأرض أما الانابيب المكشوفة فللتضليل ، أى هدف استطلاع جوى يكشف هذا ؟ النيران تستفحل ، مصحوبة بهدير وصليل ، الدخان اللزج الكثيف يلفه ، يحجبه بعد أن وقف كعلامة تنشين فى أرض مسطحة ، يتساقط فوقه الضوء كله ، الانبوب يقتلع نفسه من الأرض ، يمتد إلى أعلى مناطحا الفراغ ، يعدو بسرعة ، يشير بيده اليسرى ، يتقدم الرجال عبر ملق واسع وأكثر سهولة ، يؤدى الى البحر ، يقول علاء . .

ـ: أمسكت قلبى بيدى . . جعلت نفسك هدفا . .

الرفاعى لا يجيب ، صدفة نفذت الطلقات إلى باطن الارض فتفجر البترول ، إنه يمقت الصدفة التى تنوب عنه فى انجاز عمل ما . .

حمدا لله على سلامتك يا أفندم . .

بقايا لهفة فى عينى مصطفى ، هل يقول له ان انفجار الانبوب حدث بالصدفة ، لم يكتشفه بالمحبس ، هل يقول لهم انه يمقت الصدفة لانها تدفع بالشظية الى الاتجاه الذى تحدده وليس الذى يقدره هو ، انها تنتقى ثم تندفع ليتطابق الظل بالأصل ، يمر بعينيه على كافة المواقع المرتفعة المشرقة عليهم ، يمكن رصد اللهب الآن من ضفة الخليج الغربية ، سيستمر اياما ، الوجوه راضية ، تنظر اليه بقلق واعجاب ، لكنه غير مقتنع ، لايتنابه ذلك الهدوء الذى يراوده بعد أداء عملية ناجحة ، هل ما جرى صنعته الصدفة أم يداه ؟ لا يذكر متى تحدث أمامه أحد الضباط عن شاب تخرج فى الكلية حديثا ، ابتسم شخص ثالث ، قال باعتزاز . . إنه تلميذى . . إنه صناعة يدى .

اليوم الرابع ..
١٦ أكتوبر ١٩٧٣

فجأة ، يصدر أمرا بالتوقف ، يبدو الصمت مضاعفا ، والليل بلا قاع ، كأن خطوهم أوجد للصمت صوتا ، ما من شيء اجبره على اصدار الأمر بالتوقف ، لكن طول السير ، وصعوبة الطريق ، يجب الأمر بالتوقف فجأة لابقاء حالة الترقب حتى لا يتسرب الخدر بأى درجة إلى الحواس ، الليل لا يفصح عن محتواه ، كل خطوة الى جوفه مهددة بالمباغتة ، يطوى الليل من المفاجأة بقدر ما يحققه له من غطاء ، إنه يشير باستئناف السير ، مع الرياح التى تمضى من الشمال الى الجنوب تصل اليهم أصوات العدو ، أما أصواتهم فتولى الى الخلف ، الحديث ممنوع تماما خلال المشى ، اما

احتكاك الاحذية بالصخور فلا يحدث أى صوت بفضل طبقات الفلين المضغوط ، ينظر الى السماء ، يتأكد من اوضاع النجوم ، الاتجاه صحيح ، بحسه يدرك أنهم يسلكون الطريق الصحيح ، لكن لابد من استشارة الاشياء الازلية التى لا تغير مواضعها أبدا ، يتوقف امام ربوة متوسطة الارتفاع ، يلحظ ظلا خفيفا للعقيد علاء ضوء النجوم أو هذا الوهج الخفيف الذى يسبق شروق القمر ، فى وثبات سريعة يرتقى الربوة ، يتبعونه بنفس الترتيب ، يلى هذه الربوة مسطح من الارض يتخلله حفر ، ثم مضيق صغير يقطعونه جريا تفاديا لخطر الحصار ، يكره القتال وظهره الى مانع الا إذا اجبرته الضرورة ، عند نهاية المضيق توقف ابو الفضل ، فى لحظة الخطر يطلق الاشارة الحمراء ثاقبا سواد الليل ، ثم يشتبك ، تزداد الأرض وعورة بعد عشرين خطوة سريعة توقف الجندى الدمياطى والجندى الجرجاوى ، كمين غير مرئى يتم اسقاطه خلال المعركة ، من الصعب اكتشافه ، بعد لحظات يبدأ الانتشار ، يتوقف الرفاعى عند مشارف الليل وكأنه سيتسلق الأفق ، توقفه يعنى اتجاه كل منهم الى الموقع الذى ستنصب فيه الصواريخ ، من قبل ضربوا هذا المطار ثلاث مرات ، تبدو أضواء مفاجئة ، نصل من الضوء الأزرق يشق الصمت المعتم ثم يختفى ، هدير مكتوم ، تلتقط اذناه كافة ما يصدر عن المكان ، لو تغير ايقاع تنفس أحد جنوده يرصد الخلل ، يستمر الهدير ثابتا لا يقترب ولا ينأى كخطوات جنود

ثابتة « محلك سر » احدى العربات المدرعة « تسخن » المحرك ، لم تفارق مكانها ، زفير العادم يتتالى لكن ثبات الهدير لم يتغير ، عربة نصف جنزير على الارجح ، المؤكد انها ليست دبابة ، هذا يعنى أنهم ربما تجولوا حول المطار فى أى لحظة ، آه لو توجد وسيلة تصل بين الطلقة والهدف المرجو ، توجد مسارا لا تحيد عنه المقدمة المدببة ، فينغرس الصاروخ فى وسط العربة نصف الجنزير ، أو فى ميس الضباط وقت العشاء ، أو فى قلب غرفة عمليات المطار ، الآن يمكنهم الانتشار وتركيب الكاتيوشا بهدوء ، الخطر محتمل من الأرض ، الهليوكبتر لديهم لا يطير ليلا الا الضرورة قصوى خاصة فى أماكن وعرة كهذه ، أما الطيران المقاتل فيمكن ان يظهر فى ثوان ، لا يخفى اعجابه بالسرعة التى يستجيبون فيها لمواقعهم المهددة ، فى ثوان يظهر الطيران ، يجب ان نتعلم الأشياء الجيدة من العدو الذى نقاتله وألا نترك له فرصة معرفة الجيد فينا ، عند الحد الامامى لمنطقة عمل المجموعة تحرك بحذر ، تجوس عيناه باستمرار ، يحرص الا يبدو ، لا يفرد قامته إن الأمر يتعلق الآن بالرجال المنهمكين فى نصب الصواريخ ، يرهف السمع ، صفير خفى يسرى فى قلب الريح ، وشيش كأمواج البحر يسمع من بعيد ، نداء ناء يجيب على نداء ، أنه يطيل الاصغاء ، يضم شفتيه ، ان نصلا نحيلا ينغزه حيث لا يرغب ولا يود فى هذا الوقت بالذات ، فى اللحظات الأولى لم يول انتباهه عما يحفل به الليل وهذه الارض التى يحتلها

الغـرباء . ليس من المعقـول أن يحدث ذلـك الآن ، يجيبه شعـور حـاد بالقيء ، يضغط شفته السفلى .

يندس خنجر محمى بيطء فى معـدته ، يعـرف أن الالم سيتتشر كبقعة الحبر فوق النشاف ، قبض على المدفع ، ألصق مؤخرته بمعدته ، ينتبه الى ان جسده تقوس ، سيلفت هذا نظر علاء ، ان علاء يحمـل الأبر المعقمـة ، ما عليه الا ان يقترب منه ويغرسها فى فخذه من فوق الأفرول ، سيختفى الألم ، لكن مجرد اشارته الآن الى علاء ستحدث ارتباكا ، سيتساءل كل منهم ماذا حدث للرفـاعى ؟ وعليه الا يـأتى تصـرفـا يؤدى الى ان يشغـل اذهـانهم بمثـل هـذا الاستفسار ، تتوغل اسنانه فى شفته ، بهدوء بصق ، يجول بعينيه فى العتمة ، يجب الا يغفل لحظة ، حماية الرجال من المداهمة مسئوليته ، انه يخاطب معدته فى صمت ، يعاتبها ، اهذا هو التوقيت المناسب ؟ ليتأجل الألم ، وعنـدما يصـل بالرجال الى الامان سيستلم للفتك ، لن يقاوم وخزا ولن يتصدى لهذا التآكل المر داخله ، لن يسكته بالأبر المخدرة ، ليمرح الالم كما يشاء لكن ما يرجوه ان يكف الآن ، ان يهجع ، ان يستكين ، ان يصمت هذا النباح الانحناء قليلا ، قطرات عرق ، تهوى به الارض ، قوة خفية تسحب روحه إلى اسفل ، هذا الاحساس المقيت بالانهيار ، يهوى ، اثبت ، حدق البصر يا رفاعى ، ارهف السمع ، ألم تقاس ما هو أفظع ؟ ، الم تعان الظمأ ساعات طوالا وانت تبحث عن الدورية المفقودة غرب الفيوم والماء فى يدك ترفض ان تقربه حتى تشعـر بآلام التـائهين وتستحث نفسـك على التقدم اليهم ، اثبت ، صد هذه الطعنة ، لكن آلام الظمأ فى متناول اليد ، تخففها جرعة أو يسكنها الأمل ، موجات متتاليـة ، انتبه الى ما يبطنه الليل ، قلص وجهك كما تشاء فبعد لحظات ستواجه الرجال ويجب ان

تبدو طبيعيا للغاية ، أى ارتعاشة بادية ستسرى فى أوصال المجموعة ، لو صحت على العقيد علاء فربما يشعر الرجال بأن ثمة شيئا جرى ، عندئذ لا تدرى نفس بماذا سيتصرفون ولا كيف سيعودون ، ترفض معدته الاستجابة الى أى رجاء ، ان فليقمع هذا الالم بالألم ، يضغط معدته بالمدفع وتغوص أسنانه فى شفته يجب ان يستمر فى غزوة لليل ، ان يسلد اليه السمع ، يجب ان يستعد للقتال ، ان يثبت فى المقدمة ، لو يصل الى هدنة مع الألم سيستلم له فى القارب وليس عند الوصول الى الضفة الغربية ، محال ، لن يمكنه دعوة العقيد علاء الى الركوب معه فى نفس الزورق ، سيثير هذا شكوكا ، قفاز من اللهب يلكمه ، انه يخلو بألمه فى مواجهة الليل ، يعود الهدير ، نصال الضوء تشق العتمة فوق المطار ، يندلعالالم ، الم يحتمل أوجاعا أشد ، هذا الصداع الذى يباغته ، يهشم داخل عينيه وجانبا من رأسه ، تعرف نادية بعد طول معايشة اللحظة التى يبدأ فيها الألم ، بالمعدة أو فى الرأس .

تمام يا أفندم . .

يحاول أن يبدو طبيعيا ، يجيىء الخطر من الداخل أيضا حيث لا يمكنه اقامة غلالات نارية او ستائر دخانية ، يعكمه الوخز ، يتوقف علاء بجواره ، من صوته يدرك انه يبتسم .

يا سلام لو نقوم بزيارة المطار . .

يقول الرفاعى

الليلة ستنوب الصواريخ عنا . .

يجب الوصول الى الشاطىء فى نفس التوقيت الذى تنطلق فيه الصواريخ ، يتقدم خطوات ، لوطء الأرض صدى وترجيع فى احشائه ، يقول مصطفى بصوت خافت :

يا أفندم . . انت لم تبارك العملية .

معك حق يا مصطفى . .

المرة الأولى التى ينبهه أحد رجاله الى عادة لم تنقطع أبدا ، يهادنه الوخز لحظات ، يجب ان يحجب ما يشعر به ، يتفحص الاسلاك ، و «الفيش» وأوضاع الصواريخ ، يعود ليتقدم الطابور ، يجب الا يلحظوا أن ثمة رياحا خفية تحاول هز الجزع وأن هجيرا قاسيا يحاول قص الظل ، لكن بعد العديد من الخطوات فى طريق العودة عليه ايقاعا لحركته لم يقصده ، انه يثق بعلاء وابو الحسن وسمير وكل من معه ، لكن لن تدركه الراحة الا إذا تأكد بنفسه ، سيعتبر هذا نذير سوء ، كما علمته الايام رصد اى تغير فى خطى ضباطه وجنوده اثناء سيرهم الى الهدف فربما رصدوا فى عجلته ما يقلقهم الآن ، انه يتوقف وفى اللحظة نفسها تتوالى الشظايا المكتومة تثقب جدران معدته ، لكنه يجتهد فى الا ينحنى حتى . سيطول الأمر دقائق أخرى ، ولو ، كم من المرات تجاوزوا خلالها التوقيتات المحدودة ، لن يشكوا فى عودته لانهم اعتادوا منه الدقة . . ينظر الى علاء . . « سأعود » لابد أن ألقى نظرة أخرى . . اتخذوا أوضاع كمين . ، يشير الى ابو الفضل :

« سأتقدم . . وغطينى »

اليوم الثالث . .
١٧ أكتوبر ١٩٧٣

عشرون ساعة تقريبا انقضت حتى الآن ، لابد أن ممرات المطار عادت تعمل الآن بعد ان تساقطت فوقها الكاتيوشا ، تعطيل ساعة واحدة فى زمن الحرب شىء لا يستهان به ، يحتاج العدو الى كل ممر ، الى كل دقيقة من عمر المطار ، فى مواجهته يعلو الخليج عنيفا كالقدر ، الاسماك الضخمة تأوى الآن الى الاعماق البعيدة ، وتدق أجراس الانذار فوق السفن المبحرة ، ويرافق الرياح عويل دائم ، وينظر جنود العدو الى البحر العاصف باطمئنان ، لن يأتى أحد فى مثل هذا الجو ، ثم من يغامر بالهجوم مرة ثانية على نفس الهدف ، فى نفس التوقيت ؟ فى العصر عندما بدأوا تجهيز القوارب التى استخدموها أمس نظر اليهم ضباط البحرية فى القاعدة بدهشة ، قال أحدهم لوسام ان البحر قوته ثمانى درجات ،

ابتسم وسام ، وقال ان الجميع يعلمون ذلك ، عند الوصول الى الضفة الاخرى ستدوس أقدامهم نفس مواطىء الامس ، لكن مواقع نصب الصواريخ ستختلف ، سيتجهون الى منطقة مرتفعات صخرية عجوز لا تصلح لهبوط الهيلوكبتر أو تقدم المدرعات ، بل أن المشى فيها امر صعب وكريه ، فى الصباح ابدى علاء سرورا لأنهم سيهاجمون الهدف مرة أخرى ، ما يثيره غير المألوف ، مهاجمة هدف مرتين امر ليس جديدا على المجموعة ، لكنه ليس أسلوبا ، لا يعترف الرفاعى بأساليب وطرق ثابتة ، من السهل عندئذ ان يكتشف وان يرصد ، كل شىء فى الكتب، لكن ثمة أشياء كثيرة لم تدون بعد فى الكتب ، فى لحظات الاستغراق تفاجئه الفكر ، فى لحظة استسلامه للنوم يباغته الحل ، من حوار عادى مع أحد الجنود يتفجر الاسلوب ،

الآن يرقب رحيل النهار السريع ، لن تمضى لحظات الا ويبدو أول نجم ساطع ، هو النجم الذى يرحل بعد سفر كل النجوم ، يتابع رص الصواريخ ، وصناديق الذخيرة ، وتثبيت الموتورات الى القوارب ، عندما ناقش تفاصيل هذه العملية ، قيل له . .

ولكن ذلك ينطوى على مغامرة . .

قال بوضوح :

نعم . .

لم يبح بتفاصيل ، أكد ان المسئولية تقع عليه هو ، ثم أى الامور لا تخلو من المغامرة ؟ صغرت المواقف أو عظمت فكل موقف يحتوى على قدر منها ، قالوا ان عبور الخليج فى مثل هذا الجو وبتلك القوارب مخاطرة ، قال انها ليست المرة الاولى ، ثم هذا ما لديهم من امكانيات .

تمام يا أفندم . .

يقف علاء صارم الملامح ، كل شيء معد للرحيل ، منذ ساعتين قال علاء انه من الضرورى أن يستريح قليلا ، نظر اليه معاتبا ، كم يوم ستستمر الحرب ، الم يقض كل منهما عمره فى انتظار تلك الايام ، من يدرى ماذا سيحدث غدا ؟ أم أن علاء يفكر فى خروج المجموعة بدونه ، قال علاء انه يفكر فى الأمر كطبيب ، ضحك ، أما زال العقيد علاء يعتبر نفسه طبيبا ؟

اليوم الثانى . .
الثانى عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتذرون ، يحدث هذا العناق السريع ، الموجز ، الرجولى ، الحار ، تتصافح الأيدى بقوة ، فى الفراغ الفاصل بين العيون يتعلق رجاء ، نرجو أن يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرءوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معبقة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، والسمك كبير الحجم الذى تضخم وتوحش لابتعاد الصيادين عنه ، وطفوه ميتا بعد كل اشتباك ، ثم الطرق الصحراوية ، وموانع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاى بينها لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء أنه يتوجه بمشيه إلى تلك الصحراء الفسيحة ، ساعة

ونصف كانت تفصل القناة عن القاهرة ، فجأة تبدو عمارة حديثة ، وتاكسى اجرة بلونيه الاسود والابيض ، ثم تعبر الطريق فتيات ، وشبان ، وعربة يقودها رجل مطمئن الملامح ، ثم اعلان سينما ، كان العقيد علاء يظل منحنيا ، يحملق فى كل ما تقدمه المدينة مع العودة ، يتساءل ، احقا هذه بلدة لا تبعد عن العدو أكثر من ساعة ونصف بالسيارة ، احقا لازلنا فى بلد واحد ، ثم يشير الى مجموعة شبان ، شوف ، هل يشعرون بنا ؟ يصغى الرفاعى ولا يعلق ، أحيانا تستغرقه العودة الى المدينة ، الى تلك الشوارع التى احب المشى فيها صباحا ، تلك الساعات التى يبدو فيها ضوء النهار شفافا ، يبدو كل ما يحيطه كأنه يرى من خلال زجاج لا ملمس له ، تلك الطرقات المتوازية بعيدا عن الضجيج ، الشارع الذى كانت تطل نادية من احدى شرفات البيت الأول فيه ، فى الخامسة عصر كل يوم تقف ، ويجيء متمهلا ، هكذا اتفقا فى التليفون ، ويراها هدفا ساطعا ، ويرصد ضوءا خفيا لا تتلقاه الا عينيه هو ، يستجيب قلبه فيخفق ، هكذا زمنا لا يرى كل منهما الآخر الا لحظات ، كثيرا ما أوقف سيارته اثناء نقله وحيدا ليمشى فى هذا الطريق الذى تبدو البيوت فيه مأطرة بالخضرة ، والستائر مسدلة موحية بالاسرار ، يود لو يرحل الى كل مدينة قضى بها زمنا ليرى بيتا ، أو جرسا فى مدرسة كان ينتظر رنينه بلهفة ، أو « كوبرى » خشبى فى بلقاس ، وذلك المسجد المورق بالسنين فى ملوى ، والمدق الترابى المؤدى الى جبل درنكة باسيوط ، والقوارب التى تعبر النيل من الغرب الى الشرق بالأقصر ، وتسلق الجبل الفاصل بين معبد الدير البحرى ووادى الملوك ، وتلك الصخرة غريبة الملامح فى اسوان ، والمسلة الناقصة ، والمرتفع المؤدى الى ضريح أبو الهول، هذا الشارع المائل بالحنين المؤدى بالأشواق الى البحر فى الإسكندرية ، والوادى المبطن بأشجار من حجارة فى الصحراء الشرقية ، والمقابر المنقوشة فى كهوف لم

يرها احد ، الوقوف عند سفح جبل الجلالة ، وعيون تتدفق منها المياه فى اقصى منطقة البحر الأحمر ، ومدخل البيت ، يود لو لم نفسه من كل جزء عبره يوما ، ان يرى كل هذه المناطق بنظرة واحدة ، فى كل مكان أودع قطعة منه ، وترك مقداراً من عمره ، انه يفهم علا ويدرك حدته ، لكنه لا يناقشه ، تنه جاء الى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مر بهم وعرفهم أو مشوا معه وحاوروه فى تلك القرى والمدن عن كل من يعيشون فى هذه المساحات التى طار فوقها بالهيلو كبتر وبالانتينوف وبالاليوشن ، كل من ورآهم يرشفون الشاى فى المقاهى ويحتفلون باعياد الميلاد ، ويهمسون بالنجوى ، ويبوحود ويتناجون ويفكرون فى أى شيء سيأتى به الغد ؟ عن كل المارين بجوار مرقد الحسين ، والدائرين حول ضريح الامام الشافعى ، والساعين الى سيدى الفولى ، والمقبلين لضريح السيد ، والواهبين نذورهم لسيدى عبد الرحيم القناوى ، وسيدى الليث ، وهؤلاء السيدات المرتديات السواد ، المتجهات الى الاسواق الصغيرة المقامة بين القرى ، الحاملات فوق رؤسهن بضاعتهن ، يقابضن ويجادلن ويدخرن القوت لاولادهن ، صاحبات الوجوه المرهقة بزمن ثقيل الوطأة ، اذ يراهن يخفق قلبه تأثرا ، ويود لو قدم مساعدة ، أو ابدى ما يخفف حمل الأيام ، تهز ملامح الامهات المصريات التى تحمل بصمات الصراع مع الزمن والرجاء فى المدنة معه ، ملامح لم يرها فى أى بلد آخر ولا على اية ملامح اخرى ، لا يضايقه ان الواقفين بالشوارع ، أو الجالسين بالمقاهى لا يدرون بما يقومون به ، ليس لان اعمالهم قدر لها أن تولد أو أن تنتهى فى كتمان كثيف ، انما لانه جاء الى العالم ليحارب لا لكى يقوم بأى شيء آخر ، يقاتل عن هؤلاء ليؤمن النظرة الهادئة فى العيون ، يسع من يسعى بلا خوف ، ربما يرجو منهم قدرا من المبالاة ، لكن ما ذنبهم ؟ كثيرا ما قال لعلاء ، للناس فى بلادنا خاصية تختلف عن كل ما نعرفه ، فلتنشب الحرب ،

ليصغ الجميع الى أول بيان من الراديو ولتنظر الى ما سيبديه كل منهم .

ها هى البيوت غارقة فى النعاس ، شبان يرتدون لباس المقاومة ، يقفون مجهدين ، بايديهم مصابيح يدوية ، لكن لا سلاح ، لنفترض أن دورية معادية فاجأت هؤلاء ، كيف سيقاومونها ، تتوالى النواصى أحد الرجال ، يبدو كمساريات بالسكك الحديدة أو امترو يلوح لهم بيده ، يرفع يده بالتحية ، هذا التضامن الخفى ، المدينة لا تتجاهل عودتهم هذه المرة ، تستدير مقدمة السيارة ، تتجاوز البوابة الخارجية يرتفع الحاجز الخشبى ، المبانى يحيطها ضباب خفيف ، يلم بكافة التفاصيل . . اذن قدر له أن يرى هذا كله مرة أخرى ، لا يذكر متى توقف فى الحديقة المؤدية الى المكتب ، فوجىء انه يحتوى ما حوله بعينين غير عينيه ، عينا مجهول بقى فى الدنيا بعد رحيله ، توقف لحظة ، لماذا فكر هكذا ؟ وأى حالة غريبة هذه ؟ انه ينظر الآن الى المكان كله ، يصغى الى حرارة اللقاء بين الذين بقوا والذين عادوا ، يقبلون عليه ، يعانقونه ، يستدير حول المنضدة المثقلة بالاوراق والخرائط ، هل يدير القرص ؟ كل يصغى الى صوتها الذى سيبدو هادئا ، فى الايام البعيدة كانت نادية تنتظر عودةالهليوكبتر ، وترمق الطائرة من موقعها فى شرفة البيت ، لكن أكثر طائرات الهليوكبتر الآن ، فقط يدير القرص ويجىء صوتها ربما تصغى فى هذه اللحظات الى اذاعات العالم ، لكنه لا يمد يده انه يخجل ، كل رجل هنا يتوق الى رؤية أولاده أو سماع صوتأهله ، انه يقف أمام الخريطة الضخمة الممتدة بعرض الحائط ، ينتقل من بالوظة على البحر الابيض الى رأس محمد فى الجنوب ، يحلق بعينيه فوق الخليج ، شلاطيم ، رأس سدر ، كيف تبدو مياه البحر الآن ؟ كم سرعة ارياح فى الخليج ، قوة البحر فى اشمال ، وقوة التيار فى القناة ؟ ما هى أوضاع القوات ؟ كم لغما رصه العدو

حول مستودعات البترول هذه ؟ واين تتجمع احتياطيات العدو ؟ كيف يمكن تقليل الخسائر ؟ كيف يبدو الشروق فى كل موقع من مناطق القتال ، كيف تبدو الشمس فوق المعابر ؟ عند الحد الامامى داخل سيناء ؟ كيف يراها محارب جرح الآن ؟ بالضبط الآن . . يدق جرس التليفون . .

ـ صباح الخير . .

. . . .

ـ تمام . . علم يا أفندم . .

الجمعة ، التاسع عشر
من أكتوبر . .

تتوالى الانفجارات ، طلقات مدفعية سريعة ، صاروخ يتمزق منفجرا ، تنطلق فانتوم فى خط مستقيم متجهة الى عين الشمس كأنها ستهبط هناك ، فى اثرها طائرة ميج تمسك بذيلها ، بدا فى المطاردة ملمح انسانى كأن شخصا يعدو وراء الآخر ، لكن لم يرصد أحد لحظة اطلاق رشاشات الميج :

يقول الرفاعى انه سيتقدم الى اقصى حد ممكن ، وان مصطفى سيصحبه .

يقول علاء ان الموقف غامض ، والتقدم فيه مخاطرة لهذا يرجو ان يقوم بمهمة الاستطلاع هذه . .

يقول الرفاعى بهدوء ان مهمة الاستطلاع ستتم كما حدد هو . .

يهوى انفجار هائل من السماء ، تفرقع اصداء متتالية . .

يقول علاء انه من الضرورى . .

يقول الرفاعى . .

علاء . . هذا أمر . .

ماذا يحمل هذا النهار بين طياته ؟ أول مرة يتحدث فيها بصيغة الأمر ، والى من ؟ الى علاء ساعده الأيمن وسنده ، انه يشير الى مصطفى ، تلف عجلات الجيب فى الرمال ، تثب ، تتراجع ، تتقدم مخلفة غبارا أصفر ، ينطبق رشاش بعيد فى عصبية ، يتوقف فجأة ، يستدير ، يود لو يلقى عليهم نظرة ، ان يثبت الملامح فى ذهنه ، أجل هذه النظرة حتى يبتعد عنهم عدة أمتار ، لكن هذه الثنية من الارض أخفتهم ، حالت بينه وبينهم فلم يعد يراهم ، ينحنى مصطفى الى الامام ، جنزير دبابة مفرود كثعبان همدت حركته فلم يعد قادرا على التلوى ، الرفاعى يتأمل الجنزير ، جنزير مغطى بطبقة من الكاوتشوك ، وصلوا الى هنا اذن وتمكنوا من سحب جسم الدبابة ، ربما حدث هذا ليلا ، جنود يلوحون بأيديهم محذرين ، يلتفتون الى عربة الجيب بدهشة ، الى اليسار يتصاعد عامود من اللهب الحاد ، تتخلله بقع سوداء متطايرة ، عربة مجنزرة « توباز » يتدلى رأس تفحم من الفتحة العليا ، بدت التوباز مصيدة محكمة للأعمار ، فوارغ دانات ، يلمح الكلمات العبرية بسرعة ، وصلوا الى هنا ، لكنهم غير متواجدين الآن ، يتجولون فى المنطقة ، لم يستطع تحديد عدد الجثث التى تختلط ببعضها على جانبى الطريق ، هرستها الدبابات ، لم ير عضوا سليما واضح المعالم ، رأى حذاء يطل منه بقايا قدم ، ورقبة مشطوفة ، خندق مطمور ، يهز شفتيه ، احدثوا هذا عمدا ، يقيمون معرضا للفزع والرعب ، يملأ قلبه حنق ، تتوالى الجثث

المتراصة ، فى خيـاله يـرى كل الأحبـة الذين يعـرفهم فى موقـع هؤلاء الذين لا يعرفهم ، يرى مصطفى ورفقة العمر من اليمن حتى هذه اللحظة ، علاء ، شقيقه سامى وملامحه الطيبة ، وخجله فى مواجهة الغرباء ، زيتون بيده المقطوعة ودأبة الماثل حتى تصبح اليسرى أشد فـاعلية ، أبـو الفضل وانتمـائه العميق لمجموعة ، نظرة الود فى عينيه ، فى الطابور ، بعد العملية ، فى رقاده بمستشفى المعادى ، بدى وسام ، شريف ، تلك الأعمار التى لازالت فى بدايتها ، الملامح التى يراها فى وجوه المجندين الجدد ، هذا العدو الدموى الجبان الذى يهرس جثة ويطمر خندقا بالجنازير يستهدف كل الأحبة ، ارادوا بث الفزع ، لكنهم استثاروا فيه الكرة وغضب مر ، واستفزوا فيه الحنق ، لماذا جلد الموتى ؟

قف هنا . .

تتوارى السيارة خلف مرتفع رملى ، تأز صواريخ أرض ــ أرض فـوقهم ، رشقة قوية لم تتبعها اخرى ، يصيح انسان فى مكان قريب ، تنفذ الصيحة خلال عدة انفجارات ، لكنه لم يستطع تمييز اللغة ، خلف الكثيب انكفأ جندى ، وجهه مدفون فى الرمال ، خيط دم نحيل يصل ما خلف الاذن اليسرى والارض الرملية ، فى العودة اما أن يدفن الجثمان أو يعود به ، فى السماء ينطلق وهج ابيض نحيل اخترق ضوء النهار ، الى اليمين على بعد حوالى خمسين مترا سكت ايريال قاعدة الصواريخ ، عربة مقلوبة امام الدشمة ، الصواريخ ، متنـاثرة ، فـوق مقدمة احدها تعلق جثمان هامد ، بدا كأنه محمول على مقدمة رمح غليظ هائل تمسكه أيد خفية لا ترى . .

يشير الى القاعدة . .
سأبقى هنا . . اذهب ودمر كل شيء . .

يسرع مصطفى ، حذاؤه ينثر الرمل ، من بعيد يختلط لون الأشجار بصفرة الرمال ، تتصاعد النيران من اماكن متفرقة ، عربات نقل دهستها الدبابات ، عربات مدرعة ، تحترق ، ينظر الى السماء ، يبدو على الطائرة ذعر انسانى ، من هدير صوتها ادرك أنها ميراج ، ان ثمة احساسا يبدأ لديه ، عندما يشعر فى المكان الذى اعتاد عليه انه ليس وحيدا ، وان ثمة غرباء يرصدونه ، لحظات ما قبل اكتشاف الهدف ، تستقر الحواس ، الميج تنقص من أعلى ، لاتزال ظهور الطيران يثير فرحة ، أحساس متبق من حرب الاستنزاف ، يتوقف عن التجول بعينيه ، يركز البصر فى اتجاه الخضرة ، ينفصل عن الاشجار جسم معدنى محدد الخطوط والملامح ، تتحرك يده بالمدفع ، ينظر من خلال دائرة التنشين ، باتون ام ٦٠ ، تتوقف الدبابة لحظات ، يتحرك البرج يمينا ثم يستدير الى الشمال قليلا ، لم تستقر بعد على اتجاه محدد ، كأنها تضبط توازنها ، من حركة المركبة يستشف ما يدور داخل أفرادها ، هذه الدبابة حذرة ، يبدأ صوت رشاشاتها ، تطهر طريقها ، تتمركز المقدمة داخل اطار التنشين ، يضغط . .

بسرعة يتناول مقذوفا آخر ، سخنت الماسورة قليلا لكنها لن تحتاج الى تبريد الا بعد أربع ، خمس قذائف ، فى البداية ولمدة أجزاء من الثانية كأن شيئا لم يحدث ، يغوص النصل فى الجسم ثم يتدفق الدم ، الآن ينفجر الهب ، دخان كثيف ، له قوام ، تبتعد عيناه عن الدبابة ، هذه الأرض تخفى آخرين ، تتردد صيحات متباعدة ، الله أكبر . . الله أكبر . . يجرى مصطفى ، تنفجر دانة

خلفها ، ترتفع حرارة الجو ، يدوى انفجار ازرق هائل ، يتميع لون الفراغ ، يغطى الهواء دخان رمادى ، كأن الشمس انشطرت ، فوق قاعدة الصواريخ ألسنة لهب بطيئة كأنه حريق فى مستودع كيمائى فى نفس الوقت يبدأ انفجار ذخيرة الدبابة ، ثم تنفجر الدبابة نفسها يقول مصطفى . .

فجرت كل الصواريخ . . احرقت كل الاوراق . .

يصيح الرفاعى . .
مصطفى . .

من الخضرة تبدو دبابة ، ثم تخرج دبابة أخرى ، ومن الرمال الصفراء المرتفعة تطل مقدمة دبابة ، وباتجاه القناة تبدو عربة نصف جنزير تحمل مدفع هاون ، وفى السماء أزير طائرة هيلو كبتر ، تظهر ثلاث طائرات تطير فى خط مستقيم ، من مكان ما ينطلق مدفع يشعل النيران فى دبابة سنتوريون ، لكنها تستمر فى التقدم ، تتوقف فجأة ، تتجاوزها دبابتان ، على مرتفع مجاور تتناثر نباتات صحراوية شاحبة فى السماء ينطفىء بريق النهار ، يتكاثف الدخان حتى يمكن النظر الى قرص الشمس من خلاله ، يضغط الزناد ، يناوله مصطفى الدانة يدوى صياح جماعى فى موقع الى اليسار ، يرتفع غبار فى المواجهة ، تتواصل اصوات الرشاشات سريعة ، لاهثة كماكينات خياطة تعمل فى ورشة فسيحة بلا سقف ، يرتفع صياح من أماكن متعددة ، تحترق دبابة أخرى ، وفى الفراغ ترف دانة هاون كرمش العين اذ يهتز بسرعة مطلقة ازيزا كنحلة تهوى ، وبعيدا يتوارى النهار الازرق الشاحب . .

اليوم الثاني . .
الثامن عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام ، بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتـذرون ، يحدث هذا العناق السريع ، الموجز ، الرجولي ، الحار ، نرجو ان يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرؤوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معقبة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، وطفوه ميتا بعد كل اشتبـاك ، ثم الطرق الصحـراوية ، ومـواقع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندي وحيد يمشي فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاي بينما لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء انه يتوجه بمشيه الى تلك الصحراء الفسحـة ، ساعـة

التكوين

قبل ظهر السبت الحادى عشر من يونية عـام ١٩٦٧ ، وقف النقيب بحرى وسام عباس فى منطقة لسان بور توفيق ، حوله تخلخـل النظام ، وانفرط ، عشرات الضباط والجنود عبروا القناة اما فى قوارب أو سابحين ، وفى السويس انشىء مركز لتجميع الشاردين ، فيما بعد استعاد كثيرا هذا اللفظ ابن تلك الأيام ، الشاردين فى الواحدة ظهروا ، جنديان توقفا فوق مرتفع من الارض ثم انضم اليهم ثالث فرابع فخامس ، رأى لاول مرة الزى الاسرائيلى العسكرى بلونه الزيتونى ، الاكمام المثنية حتى منتصف الذراعين ، ومن عدستى المنظار رأى وجها ابيض ، طويل الشعر ، من الخلف دفعوا بطابور من ثمانية أفراد ، يدى كل منهم مربوطة الى الخلف ،

أوقفوهم بالقرب من المعدية ، ابتلع النقيب بحرى وسام لعابه ، وفى هذه اللحظات عرف قلبه هذه الظاهرة التى أصبحت تلازمه فيما بعد ، دفقات مفاجئة كأن دماء مرت من قلبه مرة واحدة ، تصل آثار الخفقة الى أطرافه ، ويسرى خدر فى مؤخرة رأسه ، قال العقيد علاء ان قلبك عصبى وأصحاب هذه القلوب يعيشون طويلا ، لسبب ما أدرك أن هؤلاء الثمانية حفاة وان اقدامهم متورمة مع انه لم ير ذلك ، طاف العدو حولهم مشهرا رشاشات العوزى ، من الواضح انهم أوقفوهم فوق مكان مرتفع حتى يراهم كل من يختلس النظر أو يحملق من بور توفيق أو الشاطىء العريض الذى استلقى عاريا من المواقع والدشم والاسلاك الشائكة ، تقدم أحدهم ، كان نحيلا ، وبدا المشهد كأنه اعد بعناية ، طاف العدو النحيل حول الثمانية مرتين ، صفع الاول ثم صفع الخامس ، وامام الثامن تراجع قليلا الى الخلف ، وفى هذه اللحظة رأى النقيب بحرى وسام عباس يده ممسكة بمسدس مشهر ، عاد العدو يمر أمامهم وكأنه يستعرضهم ، ثم رفع المسدس الى منتصف جبهة الأول من اليسار . . طلقة . . سقط خطا خطوة ، طلقة ، سقط الثالث ، طلقة ، سقط الخامس ، طلقة ، أخرست الى الابد الذعر الانسانى الذى بدا واضحا على السابع ، قال النقيب بحرى وسام عباس الذى خاض فى الدم بعد ذلك خوضا ، انه ما رأى طوال حياته اشنع من ذلك قط ، اربعة قتلوا بالصدفة وبالاختيار

الحر من العدو ، واربعة بقوا على قيد الحياة بفضل مكان الوقوف ، امسك العدو بوقا يدويا ، وصاح طالبا صناديق الكوكاكولا قال ان هناك عددا من الضباط والجنود ، مقابل كل انسان زجاجة والا سيلقى الجميع مصير هؤلاء الاربعة ، عندما وصل الاربعة الاحياء الى الضفة الشرقية تقدم منهم ، كان أحدهم ينظر فى اتجاه واحد ، متفحم الوجنتين ، مقدد النظرات ، يستدير كيفما يوجه ، يقولون له أمش فيمشى ، ويطلبون منه الوقوف فيقف ، اذا ترك مكانه فلا يهتز مقدار شعرة فى انتظار من يقول له افعل كذا ، غير ان ما جرى لم يكن النهاية ، حوالى الثانية تجمع عدد كبير من النازحين القادمين من أعماق سيناء ، من غزة والعريش ، مرة أخرى عادت المعدية التابعة لهيئة قناة السويس ليفتدى كل انسان بزجاجة كوكاكولا ، لم ينقطع العويل والصراخ منذ ظهورهم غير أن العويل الذى ارتفع فى الساعة الثانية والثلث اختلف ، كانت الشمس تحولت الى النصف الآخر من السماء فأتاح ضوؤها الفرصة لبروز التفاصيل ، اوهكذا أدرك عندما بدت مستميتة فى شد تلك الفتاة من بين أيدى أربعة « عدو » ، ارتفع مدفع رشاش وهوى فوق جبهة الأم ، وخرس الصراخ الممدود ليستمر الصراخ المتقطع ، سحبوا الفتاة الى كشك من الصفيح المضلع لم يكشف وجوده الا فى هذه اللحظة ، لم يدر من أقامه ، ولا لأى غرض ، قبل وصولهم الى الكشك رفع بندقية تناولها من احد الجنود سدد الفوهة الى

رأس جندى عدو ، غير أن يدا امسكت معصمه ، ضابط برتبة مقدم ، طويل اللحيـة ، منهك الحـدقتين ، قـال . . . . سيقتلون كل هؤلاء ، واشار الى الواقفين فوق الضفـة الشرقيـة ، وإلى الواقفـين فوق الضفـة الغربية ، ساد صمت ، كان بداية لهذا الصمت الثقيل الذى استمر يراه كلما اقترب من القناة أو عبرها ، حوالى الثالثة خرجوا بالفتاة ، القوها فى قاع المعدية ، جاءت إلى الضفة الغربية بلا أم ، ممزقة ، مستـورة بشال رجل عجوز وبين فخذيها سالت دماء ساهم فى نزفها ستة عشر « عدو » عندما نظر اليها رأى وجها عمره عشرة او خمسة عشر ، وشفاه لم تلثم ولم تنفتح ، لماذا يحـدث هذا للنسـاء دائما فى الحـروب ؟ لماذا هن الضحيـة باستمرار ؟

فى تلك الأيام كان العقيد علاء يسأل نفسه ، ماذا نفعل ؟ لم يغادر مكتبه بادارة المخابرات لمدة اربعة أيام متصلة ، قرأ تقارير واردة ، وخطابـات صـادرة ، ونشرات معلومـات ، وملفات تتضمن مـا قـالتـه الاذاعـات المعـادية ، الاذاعـات الصديقـة ، طلب وكرر الـطلب لكى يذهـب الى الجبهة ، قيل له ان الموقف غامض ، ويجب عليه البقـاء لممارسـة عمله كطبيب ، أخذه الضيق حتى كاد يبكى فسب ولعن فى غرفته عندما انفرد بنفسه ، وطافت به خواطر قاتمة ، كيف يوجد السبيل لمضيه بمفرده ، يعبر ويقاتل . وتسـاءل لأول مرة عن جـدوى استمرار عمله كـطبيب والبلد

تتدهور ، فى تلك الأيام جاءت انباء غير مطمئنة تقول ان لواء اسرائيليا مدرعا يتقدم على الطريق الساحلى المحاذى للبحر الابيض ، والهدف ، احتلال مدينة بورفؤاد ، وان العدو لن يلتزم بوقف اطلاق النار ، لم يكن هناك شىء مؤكد فعيون الاستطلاع مطفأة فى هذا الوقت بتلك المنطقة ، ما من احد يدرى بحقيقة ما يقال ، وبعد مناقشات واجتماعات تمت فى عدة جهات استقر الرأى على دفع دورية استطلاع محدودة العدد لاستطلاع الموقف ، ونقل ما قد يطرأ ، فتجلى الحقيقة ، وتكشف المستور من الانباء ، وفى نهاية هذه الاجتماعات قال ضابط كبير برتبة لواء ردا على تساؤل حول من يقوم بهذه المهمة ، انه يعرف ضابطا شجاعا يلح عليه منذ ايام للقيام بعمل فدائى ضد العدو المتقدم على المحاور فى سيناء ، ابلى بلاء حسنا فى حرب اليمن ، وحصل على ترقيتين استثنائيتين ، ويحمل وسام النجمة العسكرية ، واسمه معروف لكافة وحدات الصاعقة اذ انه من جيل المعلمين الأوائل بها ، وهو ضابط شجاع ، جسور ، قلبه جامد ، تساءل احد الضباط ، من تقصد يا سيدى ؟ فقال انه يقصد العقيد اركان حرب ابراهيم الرفاعى ، عندئذ أومأ الضباط المجتمعون ، وقالوا ، بلى ، لقد سمعنا عنه ، فقال الضابط ، وفى هذه الايام لا أرى أحسن منه ولا ابدى احدا عنه ، ولا اثق الا به ، ثم انها فرصتى لا تخلص من الحاحه ، وأدفع عنى ازعاجه ، اذ انه يود الذهاب الى الميدان ، ولا يقتنع

بما اسند اليه من مهام هنا ، قيل له ، حسنا اخترت ، ليبلغ بالمهمة ، بعد لحظات استدعى الضابط الكبير برتبة اللواء ، الرفاعى ، وعندما جاء بدا حزينا فى وقفته ، مزموم الشفتين ، منطفئ الابتسامة وفى عينيه أسى عظيم ، وكأنه لم يذق النوم من ليال طويلة ، وبدا يخفى من الحديث اكثر مما يقوله حتى لو تكلم ساعات ، قال له الضابط الكبير ، استعد للقيام بمهمة ، الم تطلب منى الذهاب الى الجبهة ، قال الرفاعى ، بلى فعلت ، قال الضابط الكبير ، جهز نفسك ، ثم بسط له الخريطة وأشار الى الخطوط والمنحنيات ، والدوائر الزرقاء والعلامات الحمراء ، والمربعات ، والاسهم ، طلب منه اليقظة والحذر ، وأخبره ان التعليمات تقضى بالا تشتبك أبدا ، ليستطلع وليرجع بالأخبار ، ليكشف الغموض ، اطرق لحظة ، وقال من ستصحب ؟ فقال الرفاعى إنه سيصحب من يقع عليه الاختيار ، ولكن من ناحيته هو يتقدم باسم الجاويش مصطفى ، أحد جنود الصاعقة الذين حاربوا معه ورافقوه ، فتساءل الضابط ، أين هو الآن ، قال الرفاعى إنه بمدرسة الصاعقة ، فرفع الضابط سماعة التليفون وطلب استدعاء مصطفى ، ثم قال إنه يقترح ضابط طبيب يعمل هنا فى الإدارة ، حصل على فرقة صاعقة ، وفرقة استطلاع ، وفرقة غطس ، فعل هذا وهو طبيب ، لكن لشغفه بالقتال وحبه للشقاوة يبدو انه نسى الطب ، ولم يبتسم الرفاعى لدعابة الضابط فلم يكن فى صدره مجال

للابتسام فى تلك الأيام ، بعد لحظات ، دخل علاء إلى الغرفة تسبقه نظراته الحادة ، وللوهلة الأولى أدرك الرفاعى أنه بازاء مقاتل لم يسبق له رؤيته ، لكنه أوتى حاسة فريدة ، وقدرة عجيبة على التقاط جوهر الآخرين ، لم يظهر ذلك ابدا ، ولكن عرف هذا عنه ، مد علاء كفا كبيرة ، طويلة الاصابع ، صافح الرفاعى ، وقال انه سمع عنه ، لكن لم يسعده الحظ بلقائه ، وهنا قال الضابط كبير الرتبة ، ان الوقت يجرى ، وعلى الرفاعى أن يعطى « تمام » فى الخامسة عليه ان يختار عددا محدودا من الجنود ، وان يحدد معداته ، وان يستعد للتحرك بعد آخر ضوء ، وعندما سألوه ، أى طريق سيسلك ؟ قال انه سيتخذ الطريق المحاذى للقناة ، قاد السيارة عبد المؤمن ، إلى جواره الرفاعى ، وخلفهما علاء ، ومصطفى ، وجندى من الصاعقة اسمه أبو الفضل ، وجندى آخر اسمه الجرجاوى ، فى تلك الأيام كانت كثافة الحركة تمضى فى اتجاه معاكس لطريقهم ، الكل يعود من سيناء ، عربات تحمل معدات مهشمة ، يتعلق بها جنود مرهقون ، لم تخلع احذيتهم منذ ايام ، والمدافع مكشوفة الفوهات ، الكل يعود والرفاعى ذاهب ، لم يتبادل كلمات كثيرة مع من صحبوه ، لكنه ادرك أن شيئا بدأ ، وان امرا لا تدركه عين ، ولا يحيط به فهم قد ولد ، لم يدرك طبيعته ، ولم يفسر ماهيته ، لكنه مع الحركة انهى حالة التوحد ، وبدأ يقهر الكآبة ، لم يعد يواجه احزانه وحيدا ، كأنه يعرف علاء منذ

سنوات ، عندما عبرا القناة الى بور فؤاد نظر الى الأفق حيث السماء والبحر يلتقيان ، وقال لنفسه ، تلك أيام تتقرر فيها المصائر الكبار صباح اليوم. التالى قد ضم تقريره إلى الضباط كبير الرتبة وعندما آذن لقاؤهما انتهاء ، اقترح اقتراحا محددا ، هو القيام بعمليات محدودة شرق القناة ، أعمال فى الخفاء ، لكن ستعرفها القوات المسلحة ، الهدف منها بث قدر من الثقة ، أعمال محدودة لكن خارقة ، ثم قال انه يعرف الرجال الذين سيقومون بها ، اصغى الضابط كبير الرتبة ، وعد بنقل الاقتراح فورا ، فى ذلك اليوم اطل الرفاعى على الصحراء الممتدة ، لكم أحس بالألم عندما خطا حذرا فوق أرض طالما جال وصال فوقها ، لا يستطيع أن يمضى الآن اليها الا متسللا ، سيحول دونه عدو ، لكن الجبهات لا تنتهى بالنسبة للمهزوم ، ما أكثر الجبهات التى يمكنه أن يحارب فيها ، يبدو الجسد هائلا ، قويا ، لكن اكتشاف نقاط الوهن وتسديد ما يوجع ويؤلم ويفرى الحشاء ، الصراع لا يدور فقط ضد هياكل خرسانية ، وحصون ، ودبابات ، ومدافع سريعة ، واخرى ثقيلة ، الصراع يجب ان يشن ضد هذا الخور فى النفوس ، الثقة التى اهتزت وتدلت مهتزة فى بئر القلوب ، بالأمس قال لضابط برتبة نقيب ، سنقوم من جديد ، نظر اليه الضابط بعينين منكسرتين ؛ هذه الانحناءة الخفيفة التى تجعل مساحة العنق اكثر مما هى عليه ، يبدو معها متأهبا للصفع ما منع الضابط من الرد الصريح الا اللياقة

التى تقتضيها التقاليد ، ابدى ما يبطنه فى نظرة آلمت الرفاعى واحدثت به جرحا لم تسببه اداة من صنع بشر ، انما احدثه نيزك هوى واحترق به جدار القلب تلك النظرة المنكسرة هدف ، كيف تتحول من نقيض الى آخر لكن النظرة وما تعنيه ليست قاصرة على العينين ، الم يرها فى كل ما يحيطه ، الم ير الشوارع منكفئة ، والبيوت مطرقة ولولا جهد من أعمدة الخرسانة لأقعت فوق الأرض من الخجل ، ألم يتغير لون السماء ، الم يبرد قرص الشمس قبل الأوان ؟ الم تتحول سمات يونيو البلية الى وخزات تأتى بالهم . وتقتات منها البلايا ، الم يتأثر الود المرسل من العينين الى العينين ؟ المرارة فى اللقمة ، ورشفة الماء لم تعد مجدية ، كيف يغرس الخنجر فيما لا يمسك بيد ، وما يستعصى على الأبصار ؟ بعد العودة ادرك انه يلوذ بعلاء وأن علاء يستظل به ، أما مصطفى وأبو الفضل فثمة ما يشده اليهما ، هؤلاء هم الذين لا يشعر معهم الانسان بخوف اذا فاجأه الموت ، ما قضوه من وقت فى هذه المنطقة التى يحدها البحر المتوسط من ناحية وبحيرة البردويل من ناحية يشبه عمرا ، قال علاء انه ظل طبيبا الى اللحظة التى دمر فيها الطيران فوق الممرات ، أشار الى الصحراء ، فقال انه متفرغ للعدو ، اما هو واما هم ، وقال ان العالم لا يتسع لوجودهم معه .

فى اليوم التالى لليوم التالى لليوم الذى تم فيه الاستطلاع قال الضابط كبير الرتبة ان موافقة مبدئية تمت ، بمعنى ادق ، لقد التقى اقتراحه بالنوايا

الموجودة ، وأن الكثيرين ابدوا ارتياحا لتصدى الرفاعى لهذه المهمة وإن ضباطاً كبيراً من هيئة الأركان قال إن الرفاعى يحفظ سيناء عن ظهر قلب ، وانه قام بالعديد من الدوريات فى صحارى مصر ، وعندما يعرف هضاب الصحراء الشرقية ووديان الصحراء الغربية ، وعندما تتوه دورية فى الصحراء فافضل مقتف للاثر هو الرفاعى ، وانه يعرف المدن من اضوائها عندما تبدو للمحلق بالطائرة ، ومن أهلة مآذنها ومبانيها ، كما يعرف المحافظات من تعرجات النيل وضيق واتساع المساحة الخضراء ، فى الهليو كبتر يعرف بعدكم من الثوانى ستشهق قمة جبلية ، وأى الممرات تخلو من دوامات الهواء ، يشم هبوب العاصفة ، ويدرك من لون السماء متى يجيء المطر ؟ قال الضابط بهيئة الاركان ان الرفاعى قلبه اطلس حى مصر .

منذ هذه اللحظة لم يهدأ ، وما اعتمل داخله صار يمور خارجه ، بدأ فى تحديد الاهداف ، جاء بالخرائط ، والمعدات ، وصباح أحد الايام مضى الى سلاح المهمات ، وشرح كل ما يريده ، ورسم بخط يده تصوره لما ستكون عليه ملابس المقاتل جنديا كان أو ضابطا ، وحدد عدد الجيوب ، وخصص كل جيب لاحتواء شيء من ادوات القتال ، كما أمضى ساعات طوال فى مناقشة بعض انواع الاسلحة ، ايهم اصلح للضرب من قريب ، أى الاسلحة اصلح للقصف من بعيد ، وناقش بعض المتخصصين فى الكلية الفنية العسكرية وأشار بيده الى أجزاء بعض الاسلحة ، وتساءل :

لماذا لا يبدل موضع هذه القطعة بتلك ؟ كما درس اجزاء الهليوكبتر واقترح اضافة بعض التعديلات الممكن ادخالها على اجسام الطائرات فى ورش سلاح الجو ، أثناء ذلك مضى الى سيناء متسللا للمرة الثانية ، وقام مع علاء ومصطفى وابو الفضل وضابط برتبة رائد انضم اليهم اسمه عصام الدالى ، فجروا مخاذن الذخيرة التى تركتها القوات المصرية ، وبدأ الانفجار فى البداية كقنبلة ذرية صغيرة ، وشوهد اللهب من مسافات بعيدة ، واستمرت الانفجارات ساعات طوالا ، فى نفس الوقت اجرى اتصالات لضم بعض المقاتلين إليه ، وكان علاء صديقا لضابط فى البحرية برتبة مقدم ، اتصل به ، وسعى اليه ، ورشح الضابط شابا ذكيا شجاعا تخصص فى عمليات الاستطلاع البحرى اسمه وسام عباس ، ومساعد اسمه ابو الحسن ، وصفه بانه وحش حقيقى ، قوى ، من الناس المكافحين ، الذين بنوا أنفسهم بسواعدهم تحدث عنه ، وأفاض فى الحديث ، فقال انه كان غطاسا بشاطىء كيلو باترا ، وكان يراقب البحر حتى لا يبتلع احد المصطافين ، لم يرض عن عمله ، اقترح عليه البعض ان يتطوع ، فتطوع ، حدث هذا منذ عشر سنوات ، وخلال هذه السنوات حصل ابو الحسن على فرقة غطس ، وفرقة ضفادع بشرية ، وبجهده استطاع أن يفوز ببطولة القوات المسلحة للياقة البدنية منذ عامين ، وتزوج وانجب طفلة منذ عام واحد .

جاء هؤلاء ، وجاء آخرون ، وشد الرفاعى على يد وسام ، وقال له ان العمل سيتم فى البحر ، وانه يريده رقيبا على البر وعلى البحر ، وراصدا لسرعة الامواج فى القناة ، وخليج السويس ، وعالما بالمد والجزر ، ومواقع سفن العدو ، وتصميمات مرافئه ، وما يضيفه الى مراسيه من تحصينات ، ومواعيد تفجير الألغام الليلية المضادة للضفادع البشرية ، كما طلب منه ان يعلم من لا يعلم حركة الموج ، وكيف يعرف الانسان حركة الرياح ، ومواقع النجوم فى السماء ، قال انهم لن يصلوا الى العدو عبر فراغ انما سيصارعون امواجا كالجبال وسيحاربون الرياح ، ويجب الا تضللهم النجوم ، وان يتآخوا مع البرد والحر والجوع ، وان يأمنوا المفاجأة ، وان يصغوا الى همس العدو .

فيتلك الايام نشط الرفاعى ، وقال ابو الحسن يوما لنفسه ، أنه يبدو كإنسان قصير العمر يريد أن ينجز العظيم من الأمور قبل رحيله ، وقال عصام لنفسه إنه إنسان لا يهدأ ، ولا يمكن رؤيته نائما ، فى تلك الأيام ضاق صدره لأن الليل لا يتسع ، ولان النهار لا يؤجل رحيله ، ويدا له ان الانسان مهما فعل فلن يوقف أو يبطىء من زحف الساعات وتوالى الدقائق ، ادرك انه محصور فى مساحة زمنية يجب ان ينجز فيها كل ما قرر ، كان يريد أن يفعل كل شىء فى أقصر زمن ، يريد أن يقرأ تقارير الاستطلاع ، ثم يستطلع بنفسه ان يشرف على التدريب ، ويتابع

الرجال ، ينتقل ، يهاجم ، يعود كثيرا ما سأل نفسه قبل النوم ، هل يكفى العمر لما أريد ؟ كثيرا ما فوجىء بنفسه حائرا لا يدرى بأى شىء يبدأ ، كمن تزاحمت عليه الافكار فجأة فى لحظة يود لو تمهلت الايام ، فى لحظة أخرى تمنى لو اسرع ايقاع الزمن ، فى لحظة اخرى تساءل لماذا لا يصبح للزمن ايقاع متغير فيسرع ويبطىء ، صحب الرجال الى صحراء دهشور ، والى اماكن لم تطرق من قبل فى الصحراء الشرقية ، والى جبال البحر الاحمر ، الى جبل الجلالة ، الى الصحراء الغربية ، اشرف على بناء دشمة تشبه تلك الدشمة التى اقامها العدو فى منطقة الشط واطلق عليها التبة المسحورة ، تم بناء الدشمة على حافة ترعة تشبه القناة بالقرب من القناطر الخيرية ، اكد وسام ان سرعة المياه فيها تشبه الى حد كبير سرعة المياه ليلا فى القناة ، طار معهم فى الأليوشن ونزلوا من السماء الى الأرض نهارا ، وقفزوا من الانتينوف فى منتصف الليل ، غطسوا الى أعماق البحر الأحمر ، وسددوا بنادق الحراب تحت الماء فى جوف البحر الأحمر ، لفت كل منهم تلك الوحدة الباردة التى تطبق على الانسان داخل الاعماق الباردة البعيدة عندما يصبح عالما مستقلا بذاته ، عليه تحديد الاتجاه ، واتخاذ القرار ، والانتباه الى العمق الذى لا عمق بعده ، وعندما امكن للرجال ان يقفزوا من الهليوكبترات بدون ان تلامس العجلات سطح الارض ابدى ارتياحا ، وعندما عاد مع وسام الى بور سعيد بعد استطلاع موقع رمانة

وقف يتأمل النواريس البيضاء بعد ان قال له وسام ان النوارس تواجه مهب الرياح وتمكن معرفة مصدر هبوطها من الجهة التى لولى النوارس منقاره اليها ، اضمر اعجابا بالنوارس لطول ما تقطعه من مسافات ، امكانيات لا حدود لها تضمها أجسام نحيلة . . وفى يوم آخر طلب من وسام ان يجمع له معلومات عن السفينة بيت شيفع ، ولم يسأل وسام عما لم يحط به علما ، لماذا بيت شيفع بالذات ؟ على فترات زمنية متباعدة صار الرفاعى يسأل ، ما أخبار بيت شيفع الآن ؟ اين هى ؟ اين ترسو ؟ بعد حوالى سنة اتم خطة محكمة لاغراقها بواسطة اعتراض طريقها بلغم بحرى ثقيل عند نقطة معينة من الخليج اعتادت بيت شيفع التمهل عندها اثناء رحلاتها المنتظمة من ايلات الى سدر ، غير ان ذلك لم يتم لأسباب ما ، بعد أن تابع حركة الدوريات وتوقيت مرورها بعدة نقاط على الطريق الموازى للقناة ، قرر الهجوم على دورية اسرائيلية تتحرك بين نقطة لسان التمساح القوية ونقطة رقم ٦ ، حدد الهدف ، احضار اسير حى ، فى الساعة السادسة صباحا وعشر دقائق فتحت نيران المدافع الاوتوماتيكية اسرع علاء والجرجاوى الى داخل العربة ، فى تلك اللحظة قفز جندى « عدو » ضخم الجثة ، بندقية لم تفارق كتفه ، لم يفكر فى اشهارها ، فى وثبات سريعة لحقه الرفاعى ، لف شعر رأسه الطويل حول يده ، بحبل قصير أوثق يديه خلف ظهره ، اختلطت ملامح الجندى العدو ، تكسرت كلمات عربية بين شفتيه ،

لهجتها شامية ، « لا تذبحنى بخنجر . . اضربنى بالرصاص » ، كان صوته أجوف ، باردا ، دفعه الرفاعى باتجاه القناة ، بدأت الدانات الاسرائيلية تنفجر حولهم ، استمر تقدمهم باتجاه المنطقة التى ستأتى اليها القوارب عند ضفة القناة المرتفعة وقف الرفاعى الى جواره مصطفى يبحثان عن القارب ، استمر اقتراب علاء والرجال منها ، عندما تأكد الجندى العدو من انها لن يقتلاه ، بدا مرعوبا من دانات المدفعية الاسرائيلية التى راح بعضها يتساقط فى عرض القناة ، تسائل . متى تعبرون إلى الضفة الغربية ؟ متى تعودون ؟ كان يتعجل العبور معهم التماسا للأمان ، بدا أكثر منهم الحاحا ، عندما رآه الجنود فى المواقع المواجهة ، تساءل أحدهم ، كيف احتمل القارب هذا الثقل كله ، اندفع جاويش باتجاهه رافعا قبضته ، زعق الرفاعى آمرا بالعودة ، تعلقت عينا الجندى العدو بالرفاعى ، بعد لحظات همس ضابط الموقع « أعذرهم يا أفندم » .

حدث مساء اليوم التالى ان جاء جندى اسمه زيتون الى مقر قيادة المجموعة يطلب لقاء الرفاعى ، دخل المقر مبتسما بهدوء ، وكان كم سترته الايسر الخاوى قد أدخل فى جيب بنطلونه ، قال هل نسيتنى يا أفندم ؟ فقال ، وهل ينسى الرفاعى من عمل معه ؟ بسرعة أدرك الرفاعى لماذا جاء زيتون ؟ سأله عن أحواله قال زيتون انه يذكر تلك الايام فى العريش ويحن

اليهـا ؟ ولكنه يضيق الآن لأنهم فى الـوحدة يعـاملونه كشىء زائـد عن الحاجة ، قال الرفاعى لنفسه ، ان زيتون يمكن الاعتماد عليـه ، لماذا لم يفكر فيه ؟ لام نفسه لأنه لم يستدع زيتون برغم انه سمع كثيرا فى مدرسة الصاعقة عن قدرته على استخدام الخنجر بيده الوحيدة ، لن يجعله يصل الى الحظة التى يعرض فيها نفسه ، قال بسرعة ،

لماذا لا تجىء معنا ؟

تابع بسرعة . .

إننا فى حاجة إليك هنا . . يجب ان تجىء لتقاتل . .

لأول مرة يخلو وجه زيتون من الابتسامة ، ما فوجىء به لم يدع الفرصة لأى انفعال آخر بالنفاذ الى ملامحه ، قام ، ضرب الأرض بقدمه ، رفع يده السليمة بتحية عسكرية ، لم يستدع علاء فى هذه اللحظة خشية أى تعليق لا يستطيع ان يمنع نفسه عن ابدائه ، كتب بنفسه خطاب الانتداب ، بعد ثلاثة أيام جاء زيتون ، فى اليوم الأول استدعاه الرفاعى ، قال ضاحكا . .

« إن مجيئك فأل خير علينا . . سنقـوم الليلة بعملية سيتحـدث عنها الكثيرون فيما بعد . . ستطلع معنا . . » اما أمر هذه العملية فيرجع الى عدة أيام عندما جاءت عدة تقارير مختلفة من الجبهة تشير الى ظهور انواع جديدة من الصـواريخ لـدى العدو ، وان هـذه الانواع تثـير تساؤلات

عديدة ، خاصة انها منصوبة فى الخلاء بعيدا عن مواقع العدو الثابتة ، ودشمة ، رفع بيديه الصور الملتقطة وبدت المعالم باهتة ، هنا قال الرفاعى . .

« اقترح ان نعبر وان ندرس هذه الصواريخ عن قرب » . . غير ان الرفاعى اضمر فى نفسه أمرا ، لم يكشف عنه ، ولم يبح به لأقرب الناس اليه ، فقد يبدو الهدف خياليا ، من الصعب تحقيقه ، لكن أحوال الناس فى حاجة الى أعمال فيها وهج لخيال وجرأة التخطيط ، والقدرة على التنفيذ ، عندما تسرى اخبار عملية كهذه سيفكر هذا الجندى الواقف فى قلب الوحشة الجبلية برأس غارب ، قام رجالنا بكذا وكذا ، جرعات من الثقة فى شرايين الرجال الذين يسمعون السباب ولا يردون ، ويرون العناق والقبل كل يوم سبت ، وعندما جزى صعيدى على شفتيه حتى ادماها ولم يعد لديه ما يجز عليه سدد الرصاصة ، وضع حدا للنشوة المقصودة ، حوكم ، وراح الاعتذار تلو الاعتذار عن طريق هيئة الرقابة ، وجاءت التعليمات بضرورة ضبط النفس ، المسموح به الآن هذه الأعمال التى تتم سرا ، والتى تذكرها الصحف منسوبة الى منظمة سيناء العربية .

ولما جاء الليل ، وبالقرب من مياه القناة شرح الرفاعى لعلاء وعصام وأبو الفضل ومصطفى وزيتون ما جال بخاطره ، أبدى علاء حماسا ، قال

الرفاعى انهم لن يصحبوا أى اسلحة نارية ، كل ما سيأخذونه معهم خناجر ومقصات كبيرة حادة ، الصمت هو ضمان نجاح هذه العملية ، ارتدوا ثياب الضفادع ، فى آخر موقع مطل على الماء ، اندفع ضابط شاب ، عانق الرفاعى ، عانق علاء ، قال ، ربنا معكم ، غابوا فى الظلام بعد لحظات ، رائحة الرمال القريبة من المياه تختلف عن رائحة الرمال فى الاماكن الخلفية من الشاطىء ، تختلف عن رمال الصحراء ، الاندفاع فى الماء موقوت بالثانية ، كما ان الأحساس بالزمن فى البحر يختلف عنه فى البر ، حقول الالغام مرصودة لكن المفاجأة قد تحدث فى أى لحظة ، الخطى تهتدى بالنجوم البعيدة الحذر حاد ، لا يحملون أى أسلحة نارية ، الرفاعى يتقدم المجموعة ، كل حواسه موجهة للرصد والانذار ، توقف ، أصوات قريبة تتضح ، حديث متبادل بالعبرية ، صمت ، ضحكة ، عبارة تلفظ ، صمت ، صمت ، صمت ثم شخير ، فوق الارض المستوية بدت الصواريخ ، تدفق الرفاعى منسابا فوق الرمال ، لم يتوقف الا عند السلك الممتد الذى يصل الصاروخ بقاعدة الاطلاق ، فتح المقص ، اطبق على السلك ، تقدم وسام ، لم يلق عناء كبيرا فى تحريك الصاروخ ثم حمله ، ارتفاعه كطفل فى التاسعة .

فى مقر الوحدة المرابطة على الضفة الغربية حلق الضابط الى الصواريخ الثلاثة ، جلس ابو الفضل وزيتون فوق صندوق ذخيرة فارغ ، رشفوا

الشاى ، الح الضابط الشاب فى تقديم عشاء ، لكن الرفاعى قال انهم ينتظرون هذه الصواريخ فى القاهرة ، خرج من الملجأ الذى اطلق عليه الجنود اسم « الفيلا » فى الشرق كانوا معزولين ، يحيطهم عدو ، وصلوا الى الضفة الغربية بدوا كأنهم يدخلون تحت غطاء فى ليلة باردة ، تـذكر حكاية قرأها عن القبائل الضاربة فى الصحراء بحثا عن الماء ، يتقدمها دليل يمتطى جملا ، عند عثوره على البئر أو النبع يصيح مناديا أهله ، يجب أن يكون حاد البصر ، فذ الملاحظة ، حتى لا يخيل إليه ما هو غير موجود ، عندئذ يهلك القوم . .

فى الساعات الأولى من الصباح قال الضابط كبير الرتبة . . هذا أمر لا يصدق . . ليت كل القوات المسلحة تعرف ما قمتم به . .

فى نفس اللحظة اكد جندى استطلاع لزميله . .

عبروا من هنا . . ورأيتهم بالصواريخ عند العودة . .

بعد يومين سأل الرفاعى وسام . .

لم يذكروا شيئا بالطبع . .

ضحك وسام . .

ماذا سيقولون . . فى مثل هذه الأمور تخرس انفاسهم .

قال الرفاعى . .

ونحن من ناحيتنا لا حس ولا خبر . . ولا من شاف ولا من درى . .

قال علاء . .

لو اغرنا على الموقع لاحدثنا خسائر لا بأس بها . . سمعت شخير النائمين بأذنى . .

قال وسام مخاطبا علاء . .

يا سلام يا أفندم لو شفت المنظر فى المنطقة صباح اليوم التالى . . عربات تروح وعربات تجىء . . وضباط من سلاح المهندسين ، يفحصون ، ويتناقشون ، ثم يقفون كعلامات الاستفهام . .

قال علاء مشيرا إلى الخريطة . .

يجب أن يغوصوا حتى الركب فى الدم . .

وحدث فى الايام التالية أن اجرى الرفاعى عدة اتصالات وقرأ عددا من التقارير ، واضاف العديد من الملاحظات الى سبعين ملفا فى الخزانة السرية ، ضم كل ملف تخطيطا أوليا لعمليات مقترحة ضد هدف معين ، وكافة المعلومات المتاحة عن ذلك الهدف ، كما يضم تقارير عن المعدات المتوفرة ، وأخرى مطلوبة ، وكفاءة السلاح والتعديلات المقترحة ، وكفاءات العربات والمعدات ، أما كفاءة الرجال فهذا ما لم يخطه فى ورق ،

احتفظ بذلك لنفسه ، موضع كل منهم فى خطط الهجوم لم يتحدد تلقائيا ، انما برز عبر قطارات متوالية من الليالى ، فى الصحراء ، فى الدوريات ، حول موائد الطعام ، فى مداهمات المرض ، فى تلك الفترة اصبح عليما بنوعية الآهة التى تصدر عن كل منهم أثناء نومه ، اصبح يدرك ايقاع الخطى فى جوف الظلام ، ما يفصل الخطوة عن الخطوة ، اتساع الحدقة اتجاه النظرة ، يعرف من يرهف السمع ، من يندفع قبل الاوان من يخترق التوقيت الفريد ، عند الهجوم على نقطة البلاح شرق ، دمدم رشاش نصف بوصة بسرعة ، شطح ونطح فى الافراد ، اختفى بمهارة كاللحظة التى ينتهى فيها العمر ، والارض التى سيموت فوقها الانسان ولا يدرى اين هى ؟ ارتفعت ذراع علاء ، بدت قامته مكشوفة ، ارتمى عليه ، انبطحا ، صوب القنبلة باتجاه المزغل الضيق فى مقدمة الدشمة كعين وحيدة فى وجه آدمى ، لكل مقاتل مهمة ، ولكل تغير طارىء ، موقف يناسبه وانسان يواجهه .

عندما خرج الجميع تقريبا إلى اجازة بعد العودة من طابور سير فى وادى قنا المزحوم بالعقارب والثعابين لم يتبق إلا وسام كضابط نوبتجى ، والجرجاوى المبتسم دائما ، غير انه لمح ابو الفضل يعبر أرض الطابور متجها الى عنبر النوم ، بدا وحيدا ، سأل وسام عنه ، قال وسام ان ابو الفضل لن يخرج هذا اليوم ، رفع التليفون ، جاء صوت نادية هادئا ، اعتذر عن

عودته ، قال انه سيتأخر قليلا ، قالت انها ستنتظره ، سأل ، هـل ليلى مستيقظة ؟ قالت انها نائمة ، قال وسامح ؟ قالت انه يلعب الكرة مع ابناء الجيران امام الشقة ، كان صوتها مستويا كطريق مستقيم مؤ د الى هدف واضح ، ذات يوم قالت انها تعلمت معه الانتظار ، بعد عودته من اليمن رأى علبة سجائر فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للسريـر ، فوق العلبـة ولاعة مستطيلة الحجم ، أمسكهـا ضاحكـا ، قال انـه لا يدخن فكيف سيدعوها الى التدخين ؟ انه لا يجيد امساك العلبة ثم طرق عليها بأصبعه حتى تطل منها مقدمة سيجارة ، ابتسمت قائلة إن الانتظار مر ، وأن سمير وسامى كانا لا يمران عليها اياما فتقضى الوقت الى جوار ليلى ، ترقبها فى نومها ، وتداعبها فى صحوها ، وأحيانا تدير مؤشر الراديو ، وعندما تكف أصوات العالم بعد منتصف الليل بمسافة يلفها ضيق ، طلبت من سمير الرفاعى ان يأتى لها بعلبة سجائر ، سألها ، أى الانواع تفضلين ، قالت انها لا تدرى ، نزل وعاد بهذا النوع الذى يحوى مذاقه همسة نعناع ، اهداها ولاعة ، قالت ضاحكة ، لكننى غير مدمنة . .

وضع السماعة ، يتخيل ملامحها الهادئة ثم جلوسهـا بركن الصـالة واستئناف عملها فى البلوفر الأخضر ، يذكر انه حدثها عن أبو الفضل ، كان فى زيارة لكتيبة صاعقة يقودها عادل زميله ، قدمه عـادل قائـلا انه وحش حقيقى ، بعد خروجه قال عادل انه مقطوع من شجرة ، أجازته

يقضيها فى القشلاق وقلبه ميت ، الرفاعى لا يعجبه هذا التعبير ، الموصون بموت القلب من أكثر خفقا للحياة سعى الى انضمام ابو الفضل اليه ، قبل مجيئه قرأ ملفه ، أبو الفضل على سلامة ، من مواليد الطلحيات ، مركز طهطا ، التاسع من ابريل عام الف وتسعمائة وأربعة وأربعين ، تاريخ التطوع ، الف وتسعمائة وثلاثة وستين ، أى عندما اتم السن القانونية للتطوع ، الرغبة عند التطوع . الصاعقة . سأل الرفاعى . .

« منذ متى لم ترعم حسين ؟ »

« اكثر من سنة . . »

ابدى الرفاعى دهشة ، قال . .

اليس هذا تقصيرا منك ؟

لم يجب ، قال الرفاعى . .

كم يوما تكفيك لتذهب وتعود من دير مواس وتقضى هناك يومين . . أسبوعا مثلا ؟

أومأ أبو الفضل برأسه . قال الرفاعى . .

اعتبر نفسك فى اجازة من الليلة . . هناك قطار يقوم فى العاشرة . .

مد يده الى درج المكتب ، سحب عددا من الاوراق المالية .

خـذ معك « زيـارة » جيـدة . . وعنـدمـا تعـود بـالفـطير احتفظ لى بنصيبى . .

بدا أبو الفضل خجلا ، قال . . لكن يا أفندم . أشار الرفاعى بيد ممتدة حاسما المناقشة . .

الى اول قطار بلا مناقشة . .

عندما التقى الرفاعى به لأول مرة منذ سنوات طلب منه ان يحدثه عن بلدته ، قال الرفاعى انه رأى طهطا لكنه لم ير الطليحات ، عاش فى كثير من محافظات الوجه القبلى وذلك لعمل والده مفتشا بوزارة الداخلية وتنقله فى بلاد مختلفة ، ثم خدمته بوحدات من الجيش تنقلت كثيـرا فى انحاء مصر ، ولقيامه بالعديد من دوريات الاستطلاع ، عندما احس الرفاعى ان الجمـود يذوب بـين الضابط والجنـدى سألـه عن آخر مـرة رأى فيها الطليحات ؟ قال أبو الفضل ان ذلك جرى منذ سنوات عديدة ، اكثر من خمسة عشر عاما ، قال ابو الفضل انه لم يره ابوه ، غادر الدنيا وله من العمر اسبوع ، لهذا لا يعرف أى شىء عن ملامحه ، فالناس وقتئذ لم يعتـادوا التصوير ، أما أمه فاحتوته حتى التاسعة ، يذكرها وكأنها تقف أمامه الآن ، لم تنجب غيره ، رفضت كل من تقدم اليها ، شنع عليها الناس وافتروا خاصة اعمامه ، كانت تقول له دائما احذر اعمامك ، فى تلك السنوات

سمع انهم ينوون قتله حدث ذلك بسبب فدان ونصف من الطين وبعض نخلات ، بعد رحيل امه خلت الدنيا ، عند عودته من المدفن تحت الجبل ادرك انه بلا صاحب أو سند ، وعندما جلس تحت سقف الخوص بكى لأن أمه جدلته بيديها ورتقت ثقوبا تخللته بين حين وحين ، صباح يوم ثلاثاء قال له عمه الكبير ، تعال نذهب الى طهطالننهى بعض اجراءات الميراث ، أمسك به من يده اليسرى ، مشيا على الطريق المؤدى للنهر ، غير انهم لم يمضوا مباشرة الى مرسى القوارب ، عندما ضغطت قبضة عمه على رسغه لغ فى قلبه خوف خطر له ان يحاول الافلات ، لكن كيف ، إلى أين ؟ عند منحنى الطريق ظهر فجأة جاويش النقطة ، كان قادما من الجهة المقابلة ممسكا بعصا قصيرة ، تبادل التحية مع عمه ، بعد خطوة التفت الى الخلف ، صرخ . عم . الحقنى يا عم . . تساءل الجاويش ، الى اين ؟ قال العم انهما ذاهبان الى أحد الاقارب ، هنا عض ابو الفضل يدعمه وتوارى خلف الجاويش صائحا ، انه ينوى رميه فى النهر ، أبدى الجاويش حسين شكا ، صحب أبو الفضل الى النقطة ، تحدثت البلدة فيما جرى وقال الناس ان الجاويش ظهر فى اللحظة المناسبة وان عمرا جديدا كتب لابو الفضل ، ولكن الجاويش لا يستطيع حمايته حتى النهاية ، حار فيما يفعل ، ابقاه فى النقطة يومين ، فى الفجر صحبه حتى القرية التالية ، أعطاه عشرة جنيهات ، وضعهم فى منديل ثم ربطه حول ذراعه ، حذره

من اولاد الحرام ، قال انه لم ينجب ابدا لكنه يعتبر أبو الفضل ابنه ، ليرسل اليه بأخباره بين الحين والآخر ، منذ ذلك اليوم تلقفته الدنيا ، تقلب فى مهن عديدة ، لم يعد الى البلدة ، لم يسأل عنه أحد ولم يسأل عن أحد ، قال انْ عائلته فى الدنيا هذا الجاويش الذى احيل الى المعاش منذ سنوات ، استقر ببلدته دير مواس يزرع مساحة قليلة من الارض ، يزوره على فترات متباعدة كلما سمحت الفرصة . .

بعد أن اصغى الرفاعى إليه فى تلك الليلة شعر انه ينضم اليه من جديد ، بدأ يعتبره من الرجال الذين سيظلون على مقربة منه لحظة الاقتحام ، تماما كمصطفى الذى تشابكت سنينه مع سنين الرفاعى ، فى اليوم التالى اتصل بالعقيد علاء ، جاء صوته صاخبا ، حادا ، قال انه يدعوه للذهاب الى الحسين ، يصليان الجمعة معا ، ثم يجلسان لتناول الشاى ، بعد الصلاة يتقدمان الى الضريح ، يعبران رقائق الضوء ، يطوفان على مهل بمثوى الشهيد ، يبدو الضجيج والهم نائيا ، عندما يجىء الى المثوى فانه يزور محاربا قديما ، عرف النهاية فى الطريق ولم يتراجع خطوة واحدة فى طريق العودة والأمان ، فى الليل يطلب من صحبه ان ينصرفوا عنه فالمقصود هو ، والهدف هو ، لكنهم يبقون ، يزودون عنه ، سبعون واجهوا أربعة آلاف ، يقاتل حتى يقتل ، يمضى بصحبه علاء الى مقهى يطل على الميدان ، يتابعان حركة المارة ، لا تسترخى ملامح علاء ابدا ،

يرى فى اصغر المواقف التى تمر بالانسان عناصر معركة ، عندما يشترى الانسان شيئا الا يدور صراع بين البائع والمشترى ، عندما يحب الانسان امرأة ، الا يندفع ، ويهجم ، ويناور ، ويغضب ، ويرضى ، يقول دائما ان الحياة قتال مستمر ضد آلاف الاشياء ، فى هذا الهواء اخطار لو وعاها البشر لسقطوا هلعا .

قال الرفاعى انه من الضرورى الا تأخذهم دوامة التدريبات والعمليات . نظر علاء صامتا وفى عينيه استفهام ؟ قال الرفاعى ان من يواجهون الموت معا يجب ان يعيشوا حياتهم معا ، أومأ علاء ، قال الرفاعى انه يجب خروج المجموعة فى رحلات ، الاحتفال بأعياد الميلاد . أمور كهذه . . قال علاء ان هذا شيئا فشيئا بشكل تلقائى ، صمت لحظة ثم قال ، هل تعرف ان هناك زواجا سيتم فى المجموعة ، بدت دهشة فى عينى الرفاعى ، قال علاء ان الجرجاوى سيخطب اخت سعيد ، الجرجاوى من قنا ، وسعيد يعمل بمصانع اسكو ، عبر الاحاديث المتبادلة والمناجاة الليلية التى تسبق النوم ، عرف الجرجاوى ان لسعيد شقيقة ، قرأ الفاتحة وستتم الخطوبة قريبا ، قال الرفاعى انه لم يعرف ولم يقل له أحد ، بد سعيد بالخبر ، قال علاء ضاحكا ، وهل تريد ان تعرف كل شيء ، المجموعة حياة متكاملة الآن ولا يمكن الاحاطة بكل ما فى الحياة . . اليس كذلك ؟

قاما ، اقترح الرفاعي ان يذهبا الى والد الشهيد عبد الكريم ، اول شهداء المجموعة فوق الضفة الشرقية بمنطقة جبل مريم امام الاسماعيلية ، تحت مسجد قديم على ناصية حارة الميضئة فى الجمالية دكان خردوات خرج منه عم مراد العجوز ، قال انه عندما رآهما فكأنه رأى سعيدا ، صاح مناديا احد الصبية ليحضر الشاى ، قال علاء انهما قادمين من المقهى . . لكن الرفاعى ابدى رغبة فى شرب الشاى مع عم مراد سأل عن أى حاجة لعم مراد يرغب فى انجازها ، بعد تردد قال انه لا يستطيع مفارقة الدكان ، كما لا يعرف الطريق الى الادارة المختصة بتجديد البطاقة العلاجية التى تذهب بها والدة عبد الكريم الى مستشفى غمره العسكرى . . ، قاطعه الرفاعى ، هل البطاقة معك ؟ بحث فى أدراج المنضدة الخشبية القديمة اخرجها ملفوفة فى كيس من النايلون ، قال الرفاعى . . اذا لم احضرها انا اليك سيأتى بها عبد المؤمن بعد غد ، ابتسم الرجل عند انصرافهما ، قال . . لا تنسوا عمكم مراد يا أولاد . .

تساءل علاء . . إلى أين ؟ قال الرفاعى . إلى المجموعة ، فى المقر قابلهما المقدم توفيق :

« أريد أن ألقى نظرة على صور الاستطلاع الجوى الأخير . . »

دار توفيق بقامته الفارهة ، الضخمة حول المنضدة ، انه قليل الكلمات لكن اذا نطق فكأن سرية بأكملها تصيح ، لهذا يرجو الا يخاطبه

أحد أثناء التسلل على الضفة الاخرى ، لكن فى لحظات الهجوم يطلق صياحا أقسم علاء انه يشل العدو ، من هنا يسهل عليه استعمال خنجره معهم ، وقيل ان سمعته بدأت تنتشر فى مواقع العدو الأمامية ، المصرى ضخم الحجم ، انه رام ممتاز ورصاصته لا تخطى هدفها أبدا ، طلقته والقبر ، عندما بدأ قصف المدفعية المنتظم كمن فى مواجهة موقع رقم « ٦ » ، رصد جندى العدو ذا اللحية الذى لم يكف عن الصياح والصفير والسباب لمدة شهور من فوق برج الملاحظة ، عندما تثاءب جندى العدو ، قال توفيق لنفسه ، هذه آخر مرة لك ، وعندما اتكأ على الحاجز الخشبى للبرج ، لم يتبق الا دقيقتين على بداية القصف ، استقرت الدائرة الحمراء على منتصف الجبهة ، ضغط الزناد ، تردد الصدى ، لم يفارق مكانه ، تسلق جنديان السلم الخشبى المؤدى الى البرج ، وزعق جندى « عدو » مخاطبا شخصا ما عبر التليفون ، ثم ساد صمت لا تعرفه الا الاماكن الحدودية ، اصغى توفيق الى احتكاك الموجة بالموجة ، انتابته راحة ، اصر على ان يسقط هذا العدو طويل اللسان ، دوت ثلاثة انفجارات متتالية كأنها طرقات القدر .

قال الرفاعى ان الصور رائعة ، العمل جيد ورائع لابد ان الطيار عرض نفسه لمخاطر عديدة وقام بمناورات حادة حتى امكنه التقاط هذه الصور ، قواعد الهوك واضحة والطريق الرئيسى ، ومدخل الموقع الامامى ،

والمخـرج الجانبى ، قـال لعلاء انـه يجب كتابـة خطاب شكـر الى قائـد الاستطلاع الجوى ، انه لم يعرف هذا الطيار ، وربما لن يراه ، لكن هذا الشـاب عرض نفسـه للخطر ، انـه يتأثـر لتلك العلاقـات التى تجسـد المشاركة ، تهزه هذه العلاقات الخفية بمن لا يعرفهم ، يتأمل النـاس فى الزحام ، يود لو مشى بينهم على مهل ، يتحدث الى هذا ، ويرد على ذاك ، لكنه دائما يعبر الطريق إما متجها لانجاز مهمة أو عائدا من مهمة وتبقى الرغبة مؤجلة . .

بعد ثمانية ايام انطلقت المجموعة باكملهـا فى الفجر والهـدف هذه المنشأة التى حام فوقها الطيار الشجاع والتقط لها تلك الصور ، حدد موعد الهجوم فى الثامنة والنصف صباحا ، هجوم لن يسبقه تمهيد نيران ، الهدف سبق ان هوجم منذ اربعة أسابيع ، عند نهاية الطريق الصحراوى بدت الاشجار غارقة فى ضباب صباحى مبكر كاللبن ، عند كوبرى نفيشه قال ضابط المخابرات الحربيـة الذى وقف ينـتظرهم ان التقاريـر الواردة من النقاط الاماميـة تشير الى حـركة غـير عاديـة ، كما صمتت الاتصـالات اللاسلكية ، هناك احتمال بان العدو اكتشف المجموعة عند اقترابها من الاسماعيلية .

فى مواجهة الصباح الباكر وقف ، يداه تلامسان خصره ، انه اشبه بمن يعدو مسافة طويلة ثم يطلب منه التوقف فجأة وخط النهية على بعد متر

واحد ، هل يعود الرفاعى والمجموعة بأكملها لأن العدو اكتشفهم ؟ تساءل علاء . . ماذا يعنى هذا . . هل نرجع ؟ نظر اليه ، قال . . ومتى اتجهنا الى العدو وعدنا من منتصف الطريق ؟ اجرى فى ذهنه تعديلا طفيفا ، سيتم انزال القوارب من نقطة تقع الى شمال الموقع بحوالى مائتى متر ، ثم يقتربون بمحاذاة الساتر الرملى ، سيتحركون تحت العدو مباشرة ، حيث الرؤية بالنسبة له ميتة ، من ناحية أخرى يتمركز توفيق مع أربعة جنود من المجموعة فى أماكن متفرقة كقناصة ، ان القصف المدفعى يعنى الآن تأكد العدو من بدء عملية عبور ، القنص نشاط لا يثير ريبة ، ويبث رعبا خاصة فى نقاط الملاحظة . .

قال ضابط المدفعية الشاب . .

هناك طائرة مروحية تطير على عمق كيلو متر واحد من الحد الأمامى للعدو . .

فى البيروسكوب الأرضى رأى الرفاعى الطائرة ، بدت كذبابة معلقة فى الفراغ ، فوق الضفة الشرقية قرب المسافة جرار اصفر اللون ذا عجلات كاوتشوك ضخمة ، كان الهدوء ثقيلا كأن الحرب نائمة ، وبعد لحظات سيوقظونها ، اما ابراج الملاحظة فبدت كعلامات استفهام فى مواجهة النهار المقبل . . وتساءل الرفاعى عن الحركة منذ أول ضوء ، قال ضابط المدفعية

ان قائد السرية خرج فى السادسة والنصف وعاد منذ ربع ساعة ، وهو يتناول افطاره الآن ، الجنود فى الموقع جدد ، جاءوا منذ ثلاثة ايام ولذلك فهم اكثر حذرا ، يتحركون بحساب ، ومعهم جندى اسود . .

فى التليفون ضحك قائد سرية الدفاع الجوى الملحقة بالكتيبة . . طبعا ، يمكن تطفيش هذه الدبابة الآن . .

سأل الرفاعى . .

هل اعتدتم اطلاق النار على هذه الطائرات . .

جاء الصوب عبر التليفون الميدانى . .

ليست أول طائرة يتم تطفيشها . . وليست أول طائرة يتم اسقاطها . .

قال علاء . .

سيضربها الآن ؟

أومأ الرفاعى ثم امتد صمت مصحوب بترقب ، دوت طلقات سريعة منفجرة فى الفراغ ، المدفعية المضادة ، قال علاء وهو يحرك البيروسكوب . .

ابن الكلب جرى . . هرب .

تم الاستطلاع النهائى ، بدأ التلقين الأخير ، جميع أفراد المجموعة يخرجون معا ، زيتون يتمنطق بخنجرين حادين ، عمر الطباخ مع مجموعة الاقتحام الثالثة ، جاء الى المجموعة كطباخ ، اسمر ، قصير ، كان يعمل بالهيلتون ، عندما تحدث العقيد سمير عنه ، قال انه سيرسل الى المجموعة احسن طباخ فى وحدات الصاعقة ، لزم عمر المطبخ ، عند عودة الرجال يجدون الوجبات الساخنة ، يبدو مستغرقا جدا فى عمله ، غير انه بدأ فجأة يتذمر ، كيف يخرج الجميع ويبقى فى المطبخ ؟ تقدم اكثر من مرة يطلب الاشتراك فى العمليات ، منذ اربعة شهور ابلغ بأنه اتم تدريب عدد من الجنود على الطهى المتقن ، بدأ يشترك فى تدريبات المجموعة ، ارسله الرفاعى مع مصطفى الى الضفة الشرقية ، قضيا ليلا كاملا ونهارا ، انه التدريب فى قلب العدو كما يسميه الرفاعى ، خلاله لا يخوض الجندى قتالا الا اذا أجبرته الظروف ، ولكنه يتعرف الى الارض والمناخ والمشاعر ، بعد عودته قال مصطفى ان قلبه جامد ، وجرىء ، ابو الفضل يختبر مدفعه ، لم تسعفه ذاكرته عندما حاول ان يحدد الزمن الذى تساءل فيه الرفاعى خلال حوار جرى مع احد المجندين الجدد . .

كم مرة يموت الانسان .

قال المجند . .

مرة . .

امتدت ذراع الرفاعى الى الشرق . . قال
اذن . . لتكن هذه المرة .

كلما خرج أبو الفضل الى عملية يقول لنفسه ، انها هذه المرة ، يوقن انه لن يعود وسيصبح جملة فى أحاديثهم ، ما يتمناه ان يذكره الرفاعى « كان مقاتلا لا يعوض » قبل استشهاده احدث خسائر فادحة بالعدو ، لم يذهب هدرا ، لن يعبر الدنيا هكذا ، سيترك أثرا لن ينساه الرجال ، قال العقيد علاء ان الانسان لا يختار الطريقة التى يموت بها ، صحيح ، لكنه سيبذل كل ما لديه حتى لا يروح فى صمت ، وعندما تحين المرة التى لا تكرار لها فيكفيه أنه ذهب بين هؤلاء الذين أحبوه ، كأنه سيولد من جديد ، لا يخشى الموت ، تعرض له مرات عديدة ، وفى كل موقف كان من المفروض ان يغرب تماما ، كل ما يعيشه وقت زائد ، يقول الرفاعى انهم يريدون ان يثبتوا للبلد وللعدو وللعالم أن مصر انجبت رجالا يعرفون كيف يقاتلون ويستشهدون ، وهو سيثبت للرفاعى انه من هؤلاء ، لن يتركه ، وهل نسى الرفاعى أحد رجاله يوما ، هل أهمل جريحا ؟ لن يتركه فوق أرض يجوس خلالها غريب ، لن يدع العدو يشق بطنه ليحوله الى لغم متفجر ، انها هذه المرة ، فى اللحظات الأخيرة التى تسبق اقترابهم من ضفة القناة يسرى مرح رهيف ، مصطفى يمشى على اطراف اصابعه ، كثيرا ما قالوا له ، تبدو وكأنك لا ترتدى حذاء ابدا ، كأنك بلا ظل ، ابو

الحسن فى مجموعة القيادة يتلفت حوله ، على شفتى عصام نفس الابتسامة الموحية برغبته فى الاقتراب من الآخرين منذ لحظات ضحك عندما قال له علاء ان توفيق يكمن صامتا لأنه لو لفظ كلمة واحدة سيرصد العدو مكاننا ، تبدو مياه القناة الزرقاء ، منذ شهور عبروا من نفس المنطقة الى الهدف ، بعد انتهاء العملية تقدم ضابطا شاب برتبة نقيب ، عانق الرفاعى ، قدم اليه شريط كاسيت صغير قال انه يهديه الى المجموعة ، على الشريط اصوات استغاثات قائد موقع العدو ، وقائد موقع « ٦ » يعتذر بأن القوات غير كافية للنجدة . .

تسلقوا الساتر الترابى ، مصطفى يحمل محبس الالغام ، انفجار ، انتشرت المجموعات ، لم تنطلق رصاصة منهم ، التعليمات صارمة ، لا اطلاق نار الا على هدف حى ومضمون ، توغلت مجموعات الاقتحام ، طلقات متتابعة ، رشاشات من طراز جليل نصف بوصة ، طلقة دبابة ، كأن جاروفا هائلا قلب الرمال ، سقطت دانة الدبابة فى قلب مجموعة الهجوم الثالثة ، صاح الرفاعى آمرا . . اسحب الشهداء . .

خطا طيف اعدت للغرس فى القوايش والعودة بها إلى الضفة الأخرى . . واصل تقدمه باتجاه الدشمة الرئيسية ، الاسلاك الشائكة اغزر ، أكشف مما تبدو عليه من الضفة الاخرى ، الرمال مغطاة بشعر

مجعد ، المزاغل المخفاة تطلق النيران بلا انقطاع ، من عمق الفراغ النهارى جاء صوت موتورات ، بدأت الدبابات ارتمى فوق الارض ، زحف فوق جدار الدشمة شبه المنحنى ، اصبح تحت المزغل الرئيسى الذى يحمى مدخل الدشمة ، مد يده الى أعلى ، أمسك فوهة المدفع ارتكز الى الأرض ، بسرعة نفذت الحرارة عبر قماش القفاز ، لامست الحرارة ملمس يده لكن الرصاصات اصبحت موجهة إلى الفراغ .

اقتحام . .

علاء ، ابو الحسن ، مصطفى ، زيتون ، اقتحام ، تدفق الى الممر ، البجاوى ، زحف ، رفع يده ، حل مكان الرفاعى ، أمسك الفوهة ، تجاوز الرفاعى الرجال ، الممر منحنى الى باطن الارض ، نفق ناعم زلق ، انتهى فجأة ، تتعرج الممرات ، بيوت الارانب ، المكان منبع المفاجأة ، اللحظات منفية ، الاحساس الخفى ينذر ، ينتبه ، التفت الرفاعى ، التقت عيناه بالعينين المتسعتين ، ثوانى المواجهة المصحوبة بالفعل ، يوشك الاصبع ان يلامس الزناد ، صرخة ، ثم طعنة تلت قفزة سريعة ، غاص سن الخنجر فى البطن ، مزع الجلد الى أعلى ، طش الدم ، اطلت المصارين الزرقاء اللون . .

الدبابات تهاجم . .

الاقتحام مستمر ، الممرات الملتوية ، أبواب تغلق فجأة ، لهب مارق صدى الرصاص ، يتوقف عمر لحظة ، يرصد الرفاعى لحظة التردد ، يزعق . .

ادخل عليهم . . انت جاى تتفرج :

فى اللاسلكى يصيح مصطفى . .
تم سحب الشهداء . عدا شهيد واحد . .
ابحث عنه . . حول . .
علاء يتصدى للدبابات .
علم . . حول . .

دخان ، بارود ، لحظة المواجهة تتكرر ، محاولة تصويب ، ضغطة الزناد اسرع من الخنجر ، يبدو الاستسلام فى العينين ارتخاء الملامح ، صرخات ، الفاظ مدغومة ، مدفع عمرو « يزعط » فى الممر الداخلى ، يلف الرفاعى الشعر الكثيف حول معصم اليد ، فى البداية خط احمر يلتف حول الرقبة ، يتسع ، يتفجر الدم ، فى مطبخ الموقع ثمرات بطاطس فى اناء الومنيوم ، سكين مغروسة فى ثمرة لم يتم تقشيرها ، طبق فوق الارض ، ملاحة من وعائين ، زجاجة مياه معدنية ، المطبخ خال ، يحزمه بالالغام ، بوتاجاز مشتعل ، ثلاجة مفتوحة ، تعمل بالكيروسين ،

يختبئون فى قلب الموقع ، غرفة الدفن انهيار ، طلقة ار بى جى ، مكتومة ، التدفق الى القلب عبر الطرقات الملتوية ، حرق الأوراق ، أبو الحسن يجمع كل ما تلمسه أصابعه ، أربع جثث فى الممر الرئيسى ، تبادل اطلاق نارى كثيف ، انهار الباب الرئيسى ، حزمة ضوء تنفذ الى الغرفة من فتحة مستديرة فى السقف ، الاردية الزيتونى تلتحم بالكاكى تستنفز كل العضلات ، يد الرفاعى المصابة ثقل من رصاص ، الحزاء يستقر فى البطن ، يلامس سن الخنجر عظام صلبة ، ثلاثة يتراجعون بعد أن جردتهم طلقات سريعة من مسدساتهم ، الرعب جعل الملامح متشابهة ، الخوف مادة صيغوا منها . .

« ما تخليش حد » . .

الضوء والدم ، تكتكات اللاسلكى ، غبار ، اصداء الغرفة الجانبية مستعصية على الاقتحام ، تم تحزيم الموقع كله بالالغام ، أمر الانسحاب ، الدبابات تتحرك من الخلف ، دمعت عينا الرفاعى عندما واجه الضوء ، تتقاطع قذائف الدبابات ، حتى الآن لم يظهر الطيران ، علاء يخرج من الموقع المجاور ، يعرج عرجا خفيفا لكنه قادر على السير ، من الضفة الغربية يجيء الصوت . . ارجع بالأولاد » ، الى القناة ، ركوب القوارب ، تجول عيناه ، يدرك مصطفى ما يبحث عنه ، يقول ان الشهداء تم سحبهم كلهم الى الناحية الاخرى . . انفجارات فى العمق . .

« مدفعيتنا اشتغلت » زرقة السماء مصهورة ، صرخة من مكان ما ، ستار المدفعية النارى ، فوق الرمال ارتمى ابو الفضل ينزف بغزارة ، تبلل جوربه بالدم ، ركع مصطفى بالقرب منه . . « استند على . . » . نظر اليه ابو الفضل بعينين مرهقتين نزف من نظراتهما الى حد الاعياء ، «ابعد . . سيبنى . انا ما عدش فيه فايدة . . » رفع مصطفى ذراع ابو الفضل ، صرخ « سيبنى . الحق نفسك انت . . ما تعملش بطل » . . ، صاح الرفاعى « ابو الفضل . » استسلم لمصطفى ، فوق الضفة الغربية طاف الرفاعى ، التمام المعتاد الذى لم يستطع أن يقوم به فوق الضفة الشرقية ، الأحياء ، الشهداء بنقص أربعة . قال مصطفى . . « سحبنا جميع الشهداء » هذا يعنى ان هناك اربعة مصائر على . ضفة الاخرى ، انه يكره الاضطراب ، قال الرفاعى وهو يتجه الى القناة ، « سأعود الى الرجال . . من سيجىء معى ؟ » عصام ، أبو الحسن ، مصطفى ، علاء ، قال الرفاعى « ابقى هنا ياعلاء » ، بدأ عبور القناة فى هذه المرة أكثر بطءا ، وأعمق صمتا ، القذائف تصل ما بين الضفتين ، فوق الضفة الغربية أصغى رجال المجموعة ، ورجال الموقع الى صوت معدنى نحيل ينفذ من خلال الانفجارات والشظايا ، كان الرفاعى يصيح مناديا على رجاله الأربعة مستخدما ميكروفونا يدويا صغيرا ، بعد ساعة عرف الرجال أن دبابة اسرائيلية طاردت الجرجاوى ويوسف وعباس والدمياطى ، اتجهوا الى

داخل سيناء ، زاغوا بين المرتفعات الصغيرة ، فى الطريق فوجئوا بمنخفض ، لم يصدقوا عيونهم ، امامهم بطارية صواريخ هوك كاملة ، بدت كماكيت ضخم غير حقيقى لانها مهجورة تماما ، لم يضيعوا لحظة ، ارتفعت السنة اللهب الاصفر اللزج من الصواريخ ، فجروا عربة الرادار ، ثم كمن مع الرجال بمحاذاة ملق رملى قريب حتى وصل اليهم نداء الرفاعى ،

غير أن إنسانا لم يستطع الاقتراب من الرفاعى فى هذا اليوم لما بدا عليه من صمت غريب ، علاء لم يتحدث اليه ، وعصام لم يقترب منه ، اما توفيق فحمل وجهه صدى الصمت وظل الحزن ، خلا الرفاعى الى نفسه ، بدا له اليوم رماديا مبللا بالدموع ، اتصلت القيادات للتهنئة ، تم نسف الموقع وتطهيره تماما ، لكنه لم يجب على التليفونات ، طافت بذهنه صور بعيدة ، قطرات الندى الفجرية فوق صخور جبال البحر الأحمر خواء هذه المنطقة ، وما تبعثه من احساس بالبعد ، الرغبة فى رؤ ية الاصدقاء عند نزول بلد غريب ، مضى الى المستشفى ليرى جراح الأحباب ، وليثبت ملامح رفاق السلاح فى الذهن المتعب ، ثمانية شهداء ، خلفه الطبيب يمشى حذرا ، لم ينتزع عنهم الا الأحذية ، ضمدت مواضع الجراح بالشاش والقطن ، عمر متمدد فى هدوء كأنه يهم بابلاغه رسالة ما ، أول وآخر عملية ، المسيرى سليم تماما ، ملامح وجهه تحتفظ ببقايا الم

لحظى صاعق ، نفذت الشظية الى الرقبة ، اخرى الى داخل الرأس عبر جسده رعدة ، تصلبت قامته ، أدى تحية عسكرية لاتفرضها مراسيم ولم تتحدث عنها تقاليد ، فى اليوم التالى طلب من السرساوى الضابط الذى يجيد الرسم ان يخط بحروف بارزة اسماء كل من استشهدوا على لوحة مستطيلة ، وان يرسم لهم لوحات ، عرف الحزن طريقه الى المجموعة ، خلت اماكن فى عنابر النوم ، ودخلت عبارات لم يلفظها أحد من قبل فى الحديث اليومى ، كان السرساوى وهو يخط أسماءهم يقول : « الذين سبقونا » قال الرفاعى ان رحيلهم يعلمنا كيف نحقد أكثر على العدو ، فى اليوم الثالث لاتمام العملية عصف به غضب ، ولم يذكر عبد المؤمن انه رآه هكذا من قبل ، بدا على أبو الفضل اعياء شديد ، نقص وزنه بشكل ملحوظ ، توقف الرفاعى أمام السرير الحديدى فى العنبر الكبير الشبيه بالجراح ملامسا خصره براحتى يديه ، لم يتبادل مع ابو الفضل حديثا منطوقا ، تلاقت عيونهما ، ولمدة سبع ساعات تالية ، لم يكف عن الحركة بين ادارات مختلفة ، تحدث الى ضباط برتبة لواء ، وناقش ضباطا برتبة عميد ، واحتد فى أحد المقار ، وشرح ما قام أبو الفضل به عدة مرات ، وانفعل أكثر من مرة حتى تدفق الدم عبر شرايين رقبته الى رأسه ، ولاحظ عبد المؤمن ان أصابع يديه تدور حول بعضها ، لم ينتظر المصاعد فى بعض الابنية وصعد السلالم قفزا ، ابدى ضيقا عندما تأخر احد الجنود فى طبع

خطاب كتب من أجل ابو الفضل ، وفى المساء لم ير أحد الارتياح الذى أسدل على ملامحه عندما جاءته مكالمة مختصرة انتظرها طوال الفترة الواقعة بين الرابعة والسابعة ، قال لعلاء وعصام وتوفيق ووسام « تعالوا الى متشفى المعادى » فى الطابق الرابع لافتة تطلب عدم الازعاج حرصا على راحة المرضى ، على باب الغرفة رقم (١) علقت لافتة تقول ان الزيارة ممنوعة ، قالت الممرضة انه نام بعد وصوله ، استيقظ منذ خمس دقائق فى انتظار الطبيب المشرف على الحالة . . . ، فى عينى ابو الفضل دهشة وخجل وتعبيرات تنتمى الى الطفولة المنسية ، هم بالقيام ، وهل هذا معقول والجبس يوثقه ، واشار الرفاعى باصبعه ملامسه فمه ، رفع علاء ابهامه مبتسما ، لم ينطق عصام توفيق ، بقى الصمت المعقم بدون خدش ، ثم مضوا الى عدة اماكن بالمستشفى ، الى مكتب الطبيب المشرف والى مكتب ضابط الأمن ، والى مكتب الامانات ، والى المشرفة على التغذية ، وعندما وجه الرفاعى سؤالا عن امكانية احضار طعام من الخارج ، قيل له ان هذا غير مسموح به تماما ، قال علاء للمشرفة على التمريض ان هذه الحالة تلقى اهتماما من أعلى المستويات ، ابتسمت المشرفة ، نظرت اليهم وقالت ان هذا واضح ، صباح اليوم التالى رن جرس التليفون رنة واحدة مختصرة . .

كان ابو الفضل يصغى الى ضجة السيارات الخافتة فى الطريق المحاذى للنيل والقادمة عبر النافذة التى فتحت قليلا ، قالت الممرضة « العقيد الرفاعى يسأل عنك » . . بعد ربع ساعة رن الجرس ، قالت الممرضة « الجاويش مصطفى يسأل عنك » ، ثم ابلغته خلال الساعات التالية باسماء من اتصلوا به ، الرائد وسام ، المقدم توفيق الجرجاوى ، الرائد عصام ، المساعد ابو الحسن وفى مقر المجموعة قال الرفاعى انه سيضيف ست ساعات الى تصريح اجازة اعتبارا من اليوم لزيارة ابو الفضل ، وقال ان الذين يسافرون الى بلاد بعيدة يمكنهم ارسال خطابات الى ابو الفضل ، وان عبد المؤمن سيقوم يوميا بتوصيل الخطابات المكتوبة من زملاء ابو الفضل اليه . .

فى ذلك اليوم ذهب مصطفى الى أمه ، سألته عن أحواله ، دعت له أن ينجو من الأخطار وان لم تعرف ما يتعرض له من اخطار مضت إلى الدولاب القديم ، أحضرت له البيجامة ، عندما بدأ احتساء كوب الشاى الدافىء ، جلست فوق الارض ، سألته عن صحته ، ثم سألته عن الرفاعى ، حدثها من قبل ان تراه فى فرح فوزية شقيقة مصطفى ، قال لها انه قلب الدنيا من أجل ابو الفضل بعد ان جرح ، رفعت يديها ، دعت له طويلا ، استفسرت عن صحة أبو الفضل ، قامت فى الفجر ، خبزت فطيرا ، مضت الى الفرن القريب ، ثم إلى السوق ، اشترت جبنا وعلبة

عسل نحل ، قال مصطفى ان الاطباء حددوا أنواع الاكل ، ابدت غضبا ، قالت ان الانسان اذا سمع كل ما يقوله الاطباء لن ينجو ولن يتمتع بالصحة ، قالت لمصطفى امض الى زميلك وقل له هذا من أمك بخيتة وليرمه فى البحر بعد ذلك ، فى الاجازة التالية ، اعطاها دفتر التوفير ، قال أنه لو حدث ما تسبب فى غيبته ، فان الرفاعى سيساعدها على صرف هذا المبلغ ، اتسعت عيناها ، ما هذا ؟ ارتبك ، قالت احتفظ شىء لنفسك ، هذا فال سيىء ، اذهب وانتبه لنفسك ، سأزور الحسين وادعو لك وللرفاعى وللكل ، خذ دفترك ، بدت صارمة ، تذكر ملامحها التى اكتسبها بعد وفاة والده ، لم يستطع مجادلتها ، فى نفس الليلة جلس فوق السرير بالعنبر ، كتب رسالة الى الرفاعى ، طلب منه ان يجنب امه المتاعب التى قد تترتب على سعيها لصرف معاشه ، قال انه يعرف تماما بأن الرفاعى لن يسمح باى تقصير لكنه يوصيه ، وضع دفتر البريد وصورة له داخل مظروف أصغر ثم وضعه فوق الرف الثالث داخل الدولاب الصغير الخاص به بعد ان كتب عليه « إلى قائدى وصديقى وأخى العميد أركان حرب ابراهيم الرفاعى قائد المجموعة ٣٩ قتال . . »

فى يوم الخميس التالى عاد الرفاعى الى بيته مثقلا بالتعب ، ثلاثة أيام لم ينم ، فوجئت نادية عندما خرج من الحمام ليرتدى حلته الرمادية ، قال ان النوم بالنسبة له مؤجل باستمرار ، انه ماض الى فرح أحد الرجال ،

خفض عبد المؤمن رأسه حتى يمكنه ان يرى ملامح الطريق فى عزبة النخل ، البيت عند اطراف العزبة ، من الترعة القريبة علت أصوات الليل ، الوقت ربيعى والحياة رئة هائلة تتنفس بنشاط ، البيت مزدان بمصابيح كهربائية ، عبر السور الخارجى وبجواره علاء وتوفيق وعصام وعبد المؤمن . . جاء سعيد ، بدا غير مصدق ، عانق الرفاعى ، وقف الرجال فى الحجرة الفسيحة التى أضيف اليها مقاعد عديدة ، خرج سعيد وعاد بصحبة الجرجاوى كان يرتدى حلة سوداء ، وقميصا متين الياقة ، تفوح منه رائحة عطر ، صاح علاء ، . . « انت متنكر » قال الرفاعى « مبروك » ، تعانقا .

فى تلك الأيام شعر الرفاعى بدبيب النمو فى عمر المجموعة ، منذ فترة أصبحت تحمل اسما ، قال الضابط كبير الرتبة ، حان الوقت لتحمل المجموعة اسما ، قال الرفاعى . . لقد قمنا حتى الآن بتسع وثلاثين عملية ضد العدو حتى الآن ، اقترح ان نسميها المجموعة « ٣٩ قتال » كان يشعر انه يوزع نفسه على المجموعة ، فى كل موقع إليه بسيناء ترك قطعة من جسده ، وفى قلب كل رجل صحبه أودع من عمره أياما ، أحزان المجموعة لا يعانى منها فرد ، تتوزع على الكل ،

بعد العودة من عملية الكارنتينة لم يفارق الرفاعى مكتبة ليلة بأكملها ، ساد هدوء ثقيل ، بدا ضوء المصابيح المعلقة أكثر بعدا من ضوء

النجوم ، فى تلك الليلة تصدر علاء المائدة فى المطعم ، ترك مكان الرفاعى فى الصدارة خاليا ، على المنضدة صفت ادوات المائدة ، انقبض قلب عبد المؤمن ، هذه اول مرة يخلو فيها مكان الرفاعى بعد اعتذاره عن الحضور ، تم العشاء فى صمت ، لم يسمع الا احتكاك الملاعق بالاطباق ، كما ان احدا لم يطلب طعاما اضافيا .

أما مكان الرائد عصام الدالى فلم يستطع احد ان ينظر اليه ، ترك خاليا ، لم توضع مقاعد ، أو أدوات مائدة ، بدا شاغرا ، موحشا

فى هذه الليلة اصغى الرفاعى الى وسام ، جلس ممسكا بقلم رصاص خطط به أشكالا مجوفة فوق ورقة بيضاء ، حشاها بظلال خفيفة ، ثم مر عليها من جديد فازدادت قتامة ، ثم حفر خطوطاً غليظة تخللتها دوائر صغيرة ، استمر وسام يحكى بصوت هادىء ، قال الرفاعى يوما لوسام انه يخشى زمنا يجىء فيلهيه عن التفكير فى احد الذين صحبوه ثم رحلوا ، قال إن الناس يجدون فى الزمان عزاء ودواء لتخفيف الأحزان ، وهذا حقيقى فأقوى الأشياء لا يصمد للزمن ، لكنه حزين لان يوما سيجىء فتبهت الذكرى .

قال وسام إنه بعد عودة الرفاعى الى رصيف الكارنتينة الذى سبق تلغيمه ، بدأ العدو فى قصف القوارب واطلاق المشاعل المضيئة بدون فواصل زمنية ، عندما تأكد عصام من عودة الرفاعى إلى القارب أشار

بالتحرك ، ضرب وسام الماء بالمجداف ، فى مواجهته عصام ، بعد قليل سيتناول منه المجداف ، كان وجهه يبدو واضحا كلما انفجرت قذيفة مضيئة فوق الكارنتينة التى بدأت تبتعد عنها ، عندما برق الضوء الاصفر الفاقع الذى يصهر سواد الليل ، اتسعت عينا وسام ، لم يكن الجسد قد مال عليه بعد ، اليدان ماتزالان ممسكتان بحافتى القارب ، القدمان فى وضعهما المثنى ، ينتهى الجسد فجأة عند الرقبة ، الدوائر الحمراء ، العروق المشطوفة ، والدم المتدفق يصل إلى جيبى السترة ، على مهل مال الجسد حتى استقر فوق صدر وسام ، تسربت الى جسده حرارة الدم الذى بدأ يتدفق مصحوبا بصوت ، شيئا فشيئا ، راح يغرق فى دماء صديقه ، وكلما برق ضوء المشاعل رأى الرقبة الفارغة ، الفاغرة والدماء .

هل تعتقد ان المنطقة مليئة بالقرش ؟

أومأ وسام مجيبا ، بعد لحظة قال الرفاعى . .

أصبح بيننا وبين العدو دم غزير . لا اتصور ان الزمن سيمحوه . .

فى تلك الليلة لم ينم وسام ، عندما بدأ يغفو استعاد الموقف منذ بدايته ، الدم الطرى الحار ، ميل الجسد البطىء وثقله المضاعف عندما استقر فوق صدره ، فارق السرير ، شعر بخوف لم يفاجئه فى عرض البحر والوحدة والظلام ، كيف اجتاز هذا ، قبل العملية قال علاء ان افضل طريق الى الموت رصاصات مباشرة فى المخ ، قال توفيق إن اقصر الطرق

موته المفرقعات ، ان تنفجر بين اليدين فجأة ، قال عصام ان قنبلة مباشرة من زنه الألف رطل نعمة من عند الله ، قال الرفاعى . يا جماعة اذا طخ الانسان بعيار أصبح فعلا ماضيا ، هل سيفكر فى الطريقة التى مات بها ؟ الاعمار بيد الله ، تساءل توفيق بصوته الضخم ، هل يتألم الانسان عند الموت ، قال وسام ، الم تسمع المثل الشعبى « سارقاه السكينة » ؟ قال توفيق ، افضل الموت مستيقظا ، لم يتنبأ أحد بالطريقة التى رحل بها عصام ، قدر خفى ارشد الشظية الحادة المسنونة ، الساخنة الى موضع الرقبة ، لم يسمع وسام آهة الم ، ولم ير الرأس لحظة اندفاعها الى البحر ، سلبهم العدو انقى ما فيهم ، كان لا يتحدث الا مجيبا على سؤال ، أو شارحا لفكرة ، يبدو دائما مطرقا ، وفى الاشتباك لا يطلق صرخة ، ولا يبدو عليه الانهاك حتى لو استمر الالتحام ساعات ، تبدو رغبة فى افتداء كل من معه ، يعرض نفسه لموقع الخطر ، لم ينافسه فى ذلك الا الرفاعى نفسه ، استشهاد عصام مفاجىء ، اصغى الرفاعى الى الليل بعد انصراف وسام ، رأى اطراقة عصام الخجول ، واهتمامه الشديد باسداء خدمة الى الآخرين ، ثم حرارة حديثة المفاجئة وكأنه يود ان يودع أثرا منه لدى كل مستمع له ، استمر الليل ينزف سوادا مستمرا ، بدا الفجر بعيدا ، فى الهدوء قرض الرفاعى شفتيه ، ستتم عملية كبرى ، عملية عصام الدالى ، سيحدث لهم مذبحة ستروى فى كتبهم . . فى هذه اللحظة

حسم العقيد علاء تردده ، خطا تجاه مقر الرفاعى الذى لم ينطفىء ضوؤه بعد ، طرق الباب ، عندما فتحه وقف متجمدا ، الرفاعى جالس إلى مكتبة مرتديا الافرول ، أصابعه متشابكة قلم رصاص بجوار ورقة بيضاء لم ير ما بها ، كان ملفوفا بالوحدة ، غارقا فى الغربة ، تلك الدموع ، هل كان يذرف دموع المقاتل النادرة على كل شهيد ، كم بذل من جهد حتى يسحها على مهل بينه وبين نفسه . .

غير أن علاء لم يستطع ان يؤجل احزانه فى ذلك اليوم الذى جاء بعد اكثر من ثلاث سنوات ، بعد ان مضى ثلاثة عشر يوما على السادس من أكتوبر ، بالضبط يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر . . جاء إليهم الرفاعى بعد لقاء تم بينه وبين رئيس الاركان ، اخرج من جيب سترته ورقة كراسة ، الخطوط فيها رسمت بسرعة ، ازيز حاد شرخ السماء الزجاجية فوقهم ، فى تلك اللحظة ايقن وسلم ان شيئا غير عادى جرى ، لكنه لم يضع يده عليه ، قال إن المهمة تغيرت ، لن يتجهوا لنسف معبر العدو عند الدفرسوار انما سينتشرون جنوبى الاسماعيلية ، سيتصدون لدبابات العدو ، هبت رائحة خريفية ، تختلط برائحة مطاط محروق ، وزيت مسكوب ، ورائحة لحم آدمى مشوى ، وفى السماء تناثرت كتل صغيرة من الدخان تخلفت عن انفجار قذائف المدفعية المضادة للطائرات . .



قال العقيد علاء لنفسه . .

كيف اقتنع الرفاعى بذلك . .

قال وسام لنفسه . .

ماذا جرى للرجل . . ماذا يقول لنا ؟

تساءل مصطفى ، لماذا يبدو وكأنه يردد ما سمعه فقط ؟ تذكر اللحظات التى يشرح فيها خططه ، فتلين ملامحه حينا ، وتشتد حينا آخر . . إن الثقة به غير محدودة ، الثقة بالقائد لا تحتاج الا لتجربة واحدة ، ثم تتوطد وتعيش الى الابد ، ربما هذه الثقة هى ما جعلت كلا منهم يشعر إن الحال ليس هو الحال ، وان ثمة تغيرا اطرأ .

فى الثانية عشرة والربع جاء صوت مصطفى مستنجدا . .

« انا راجع ومعى رجلنا . . »

علاء يرد ، يسأل بغمض العينين عن رؤية لهب مخيف سيخترق عينيه :

« راجع على قدمين »

انفجارات ، طائرات تروى الارض بالرصاص ، قذائف تزرع الهواء بالشظايا ، يتفجر قرص الشمس ، الهواء من لهب ، كل ما فى الكون يحارب ، الصحراء كفن أبدى لا يبلى ، صوت مصطفى متقطع كموجات اللاسلكى اللا مرئية . .

« لأ . . راجع على ظهر . . »

نافورة صوت هائل متألم ، موجع ، يتفجر صدر توفيق ، ناظرا الى السماء فى وضع عمودى ، رافعا قبضته ، لا . . لا . . صراخ مؤحل ، عمقه بالسنين ، تغوص قدماه فى الرمال ، يضرب صدره . يقرض وسام شفته ، لحظة أن رأى عصاها بلا رأس ، الكلاب يريدون أن ينهشوه راقدا بعد أن عجزوا عن نهشه مقاتلا ،

يزعق علاء من قصر الحنجرة ، يستنفر حياته كلها ، كل منهم عليه ان يقاتل ليسترد جزءا من عمره يوشك ان يسلب ، وحنينا ، وأملا فى الاحسن . .

« يا رجال . . تعالوا نرجع بالرفاعى . تعالوا نرجع بالرفاعى »

النشور

(١)

. . الاسكندرية مثوى الذكريات وتابوت صان الايام الجميلة والآن فيها منبع الدموع المؤجلة التى لا تتوقف ولا تكف وعندما وصلت اليه وانتظرت عربة تاكسى امام تفتق جرح كاو الحب دقات قلبها لن يظهر فجأة ولن يقبض يدها عندما تفيض اشواقه فتدرك من صمته ما لم تدركه من نطقه ولأن السند هوى وكل شىء ستقوم هى به ولان ظلها لن يختلط بظله فوق الرصيف المحاذى للبحر ، ولأنه لن يشير الى الأفق الزجاجى ويقول ضاحكا آهـ لو يمشى الانسان فوق الماء ولأنها لن تصغى الى امنياته ورغباته الغامضة ، وعندما جاءت معه الى الاسكندرية اول مرة فى الزمن الأول

جاءت وجلة تحبه بعد ان نأت عن الأقارب الذين عارضوا ، والأشقاء الذين رفضوا ، وفيما يلي ذلك من سنوات جاءت معه كثيرا الى الاسكندرية المبتلة بقطرات ايامها الأولى والتى تستعيدها الآن فترويها بدموع سخية تسح ولا تشح ابد لأنها لن تراه ولن تسمع صوته فهو لم يعد يمشى فوق الأرض ولأنها لن ترصد الارهاق الذى لا يبوح به ومن كلماته القليلة تجهد نفسها لاقتفاء آثار المعانى ولأنه لم يكن يشأ أزعاج محبيه بآلامه ولأنه كان يفيض بالفرح على من حوله ويضمن بالأوجاع والاحزان ، وعندما جاءها الخبر يوم الجمعة حط على كتفيها ثقل بغيض وتوقف الزمن فى صمت باتر وادركت انها الخاسرة الأولى فى الدنيا ، ويدا البيت عمرا كاملا وكل ما فيه مضمخ بروائحه فكل قطعة اختارها معها وهنا جلس وهنا ضحك وهنا حمل سامحا فوق كتفه عندما بلغ من العمر سنة وأمام حجرتها توقف وسأل ، هل نام سامح ؟ هل نامت ليلى ؟ فى الصالة انتظرته وخفق قلبها عند سماعها لخطوتيه الأخيرتين قبل ولوج المفتاح فى الباب ، وعرفت انها ستعيش انتظارا من نوع آخر لانه طويل المدى ومضن ومرهق للعمر ، وفى كل مرة خرج فيها الى القتال كانت تثق من عودته وتجلس فى الشرفة مع الليل ويعيدا عنها وفوق نقطة معينة من الارض التى يحتلها العدو يتحرك ويضرب ، وكان يقول ان الذهاب الى العدو ومحاربته افضل من البقاء فى انتظاره ، وقبل مجىء الفجر تصغى إلى الهليوكبتر التى تتجه الى المطار

القريب وفى احدى الليالى قال انه يجب ان يراها بعد عودته ونفذت كلماته حتى اطرافها وعندما جلس مرتديا ثيابه المثقلة بآثار القتال ادركت من اطراقه ونطق كلماته مدى ما اصابه من نجاح ، ولم تكن تضيع ثانية ، انما تتحرك فى هدوء لتعد قربة الماء الساخن وعشاء خفيفا ، وكان يضيق اذا قالت له انها لم تتناول طعامها وتساعده فى خلع الافرول ، وعندما بدأت الحرب يوم السبت السادس من اكتوبر ازدحمت السماء بالهليو كبترات ولم تدر فى أى طائرة هو ؟ ولم تدر ميعاد عودته وبعد سماع الخبر لم تواجه سامح وليلى انما دخلت الى غرفتها وهوت فوق المقعد المجاور للسرير ومن كل شيء نفذت اليها رائحته ورأت بيجامته الشتوية خاوية وزجاجة كولونيا مصرية الصنع لم تفرغ بعد وفوق المنضدة الصغيرة غطاء الرأس العسكرى الذى احتوى رائحة شعره وتحته كتاب باللغة الانجليزية ، وبين صفحاته تطل ورقة بيضاء مستطيلة اما مكانه فوقفوق السرير فمستو وتذكرته عندما كانت تفتح عينيها فتجده جالسا ومستيقظا قبلها ، وفى تلك اللحظة استقر داخلها ثقل مرير وأدركت انها لن تجرؤ على أن تسند رأسها الى نفس الوسادة لأن الحجرة اصبحت كهفا من الوحدة وفى الليالى الاولى جاء كثيرون لكن فى لحظة معينة من الليل أغار عليها خواء ابدى وسقطت فى ثلاجة من الاحزان وعندما واجهت القادمين لم تحن رأسها وحدقت فى العيون بثبات ولم يفارقها يقين بأنه يراها ويطوف بالبيت ملتحفا بكل

الألوان التى لا ترى وتنبعث منه روائح لا يميزها انف وأيقنت انهن مبتل بالسكينة لانه يراها فى النهاية كما عرفها فى البداية ، ولانها استجابت له فى غيابه فلم تبك كما طلبت منها ، وأدركت انه يطوف بالبيت ، ليطمئن على النيام وليستريح ، وطوال العمر القصير تحرك فيه هادئا بـلا ضجيج ولم يتكلم كثيرا ، وكان ظله خفيفا ، ولم يعاند ، ولم يضرب سامح ولم ينهر ليلى ، ولم تكن له طلبـات ، واذا سألتـه عما يـود ان يـأكـل يقـول لهـا « ما ستأكلينـه انت » واذا احتدم النقـاش يقول لهـا « اخفضى صوتـك سيسمعك الجيران » ، وعندما تفتح الباب لا تدل ملامحه على الجهة القادم منها ولا الى أى ناحية سيمضى ؟ وبعد رجوعه من ليـالى القتال يـدخل حجرة ليلى وسامح على اطراف اصابعه ويتأملها ثم يميـل ليقبلهما ويـأبى ازعاجهما وهو الآن يحوم حولهما ولا تراه ليلى ولا يـراه سامـح ، وتود ان يرضى عنها فى غربته وسبل الاتصال بينهما مقطوعة ، وفى اليوم الأول لم تبك انما قالت لنفسها ان زمان البكاء بدأ ، وان الأيام التى ستبكيه فيها بلا حد ، وفى كل عام ، وفى يوم التاسع عشر من اكتوبر ستبدأ ذرف دموع تفيض على امتداد السنة كلها ، وعندما ناءت بحمل الساعات والليـالى والزمن الذى ولى جاءت الى الاسكندريـة كما جـاءوا أول مرة ، وبعـد زواجهما قالت امه « خلى بالك منها » وصحبهما اشقاؤ ها ، سمير وسامح وسـامى حتى المحطة ، وفى القنـاء الكبير اشـار الى الديـزل الـذى بـدأ

التحرك ، وقال انهم تأخروا نصف دقيقة ، وضحك ، ورددت الطرف بينهم حائرة ، أهي مسئولة عن التأخير؟ وهل استغرقت وقتا أكثر من اللازم في اعداد حقائبها؟ وضغط يدها ، وخرجوا الى الميدان ، وعاد سامي ليقول انه عثر على تاكسي سيتحرك بعد قليل وعندما ادار السائق الموتور لوحوا بأيديهم وفيها بعد حكى لها عن اشقائه ، سمير وسامي والمرحوم سامح ، وحكى لها عن انتقال الاسرة من بلد الى آخر ، واستيقاظهم مبكرين ليلحقوا المدارس البعيدة ، ومشيهم فوق الطرق الزراعية ، وحدثها عن الانتقال المفاجيء الى بلد آخر وعند وصولهم الى المدرسة الجديدة يجدون أنفسهم اما قد سبقوا المنهج او ان المنهج سبقهم كما ان الزملاء والاصدقاء يتغيرون ، وفي طنطا توقف التاكسي ودخلا الى استراحة صغيرة وجلسا الى منضدة مستديرة وتعانقت نظراتها ، ومنذ هذه اللحظات مشت في وطنه وظللتها غماماته وصارت معه ، ولو عرفت أنها ستحاول بعد سبع عشرة سنة استقصاء الأثر لصانت كل ما مر بها ، ولاحتفظت بكل ورقة فوقها حرف ولتعلقت بخطوات الزمن حتى تثقله فلا يمضي ، وعندما مرت أمام الفندق الذي قضيا فيه باكورة العمر الجميل توقفت ولم تجرؤ على عبور الطريق اليه وحول البناء رأت الحديقة كالسلوى ، والمصابيح الملونة معلقة إلى أعمدة خشبية ، وتذكرت جلوسهما تحتها ، وابتسامهما ، وهمسهما ، وانحناء الجرسون لهما ، وعناقهما لزرقة

البحر من الشرفة الخشبية الفسيحة ، واستنشاقها الهواء القادم من شطآن غير مرئية ، وعندما حدقت طويلا فى البحر قال مرحا « أقدم لك صديقى البحر » وعلى الشاطىء قال لها إنه سيستعجل النجار بعد عودتها لينهى الأثاث ، وعند نهاية الرصيف المبلط بقطع صغيرة من الحجارة توقفا وسألها ، إلى أين تودين الذهاب ؟ ، ولو حاولت احصاء المرات التى قطعا فيها هذا الطريق لكل ذهنها ، وفوقه مشيا عندما كانت ليلى جنينا تطرق ابواب الدنيا من خلال احشائها وكان الحنو مغدقا منه ، واللهفة لا تفارق صوته ، ومنه تسرب اليها رضى احلى من الشعور بالأمن ، وعندما جاء فى الاجازة انحنى فوق المهد ، ورفعها بين يديه ورأت وجهه تحت ظلال خجل غريب مهموس ، والآن تواجهها المدينة بالصمت ، والبحر فى حركته الأبدية ، والناس يروحون ويجيئون ورجل يفتح باب سيارة لامرأة ، وامرأة تتأبط رجلا ، وتجثم عليها وحدة بغيظة فى قلب الزحام فتلوذ بأحد الايام البعيدة ، وتذكر اندفاعاته المفاجئة وفى البيت يتأمل الاثاث حيث لكل قطعة حكاية ، وكثيرا ما سألها ، « هل تذكرين متى اشترينا هذه الكنبة ؟ » ويبدو مرحا ، وعندئذ ترصد ملامح طفل تحبها ، وفى بداية كل شهر يخرج مظروفا أصفر اللون وتقول ضاحكة ، كم ستأخذ كمصروف ؟ فقال انه لا يحتاج الى شىء وعندما سيحتاج سيقول لها ، وعندما عاد يحمل بعض الثياب قالت ، الم تناقش البائع فى الاسعار ، قال بدهشة ، لم أفكر ابدا فى

مناقشته . . الاسعار مكتوبة فى الفترينة ، ثم قال انه لم يعتد المناقشة ، وفى لحظات اخرى دخل المطبخ وفتح الدولاب وتأمل العلب والصناديق الصغيرة وسأل ، ما هذا ؟ عندئذ تقف ويديها معقودتين أمام صدرها وتجيب « صابون » ويسأل مشيرا الى بعض الاكياس ، وهذا ؟ قالت « زبيب من بقايا رمضان » ، وتتقدم خطوة لتقول « أنا سأريحك . هذا سمن . . وهذا زيت » ضحك وقال « انا لا أطالب بالجرد » ، فقالت بدلال « اخرج اذن لو سمحت من المطبخ حتى اعد لك الغذاء » ، وهنا انصرف صامتا كأنه لم يدخل ، وكأنه لم يسأل ، وكأن هذه الأيام لم تمر ، وكأن سكينا هائلا بتر ففصل وابعد ، وفى الزمن النائى تردد صوته فى التليفون واضحا واثقا « زواجى منك معركة ولا يمكن ان اخسرها » قالت بصوت خافت محاذرة الا يسمعها احد « . . هل تعتبرنى عدوا ؟ » وعندما خرج يوم السبت السادس من اكتوبر كتب اليها رسالة موجزة « . . عندما يصلك خطابى هذا اكون ماضيا لقتال العدو ، قولى لمن تلتقين به ان فى مصر رجالا قادرين على هزيمة العدو . . » وها هو كل شىء يفلت ويولى وعندما جاءا معا الى هذا المطعم الذى لا تجرؤ على دخوله الآن كان المطر يهطل بغزارة وعبرا المسافة الفاصلة بين السيارة والباب قفزا ، وعندما دخلا نظرا الى المناضد الخالية ، وأويا الى منضدة مستديرة وجلسا وقال كل منهما انطباعه للآخر وكان يتدلى من السقف اوراق ملونة ومصابيح كثيرة وفى

الركن شجرة عيد الميلاد خضراء وقال لها ، كل سنة وانت طيبة ، وولى ذلك العام ، واعوام كثيرة بعده ، وستجيء سنين اكثر بدونه ، وستخلو كل الايام من مشاريعهما معا ، وخطاباته ومرات صمته التى اعتادتها ولن تعد له مفاجأة يوم عيد ميلاده ، احتفال بسيط فى بيتهما لانه لم يعد هناك اعياد للميلاد ولا مكان للبهجة ، انما ستحاصرها ايام البكاء الطويلة بـاحزان وآلام ووحدة ، هى الخاسرة الاولى ، وكثيرما يأخذها الفكر فلا تصدق انه لن يعود ، الم يواجه بلا حد ، وعاد سالما ، وكثيرا ماهفا قبلها واستولت عليها حالة انتظار لسمـاع خطواتـه الاخيْرة قبـل التوقف امـام البيت ، وعندما فتحت عينيها فى ذلك الصباح تقمصتها لحـظات ولت ، عندمـا كانت تفتح عينيها فتجده بجوارها ، وتدرك ان اليوم اجازة ، وانه سيبقى معهم ، وانه سيخرج بسامح ، وانـه سيداعب ليـلى ، عندئـذ تغمرهـا راحة ، وتنظر الى وجهة الهادىء احلو الآمن التقاطيع والوديع الملامح ، وتنفسه البطىء فتقول بصوت خافت ، « يا حبيبى » ، غير ان لحظة الوعى ادركتهـا كانقضـاض صـاعق ، فـادركت انها وحيـدة ، وانـه لا يتمـدد بجوارها ، وانه ليس فى البيت ، ولا فى مصر ، ولا فى العالم ، وان الحجرة غير حجرتها فمنذ ايام افسحت مكانـا للكنبة فى غـرفة الأولاد واصبـح دخولها الى غـرفتها صعبـا ونبشا لشجـون الايام الحلوة ، تنـام مع ليـلى وسامح ، فى ذلك الصباح بكت وجرى الدمـع سخيا وعنـدما خشيت

استيقاظ ليلى وسامح ورؤيتها هكذا خرجت على مهل الى الصالون وفيه استسلمت اسيرة للأحزان ونظرت الى صورته ، وهمست باعتذار لانها لم تستطع التصدى للبكاء ، لكنها لم تبك ولم تظهر ضعفا امام سامح وليلى ، وفى الاسكندرية طافت تحاول اقتفاء الاثر ، وكانت ملامحه فى الطرقات ، وعند النواصى ، وفى المقاهى التى جلسوا اليها يوما ، وايقنت انه يرافقها ومن كل مكان يرمقها وفى الليل تتعلق بالسماء ولتلملم ملامحه من اعماق النجوم ، وعندما فتحت الباب رأتـه يمسك بيد ابو الفضل الذى بدا خجلا ، لكنه ابدى ترحيبا به ، وقام وتناول طبق المكرونة الكبير وعندئذ وقف ابو الفضل فضحك طالبا منه الجلوس وقال له « انت ضيف » ثم ازاح الشوك والسكاكين جانبا ونظر اليها قائلا « نحن مقاتلان ونفضل البساطة » وفى رمضان كان يطلب منها ان تحجز نصيب ابو الفضل من الكنافة ، وفى العيد يعد لـه الكعك ، وكان يقول انه من الواجب ان نخفف الوحدة عن الانسان الذى ابتلى بالوحدة فلا ام ولا اب ولا اسرة له الا المجموعة وها هى تمضى الآن وحيدة ولا يظللها بجناحيه ولا يخفف عنها بهمسة وتمر من بعيد بحديقة المنتزة ولا تعبر الباب ولا تتخطى السور وعندما جاء مصطفى قال بصوت باك ان الاكل الذى كانت تعده له بعد اصابته بالقرحة كان يقتسمه معه ، وفى كل صباح يجىء صوت مصطفى عبر التليفون متسائلا « الا تحتاجون الى شىء ؟» وجاء عبد المؤمن يقود

السيارة الميكروباص البيضاء وامسك بيد سامح عند نزول السلم وفى الظهيرة عاد به وسأل ، الا تحتاجون الى شىء ؟ وجاء وسام وجاء علاء وجاء السرساوى يحمل صورة زيتية للحبيب الغالى ، وضعتها بين صور عصام الدالى وعمر وسعيد وبقية شهداء المجموعة والذين علق صورهم بنفسه فى الصالون ، أما ابو الفضل فلم تره ، وقالوا لها ان خدمته انتهت ، وانه لم يتصل باحد منهم ، ولم يره أحد ، وانه رحل الى اماكن لا يعرفها احد ، والتحق كل فرد من المجموعة بوحدة ، وفى حديث لمصطفى قال ان الكثيرين جاءوا الى مقر الحبيب ليروا اين عاش ؟ واين فكر ؟ واين وضع خطط الهجوم ؟ وقال مصطفى انهم ضباط وجنود لم يرهم ابد ولم يسمع عنهم وبعضهم لم ير الرفاعى ولم يلتق به ، وجاءت أم مصطفى وقالت انها لم تره الا ليلة فرح ابنتها ، لكنها احبته كمصطفى ، وتساءلت . . الا تحتاجين الى شىء ؟ قولى ولا تخجلى ومع مضى الايام تتباعد المسافات ، وتصبح الوحدة عمرا وتطول لحظات اصمت ، وفى الليل تتأكد من اغلاق النوافذ ، والترباس النحاسى المتين الذى اضافته الى الباب وعندما يدق الجرس تنظر من العين السحرية ولا تفتح الا إذا استوثقت من القادم ؟ وفى جوف الليل تصغى الى برودة البيت ، وترحل عبر سنوات العمر ، تلملم الذكرى من كل عام ، وتلجأ الى الدفء فى الاحاديث التى لم يدهمها النسيان ، وتصغى الى خطوات العائدين بعد منتصف الليل ، والى شظايا

ضحكات بعيدة مجهولة المصدر ، والى عبور عجلات الترو لفواصل ما بين القضبان ، واذا عجزت عن استعادة ملمح أو عبارة قيلت يوما ، تبكي . . .

« ٢ »

» . . ما بين اليقظة والنوم تتهاوى الموجودات ، تلين اليوابس وتتدافع سيارات فى صخب غير محسوس ، ويتعلق جندى بعربة نقل ، وترتفع معاول ، وتلمع الشمس فوق حديد ملقى فى العراء ، ويبدو الرفاعى ماشيا ، ويبدو مبتسما ، ثم يرى واقفا ، وجالسا داخل هيلو كبتر ، وتطير شظية فى حجم صومعة قمح ، ويظهر جنود من تحت الأرض يمد كل منهم يده حاملا رسالة ، والرفاعى يجمع الرسائل وفى المقر يلصق الطوابع ويقف جندى أمام الميكروفون يتلو شعرا ، وتعبث الرياح فى شوارع خالية ، اين الرفاعى ؟

يهوى ثقل داخل الصدر ، تتعثر دقات القلب ، بدايات غثيان ، لحظات ما قبل القىء ، الجسم يفرغ من الروح ، يقوم متسارع الأنفاس ، والوخز يفرش صدره ، يجلس فى الفراش ، الآن ، فى هذه اللحظة ، التالية ، لن تمضى لحظات الا وسيقع ما واجهه طويلا ، ما نجا منه ، ما أفلت منه ، الدوار خفيف هازىء يقف فى وسط الغرفة ، أى مواجهة هذه ؟ أى خلل طرأ على القلب ؟ أى قوة تباغته ؟ العالم كله سيولى ، سيموت . الآن ، الآن ، الآن ، الدقيقة التالية ، الخمس دقائق

التالية الدقائق الثلاث التى انقضت فعلا ، ينفرد به فى مكان مغلق ، يدفع مصراعى الشرفة ، المدينة هاجعة والشوارع خالية تفسح الطريق امام الموت القادم ، سألت زوجته بخوف .

مالك .. مالك يا علاء ؟

سيودع هذا كله ، سيغادر البيت ، والطرقات ، والعالم ، يشحب ، يجف لعابه ، تتسارع دقات قلبه ، يود الافلات من اسار الجسد ، من تصور ان الموت سينصب له هذا الكمين ؟ هذا الوخز البطىء الذى تحدثه ايد خفية غير منظورة ، الوخز الذى يسبق التوقف النهائى ، الوخز الذى يصحب تباطؤ الدقات ، القلب ضنين بما يدفعه من دماء الى سائر أنحاء الجسم ، تضيق به الشرفة ، يستند الى المصراع الخشبى ، يدخل ، الفزع يكسو وجه امرأته ، اختصر الرفاعى وعصام وعمر وعبد الكريم الطريق ، تعود بكوب ماء ، يرفعه الى شفتيه ، اشهد أن لا أله الا الله ، تصرخ زوجته ، علاء ، للماء مذاق غامض ، اهكذا ، لم يبد له الموت اثناء القتال والدوريات وعبور الالغام والنزول الى قلب المواقع المعادية ، ثم يجيئه فجأة بين جدران مشيدة ، جاء سالكا ممرات وعرة الى روحه ، يبدأ هذا الانهيار البطىء الذى لا صوت له ، تتساءل بفزع ... ماذا أفعل ؟ تمسك كوب الماء الفارغ ، لن يوقف احد هذا الزحف البطىء الذى أصبح الآن مصحوبا بهدير خافت وحلقات غير مرئية تدور داخل الرأس ، يحكم

الحصار حول روحه ولا يجهز عليه في ضربة مختصرة واحدة ، والليل يثقل ، والنهار قد يجيء ، ولا يجيء ، ولن يذهب الى السرير ، لو أغمض عينيه فلن يفتحهما قط ، وفي السويس قال جندي مطاقيء يقف بجوار مخبأ المحافظة ، « جاءت الشظية في حجم رأس الدبوس ، آه يا كبدي ، لم يخط منطق » وفي طريق المعادي قال لنفسه « لو جرحت ، سأرقد في هذه المستشفى ، أو أحد المستشفيات العسكرية » ، في حديقة المستشفى رأى مصابا يرقد فوق سرير متحرك ، يتدلى من تحت الغطاء خرطوم نحيل من البلاستيك يصب في زجاجة مستديرة امتلأ نصفها بالبول ، قال لنفسه « اكره ان تعذبني يارب » .

تقول امرأة . .

يجب أن نستدعي طبيبا . .

ينظر إليها صامتا ، موجوعا ، محاصرا ، ماذا يشكو ؟ هل استقرت شظية في جسده ؟ هل ينزف دما ؟ هل غارت في عروقه رصاصة ؟ نزيفه الحالي لا تراه عيون ، ولا ترصده أجهزة ، نزيف الحزن مستمر ، داخلي ، لا يبين ، إنه الآن في هدنة مؤقتة مع هجوم الموت المباغت الذي لم يجهز عليه ، في صغره ، قال والده ان ملاك الموت كان يجيء الى أمة محمد قبل ارساله إليها مجسدا ، وعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام رجا الله ان يرحم امته من هذا الهول ، فبدأ عزرائيل يجيء متخفيا لا يظهر الا لمن

سيقبض روحه ، إنه لم يظهر له حتى الآن ، لكنه يحوم ، ماذا سيقول للطبيب وهو الطبيب السابق ، لو يطلع النهار ، لو يرى الحركة ، ويستنشق الروائح ، يدرك ان حياته انقسمت منذ الليلة الى قسمين ، الاول عاشه وولى ، كان مفعما بالحركة والقتال والرفاعى والزملاء الذين مضى كل منهم الآن الى مكان غير المكان ، والثانى بدأ ، المجهول ، انه يمسك بلحظة تولد فيها التجعيدة وتبقى لا تفارق الوجه ، عندما اتصل به احد الصحفيين فى الظهيرة وطلب منه ان يقابله ليحدثه عن الرفاعى اعتذر ، قال الصحفى انه سيعد سبع حلقات اذاعية عن الرفاعى ، لم يسمح باطالة عمر الحديث ، انما انهاه فى جفاء ، ماذا يريدون ان يفعلوا بالرفاعى ؟ حلقات اذاعية ؟ رواية ؟ قصة ؟ فيلم سينمائى ؟ هل يتسع احد هذه الأشياء للرفاعى ؟ لهذا العمر كله ، لو اتصل به احدهم مرة أخرى سيصيح فيه . يا لصوص كنوز المقابر . . اتركون واتركوا الرفاعى فى حاله . ، لا يود رؤ ية نابشى السيرة الفضوليون ، المتطفلون ، كأنهم يتحلقون به فى هذا الليل ، يخشى الليل الآن ، انه يلتمس المعذرة من الرفاعى ، لم يخلق من لا يخاف ، إنه لا يخشى عدوا معروفا ، إن مهاجمه لا يرصد ، لا تخترقه الرصاصات ، ولا يناله سن الخنجر ، فى قلب الانفجارات واللهب ظهر الجمعة التاسع عشر من اكتوبر انحنى بأذنه فوق الصدر العريض الذى احتوى البلد ومن فيها سنين طويلة ثم سكت من

أجلها بعد ان خفق وخفق لها ، عبثا حاول التقاط أى أشارة مرسلة من القلب ، الجسد سليم ، اليدان تلامسان الخصر ، كأنه سيقف بعد اغماضه عين ليرصد ، ويرقب ، ثم يعطى إشارة الهجوم ، غير أن الظهر احتوى الهلاك النحيل ، فى مستشفى النحاسين قال الأطباء ان الشظية نفذت الى القلب تماما ، سلكت طريقا ادق من مشرط الطبيب لو سدد الى مركز القلب ، قالوا انه لم يتألم ، فتساءل ، لكنه لماذا يضغط شفته بأسنانه ؟ أثناء عودته بالجثمان لم يبك ، عندما ظهر الطيران مدده ورقد فوقه ، يحمى الجثمان من خطر آخر محموم او شظية غشومة ، لامس وجهه جبهة الرفاعى وعينيه وذقنه الحليقة ، من ملامحه كانت تولد ابتسامة من قلب الموت كما تنمو الزهور فوق المقابر ، وعندما رآه عبد المؤمن بكاه صارخا . « كالقمر » وعندما عاد يحمله لم يدر ، هل يغلق عينيه ، ام يتركهما على حالهما ؟ لم يدر إلا شيئا واحدا ، أن يعود بالرفاعى ، لو ان الرفاعى سمح له بالتقدم بدلا منه لكان مستريحا الآن ، انه حزين من أجل نفسه ، الا يختار الموت الا هذه الطريقة الغامضة فى الهجوم عليه ؟ يكاد يدمع حزنا على ذاته المحاصرة ، على الفراق الطويل البطىء ، لا يرغب فى البقاء بالبيت ، لا يرغب فى النزول الى الشارع ، لا يود محادثة أحد ، إلى من يتكلم ؟ تتقطع الخيوط واحدة اثر اخرى فتعبث الامواج بالعمر ، لماذا لم تباغته النهاية فى لسان التمساح ، فى بلاعيم ، فى الطور ، فى جبل مريم ،

فى شلاطيم لوحدث لوجد من يرثيه ، ويحزن من أجله ، ويذكره ، ويعلق صورته فى بيته ، ويطلق اسمه على احدى العمليات ، لكن ها هو الفناء يراوغه ، يهدمه فى كل لحظة جزءا حتى يجهز عليه فى ضربة مباغتة ، بأى مكان يتحصن ، والى اى موقع يلجأ ؟ انه يمسح دمعا جرى ، اين الرفاعى ليشكو له ما جرى ، ليحدثه عن هذا الاحتضار الطويل الذى بدأ ، قد يستغرق ثوان ، وقد يطول إلى سنوات ، أين هو أين ؟

« ٣ »

« . . . إلى الصعيد وإلى الوجه البحرى والى المدن المحاذية للبحرين الأبيض والأحمر والى القرى المطلة على رمال الصحراء رحل ابو الفضل ، لم يستقر فى مكان ، ولم يأو الى بيوت ، ولم يهجع الى انسان . فوق الطرق الزراعية المرصوفة والمتربة نزل الليل عليه ، وقرب سمالوط هاش بعصا من جريد النخل على الكلاب عندما حاولت النيل منه ، ورأى اضواء مدينة ادفو والليل مقترب ، ومن الحقول شاهد مبانى الاسكندرية مضمدة بالمغيب والسحب ، تعلق بالقطارات الراحلة بين المدن والقرى ، وعبر النيل فى القوارب الصغيرة والمراكب الكبيرة ، وعمل حمالا مع جماعة ينقلون الأحمال ، وعاملا فى رصف الطرق ، وبوابا لوابور طحين ومعبئا لاكياس البصل ، دخل بعض القرى والمدن مع بدايات النهار ، وأوى إلى المساجد المفتوح فى قلب الليل ، ونزل ضيفا على كثيرين لازالوا يقدمون العون إلى الغريب فى ذلك الزمان ، فى قرية دراو بالقرب من اسوان سأله الفلاحون فى السوق بعد أن بدأ كلامه ، من هو الرفاعى ؟ فقال إنه من الناس الذين لا يجيئون مرتين فى الزمن الواحد ، جاء إلى الدنيا وقضى عددا من السنين محدودا ، وحمل البلد وهمومها فوق رأسه ، وحارب من أجل الناس ، الناس الذين يعرفهم ، والناس الذين لم يرهم ، والذين

مضوا ، والذين بقوا ، والذين لم يأتوا ، قال إنه الآن طائر من بين الناس ، وانه علا كا لصقر ولم يعد فوق الأرض إلى حين .

وفى الزقازيق حدث الناس فى مقهى كبير عن جلوس الرفاعى إلى الجنود وحديثه إليهم ، وحديثهم إليه ، وطلبه منهم ان يتحدثوا عن بلادهم وعن قراهم ، وعن الوان الزرع على مدار السنة ، وكيفية محاربة الآفات ، وزمن نضج المحصول ، وكل ما صار وما سيصير ، وفى كفر صقر قال لعمال محلج القطن إن الرفاعى لم يكف عن توجيه الاسئلة إلى الجنود ومنهم استوحى الخطط ، وأنه كان هادىء البال ، طويل النفس فى محاورة الصغير والكبير ، وحكى لهم ما جرى بالقرب من القناة يوما ، عندما قال ضابط احتياط من حملة المؤهلات أن مستقبله ضاع بسبب الجيش وانه كان مرشحا لبعثة إلى اوروبا ، فاشار الرفاعى إلى الشرق وسأله ، من يطرد هؤلاء ؟ ثم قال ، هل نستورد رجالا ليحاربوا لنا ؟ ثم قال ، لو تركنا العدو فلن يظل مكانه ، انما سيجىء لانه يطمع فى هذا الفول الأخضر ، ومد يده واقتلع عودا من النبات الأخضر ، سأله الرفاعى ، هل نمشى كلنا ونتركه يمضى إلى بيتك وبيتى واختك واختى ، قال الشاب ، لا . . قال الرفاعى ، انت قلتها لنفسك .

ومضى ابو الفضل إلى كفر صقر وإلى السنبلاوين ، وقال للفلاحين فى حقول الأرز المغمورة بالمياه أن الرفاعى كان هادئا وبسيطا ونفسه حلوة ولم

يتعالى على مخلوق ولم يجرح انسانا بلفظ ولم يخدش اذنا بكلمة ، وقال إنه كان قاسيا فيما يتعلق بالقتال ، يوقع الجزاء على الجندى ويضعه فى السجن ثم يستقصى أحواله من بعيد ليعرف اذا ما كان حبسه سيؤثر على نفسيته عند الخروج لملاقاة العدو ؟ ، وفى أحد الأيام زعق لاحدهم لأن زرار قميصه مقطوع ، قال ان من ينسى زرار القميص فأنه ينسى تركيب كبسولة التفجير ، هكذا يروح الجهد ويضيع .

فى قرية الغنايم قبلى لف ابو الفضل ، وفى البدارى تحدث الى الناس تحت سقف الليل ، وفى الحواتكة جلس على محطة السكك الحديدية ، وفى القطار طاف بركاب الدرجة الثالثة ، وفى جهينة قضى يوما بسوق الاثنين ، وفى مغاغة قضى يوما آخر بسوق الأربعاء ، حدث الخلق عن الخروج مع الرفاعى ، واحساسه الخفى بقرب ظهور العدو وامره بالتوقف عندئذ ، حدثهم عن انواع الضوء ، الأضواء الغامضة فى عمق الصحراء ، وكشافات الطائرات المقتربة من ممرات الهبوط ، وتلاقيها مع اصداء الاضواء الخافتة الصادرة من النجوم البعيدة ، ومشاعل العدو التى تصهر الليل ، الطلقات الكاشفة لمدفعية الهاون وارتفاعها المتمهل البطىء ، واللهب المنبعث من فوهة مدفع ميدانى ومشاعل الطائرات التى تعرى المدن والمواقع ، حدثهم عن انفجار القذائف ، عن نفاذ الرفاعى بين الشظية والشظية ، عن حضه لهم على مواجهة الموت وعدم الخوف منه

والسعى اليه لأنه ينال من يخاف ويباغت من يخشى ، حدثهم عن تقدم الرفاعى بطوله وعدم انحنائه لحظات الهجوم وعنف قبضته عند الالتحام ، وحدثهم عن لحظات المرح فى قلب مواقع العدو ، عندما اصروا على التقاط صورة فى عتمة الليـل ، واصطفـوا حول الـرفاعى ، وبـريق ضوء آلـة التصوير ، قال علاء ان العدو سيرصد هذا الضوء ويحار فى تفسيره ، ربما ظنه سلاحا جديدا ، حدثهم عن مواجهة الليل مع الرفاعى ، والصمت حولهم لحظات الخطو الحذر الى العدو ، والغموض ، ومعـرفة الـرفاعى باوضاع الهجوم وقوله ان ما بيننا وبين العدو دماء كثيرة وان نصف جيشه لا يكفى للثأر لاحد رجالى ، وقوله انهم يجب ان يأخذوا من العدو احسن ما عنده ، لكن لا يعاملونه بنفس اسلوبه القذر ، فلا يهينون اسيرا حيا ، ولا يلغمون جثة ميت ، ولا يمثلون بجثة ، وعن قوله انه يجب تعدد الطرق التى يسلكونها الى العدو ، وان الطريق الذى يعبرون من خلاله لا يستخدم الا مرة ،

فى قنا أقام أبو الفضل ضريحا من الكلمات ومزارا لا يزار ، قال لمن قابلوه انه لا يبغى مكانا للمبيت فالمجموعة كانت بيته ، وآخر البيوت ، وانه لا يريد شيئا لانه نذر أيامه ليطرح فى كل بلد غرسا ، وليضع فى كل قلب مقدارا . حدث الناس عن اقتفاء الرفاعى للأثر ، قال ان من علمه اقتفاء الأثر رجل عجوز من بدو سيوة تجاوز المائة ، كان يخلو الى الرفاعى

فقط ، ثم يأوى الى ركن ناء قريب من مكان نومه ، يضغط عمامته فوق رأسه ، يدخل يديه فى اكمام جلبابه الواسع ، ثم يطرق محملقا الى الأرض بثبات عجيب ، يبدو كأنه قادم من أيام منسية ، قيل انه علم الرفاعى كيف يقرأ الرمال ، وان يطلع على مكنون الصخر ، وان يعرف الزمن الذى انقضى على مرور الانسان ، وماذا يحمل ؟ ومقدار ثقله ، علمه ان يعرف جنس الثعبان من شكل الخطوط ، وأين يختفى ثعبان الطريشة ، والى اين يتجه العقرب ؟

قال ابو الفضل انه فى يوم من أيام هذه الدنيا سيجىء من يمشى على قدميه من جديد فيقطع المسافة من المنبع الى المصب ، فيلملم ويجمع ، سينظر الرفاعى الى أضرحة أبو الفضل وشواهده التى أقامها فى كل البلاد ، فيذكره عندئذ بالخير ، وسيقول لنفسه ، شاء أحد رجالى الا يضيع دمنا هدرا . .

سيمشى الرفاعى فاردا طوله ومتطلعا الى الأمام ، واضعا نفسه فى أكثر الاماكن تعرضا للخطر عندما يجىء الخطر ، سيمشى ليجادل هذا ويكاحر مع ذاك ليعود بحق ولو ضئيل لاحد الرجال ، وليمضى الى الثكالى ، يخفف عنهم البلايا ، ويقضى الحوائج المنسية ، ويؤكد وعوده بالثأر للقلوب المجروحة بسبب رحيل الأحباب ، وليعلم الناس لغة العدو فيأمنون الخطر المباغت ، وليعرفوا ما سيفعل ، وما سيأتى به إلى الغد ،

ومن قبـل ذلك يعلمهم لغتهم فيمحـو أمية كـل من خاصمـه الـزمن ، سيحمل البلد فوق رأسه ، سيقتفى آثار من ضلوا ليعود بهم ، سيسعى خلف كل من يهدده الفناء فى الصحراء . .

بالقرب من كفر الزيات قضى ليلته فى الحقول ، أصغى الى النباح والصرير وهمس النجوم ، مع بـداية النهـار حام حـول مرسى المـراكب النيلية ، حسم تردده ، تقدم من المعلم الذى يرتدى جلبابا بلديا واسع الأكمام . .

أحمل معكم الطوب . .

قال المعلم . .

العمل شاق

أومأ أبو الفضل ، قال المعلم :

كل مائة حجر بقرش . .

خلع جلبابه ، بعد لحظات بدأ يقطع المسافة الفاصلة بين الشاطىء والمركب الكبيرة فوق سقالة الخشب النحيلة ، فى الليل قال للمراكبية . .

أقضى الليل معكم . .

مد يديه ليتدفأ بالنار ، شم رائحة الحطب ، وتذكر المائدة التى جمعتهم يوما فى قلب ميدان الحسين والافطار الرمضانى عادة كـل سنة ، وتـذكر

ضحكات الود وحرارة الأيام ورفقة القتال ولحظة تواجده بعنبر النوم ثم مرور الرفاعى وطرقه باب العنبر قبل دخوله على الجنود ، وقوفه بينهم قبل التحرك الى الجبهة ، والتماس الراحة بعد العودة .

فى الصباح قال المراكبية لأبو الفضل . .

ابق معنا . . لا تفارقنا . .

قال انه سيجر معهم المركب فى المياه الشحيحة ، وسيرفع القلوع عند جفاف الرياح ، وسينشرها ويتعلق بها عند سخائها ، بعد الابحار ربط الحبل فى وسطه ومشى فوق الشاطىء المترب ، يصارع ثقل المركب ، يثبت قدميه فى الأرض ثم ينقلهما ، وعلى الجانبين تمتد خضرة ، وتهتز فروع نبات ، وتترقرق أمواج .

زعق مصارعا الأرض والأمواج التى تحاول ان توثق حركة المركب ، ليصغى اليه الناس ، ولتسمعه الموجودات ، وليحدث آثارا لا تغنى فى اللون الأخضر ، ما بين الظل والشمس ، وفى الموضع الذى تشق فيه مقدمة القوارب النهر والبحر ، لكم قال الخبراء وعلماء البحر إن الرياح عتية والابحار مستحيل ، ولم يثن هذا الرفاعى ، من كل لحظة فى عمر هذه الدنيا سيجىء ، سيبدو للكل ، من رآهم ، ومن سيعمل معهم ، ومن سيلتقى بهم على غير اتفاق ، سيظهر فى الجهات الأربع الأصلية ، ويسرى

الى الكل ، عندئذ سيمضون اليه ، فواحد يحنو عليه ، يضمه ، وآخر برداء الحرب يظلله ، وآخر بالصمت ينظر الى وجهه ، وآخر فى الهجوم يفديه ، وآخر قبل الاقتحام يستأذنه ، وآخر بعد الجرح يلوذ بجانبه ، وآخر يقول نأيت عنا زمنا طويلا ولم نعتد منك البعد ، فيقول أبو الفضل عندئذ ، كان سكته فى العمر ، وضريحه فى قلبى . .

ذكر ما جرى

ما جرى لأرض الوادى

. . لا يدرى إنسان متى بدأ ذلك ؟ لا يمكن تحديد سنة معينة أو تاريخ محدد . لكن يذكر الكثيرون أن القلق كبر فى النفوس بعد صدور المجموعة الثانية من الصياغات الاجرائية والتى أباحت حق تملك الأراضى بالنسبة للأغراب ، ارتفعت أصوات بالاحتجاج . فى مواجهتها نشر العديد من المقالات فى جميع الصحف على اختلاف اتجاهاتها ، ألقيت محاضرات ، ظهرت رسوم كاريكاتير ، وأفلام قصيرة تعرض فى دور السينما قبل الأفلام الطويلة ، هوجم المشككون ومثيروا الاعتراضات . فى نفس الوقت سارت حركة بيع الأراضى جنبا إلى جنب مع الأمور الأخرى ، وبعد إبادة جميع وثائق هذه السنين ، وإعادة طبع الدوريات والنشرات الصادرة فى الزمن القديم وتحريرها ، وتغييرها بما يتمشى مع الأحداث التى جرت بعد ذلك ، ضاعت كل التفاصيل ، لكن وصلت إلى العديدين دراسة

لا يعرف من كاتبها ؟ قيل أنه شخص لا وجود له ، وأن بعض السكان الأصليين أعدوها بعد طلوعهم إلى الجبل ، وقال آخرون أنها شهادة من الأيام ، ولم تطبع فى كتب ، كل النسخ التى تم تداولها مكتوبة بخطوط يدوية ، بعضها أنيق ، منها المتعثر ، كأنه لأطفال فى الابتدائية ، أو لكبار لم يكملوا تعليمهم ، وجدت محتوياتها منقوشة على الصخور ، وعندما تهدهد الأم طفلها فإنها تذكر له عبارات منها ، وتحكى ما جرى ، ولا يدرى أحد من يدفع إلى ذلك ، ومن يبقى التفاصيل فى أذهان الخلق ، لكن إذا قبل أحد السكان الأصليين الإجابة يقول ، حتى لا ينسى مخلوق ما جرى لأرض الوادى ، وحتى يتجه الجميع الى أرض مصر . .

ملخص لما جاء فى الدراسة المعنونة :

أرض الوادى . . تاريخ وحقائق . .

. . فى البداية بيعت الشقق ، والدكاكين الصغيرة ، وأرصفة الشوارع[1] تناقل الناس الأرقام الضخمة التى دفعت بالعملات الصعبة ،

---

(١) ظهر بيع الأرصفة فى نهاية العقد الماضى ، عندما قام أحد الأغراب بشراء الرصيف الأيمن للشارع الرئيسى للاسكندرية ومنع الناس من المشى فوقه ، ثم أحاطه بسياج حديدى أزاله بعد فترة ، ثم بدأ يؤجر الرصيف إلى الباعة الجائلين ـ الأغراب أيضا ـ وحدد الايجار على أساس مائة جنيه للبلاطة الواحدة من الرصيف ٢٥ سم × ٢٥ سم .

إمـا كثمن مبـاشـر ، أو كخلو ، بيعت شقق عمـارات بـأكملهـا ، ثم مجموعات مبانى ، ثم رقع مختلفة من الأرض ، إرتفع معدل الاقبال على الشراء بتأثير عوامل عديدة منها :

- الخـطوات التأمينيـة التى اتخذت ، مجمـوعة الأبحـاث التعديليـة والاجراءات المكملة لها .

- رخص ثمن الأراضى فى الـوادى ، وبرغم ارتفـاع الأسعار حتى وصل سعر المتر فى المدينة ، وبالقرب من النهر أكثر من مائة جنيه أجنبى ، فإن هذه الأسعار تعد ضئيلة للغاية إذا قيست بلندن أو باريس ، أو سيدنى باستراليا . .

- السماح بشراء أى مساحة ، وترك الباب مفتوحاً لمن يرغب .

عادة تمضى فترة بين صدور الإجراء وترجمته إلى واقع ، بعد شهور من صدور السماح لبيوت المال بالعمل فى الوادى لاحظ المارة الـراجلون ، وركـاب الأتوبيسـات الصغيرة التى يسمـح لها بـالمرور وسط المـدينـة ، والهاربون من الملل ، والباحثون عن السلوى ولقاء الصدفة فى الطرقات ، أن ثمة حركة تجرى فى المبنى القديم المعروف باسم « برج السبعة طوابق » أقيم حاجز خشبى حوله استغله المعلنون لعرض ملصقات ، بعد أسابيع أزيلت الحواجز ، رفعت السقالات ، ظهر مدخل أنيق ولافتات متحركة

تحتوى على ثلاث لغات ، الإنجليزية والعربية والاسبرانتو ، تعلن عن بيت عالمى متخصص فى العملات الصعبة ، أطلق عليه أهالى الوادى « بيت السبعة طوابق » أصبح أمراً عادياً أن تجد إعلاناً عن بيع شقة ، أو سيارة . وطلب دفع قيمتها بالعملات المعروفة كالاستكالش[1] والروبانز[2] والماكرول بنوعيه[3] ، بيع نوع من الخبز لا يسبب السمنة وغير مضر بمرضى السكر بالعملة ، تندر البعض على الخبز المستطيل ، إسطوانى القوام ، بنى اللون ، هكذا وجد نوعان ، خبز محسن للأغراب ، وعادى ردىء للأهالى ، أقدم البعض على شراء مساحات شاسعة من الصحراء ، لم يقدر أحد خطورة بيعها فى البداية ، تذكر بعض العجائز أراضى واقعة على حدود المدينة بيعت فى أوائل القرن بأسعار بخسة ثم تضاعف سعر المتر المربع منها آلاف المرات ، وضع البعض تحليلات نظرية للبواعث الخفية الكامنة وراء هذا الشراء ، نشر آخرون تحليلات مضادة فى محتواها ، عرفت تلك الفترة بمرحلة التحليلات المتناقضة ، لكن لم يبدر إجراء

(١) الاستكالش : العملة الخاصة باتحاد الدول الرأسمالية ، والاستكالش الواحد يوازى جنيهين من العملة المحلية المنقرضة .

(٢) الروبانز : عملة الدول الوسطى ، قيمته العالية أقل .

(٣) الماكرول : عملة الدول الاشتراكية الموحدة قبل انقسامها ، أصبح هناك نوعان بعد ظهور الخلاف .

عمل ، أو برنامج محدد لانقاذ أرض الوادى ، أشار البعض إلى ما تبطنه الصحارى ، الفوسفات ، الحديد ، الماس ، الفيروز ، الرخام النقى الذى لا مثيل له ، فى نهاية العام الثانى المنقضى على الشراء قام ملاك الصحراء الثانية بإقامة سور عظيم يحيط بالصحراء من جميع الجهات ، سور من الحجارة ، لا يرتفع كثيراً عن الأرض ، بلغ متوسط ارتفاعه مائة وثمانين سنتيمتراً ، تم وضع طبقة أسمنت أعلاه رشقت فيها شظايا زجاج مكسور ومسامير مدببة لمنع تسلقه أو عبوره ، تخللته بوابات ، وأبراج خشبية مزودة بكشافات كهربائية متصلة بمحطة قوى خاصة فى نفس الوقت استمرت حركة بيع الأراضى الممتازة ، بدءاً من المناطق المحيطة بضفتى النهر ، أزال الأغراب المبانى التى عدت يوماً فاخرة ، إختفت العشش والقصور القديمة ، ومراسى المراكب ، وموانىء تفريغ الغلال ، وتخزين الأوانى الفخارية ، ونوادى التجديف والرياضة ، ومجموعة من التماثيل ، بعد فترة ظهرت مبانى جديدة ، غريبة عن الطراز السائد فى البلاد ، مبانى مستطيلة ، حادة كأنها بنيت من المعدن ، بلا نوافذ أو شرفات ، برغم ضخامتها لم يستغرق تشييدها وقتاً طويلاً ، جاءت أوناش ضخمة ، جرارات هائلة ، فى صباح معين يستيقظ الأهالى على اكتمال أحد هذه المبانى ، لم يعرف ماذا يجرى فيها ، قيل أنها تضم حياة كاملة تغنى الأغراب ، عن الاختلاط بأهالى الوادى ، تضم دور سينما ، وحمامات ،

ومطارات صغيرة لكن لم ير أحد طائرات تقلع أو تهبط فوقها ، ذكرت الشائعات أنها تضم أجهزة معينة تطلق أشعة غامضة تمنع السكان الأصليين من التفكير ، سبب هذا هياجاً ووجه بعناية ، نشرت الصحف صور من قالت أنهم مغرضون ومعطلون ، بعد فترة منع أهالى الوادى من التجول فى أحياء كاملة أصبحت ملكاً للأغراب ، غير أن الأمور جرت بأسرع مما يتصور البعض فى الريف ، وتفصيل ذلك كما يلى : أباحت الإجراءات تملك مزارع الفاكهة ، ثم أراضى الخضروات ، ثم أطلقت أيديهم بلا مانع ، وفيما يلى النسب المئوية لما بيع فى السنوات الثلاث الأولى :

ــ المحافظات الشمالية ٧٥ ٪

ــ محافظات الوسط ٥٥ ٪

ــ محافظات الصعيد الأعلى ٢٥ ٪

ــ محافظات الأطراف ٩٠ ٪

لاقت حركة الشراء مقاومة عنيفة خاصة فى الصعيد ، عندما أقدم أحد الأغراب على شراء شبكة الطرق الترابية والمسفلتة ، قام برصفها ثم قرر المرور فوقها مقابل رسم معين قدره قرش صاغ واحد للفرد ولمسافة كيلو متر مئوى ، بشرط إرتداء الإنسان المار لحذاء من نوع خاص ينتجه أحد الملاك

الأغراب ، ومنع مرور الحيوانات فى البداية ، وبعد وساطات عديدة سمح للحمير بالمشى ، فى بداية العام الرابع عرض أحدهم ثمناً ـ أعتبر مرتفعاً وقتئذ ـ مقابل شراء المحافات الساحلية ، قيل أنه سيحول الشواطىء إلى مصايف ومشاتى ، سيقوم باستغلال الثروة السمكية والتى تضمها مساحة عمقها أربعة عشر ميلا بحرياً ، أعلن أنه سيغرق الدنيا بالبلطى والقاروصى والبياض الأصلى ، صرح بأن وجود السكان الأصليين يعوق مشروعاته ، طالب بترحيل عدد كبير منهم إلى المحافظات الداخلية ، بالفعل بدأت إجراءات محددة تهدف إلى ترحيل سكان الأطراف ، وذلك لتخفيف الكثافة السكانية للمساعدة فى خلق مناخ مناسب للاستثمار ، استمرت التحليلات السياسية المتناقضة ، والتى انهمكت فيها جماعات منقسمة ، أصدر كل منها تحليلا ، احتدم النقاش ، هل هو تهجير أم ترحيل ؟ وللأسف استغرق تحديد المعنى اللغوى لهذين اللفظين زمناً جرى فيه ما جرى . فى بداية السنة الرابعة أصبحت محافظات الأطراف مناطق مغلقة تماماً ، ثم بيعت أكبر محافظات الشمال ، بدأ المالك فى رصف عدة طرق ، أقام عدداً هائلاً من المربعات المكانية يضم كل منها حوض سباحة ، وبيتاً صغيراً من الحجارة ، غرس آلاف الأشجار ، فى جميع البلاد ظهرت إعلانات بمختلف اللغات تدعو لزيارة أضخم مجمع لحمامات السباحة فى الدنيا ، باستطاعه أى عاشقين استئجار كوخ وحمام ،

كما توجد مربعات سرية يتعذر الوصول إليها إلا لمن استاجرها ، ومزودة بأجهزة تفسد أى محاولة لتصوير من يقيم بها سواء تم التصوير بآلات عادية من الأرض ، أو بواسطة الأقمار الصناعية الخاصة التى تعمل لحساب بعض المكاتب الفرعية فى أوربا وأمريكا ، أنشأ هذا المالك محطة اذاعة تبث ارسالها على ثلاث موجات متوسطة وقصيرة ، موسيقاها تختلف طبقاً لموقع الساعة من النهار ، راح يذيع نشرة أخبار خاصة تتضمن اعلاناً بوصول بعض السائحين الراغبين فى اذاعة اسمائهم مقابل اضافة بسيطة إلى إجور الإقامة تختلف حسب عدد كلمات الخبر وموقعه من النشرة ، كما أذاع أخبار الطقس داخل المحافظة ، ودرجة حرارة المياه فى أحواض السباحة ، واتخذ علماً بلون السماء يتوسطه حوض سباحة ملىء بالمياه وحسناء تدلى ساقيها فيها ، واعتبرت تلك الإجراءات بداية لأخطر التطورات ويعد هذا المالك شديد الخبث ، إذ صرح فى أكثر من مناسبة أنه لن يطالب بتهجير السكان لكنه فى الواقع أرغم الآلاف على ترك بيوتهم ، استبقى الفتيات الجميلات للخدمة فى الموتيلات والشاليهات ، أرغم الأهالى على حفر قبور أجدادهم وحمل عظام موتاهم ، ردم قنوات الرى ، الترع الرئيسية ، الجسور الخشبية ، نسف ساعات العصارى ، اجتث ظلال أشجار التوت والجميز ، أحرق حديد السواقى ، أباد أبراج الحمام ، أطلقت صحف المجموعة الرأسمالية الأولى على المحافظة ، « مأوى عشاق العالم » ، ذكر

أحد الصحفيين أنه يمكن للعاشق ركوب طائرة خاصة مع حبيبته فى الصباح ليقضيا يوماً والعودة قبل المساء إلى أى مكان أقلعا منه فى أوربا ، أنشأ إدارة الصحة وتختص بفواتح الشهية الجنسية ، ضمت فرعاً للبحوث العلمية من أجل استحداث وسائل زيادة المتعة ، كما طبق أضخم نظام للتكييف فى العالم ، عندما استخدم طرقا مستحدثة لتوليد غاز الفريون فى الهواء مباشرة ، وصرح المشرفون بأنه سيتم الاستغناء عن الوسائل الصناعية بعد أربع سنوات من التكييف المتصل لأن مناخ المحافظة سيتغير جذرياً ، ثم قام هذا المالك بشراء جميع أماكن العشاق فى الوادى ، الأركان الظليلة ، والحدائق النائية ، والشوارع خافتة الضوء والشواطىء الهادئة المحاذية للنيل ، وضاق الأمر بالمحبين من أهل الوادى ، وعزت العواطف جداً ، وطوردت الأشواق ، وحرم على الشاب أن يمسك بيد فتاته إلا فى الأماكن التى اشتراها المالك حيث يصعب دفع تكاليفها ، وطالبت إحدى الصحف وقتئذ بإتاحة الفرصة أمام الحب المحلى ، لكن لم يصغ أحد إلى ذلك ، وسار الحال على ما هو عليه ، بعد شهور بيعت المحافظات الرابعة ، والسادسة والسابعة التى تضم ضريح أكبر الأولياء فى البلاد وحاميها وراعيها وقبلة المظلومين ، أقام الأهالى ضريحاً بديلاً فى الأماكن النائية ، نشرت صور توقيع الاتفاقات حيث يجلس الغريب مبتسماً بينما ينحنى أحد الموظفين يطلب سماحات الأثمان ، أدلى مالك المحافظة الرابعة بتصريح

نصه كالآتى :

« يسعدنى أن أعلن نيتى فى إنشاء أضخم الغابات المتخصصة فى زراعة المانجو ، سننتج أنواعاً خالية من القشر أو النوى » .

ثنى المزارعون القدامى أصابعهم النحيلة ، قطبوا عيونهم محاولين تصور الربح الضخم الذى سيعود على مالك محافظة المانجو بالقياس إلى إيراد الفدان الواحد فى الزمن الماضى ، مهما أرهقوا عقولهم فلن يصلوا إلى الرقم الحقيقى ، لأنهم يحسبون بالعملة المحلية المنقرضة ، ومن الصعب عليهم تصور الأنواع المختلفة التى سطرحها الأراضى فى عهدها الجديد لأن الانتاج كله سيخصص للتصدير ورداً على سؤال وجه إلى المالك الغريب قال أنه لن يحرم أهالى البلاد بالطبع ، فهم منه أن الأنواع التى ستطرح من ثمار أصابها التلف ، أو شذت أحجامها عن الثمار المخصصة للتصدير ، والتى ألصق على كل منها ورقة مستديرة تحمل اسم المالك باللغات الحية ، فى منتصف العام الخامس قام أحد الملاك الأغراب بشراء أراضى محافظتين كاملتين ، لم يفصح عن نواياه ، قيل أنه شخص ثرى جداً ، يمتلك طائرات وسفناً لانتقالاته وغواصة جدرانها من زجاج يقضى فيها بعض أوقاته تحت سطح المحيط يتسلى بمشاهدة غرائب البحر ، قيل أنه يهوى شراء الأراضى فقط ورفع اسمه عليها ، والمجىء كل سنة يوماًأو يومين ، يمشى ، فى كل لحظة يردد بصوت عال ، هذه أرضى أنا ، وأن

حلمه الأكبر شراء الكرة الأرضية وطرد الجنس البشرى منها إلى الفضاء الخارجى ، وهو أعـزب ، لا ابن له ، والعجيب أنـه صك عملة محليـة خاصة ليتداولها العدد القليل المتبقى لأغراض الحراسة ، وتردد أنه عرض شراء شعب القارة الهندية ، ولم يعرف حقيقة ذلك ، ومن أغرب الملاك الذين عرفتهم البلاد مشترى دورات المياه العامة ، إذ أعلن فى نهاية العقد الرابع أن جميع دورات المياه العامة المنتشرة فى الميادين ، ودور السينما ، والمساجد ، وأبنية المحاكم ، أصبحت ملكاً لشخص أعلن عن اهتمامه بإعادة بنائها ، وتنظيفها المستمر ، وتوفير سبل الراحة فيهـا ، وقيل أنـه تعرض يوماً لمتاعب هضمية أثناء سيره وافتقد دورة مياه مما سبب له حرجاً بالغاً ، مما جعله ينذر على نفسه ضرورة شراء جميع مراحيض العـالم ، وبالطبع جعل الدخول إليها مقابل رسم معين لا يقدر على دفعه إلا فقراء الأغراب ، وضاقت الحال بفقراء الوادى جداً ، ثم قام أحد المستثمرين بشراء المصارف والترع ؛ والقناطر ، والأهوسة ، قرر تطوير نظم الرى ، والحقيقة أنه وجه المياه لخدمة أراضى الأغراب بالدرجة الأولى ، أعقب ذلك الدعوة إلى مزاد علنى لبيع النيل ، حـدد تاريـخ الجلسة بعـد حملة إعلانية هائلة ، حدد مبلغاً معيناً يدفع كتأمين ، وبهذه المناسبة الفريـدة ظهرت كتب عن النهر ، ومسلسلات إذاعية ، وأخرى تليفزيونية ، تحكى تاريخه ، وفوائده ومنافعه ، والحضارات التى نشأت على ضفتيه ، وتحليل

لمياهه ، وأهميته الإستراتيجية ، وأعيد طبع كتاب إميل لودفيج ، وكتاب الدكتور محمد عوض محمد ، كما ظهرت طبعات أخرى من « النيل فى المكتبة العربية » ، و « النيل عبر العصور » وغيرها ، كما عرض فيلم تسجيلى أعده منذ سنوات طويلة مخرج كندى اسمه « جون فينى » واستخدم كمادة للدعاية ، بعد الإعلان عن بيع النهر وقعت أحداث يطول شرحها ، لكن فى النهاية أن المزاد لم يستغرق أكثر من نصف ساعة . رسا فى النهاية على نفس المستثمر الذى اشترى شبكة الترع والقنوات الزراعية مما دعا البعض إلى الظن بأن ثمة ملعوباً جرى ، وأن البعض تقاضى عمولات طائلة ، والمزاد لذر الرماد فى العيون ، بعد بيع النهر بإسبوع تم تشكيل « إتحاد ملاك مصر »[1] ويعتبر المؤرخون العلميون أن المزاد هو

---

(١) قال المبررون انه لا يجب اطلاق لفظ الأغراب على الملاك الجدد ، لأنهم محبين للبلاد ودليل ذلك ما أحضروه من أموال بغية الاستثمار ، كما أنهم سيصبحون بعد فترة مصريين أكثر من الذين عاشوا آلاف السنين على ضفتى النيل ، تلك خاصية مصر التى تستوعب كل القادمين إليها تذيبهم فيها ، كما أعدت دراسة عن خصائص الامتصاص فى الوادى ، وكيف ستوجد لديهم روح المواطنة ، وقالوا أن أرض الوادى اكثر ملكت أكثر من مرة إلى اشخاص ، تحدثوا عن الفرعون والكهنة ، والرومان ، والفرس ، وركزوا على العصر المملوكى عندما قسم السلاطين مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا توزع عليهم وعلى الأمراء والأجناد ، وعندما تولى محمد على باشا الحكم استولى على الأرض كلها ، وزعها على رجاله ، وللأسف لم يتبق نص واحد من الردود التى ظهرت على هذه التبريرات .

الحد الفاصل بين حقبتين ، وليس كما ادعى البعض أنه اليوم الذى وقف فيه ممثلو اتحاد الملاك أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم مطالباً بإخلاء السكان الأصليين . .

« نظراً لأهمية الجلسة التاريخية ، وما ترتب عليها ، نورد تفصيلا لبعض مما جرى فيها »

فى تمام الساعة العاشرة سمح بدخول المراسلين الأجانب إلى القاعدة ، جلسوا فى الشرفة الدائرية بالمكان ، نزل إلى القاعة مصور واحد من كل صحيفة ، أجرى تفتيش ذاتى عليهم ، إلى اليمين خصصت شرفة لكبار المدعوين ومعظمهم أغراب ، إلى اليسار ، علقت خريطة ضخمة مجسمة للنهر ، بدا بمجراه النحيل وفرعيه كصورة بالأشعة لهيكل عظمى ، علقت صور فوتوغرافية كبيرة الحجم تمثل مناظر مختلفة على ضفتى النهر ، فى مواجهة شرفة الصحفيين علقت لافتات كتبت بلغات عدة .

سطور من اللافتة لأولى :

ــ عرف النيل فى فجر التاريخ باسم « حابى » . ظل يعبد حتى آخر عصور الوثنية ، كثيراً ما أطلق عليه المصريون القدماء اسم « يارعو » أى النهر العظيم .

ــ تطلق التوراة على النيل اسم « بى أور » .

ــ فى الأوديسة يطلق على البيل اسم « إيجبتوس » .

ــ عبر القرآن الكـريم عن النيل بـاليم فقال . . « فـألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » .

سطور من اللافتة الثانية :

ــ مساحة حوض النيل من المنبع إلى المصب ٧١٨ ، ٢٠٨٦٧ كيلو متراً ، أى ٢٢٧ ، ٢٠٧ ، ١ ميلا .

ثم معلومات أخرى عن الوادى ، ومنابع النهر ، ومجراه ، وروافده ، والسدود المقامة عليه ، وحوت اللافتة الثالثة عبارة واحدة : « من يشرب ماء النيل لا بد أن يعود إليه ثانية » . وعدت اللافتة دعاية سياحية ، دخل المزايدون ، وقفوا حول دائرة مسورة داخلها مكتب صغير مرتفع القوائم وقف خلفه المثمن العالمى ، خبير أنهار معروف ، فى الأركان أربع منصات رئيسية فوق كل منها كاميرا تليفزيونية ، بخلاف آلات التصوير السينمائى ، ألقى المثمن كلمة عن خواص النيل ، مزاياه ، موقعه بين أنهار الدنيا ، وعندما أفاض وصف المذيع ما يجرى . .

سيداتى ، سادتى ، نشهد فى هذه اللحظات التاريخية ، الرائعة بداية الحدث الكبير . . .

قال المثمن ان البيع سيشمل مياه النهر الجارية من الوادى حتى المصب ، وسيبيع المالك المياه إلى جميع المحافظات والأقسام ، من حقه تحديد الثمن والكميات .

وجه مراسل صحيفة ستاكوزا نيوز سؤالا عن الثروة السمكية ؟

قال المثمن ان الأسماك فى باطن النهر تتبع المالك ، كذلك النباتات والأعشاب التى تنمو على جانبيه بعمق متر واحد ، ومن حقه مصادرة ومنع المراكب الشراعية والقوارب التى تسبح فوقه ومنع السكان الأصليين من

الصيد ، والنزهة .

سؤال من مندوب إذاعة كولونيا عن القناطر والسدود :

أعلن المثمن أن كل حجر مقام فوق النهر يتبع المالك الجديد .

محرر الشئون العلمية بمجلة ياتا العلمية المتخصصة يسأل عن الجزر الواقعة داخل النيل ؟

قال المثمن ان جميع الأراضى الواقعة بين الضفتين من نصيب مالك النهر ، وأى زيادة فى المجرى تتبع المالك ، أى جزر جديدة ستظهر ستصبح ملكاً له ، له الحق فى حماية نهره بكافة الوسائل ويضم إليه كافة المنشآت الواقعة فى حدود عمق متر واحد يمتد بطول الضفتين ، أى أن الكورنيش الذى يربط الوادى من أقصاه إلى أدناه سيتبعه أيضاً .

سؤال مراسل وكالة رويتر عن المشروعات التى قد يحدث اعتراض على إقامتها ؟ :

ضحك المثمن العجوز تساءل عن نوعية المعترض ، للمالك مطلق الحرية فى التصرف كما يهوى .

بدأ بيع النهر ، أعلن المثمن رقماً مبدئياً ، ساد القاعة سكون ، وقع صمت ثقيل فى سائر أنحاء الوادى ، التف الناس حول السماعات

الاليكترونية ، يقول المعمرون أن ريحاً ساخنة هبت محملة بتراب ناعم أحمر اللون أحالت السماء إلى ما يشبه الحريق ، سمع لها صوت كالعويل ، ضج لناس وسقط بعضهم لحظة زعيق المثمن . .

« أكبر أنهار الدنيا ، من يشترى ؟ » . .

سمع السكان الأصليون صوتاً يصيح بالانجليزية ، بعده صاح المثمن . .

« فرصة تاريخية ، من يريد ، نهر أنشأ حضارات متوالية ، هو الحياة نفسها » .

زعق صوت آخر ، انفعل صوت المذيع :

« أنظروا يا أهالى الوادى إلى قيمة نهركم » . .

تردد صوت باللغة المحلية ، ذكر رقماً ، سمع بعد حوالى ثلاث دقائق ، رآه مشاهدو التليفزيون ، رصدوا ملامحه ، إنه الوحيد من السكان الأصليين الذى يحضر المزاد ، تساءل الكثيرون عن شخصيته ، من هو ؟ كيف وصل إلى المزاد ؟ من أين له بالمال ؟ ، بعد نطقه مباشرة سمع صوت واثق يذكر رقماً فاق كل ما قيل . .

ألاؤنا . . ألا دووى . . . ألا ترى . . .

يـزعق المذيـع بينما تهـوى المطرقـة الصغيـرة عـاجيـة المقبض فـوق المنضدة . .

« إنها لحظات تاريخية لم يسبق لها مثيل » . .

لمعت آلات التصوير ، ابتسم مالك النهر للصحفيين ، غادر سكرتير مؤسسة العملة الصعبة[1] مقصورته صافح المـالك ، عـانقه ، فى نفس اللحظة فشا فى الـوادى حزن ، أصبـح الناس فى هيـاج عظيم ، وزعـم البعض أن المـوتى ضجوا فى قبورهم ، سمعت أناتهم فى الليـل ، ارتفع مستوى النيل بما فاض فيه من دموع ، قيل لن يسمح لأحد برؤيته إلا بتصريح خاص ، مياهه ستعبأ فى زجاجات وتصدر ، ولن يلجأ إلى شاطئه المهـومون والمكـروبون والهـاربـون من الضنى والضيق ، عـلى السكـان الأصليين البحث عن مصادر مياه أخرى لإرواء ظمأهم وقضاء حاجاتهم ، تحدثت صحف المساء عن الحدث الكبير ، حـذرت من المبلبلين وقصار النظر ، فى المساء غطى الوادى ألم ، فاض صمت . .

---

(١) لمعرفة دور هذه المؤسسة ومسؤوليتها لما جرى للوادى ، راجع « تاريخ العملة الصعبة فى مصر » .

« نص المذكرة المرفوعة من اتحاد ملاك مصر إلى المجلس الأعلى لهيئة الأمم »

.. نحن اتحاد ملاك مصر ، نرفع دعوى إخلاء ضد سكان الوادى وذلك لما يلى :

.. منذ فترة طويلة انتقلت ملكية عموم أراضى الوادى إلى الموقعين أدناه ، أصبح ملكاً لهم بدون استثناء شبر واحد ، على الفور بدأنا تنفيذ العديد من المشروعات التى تبهج الانسانية ، لكن ظهرت متاعب تعوق ما نمضى فيه ، كتكاثر السكان بسرعة مما يشكل عبئاً على الحاصلات المحلية طاقات التصدير ، رفض السكان تنفيذ أية مقترحات للحد من تناسلهم مما اضطر مالك المحافظة السابعة إلى اتخاذ قراره الخاص بتعقيم كل رجل يبقى فى المحافظة ، قوبل هذا باستخفاف ، وعمليات تخريب متعمدة ، كما أصبح الأمر صعباً فى محافظة أحواض السباحة العالمية حيث نظمت أعمال عدوانية ، كمحاولة التلصص على المستحمين ، وسرقة بقايا الأطعمة ، وترويج كتب مضادة ، والتهديد بعمليات إجرامية ، اعترف أحدهم بمؤامرة لتسميم مياه النيل ، أمكن ضبط المواد التى سيتم استخدامها ، لدينا صور هذا المخطط الاجرامى سنعرضها على حضراتكم عقب انتهاء عرض الدعوى ، كيف يقوم السلام إذن بين الملاك

والسكان ؟ ورداً على بعض الحجج القائلة ان مالك النهر قد منع الماء عن السكان الأصليين نرد بأن النهر يعتبر ملكاً خالصاً له ، دفع ثمنه بالعملة الصعبة « الاستكالش » . شيك رقم ٨٩٨٣٨٥٢ ، مسحوب على بنك انترناسيونال كورياتيف أوف بنك ليمتد ــ فرع باريس ، لقد تم تهذيب الضفتين ، وتعبئة مياه النيل فى زجاجات بلاستيك عبوة واحد لتر وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم بأسعار رمزية بالقياس إلى تكاليف الانتاج ، وبعد اكتشاف الخواص الصحية الفريدة لمياه النيل ، لم يستطع هؤلاء السكان اكتشافها عبر آلاف السنين وإفادة العالم منها ، برغم ذلك استجاب سيادته للنداء الانسانى الذى وجهته الدول الكبرى ، فرر منح السكان كمية من مياه الشرب لمدة عام واحد اعتباراً من الشهر الماضى[1] ،

---

(١) من الضرورى ايضاح ذلك ، بعد أن قطع مالك النهر المياه عن سكان الوادى ، انتشر المرض ، مات ألف ألف ، وفشلت كل الجهود لايجاد مصادر بديلة ، مما دعى مجموعة الدول الاشتراكية الأولى إلى المأساة أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم ، لكن مجموعة الدول الاشتراكية الثانية هددت باستخدام فيتو ضد مناقشة الموضوع ، ولا يعنى هذا اتخاذ موقف معاد للسكان الأصليين ، انما يرجع هذا إلى الخلاف العقائدى اللئيم الذى قسم المعسكر الاشتراكى إلى فريقين متناوئين : (يتخذ كل منهما مواقفه فى ضوء هذا الخلاف بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى) أثناء المناقشة وصلت رسالة من مالك النهر يعلن استجابته لنداء الانسانية ، وانتهز ليعلن من فوق المنبر العالى عن مشروعاته التى أنجزها ، أذاع أسعار زجاجات الشرب ، والمبيت فى الفنادق العائمة ودعا كافة الأعضاء لزيارة النهر ، وفيما بعد أعلن مندوب كذبه مندوبو أربعة عشر دولة ، قالوا ان مخابرات بلادهم لديها معلومات مختلفة .

وحتى تدبير مصادر أخرى لمياه الشرب والاستحمام ، ومع أن ضياع نقطة واحدة ينقص العائد عليه ، ولا يخفى أن ازدحام السكان فى مناطق محدودة[1] يتيح الفرصة لتكاثر الأوبئة مما يهدد الصحة العالمية ، ويهدد مشروعاتنا ، لهذا أصبح ضرورياً اخلاء هذه الأعداد الضخمة وترحيلهم إلى مناطق أخرى من العالم تحتاج إلى طاقاتهم وتستوعب أعدادهم ، ومما يدعم مطلبنا تلك الاكتشافات العلمية الحديثة ، حيث اتضح عمق الأصول التاريخية لملاك مصر ، حاول بعض سكان الوادى نشر دعايات تقول ان الملاك أغراب عن الوادى ، بغض النظر عن حق الملكية المقدس ، نعلن من هنا ملخص تلك الاكتشافات التى تثبت أن ملاك مصر أقدم من هؤلاء الذين يطلق عليهم البعض « السكان الأصليين » . لم يكن الأمر من قبيل الصدفة عندما قام كل مالك بهجرة البلد التى ولد فيها وجاء إلى مصر يشترى أرضاً ، أو يستثمر مالا ، أو ينشىء مشروعاً ، سعى كل منهم إلى استرداد موطن أجداده ، تلك حقيقة يجب أن يعيها العالم جيداً ، أن أكبر مالك فى الوادى ، صاحب النيل ، و الترع ، والمصارف ، والقناطر والسدود ، تنتمى أصوله البعيدة إلى أحد أفراد الأسرة الرابعة فى الدولة القديمة التى عاشت على ضفتى الوادى منذ ستة آلاف سنة ، جده فى

---

(1) بعد تشكيل اتحاد ملاك مصر ، وبدء عمليات الاخلاء الواسعة من المناطق المباعة ، حددت اقامة السكان فى مناطق معينة ، لا ينتقلون خارجها إلا بتصاريح خاصة .

هذا الزمن النائى عنخ ـ مت رئيس الديوان ، والمشرف على شئون الرى فى الوادى ، إليكم صورة من اللوحة التى عثرت عليها البعثة الأثرية برئاسة مترى ماد المصرولجى الكبير ، والتى قامت بعمليات بحث وتنقيب استمرت عامين كاملين فى منطقة الأهرامات المعروفة بعد انتقال ملكيتها إلى صاحب المحافظة الثانية ، تضم اللوحة أسماء أسرة عنخ ـ مت ، التى تولت رئاسة الديوان والاشراف على الرى حتى العصر الاغريقى ، ومع اضمحلال الحضارة الفرعونية ، هاجر جزء من العائلة إلى فينيقية ، ثم إلى بلاد عديدة آخرها التى قدم منها مالك النيل الحالى ، ويحتفظ سعادته بعدد كبير من لغات البردى المتوارثة جيلاً بعد جيل ، تلخص هدف أسرته النبيل ، استرداد المجد القديم ، وتوجد وثائق أخرى هامة سنعرضها على لجنة تقصى الحقائق التى ينوى مجلسكم الأعلى إرسالها ، وبغض النظر عن القيمة القانونية لهذه الوثائق العلمية ، فلا شك أنها سوف تحدث انقلاباً كبيراً فى علم التاريخ ، وستغير كثيرا من المعلومات الخاطئة التى سادت كتب التاريخ حتى الآن[1] .

(١) قدم مندوب الاتحاد عدة صور للوحة أثرية ، يتوسطها رسم عبارة عن خرطوشة مستطيلة ، داخلها حروف هيروغليفية ، على جانبيها وقف شخصان بالوضع المعروف فى الرسومات المصرية القديمة ، حيث الجسم بالمواجهة ، أما الرأس فيتخذ الوضع الجانبى ، كل منهما يمد يديه ليلمس الخرطوشة ، تبدو على قدمى الرجل الواقف إلى اليسار آثار ألوان حمراء باهتة من الواضح أنها تأثرت بفعل الزمن .

لجميع الأسباب المتقدم ذكرها ، نطالب نحن ملاك مصر بإخلاء ما يسمى بالسكان الأصليين ، حتى يعود الحق إلى أصحابه .

« وقائع تلك ذلك »

بعد مداولات ، ومناقشات انفعل خلالها أحد الأعضاء ودق بيده على المنضدة، ألقى سماعات الترجمة الفورية غضباً ، أصدر المجلس قراراً بإخلاء السكان الأصليين من الوادى كله . ويتم نقلهم إلى أماكن نائية من العالم ، على ألا يزيد عدد المنقول منهم إلى مكان واحد عن عدد معين ، وأن يتحمل الأعضاء التكاليف ، استند المجلس إلى وثائق عدة ، منها تقرير قدمته مخابرات الدول الرأسمالية الأولى ، عرف باسم « تقرير الاخلاء » ، وإلى الحجج الصياغية البليغة التى وضعها اتحاد ملاك مصر ، بعد صدور القرار خرج مندوبو المجموعة الاشتراكية الثانية احتجاجاً ، على الرغم من معارضتهم المجموعة الاشتراكية الأولى فى الجلسات السابقة ، فى هذه المرة بقى ممثلو المجموعة الأولى ــ تطبيقاً لتقاليد الخلاف العقائدى ــ مما عد ذلك موافقة منهم على القرار ، فى نفس اليوم اتخذت إجراءات تنفيذية أولها تشكيل لجنة يرأسها وزير خارجية إحدى الدول الكبرى المحايدة باعتباره « محضراً » دولياً ، ومهمة اللجنة جرد السكان تمهيداً لنقل ما يستحق ، ضمت إلى جانبها لجنة فرعية لأعمال السكرتارية ، وهيئة فنية خاصة تضم

ممثلين وخبراء فى شؤون السكان ، والصحة ، والنقل ، بعد أسبوعين باشرت هذه اللجنة عملها فى الوادى ، وخلال إقامتها استنفرت جميع أجهزة الأمن الخاصة التى أنشأها كل مالك فى قسمه ، وبعد شهر تخللته مقابلات وحركة ، ومعاينة ، أعد محضر رفع إلى المجلس الأعلى .

« محضر جرد مصر »

« فيما يلى بيان تفصيلى بما وجدناه :

عـــدد	الصنـــف

٠٠٠٠ , ٧٠ مليـون شعب الوادى ، يشمـل هذا الـرقم الرجـال والنساء والأطفال ، منهم ٤٠ مليون أنثى (١٥ مليون عـذراء ، و١٥ مليون امرأة ، وخمسة ملايين تجاوزن سن اليأس) و ٣٠ مليون ذكر (١٥ مليـون يصلحون لأداء جميـع الأعمال الشـاقـة ، كـالقتـال والحـرب ، والعمل ، فى المناجم ، وقطع الحجارة من الجبال ، إلى جانب الأعمـال الذهنية العنيفة ، قاموا بأعمال تخريبية واسعة ، قتـل منهم عدد كبـير ، و ١٥ مليون طفل وفتى) .

الأرقام التالية لا تضاف إلى الرقم الإجمالى لتعداد شعب الوادى .

لكنها توضح أهم الفئات وعددها :

عـــــدد	الصنـــف

مليـون مهندس ، طبيب ، محـاسب وبـاحث فى مختلف المجـالات العلمية ، أضطر هؤلاء إلى ممارسة أعمال لا علاقة لها بمهنهم الأصلية بعد مجيء أعداد كبيرة من حملة نفس التخصصات مع ملاك مصر .

سبعون ألف من حفظة الشعر ، والمواويـل ، وباعثى الآهـات ، وخالقى التنهدات ، معظمهم أنشد شعراً بعد بيع النيل ، أشهرهم عازف ربابة ضرير يرتدى الجلباب ، صوته قوى ، إذا وقف عند طرف الوادى فى المساء يسمع طرفه الآخر ، سمعنا أنه ينشد مـواويل تتضمن سـائر من حكموا مصر ، والولاة وكراماتهم ، والقديسين ، كلهم أزيلت مدافنهم فى السنوات الأخيرة .

بضعة آلاف كتاب مسرح ، رواة ومفكرين .

آلاف نساك ، ودراويش زاهدون ، وبحارة ، ونوتية ، وقباطنة .

آلاف صياغ فضة ، ونقاشون ، بناة عمائر ودباغو جلود ومنمنمون وخراطون ، إخصائيون فى تربية زهور البنفسج وتنسيق الحدائق وتنمية الياسمين وزراعة الصفصاف والكافور والجميز .

والزيتون ، وتعريشات الكروم وتلقيح النخيل وتخضير الطين بضعة آلاف خيامية ، سروجية ، صدفجية ، بناة منائر وقباب ومساجد ، صناع أهلة معدنية وشموس بيارق وأجراس كنائس ، محاريب صلاة ، مصمموا نجف ، نساج صوف وحرير طبيعى وموسلين . .

ومئات مئات يتقنون صهر الصلب وإذابة الحديد وتشكيل المعادن . وشق القنوات ، مد الكبارى ، حفر الأنفاق ، فلق جذوع النخيل ، الملاحة الجوية ، تطهير الأرض من الآفات ، التنبؤ بما ستصير إليه الأحوال ، الغوص فى مناجم الفحم ومجاهل الفوسفات وسائقو قطارات ويصاصون وكتبة تقارير .

هذا ما يشمل بنى الإنسان ، وإذا انتقلنا إلى جرد المبانى والممتلكات ، وجدنا أعداداً لا حصر لها من البيوت على إختلاف أنواعها ، بيوت متعددة الطوابق ، قصور قديمة ، حدائق ، آلاف المنازل المبنية من الطين ، أضرحة للأولياء والصالحين ، معابد للفقراء ، تكايا ، أهرامات ، معابد أثرية من عصور جاهلية ، وفرعونية ، واغريقية ، ورومانية ، وقبطية ، ولوحات ، ومومياءات وملابس من آلاف السنين كأنها نسجت بالأمس ، ومغارات فى بطن الجبل منقوشة الجدران ، ملايين من جذوع النخيل مشقوقة ، مستخدمة كجسور فوق ترع بعيدة ، أو أعمدة تسند السقوف ، ومقاعد ، وأثاث ، وأسوار ، توجد أفران ، وقوارب ، وصنادل بحرية

ومراسى ، ومؤلفات أدبية ، أشعار من مختلف العصور والأوزان والبحور ، كميات لا حصر لها من الفلكلور والتراث والمعتقدات ، ألحان ، وأغان شعبية ، وعدد لا حصر له من الحيوانات المستأنسة استخدمت فى الزراعة خلال السنوات التى قام فيها السكان بزراعة الأرض ، كالأبقار والجواميس ، والحمير ، والجمال ، والكلاب ، والقطط ، وفى المناطق النائية العديد من الأنواع الوحشية والتى يجرى إبادتها من قبل إتحاد الملاك . .

هذا ما اطلعنا عليه ، ووجب إثباته ، قبل نقل السكان وبدء عمليات الإخلاء . .

(لجنة جرد مصر)

بعض من أحداث وقعت بأرض الوادى

. . يمكن القول أن ردود فعل السكان الأصليين اختلفت كثيراً بعد بيع النيل ، اعتبرت ذكرى المزاد مناحة ، انطلقت نار فى نفوس الفلاحين بعد طردهم إلى أطراف الوادى ، أهاجهم الحزن على النهر ، الترع ، المصارف ، بذر الحب ، نمو الزرع ، مشى العصارى فوق الجسور ، رائحة الخبيز وقت الظهيرة ، نداءات الطيور والضفادع ، فرحة مجىء الأعياد ، الطلوع لزيارة المقابر ، نكت التراب بالعصى عند جلوس

القرفصاء ، شد الشواديف ، صرير السواقى ، اهتزاز سعف النخيل[1] ، صفير ماكينات الطحين المتقطع ، رائحة التين عند منحنيات الطرق ، أنشد الأميون شعراً يسيل الدمع من العيون ، دعا البعض إلى سد النهر بأجسادهم ، تساءلوا : هل هل سيوفى النيل كعادته كل عام بعد أن بيع ؟ عظم الجوع ، صار الأب يحاول بيع ابنه مقابل كيس طحين ولا من مشترى ، قوبل بيع النهر بمقاومة سلمية وأخرى عنيفة ، نظم شباب الوادى حملة لجمع مبلغ ضخم يمكنهم من دخول المزاد وإبقاء النهر ملكاً لهم ، حوى ذلك هدفاً أبعد ، لو احتفظوا بالنيل أمكنهم التحكم فى ممتلكات الأغراب ، وعلى الرغم من انشغال الجماعات السياسية فى خلافاتها ، ومحاولة كل منها لتحديد المفاهيم ، غير أن كافة الخلق (باستثناء السماسرة والبورصجية ، والذين تجنسوا بجنسيات غريبة ليستثمروا أموالهم منذ قصر حق أقامة المشروعات على الأغراب) اشتركوا فى حملة إنقاذ النيل ، كل الناس ، المثقفون ، العلماء ، الطيبون ، الجالسون أمام الأبواب يقاسون عناء الغد ، الواقعون تحت البراميل والبالات وسائر أنواع الحمولات ، الذين إسود لونهم من تعاقب البرد والحر على أجسادهم العارية ، الذين جروا المراكب بأيديهم ، من رصوا الطوبة فوق الطوبة

---

(١) بعد بيع الوادى تم استئصال جميع أشجار النخيل والدوم وقلعها من جذورها ، ولم يعرف سببا لذلك .

ليرتفع جدار ، من اعتلوا السقالات ، من عزقوا الأرض بالعرق ، تفاوتت قيمة المبالغ المدفوعة ، من قروش معدودة إلى مليون دولار أرسلها بعض الأبناء المغتربين من السكان الأصليين ، تقدم أحد الشبان يوم المزاد ، دفع التأمين المطلوب ، لم يعرف حتى الآن كيف توفر لديه هذا المبلغ الضخم من العملة الصعبة ؟ لا زال الأمر سراً يحير إتحاد الملاك الأغراب ، حتى الآن يدور البحث عن هذا الشاب الذى تكلم باللغة المحلية فى قلب جلسة المزاد ، يقولون انه ذكى جداً ، يتحدث ثمانى لغات ، المعلومات التى أدلى بها عن نفسه غير حقيقة ، كافة الوثائق التى أعدت له قام بطبعها مزور عظيم من السكان الأصليين ، تردد صوته ثلاث مرات ، الأولى بعد استطلاعه لمستوى المبالغ المدفوعة ، الثانية عندما زاد زيادة طفيفة ، بعد أربعة عشرة دقيقة من بدء المزاد ، أعقبه المالك الحالى للنهر ، المرة الأخيرة بعد ستة عشرة دقيقة من بدء المزاد عندما زاد رقماً يعتقد المحللون أنه آخر ما لديه ، إنسحب واختفى ، منع من الخروج فمن تعليمات المزاد عدم مغادرة القاعة إلا بعد انتهائه تماماً ، لم تذكره صحف المساء أو الصباح بكلمة ، إدعت كل من الجامعات السياسية المتناظرة أنه ينتمى إليها ، حذفت كلماته من مضبطة الجلسة ، من الوصف التسجيلى أيضاً ، ترددت أقاويل كثيرة عن طلوعه إلى الجبل ليقود رجالا أشداء لا يقهرون أبداً سيستردون النيل عنوة ، لم يدر أحد كيف سيتم التصرف فى

المبالغ المجموعة وأثار هذا قلقاً لدى اتحاد ملاك مصر ، تبع ذلك أعمال عنف غامضة ، ظهرت فرق الصدام التى ضمت رجالاً ونساء اقتنعوا بعدم جدوى حياتهم بعد بيع النيل وموت أسرهم ظمأ ، هاجموا الأرض المباعة .

أشعلوا النار فى أنفسهم ، إقتحموا المنشآت ، فى فترة حبس ماء النهر عن السكان صار يموت يومياً ألف ألف إنسان والناس لا تفنى ، قام عدد من أبناء الوادى الذين سافروا على فترات بجهود ضخمة للفت أنظار الدنيا ، بلغت حملتهم ذروتها فى نفس الوقت الذى فرغ فيه علماء الآثار التابعين لاتحاد الملاك من تغيير التاريخ المعروف للوادى ، لدرجة إعادة اكتشاف اللغة الهيروغليفية من جديد ، وإسقاط ما توصل إليه شامبليون بعد اكتشافه حجر رشيد ، واستندوا فى ذلك إلى انقراض المتكلمين بها ومن ثم عدم ثبات المعنى ، كما فرغ مالك المحافظة التاسعة (سوهاج سابقاً) من مشروعه الخاص بإنشاء جبل صناعى أعلن أنه سيكسوه بالثلوج والغابات ، وسيصبح من أجمل مصايف العالم ، رصد جائزة قدرها مليون إستكالش لصاحب أجمل تصميم . فى نفس الفترة تزوج إبن مالك المحافظة الرابعة من ابنة مالك المحافظة الثانية ، غير أن حملة أبناء الوادى أدركتهم جميعاً بما كانوا عنه غافلين . .

نص ما أذيع

ننهى إلى الدنيا ما يلى :

منذ فترة رفع اتحاد الملاك الأغراب قضية أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم مطالبين شعبنا بإخلاء الوادى ، وبغض النظر عن تزوير الدعوى ، وتحوير الفتاوى ، وتزييف التاريخ والقول بأسبقية وجودهم نعلن بطلان الحجة القانونية التى استندوا إليها فى إقامة دعوى الإخلاء ، إدعوا أن الوادى كله أصبح ملكاً لهم ، وأنهم اقتطعوا جزءاً من أملاكهم ليقيم عليه ، ما تبقى من السكان « على حد تعبيرهم نقول ان هذه الدعوى باطلة ، الحقيقة أن أرض الوادى ليست ملكاً لهم بأكملها ، يوجد فدان واحد لا زال ملكاً لصاحبه ، وموقعه فى الصعيد الأعلى ، يتعرض مالكه لضغوط ، وإغراءات بلا حصر ، لكنه محمى الآن بأهل مصر المحروسة ، ويعرف بين الجميع بـ : « أرض مصر » ومهما تضاءلت مساحة الأرض فإن هذا يفسد ما ارتكز إليه الأغراب عنا ، ويبطل دعوى الإخلاء » . . .

أرض مصر

لم يمثل إعلان أبناء الوادى مفاجأة لكثيرين من شعب الوادى ، منذ فترة ترددت أقوال عديدة حول ذلك الفدان ، بدأ الأمر كوهم ، كإشاعة ، ثم تزايد الهمس بعد بيع النيل ، قال سكان الصعيد الأعلى انهم يعرفون

هذا الفلاح صاحب « أرض مصر المحروسة » ، فقير ، لا يمتلك إلا هذه المساحة التى آلت إليه جيلا بعد جيل ، رب أسرة كبيرة ، معمر لا يدرى أحد حقيقة سنه ، يزعمون أنه تخطى المائة والخمسين عاماً ، لا زال شعره أسود وقامته منتصبة وأسنانه لم تتساقط بعد ، يعمل يومياً ، يبذر الحب ، يسوى الأرض ، يقتلع الحشائش الضارة ، قالوا ان الشيب لم يدركه لأنه لا يعبس قط ولا يحمل هماً ، يحفظ الحكايات ، يروى النوادر ، يعرف بلاد الوادى وقراه ، أسر الوادى وأفرادها والأماكن المستقرين بها أو رحلوا إليها ، ذريته لا تحصى ، عاش حتى رأى أحفاد أحفاده ، لا زال قادراً على الإنجاب ، إذا احتضن جذع النخلة يمكنه اقتلاعه ، منذ أعوام فاجأته أوجاع ، ذهب إلى طبيب ، قال انها البروستاتا ، إذا كنت قادراً لن أستئصلها لك ، تحمل وسأعطيك دواء يخفف عنك ، بالكشف عليه وجد الطبيب أنه قادر على إخصاب فتاة فى الرابعة عشر وإمرأة فى آخر العمر ، تردد أنه متزوج من أربعة والفدان ملك أولهن ، نفى الكثيرون ذلك ، قيل أن أبناءه محاربون أشداء ، يقودون عمليات عنف ، يستنفرون الناس ، أنه يقيم مناحة عظمى فى ذكرى بيع النيل ، اتجه الناس إلى أرض مصر لحمايتها حتى شكلوا سياجاً من أجسادهم حولها .

عندما قام الملاك الأغراب بقطع المياه حتى يموت الزرع ويجف الخضرة ، قام عشرات من أبناء الوادى الحاصلين على شهادات زراعية

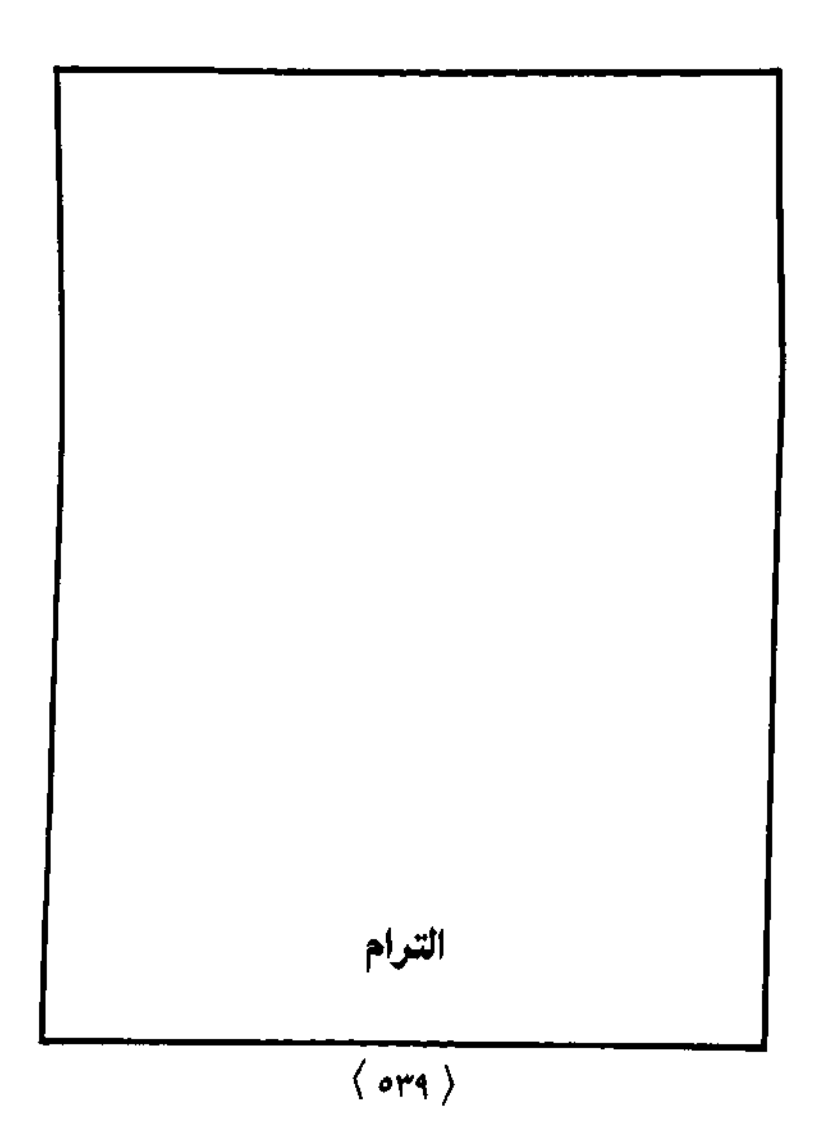
رفيعة فى الزمن المنقضى بالتوجه إلى الفدان « أرض مصر » استحدثوا وسائل عديدة لضمان استمرار الرى . لم يعرف ما عملوه ، لكن قيل ان نبعاً تفجر يسقى الزرع وأصحابه ومن يحمون الأرض ، الثمار تنمو مكتوب عليها « حمى الله أرض مصر » ، اذا اهتز الشجر يصدر وشوشة أو حفيفاً إنما يسمع دعاء « حمى الله أرض مصر » .

إذا هبت العاصفة من الجبل تتحول عن طريقها فوق الفدان ، تصفو من ذرات الرمال ، وفى وهج الشمس يجىء غمام يلقى ظلاً فوق الفدان اليتيم الباقى .

عندما قامت طائرات الأغراب برش المزروعات ، حملت الريح المواد السامة بعيداً ، أحضر العلماء من أبناء الوادى مواد تفسد تأثير السموم ، لم تعرف الآفات طريقها إلى « أرض مصر » ، دودة القطن رآها الكثيرون تحيد بعيداً ، عندما عرض الملاك الأغراب ثمناً خيالياً على العجوز ، ومنحه أرضاً فى أى مكان بالعالم ، ومواشى حديثة ، وماكينة لتفريخ البيض ، وأخرى لخض الزبد ، رفض عندما أرسلوا القتلة والمخربين قوبلوا بعنف ، شلت أيديهم ، هجر بعض أبناء الوادى مواقعهم فى أنحاء مختلفة من العالم ، جاءوا إلى الفدان : « أرض مصر » ، عندما قام الملاك الأغراب بفتح جميع عيون القناطر القريبة ذات ليلة وأحدثوا ثغرة فى الجسر المحاذى للفدان « أرض مصر » ، اتجه عدد لا يعرف مقداره بالضبط ،

ضم رجالاً مسنين ، شبابا ، أطفالا ، وعددا لا يحصى من نساء يحملن أطفالاً رضع على صدورهن ، تجاوروا ، أمسك كل منهم بذراع الآخر ، قيل ان بعض الأمهات حملن أطفالهن بيد وألقمنهن أثدائهن بينما تلاحمن بجيرانهن ، دفعوا بأجسادهم إلى الخلف ليسدوا الثغرة ويحوشوا ماء الغرق . . . » .

يوليو ١٩٧٥



الترام

.. فى مقابلة أجرتها إحدى المذيعات بالقناة الثانية ، قدمت بروح فكهة رجلا قال إنه مؤسس جمعية أصدقاء الترام ، حدث ذلك خلال برنامج مسائى يقدم شخصيات يتم اللقاء بها بدون ترتيب مسبق ، تجاوز الرجل الستين ، قال أنه عمل موظفاً بوزارة التموين حتى أحيل إلى المعاش بدون توقيع أى جزاء عليه طوال مدة خدمته ، يسكن الضواحى ويمتلك بيتاً مستقلا من طابق واحد تحيطه حديقة يزرع فيها كل ما يحتاجه . وبرغم سكنه البعيد وعدم إضطراره إلى ركوب المواصلات فمنذ فترة لا يستطيع تحديدها بالضبط لم يكف عن التفكير فى الترام ، خلال نزوله المدينة اقترب كثيراً من مركبات الترام ، هاله ما رأى ، ما وصل إليه الحال من إهمال ، ولأن التَرام أقدم وسائل المواصلات فى القاهرة والإسكندرية ، ولأنه دخل البلاد قبل سائر المواصلات الأخرى فيجب ألا ندعه هكذا ، سألته المذيعة عن طبيعة العمل الذى ينوى من خلاله إعادة اعتبار الترام ، قال انه أنشأ بالفعل جمعية لأصدقاء الترام ، تتلخص أهدافها فى الدعوة إلى ركوب الترامويات ، والعناية بها ، والارتقاء بمستوى السائقين والمحصلين والمفتشين والفنيين ، ثم وجه دعوة إلى جميع المواطنين للاشتراك فى الجمعية . أنهت المذيعة اللقاء بمشاركته توجيه الدعوة ، ولابد أن

المشاهدين فى هذه الليلة هزوا رؤوسهم لمدى الهيافة التى وصلت إليها برامج التليفزيون ، ربما بقى فى الأذهان ملامح باهتة للرجل ، اضطراره إلى بلع ريقه مرتين ، بما حاولوا إستعادة كلماته عندما أشارت إفتتاحية الأهرام إلى حديث العجوز صباح اليوم التالى ، جاء بها أن مختلف ما يجرى محلياً وعالمياً يجب ألا يشغلنا عن أمور جوهرية فى حياتنا ، ان المتأمل لوضع الترام يجد أنه قد وصل إلى حد من المهانة المؤلمة ، أى نظرة إلى الترام تكشف هذا ، طلاء جميع العربات لم يجدد منذ سنوات ، المقاعد الجلدية قطعتها أمواس الصبية الذين لم يبث أحد فى نفوسهم حب الترام ، إذ لم يضع التربويون مناهج تربط النشء بتاريخ الترام ، تبرز فوائده وأهميته ، أن المركبات متشققة ، متعبة خاصة القديم منها ، أما ما وصلت إليه « السنجات » ، فأمر يرثى له ، لا توجد سنجة واحدة تستمر معلقة إلى أسلاك الكهرباء لمدة خمس دقائق ، يضطر الكمسارى إلى النزول ، أو يتطوع أحد العابرين بإعادتها إلى مكانها ، إن الترام هو المركبة الوحيدة التى يمكن إيقافها برغم أنف السائق وذلك بشد « السنجة » ، نلاحظ أيضاً أن سائق الترام هو الوحيد فى البلاد الذى يقف على قدميه طوال نوبته ، بعض الدول المتقدمة تكنيكياً ، أضافت مقعداً صغيراً للسائق ، وخطت دول أخرى إلى ما هو أبعد فخصصت كبائن صغيرة تعزل السائقين عن زحام الركاب ، لكن تظل الغالبية المستخدمة فى بلادنا من النوع الأول .

إن الإعياء سمة مشتركة لسـائقى الترام ، انحنت جـذوعهم ، تقوست أقدامهم ، غلظت أطرافهم ، أضفى هذا على كل منهم ملامح خاصـة توحى لمن يراهم لأول مرة وبدون معرفة مسبقة بأن الماثل أمامه ، سائق ترام ، لا يفكر أحد ما وصل إليه حال المرفق من تدهور ، من هنا يجب التقاط الدعوة إلى تطويره وتدعيمها ، إختتمت افتتاحية الأهرام بدون حث القراء على خطوة محددة ، ولوحظ أن هذه الافتتاحية أذيعت عقب نشرة أخبار الظهيرة ، كما صدر تعميم علوى من التنظيم السياسى بمناقشتها فى جميع الاجتماعات التى عقدت خلال اليوم فى سائر الوحدات الانتاجية والأقسام الإدارية والمناطق التابعة ، وحتى يظل التليفزيون محتفظاً بسبقه إلى الدعوة فقد خصص برنامج يومى يذاع بعد أخبار التاسعة والنصف ومدته عشر دقائق ، ويتضمن رسائل المشاهدين ، ولقاءات مع المعمرين الذين شاهدوا دخول الترام لمصر ، وأحاديث مع بعض الصحفيين الذين زاروا بلاداً بعيدة واطلعوا على النظم المختلفة للعناية بالترام ، كما تضمنت الحلقة الأولى رسالة من المواطن على النافورى ، دعا فيها إلى إنشاء الهيئة القومية للنهوض بالترام ، وفى اليوم التالى قرأت المذيعة العديد من الأسماء التى تؤيد أصحابها الدعوة ، كما أذاعت تصريحات من وزارة الداخلية لم تبد فيه اعتراضها على تشكيل هيئة قومية للنهوض بالترام طالما أن نشاط الهيئة لم يتعرض لأسس المجتمع وقيمه وأمنه ، واشترطت تسجيل العضوية

فى أقسام الشرطة ، فى تلك الليلة يمكن القول ان الموضوع أثير على نطاق واسع ، بين أفراد العائلات وبين رواد المقاهى ، كما تحدث بعض الأقارب والمعارف إلى بعضهم تليفونياً ، ناقشوا موضوعات عامة أو خاصة ، لكن الحديث عن الترام والاهتمام المفاجىء به تخلل معظم الأحاديث ، وعندما أطبق الملايين من أهل البلاد جفونهم استعداداً للنوم احتل الترام فى أذهان معظمهم صورة من تلك الصور التى تتوالى قبل النوم ، كثيرون تأملوا مركبات الترام صباح اليوم التالى ، لوحظ زحام غير عادى على محطات الترام ، هذا لا يعنى زيادة عدد الركاب زيادة غير عادية ، لكن المثير أن أعداداً كبيرة من المواطنين تأملوا المركبات التى تسعى فى شوارع مدينتهم منذ سنين طويلة وكأنهم يكتشفونها لأول مرة ، بدت المركبات شائخة ، تهتز فى اندفاعها فوق القضبان اهتزازات خفيفة إلى اليمين ، إلى الشمال ، كأنها ستفلت من أسر القضبان الحديدية ، الطلاء بدا شاحباً فى كثير من المواضع ، أما المركبات الحديثة التى ظهرت منذ عامين فقط فى شوارع المدينة فلاحظ الأهالى أن ثمة تغيرات طرأت عليها إلى جانب الإهمال ، يبدو أن الفنيين لم يحترموا الأجهزة الحديثة بها فأبدلوا بعضها بأخرى أكثر تخلفاً وربما لم يتيسر إبدالها بمثيلاتها نظراً لنقص العملة الصعبة المخصصة لاستيراد قطع الغيار ، كثير من المصابيح الزجاجية الأمامية تحطمت ، مقاعد البلاستيك تكسرت حوافها .

فى صحيفة الأخبار نشر تحقيق عن الجلوس داخل الترام ، وقال التحقيق ان راكب الترام يواجه الجالس أمامه ، ويتلاحم بالمجاور له ، وهذا ما لا يجرى فى الأوتوبيسات ، سئل بعض علماء الاجتماع الذين أبرزوا الجوانب الإيجابية والأثار المترتبة ، وتعميق المشاعر الإنسانية والروح الاجتماعية فى عصر توشك فيه الآلة على إفساد كل ما هو إنسانى وجميل ، وقال أحد أساتذة الفلسفة بجامعة عين شمس ، ان الجلوس فى الترام ينفى عنصر الاغتراب لدى الإنسان ، وركز علماء النفس على الآثار السيكلولوجية المترتبة على تقارب الناس ، وشعورهم بإيقاع السير البطىء وعلاقة ذلك بالحد من نسبة القلق والشعور بالاكتئاب ، وتحدث أحد أطباء القلب عن علاقة إيقاع السير البطىء للترام وضمان عدم توقفه المفاجىء بسلامة القلب ، وأكد أن الانتقال بالترام أفضل وسيلة لمرضى القلب ، ونشر صورتين علميتين ، الأولى لقلب مريض استخدم وسائل المواصلات كلها عدا الترام ، والثانية لقلب رجل لم يركب إلا الترام .

وفى جريدة الجمهورية نشر تصريح لمدير إحدى شركات الإعلان الكبرى التى بدأت تعمل أخيراً برأس مال مصرى ـ غربى مشترك ، قال ان الترام يعد من أفضل أماكن الإعلان ، إذ توجد به مساحات عريضة على جانبيه ، كما يمكن تعليق لافتات بكافة الأحجام فوقه ، ويمكن إبراز الشىء المعلن عنه بوضوح . والمادة المصنوع منها جسم الترام تتقبل أى لون

وتحتفظ بمقوماته الأصلية ، بالإضافة إلى نقطة هامة للغاية ، إنها سير الترام البطىء ، يمكن للماشى على قدميه أو الجالس فى شرفة أو المطل من نافذة أو مدخن النرجيلة أمام أى مقهى من قراءة الإعلان ، فى نفس الجريدة أجرت إحدى الصحفيات مقابلة مع تاجر لعب أطفال ، قال ان أجمل النماذج التى يبيعها للأولاد من مختلف الأعمار هو الترام ، وقال ان رجال الجيل الحالى يتذكرون تلك اللعب الصغيرة أثناء طفولتهم والتى تمثل مركبات الترام المفتوحة والقديمة ، وخلال السنوات الأخيرة ظهرت مركبات متطورة من الترام وعرض نماذج مصغرة لها فى متجره ، وقال ان الترام كلعبة يفتح مدارك الطفل ويثير فى خياله العديد من الصور ، ويفتح أمامه آفاقاً عديدة خاصة فيما يتعلق بآفاقهم الكهربائية .

كما صرح قائد شرطة آداب البلاد بأن حوادث النشل تقل كثيراً بالترام ، وذلك لاتساع أماكن الوقوف وعدم إتاحة الفرصة لاهتزازات كثيرة تتيح الاحتكاك ، كما أن خدش حياء الأناث يقل كثيراً ، وقال أن عربات الترام حافظت على قيم المجتمع ومثله عندما خصصت عربة للحريم ، لا يمكن لرجل أن يركب بها أو يقف أمامها ، وقال ان بعض العجائز يجدن فيه متسعاً ومكاناً مريحاً ، يقعدون فوق أرضية المركبات ويسندون ما يحملونه أمامهم .

وفى بداية اجتماع كبير قال وكيل وزارة الإقتصاد المختص ان اقتصاديات تشغيل الترام أقل من أى وسيلة أخرى ، والتمسك بها ، وتعميمها سيؤدى إلى وفر فى الميزانية يساعد البلاد على التصدى لمسؤوليات أخرى جسيمة يتطلبها الموقف الذى يجتازه اقتصادنا ، فى نفس اليوم تحدث أحد أساتذة التاريخ المصرى المعاصر إلى طلبته ، وقال ان الدور الوطنى للترام لا يقتصر على مدى الوفر الذى يمكن أن يحققه فى ميزانية البلاد ، ان هذه نظرة قاصرة وتعزل الاقتصاد عن بقية الجوانب العلمة الأخرى ، أنه بصدد وضع مؤلف يتناول الدور [illegible] الترام منذ ظهوره ، ثم تحدث عن [illegible] عمال ومستخدمى الترام الذين كافحوا ضد أصحاب شركات الترام الأجانب فى بداية القرن ، ثم أسهب فى الحديث عن الإضراب العمالى الكبير الذى جرى عام ١٩٠٨ ، وذهاب عائلات المصريين إلى الورش والمركبات ومشاركتهم الفعالة ، ثم تكرار هذه الإضرابات « التراموية » التى ساهمت فى توعية العمال بحقوقهم من ناحية ، وبلورة الشعور القومى من ناحية أخرى مما أوجد رافداً هاماً أدى إلى ثورة ١٩١٩ ، ولا يقتصر دور الترام على ذلك فقط ، بل تصدت مركباته للإنجليز عندما قلبها المتظاهرون واستخدموها كمتاريس ، ثم قدم إلى الطلبة صوراً نادرة تؤكد الدور الوطنى المباشر للترام .

فى اليوم التالى عقد اجتماع موسع بالمقر العام للمنظمات الشبابية ، وأعلن المقرر العام اتخاذ قرار يقضى بمشاركة جماهير الشباب الطلابية والعمالية وشباب الموظفين فى حملة واسعة من أجل إعادة طلاء مركبات الترام ، وتنظيف القضبان ، وستقدم دروع وكئوس لأقدم العاملين بالمرفق .

علق المواطنون على ذلك الاهتمام الواسع بالترام أثناء وقوفهم فى مختلف الطوابير ، أمام مكاتب الجوازات ، الجمعيات التعاونية نوافذ الحجز ، بنوك العملات المحلية والأجنبية ، مكاتب السجلات المدنية ، كم جرت مناقشات هامة فى المناطق الحرة بالبلاد ، والمقاهى الأفرنجية التى تقدم المشروبات الساخنة والجلاس وقطع الحلوى الصغيرة والمشهيات ، وفى المقاهى الشعبية ، ومقار النقابات المهنية ، العمالية ، وقال البعض انها محاولة لحرف أنظار الناس عن المشاكل الحقيقية ، اعترض آخرون وقالوا ان الموضوع يتم بشكل تلقائى ، ويشارك فيه فئات عديدة ، ولا يمكن أن يصل إلى هذا الشكل لو أن الأمر مدبر أو مخطط له من قبل إحدى الهيئات ، لكن بعض القوى المعنية التى تقوم ، دائماً بالمعارضة من أجل المعارضة لم تخف امتعاضها إزاء تلك الأهمية المتزايدة والموجهة نحو الترام ، حاولت تلك القوى ترويج إشاعات معينة ، ونكت تدور حول الترام ، وهددت المباحث العامة أنه سيتم الضرب بشدة على أيدى كل من

يحاول الخروج بمعارضته عن حيز القول والإحتجاج ، ولم يفهم ما المقصود بذلك ، كما أن موقف أجهزة الأمن المختلفة من الترام ، وقد تعود الناس أن هذه الأجهزة لها موقف من كل الأمور الصغيرة والكبيرة ، موقف خفى غير معلن لكنه يعرف لدى الناس بالإحساس ، بوسائل ما ، ثمة حكاية تروى ربما أوضحت بعض ما خفى ، أثناء قيام رجال المباحث بالتحقيق مع خلية سرية من الشبان الصغار ، صفع الضابط المحقق أحد الشبان وخاطبه قائلا : لماذا تتوجهون إلى العمل السرى وأمامكم العديد من النشاطات التى يمكن لكم الاشتراك فيها ، لماذا لا تعبرون عن رأيكم فيما يجرى حول الترام ؟.

يمكن القول انه بعد عدة أيام نما شعور بين جميع الفئات بالتعاطف مع الترام ، حتى أصحاب السيارات الذين اعتدوا كثيراً على المجارى الخاصة بالترام ، فى وسط الطريق عندما يشتد الزحام ، ويبلغ شعور التعاطف قمته فى شارع الأزهر الرئيسى الذى أزيل منه الترام ، منذ عشر سنوات ، أقام أحد تجار المانيفاتورة سرادقاً ضخماً يتسع لألف شخص ودعا إليه ثلاثة من المقرئين الكبار ، وبعد انتهاء المشايخ الثلاثة من التلاوة الكريمة خطب التاجر فى المحتشدين سمع صوته فى أقصى الشارع بواسطة مكبرات الصوت المصرح له باستخدامها ، أعلن أنه يُحْيى الليلة ذكرى اليوم الذى أزيلت فيه مركبات الترام من شارع الأزهر ، قال أن ذلك من السلبيات

التى جرت ، أثر انتهاء كلمته قام البعض بتحرير صيغة برقية على الجالسين مرسلة إلى كافة المسؤولين لإعادة الترام إلى شارع الأزهر ، كما تقرر إحياء ذكرى انتزاع الخط سنوياً ، حتى فى حالة إعادة الخط القديم .

ورشحت جريدة « الأخبار » رجلاً تجاوز السبعين ، أطلقت عليه لقب « راكب الترام الأول » ، أدلى بحديث طويل روى فيه ذكرياته عن الترام التى تمتد إلى نشأته الأولى ، لم يستخدم غير الترام وسيلة لانتقاله ، قال ان عدداً كبيراً من الكمسارية والسائقين القدامى يعرفونه ، كثيراً ما تبادل معهم الحديث خلال الزمن الرائق ، الجميل ، المولى ، كما تبادل معهم السجائر ، قال انه يعتبر ركوبه الترام فقط أحد الأسباب التى أدت إلى إطالة عمره .

وقد حكى بعضاً من ذكرياته ، عندما افتتح أول خط للترام ، أثناء مروره أمام مقهى شعبى ، قام الجالسون فزعاً ظناً منهم بأن المركبة وحش غامض ، ولفترة تلت هذه الحادثة استمر رواد المقاهى التى يمر بها الترام يقومون حاملين مقاعدهم ويتوارون داخل المقاهى .

فى اليوم التالى دعى « راكب الترام الأول » إلى إلقاء محاضرة بمدرسة البنات الثانوية بشبرا ، أجاب على أسئلة الطالبات ، إقترح أحد القراء تكريمه فى حفل قومى يدعى إليه كبار المسؤولين ، ويهدى إليه درعاً جديداً

إسمه « ترع الترام » ، غير أن الدولة أخذت المبادرة ، أعلن عن إنشاء وسام جديد ، وسام الترام ، حددت أنواعه بثلاث طبقات . .

* وسام الترام من الطبقة الأولى .
* وسام الترام من الطبقة الثانية .
* وسام الترام من الطبقة الثالثة .

ويمثل شكل الوسام عربة ترام قديمة من النوع الذى استعمل لأول مرة فى العاصمة ، تشع منها أضواء جسدت بالفضة بينما جسم الترام نفسه من الذهب ، أما المصابيح الأمامية فمن الماس النقى ، ولا تختلف الطبقة الأولى عن الطبقتين الأخريين إلا فى نوعية المعدن المصنوع منه جسم الترام ، تصاعد الاهتمام بالترام إلى حد كبير فيما تلى ذلك من أيام ، عقد العديد من الندوات لإحياء دور الترام التاريخى ، أجرى عدد من الساسة القدامى اتصالات مكثفة لإنشاء « الهيئة القومية العليا للترام » والتى دعا إليها ذلك الراكب المجهول والذى اختفى تماماً بعد أن أدلى بحديثه التليفزيونى ، اعترض بعض الشباب على انفراد الساسة بالعمل وأصدروا بياناً دعوا فيه إلى ضرورة الإصغاء إلى رأى المستقبل ، كما جرت مناقشات عديدة منظمة وتلقائية ، وتمت الأخيرة فى وسائل المواصلات ، خاصة القطارات التى تستغرق وقتاً ، ويعى المواطنون بعض الوجوه التى تقلصت

ملامحها أثناء الحديث عن الترام ، وقبضات الأيدى المضمومة الملوحة فى الهواء ، والأصابع المتوترة المشدودة إذ تشير مهددة ، والأسنان التى تعض على الشفاه ، وصرخات التعجب التى تتخلل الأحاديث ، كتبت مقالات عديدة يتساءل أصحابها عن المقصود بالترام ؟ ألا تدخل مركبات المترو الحديثة فى نوعية الترام ، بل هذه المركبات التراموية الحديثة المستوردة من البلاد الشرقية ، ألا تمت بصلة إلى جنس الترام ؟ والتروللى باص . . . إلى أى جنس ينتمى ؟ . .

كلمات كثيرة حول هذه القضية ، تليت من الإذاعة والتليفزيون ، وقيلت حول موائد مستديرة وداخل حجرات مغلقة وفى اجتماعات عامة ، وفى سرادقات منصوبة من القماش ، ودون المستمعون إليها آلاف الملاحظات بمختلف أنواع الأقلام ، وشرب قائلوها أكواب ماء كثيرة أثناء حديثهم وجربت الميكروفونات المستعملة مئات المرات بنقر الأصابع عليها أو نفخ الأفواه فيها ، كما قيلت عبارات مثل « سيداتى آنساتى سادتى » . . « مساء الخير أيها المستمعون الكرام » . . آلاف المرات ، كما استهلكت كميات لا حصر لها من الورق ، والدفاتر ، والدبابيس التى ثبت بها البعض ملاحظاتهم المرفقة بالنصوص الأصلية ، وازداد الأمر عندما أدلى وزير التربية والتعليم العالى والمتوسط ببيان أعلن فيه دخول الترام كمادة دراسة أساسية يشترط النجاح فيها للانتقال من مرحلة إلى أخرى ، حدد

محتوى هذه المادة فى رسالة أذاعتها وسائل الإعلام إلى أبنائه الطلاب ، وتضمنت دراسة أنواع الترام وأشهر المصانع المتخصصة فيه ، ودراسة أجزائه ، وشبكات الكهرباء التى تقوم بتغذيته وخلال امتحانات النقل بالمنطقة الوسطى ورد سؤال فى التعبير نصه كما يلى :

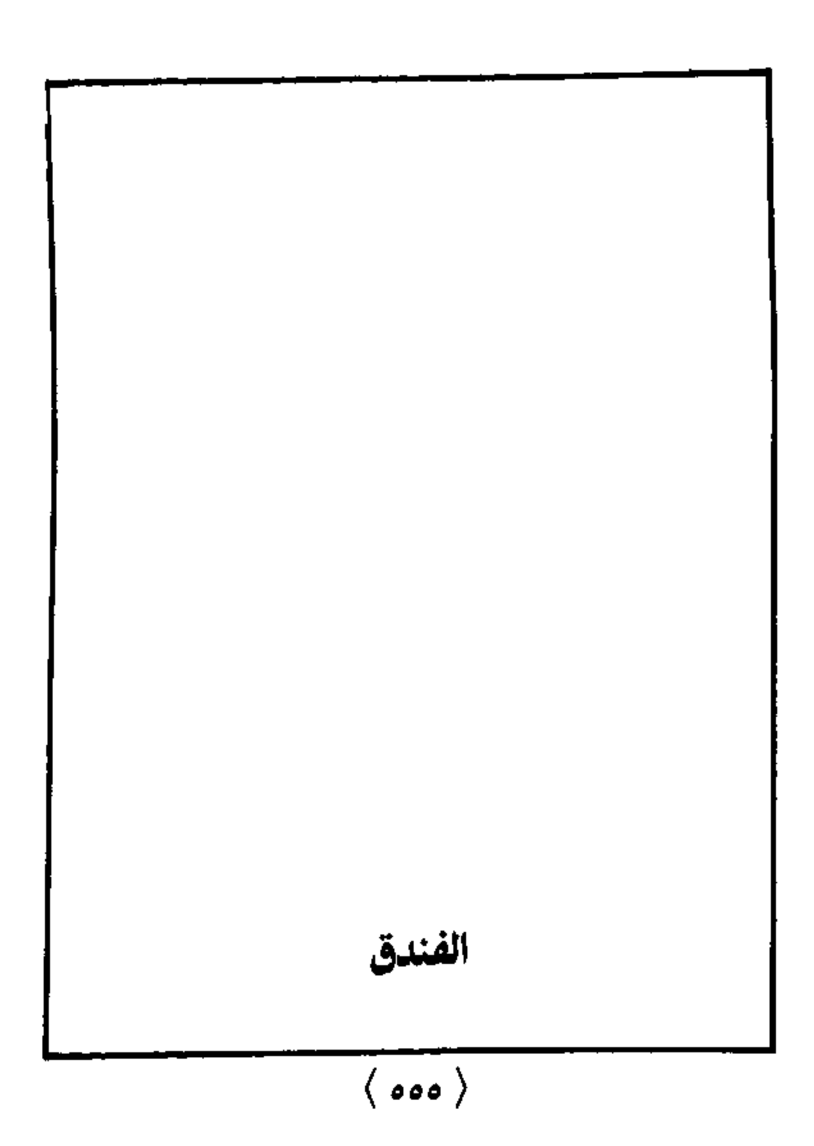
« اكتب خمسة عشر سطراً حول الترام موضحاً به عدد العجلات بالمركبة الواحدة.ومقدار المسافة الفاصلة بين العجلة والأخرى » .

وأعلنت المكاتب الأساسية بالبلاد عن عزمها إرسال وفود متتالية من ممثلى الهيئات البرلمانية والشعبية إلى مدينة شارلروا ، البلجيكية باعتبارها أكبر مدن العالم لصناعة الترامويات ، فى نفس الوقت انهالت برقيات عديدة من سكان مختلف المدن مطالبين بإدخال الترام ، ودعا أحد الكتاب فى مجلة العلوم الثقافية إلى تمجيد فكرة الترام ، وقررت مصلحة صك النقود إصدار عملة تذكارية خاصة عليها صورة ترام ، أعلن رؤساء التحرير الثلاثة معارضتهم وطالبوا بإصدار عملة دائمة للترام ، وعد مدير مصلحة الصك بدراسة الفكرة وتأثيرها على النقد المتداول وحجمه ، كما ظهر إعلان من هيئة الإسطوانات يحذر المقلدين من تزييف إسطوانات الترام والكاسيت التى انتشرت فى البلاد ، وتتضمن هذه التسجيلات أصواتاً مختلفة لأجراس الترام من مختلف الأنواع ، وأصوات احتكاك العجلات بالقضبان ، وصوت الفرامل لحظة أن تقبض على العجلات ،

والصرير عند المنحنيات ، وتضمن الإعلان عزم الهيئة على طبع إسطوانات تحوى صوت سريان الكهرباء فى الأسلاك ، وهذا ما لم يتم من قبل ، وتقدم أحد المشتغلين بالسياسة للحصول على ترخيص بإصدار صحيفة اسمها « الترام » لقد نظمت ندوات وأعلن أنه سيجرى مجمع اللغة العربية بحثاً عن إضافة لفظ « الترام » إلى القاموس الفصيح المعتمد ، وقامت بعض المصانع بصك ميداليات صغيرة تعلق إلى الصدر أو تتدلى من الأحزمة تمثل الترام فى أوضاعه المختلفة ، وزعت هذه الميداليات على أعضاء الوفود الأجنبية التى بدأت فى الوصول وتدلت من صدورهم ، كما أعلن عالم مصرولوجى اكتشاف رسم على جدران معبد فرعونى قديم يشبه الترام وتساءل ، هل عرف الفراعنة الترام ، وقال انه سيعقد اجتماعاً يجيب فيه على ذلك ، غير أن المعارضين بدأوا التحرك ، وفى الفترة الأخيرة وقع منشور سرى من إحدى الجماعات التى تعمل تحت الأرض فى أيدى رجال المباحث والتحرى ، دعا المنشور إلى اليقظة والحذر ، وزع المنشور فى بعض مركبات الترام ، عقد مدير هيئة قمع المعارضة مؤتمراً أذاع فيه نص المنشور ، واتهم بعض الدول الأجنبية ، واعترف بوجود معارضه للأهداف القومية المؤيدة للترام والتى عبرت عنها الجماهير تعبيراً أذهل العدو قبل الصديق ، وقال إن تلك الأهداف تلقى تأييداً واسعاً من

شعبنا ، لدرجة أن كثيرا من الآباء أنجبوا مواليد فى الفترة الأخيرة ، أطلقوا على أبنائهم اسم واحد ترام . .

مايو ١٩٧٦



الفندق

.. غير أن ما لفت الأنظار تلك الإعلانات التى بدأت تظهر خلال الشهر الأخير عن مهرجان مصر العالمى للفنون السينمائية ، والذى سيقام تحت رعاية فندق التى ق . تساءل كثيرون ، ما هى علاقة التى ق بمهرجان يحمل اسم مصر ؟ تساءل بعض الناس فى أحاديثهم العادية عن سر تبنى الفندق لهذا المهرجان ؟ ولما أجيبوا بأنها الدعاية ، تعجبوا ، وهل يحتاج الأمر إلى دعاية ؟ فى أى شارع تقع العين على لا مه تحمل اسم التى ق ، أو أحد مطاعم التى ق ، أو شاب وفتاة يرتدى كل منهما قميصا عليه شعار التى ق ، أو دكان حلوى يبيع جيلاتى التى ق .

عبر أحد الكتاب عما يساوره من قلق خاصة مع الدعاية المكثفة لهذا المهرجان ، لكن هاجمته أقلام عديدة ، وقال موظف كبير لزميله أثناء حديث تليفونى ، ان أمثال هذا الكاتب يشوه وجه مصر ، كما كتب ناقد فنى قائلا ، يكفى مصر فخراً أن العديد من المجلات العالمية ستذكر اسم مصر عند نشر أخبار المهرجان ، وأن مجلة النيوزويك التى تطبع عشرة ملايين نسخة ستخصص ربع صفحة فى عددها الصادر يوم افتتاح المهرجان وهذه خير دعاية لمصر ، كما أن الصحف التابعة لمؤسسة التى ق ستصدر أعداداً خاصة عن المهرجان ، وقال نجم سينمائى معروف أثناء

حديثه إلى منتج كبير فى نادى التى ى الأوسط ، حان لمصر أن تلحق بركب المهرجانات السينمائية ، بعد طول انغلاق ، وقالت نجمة معروفة فى حفلة خاصة ، يكفى أن الجمهور المصرى سيشهد عن قرب صدر كلوديا ، وعيون آلان ديلون ، من ناحية أخرى أرسل مدير العلاقات العامة للتى ى نسخاً عديدة من خطاب وجهه إلى الصحف ، وإلى كبار الموظفين ، والمديرين ، والوكلاء ، وبعض الأطباء المشاهير ، ورؤساء النوادى ، ومديرى المدارس الأجنبية ، وبعض الطلبة فى مراحل التعليم المختلفة ، أشار فيه إلى الأصوات الحرة التى تقف إلى جانب المهرجان ، وأكد أن كل شىء سيتم فى موعده المحدد . .

سرت الدهشة بين الناس ، وتعجب المواطنون ، وأبدى معظمهم أسفاً ، والحقيقة أن الأمر بدأ قبل المهرجان ، بالتحديد منذ بداية الستينيات ، عندما بدأ ارتفاع الهيكل الخرسانى للتى ى ، فشل الكثيرون فى عد الطوابق ، ينتظمون حتى الثانى والثلاثين أو الرابع والخمسين ثم تتوه نظراتهم فى الأعمدة الخشبية المتشابكة ، المتداخلة ، ثم بدا الهيكل يتعرى من السقالات وكلما أزيح جانب منها يبدو جزء من الطلاء الناصع البياض المشوب بزرقة خفيفة ، ومن أى مكان فى القاهرة يبدو المبنى ، إذا وقفت فى الأزهر سيبدو شاهق الارتفاع فى مكانه قرب الجزيرة ، بل أن أهالى عين شمس ، ومصر الجديدة ، تابعوا خطوات بنائه من شرفاتهم ، وفى حدائق القناطر

الخيرية أمكن للمتنزهين رؤ ية المبنى عند الأفق ، قيل ان المهندس الذى صممه راعى أن يبدو واضحاً من جميع الانحاء مهما علت المبانى فى المستقبل . فى تلك الفترة جرى نشاط كبير فى البلاد ، ولو رصد أحد الباحثين نوعية الانتاج وقتئذ لوجد أن قطاعاً ضخماً منه وجه إلى التى ق ، خصصت مصانع التكييف انتاجها كله للفندق ، أيضاً ورش السجاد البدوى التى انهمكت فى صناعة سجاد ذى مواصفات موحدة . استورد صوف برتقالى خصيصاً . أما المصنع المركزى بدمنهور فقد تفرغ تماماً لانجاز عدة آلاف من الأمتار التى ستستخدم كمشايات بين الطرقات الرئيسية والفرعية . تفرغت أيضاً مصانع الزجاج ، ومصانع الشوك والملاعق ، وطفايات السجائر ، وأدوات الطعام كافة ، ومصانع المشاجب ، ومقابض ، الأبواب ، والأدوات الصحية . .

عرف حرص الشركة على تنفيذ معظم احتياجات الفندق فى السوق المحلية طبقاً لمواصفاتها الخاصة ، وذلك لرخص الخامات ، والأيدى العاملة ، فيما عدا الوسائد ، والمراتب ، والنجف ، والأجراس الموسيقية ، والرخام الملون ، وبعض أنواع القيشانى . وأطقم الفضة الخاصة باستعمال كبار الشخصيات . تم استيراد هذا من الخارج .

فى أوائل السبعينات بدأت الصحف اليومية تنشر اعلانات كبيرة عن نشاط شركة التى ق فى المجال الفندقى ، هكذا قرأ الناس معلومات عن ق

تى البحـرين ، ورأوا صوراً للتى تى بـورما ، وتى تى نيـويورك ، وتى تى سيدنى ، لوحظ أن كل تى تى يشبه مدينة صغيرة ، جاء فى اعلان تى تى داكار أنه يوجد قطار خاص بالتى تى . ينقل النزلاء إلى مختلف أنحاء السنغال ، وفى تى تى هونج كونج محطة ارسال تليفزيونية مدير التى تى فى سيدنى بعقد مؤتمر صحفياً أسبوعياً يدلى فيه برأيه فى الحوادث العالمية والمحلية ، ويهدد بقطع معونـة شركـات التى تى عن بعض البلاد الصغيـرة الفقيرة . وفى طهران قام التى تى بنشـاط ضخم فى مجال البحث عن الآثـار الفارسية القديمة ، كما ساهم فى حل المشكلات التموينية .

ثم بدأت تظهر فى الصور اعلانات يحتل منها ربع صفحة فارغة إلا من كلمتين فقط : « تى . . تى » . استمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ثم أضيفت كلمتان : « ترقبوا . . تيتى . . القاهرة » . بعد أسبوعين حدثت ظاهرة فى مجال الفن الاعلانى ، إذ ان شركة التى تى نشرت إعلاناً ضخماً فى جميع الجرائد الصادرة استغرق كافة صفحاتها . وتلك سابقة اعلانية لم تحدث ، اضطرت الأهرام إلى إصدار ملحق من صفحتين تضمن اخبـار الدولة والعالم تساءل أحد أساتذة كلية الأعـلام أثناء القـائه محـاضرة عن معنى ذلك ؟ . فى ذلك اليوم اضيئت لافتة ضخمة زرقاء اللون فوق اعلى نقطة بمبنى التى تى . واضيئت فوقها مصابيح حمراء لتحذير الطائرات خوفاً من الاصطدام بها ، أصبحت اللافتة من العلامات الأرضية المميزة للقاهرة ،

ظهرت فى الصور التى التقطتها الأقمار الصناعية التابعة للدولتين الأعظم ، كما حرص الطيارون على التنبيه إليها فى الميكروفون الداخلى ، : « يمكنكم أن تروا إلى اليمين فندق التى ى » . وقيل انهم يقبضون مقابل هذه العبارة . .

فى ليلة الافتتاح ألقى المدير العام لتى ى القاهرة كلمة أعلن فيها أن الشركة حريصة على تقارب المجتمع الانسانى ، وشعارها تى ى لكل بلد ، أبدى اعجابه بالآثار المصرية ، ثم وعد بأنه سيضغط فى اجتماع مجلس الإدارة العالمي القادم من أجل طباعة صورة الأهرام فى مكتب الدعاية السنوى الذى تصدره مجموعة التى ى .

بعد افتتاح الفندق خصص عامود كامل فى جريدتى الأخبار والأهرام تحت عنوان : « يوميات التى ى » ، يتضمن أهم الشخصيات التى وصلت ، أو انتهت اقامتها ، أو تقيم ، والمؤتمرات التى تعقد ، وحفلات المؤسسات ، والأعراس ، والأفلام والمسرحيات المعروضة أو التى ستعرض .

يمكن القول ان هذه الأخبار هى مصدر المعلومات الوحيد المتاح ، من خلالها أمكن معرفة بعض التفاصيل ، تبين أن الفندق يضم سبعة حمامات سباحة ، أولها فى الطابق السادس وتحيط به حديقة صناعية كبيرة ،

به أربع قاعات للاجتماعات ، مزودة بأجهزة الترجمة الفورية ، وسبع عشرة قاعة للاحتفالات ، لا تشبه واحدة الأخرى ، وعدة ملاهى ليلية ، وكازينو للعب القمار ، وملعب صغير للتزحلق على الجليد فى الطابق الخمسين . وقاعة للعروض المسرحية . وقاعة أوبرا صغيرة وقاعات للعروض السينمائية ، ومطار صغير معد لاستقبال طائرات الهيلوكبتر .

تلك بعض المعلومات التى عرفت ، لكن المؤكد أنه ما من نزيل ألم بكل جوانب التى تى ، قيل باستحالة ذلك لتشعبه واتساعه . وتزعم بعض المبالغات أن كثيرين من موظفى التى تى يحرم عليهم مفارقة مواقع عملهم ، ويتقاضى هؤلاء الموظفون مرتبات كبيرة ، حتى أشيع أن أحد وكلاء الوزارات استقال من منصبه ليعمل موظفاً للآلة الكاتبة وذلك بعد أن هان منصب وكيل الوزارة ، وأصبح لكل واحدة أربعين أو خمسين وكيلا ، أصبح التى تى المكان المفضل للفئات الراقية التى أبدت ارتياحها لارتفاع الأسعار مما يعجز كثيرون عن ارتياده . أصبح التى تى ملجأهم بعد ازدحام كافيتريا الهيلتون بكل من هب ودب . لدرجة مشاهدة بعض الطلبة مع صديقاتهم ، وصغار الموظفين ، وأصحاب الملامح المرهقة والذين تتسخ ياقات قمصانهم بعد أول مرة يرتدونها ، لقد تسلل بعض هؤلاء إلى فندق الميرديان الحديث والمرتفع الأسعار ، وذلك عن طريق دعوات الغذاء التى تقيمها إدارات العلاقات العامة بالمصالح والشركات لبعض الخبراء

الأجانب . أحياناً يدعى خبير واحد وأتى معه خمسون موظفاً يحفون به ، ويتأملون بعيون زائغة قوائم الطعام وأصنافه . أن الحد الأدنى للطلب فى التى ڤى سبعة دولارات ، ويخضع نظام الطلبات لترتيب معين يقضى بتجديد المشروب كل ساعة . لم يحدث منذ الافتتاح حتى الآن أن خلت منضدة واحدة من الرواد ، الحجز لابد أن يتم مقدماً ، قاعات مشغولة كل الليالى . اشتهرت العائلات التى تزوج أبناؤها فى التى ڤى . طبعوا على بطاقاتهم الخاصة ما يفيد أنه تم زفافهم فى التى ڤى ، وحذرت إدارة التى ڤى أى شخص يقوم بتزييف بطاقة من هذا النوع بغرض تسهيل أعماله ، أو اتخاذه مظهراً اجتماعياً معيناً . كما حدث كثيراً فى الأسر الثرية أن اضطجع بعض الآباء أو الأمهات فى مقاعدهم . ثم قالوا للمتقدمين إلى بناتهم : « . . من شروطنا أن يتم الزفاف فى التى ڤى . . » شيئاً فشيئاً تشكلت فى المجتمع فئة التى ڤى ، ظهرت تحليلات عديدة لتنظيمات سياسية ، اعتبرها البعض فئة ، واعتبرها البعض الآخر طبقة ، ولانضمام عائلة إلى هذه الفئة أو الطبقة لابد من تردد جميع أفرادها على التى ڤى بانتظام ، وأن تتم زيجاتها فى قاعاته ، ويمكن لأفراد هذه العائلات السفر بنصف القيمة على طائرات التى ڤى . أو على خطوط التى ڤى الملاحية ، كما يسمح لهم بارتداء الشارة البرتقالية وتلك تسهل تعارف الرواد فى جميع أنحاء العالم .

اعتـاد رجال الأعمـال الذين نمت ثـرواتهم فى الفترة الأخيـرة عقد صفقاتهم فى التى تى . إن مجرد دعوتهم لعملائهم كى يتناولوا الغذاء فى الفندق تكفى لبعث الثقة فى مركزهم المالى . .

اعتاد أطفال الرواد على حدائق التى تى حيث تتغير اللعبة كل نصف ساعة . ويترقب أولياء أمورهم بلهفة اليوم الذى يسمح فيه للتى تى بافتتاح فروع لمدارسه الابتدائية والثانوية فى القـطر ، كما تكـون جمهور خـاص بالعروض المسرحية ، توجد عدة فرق خاصة بالتى تى تنتقل بين العواصم المختلفة ، إذا افترضنا أن فرقة التى تى للغناء الصينى تقدم عروضهـا فى القاهرة هذا الأسبوع فإنها سترحل إلى تى تى قرطاج خلال الأسبوع التالى لتجىء فرقة أخرى . لا يعنى هذا عدم وجود فرقة فنية مقيمة ، توجد فرقة للفنون الشعبية المحلية تعرض يومياً ، وقد وعدت الإدارة بانتقال هذه الفرقة إلى فـروع التى تى . وهكذا سـاهم التى تى فى انتشار الفـولكلور المصرى عالمياً ، كما تم التعاقد مع أشهر راقصتين مصريتين على الإقامة الكاملة والرقص يومياً

فى منتصـف العام الحالى ، وقبل الشروع فى المهرجان السينمـائى ، أعلن فى اليوميات أن التى تى قرر تخصيص عدة عربات حديثة مستوردة من ولايـة فرجينيـا لتنظيف الشـوارع ، وهـذه العـربـات تقـوم بـالشفط ، والكنس ، لاقى هذا ترحيباً ، وقال البعض ان هـذا ليس إلا شيئاً مما

سيقدمه التى ق ، ثم اعتاد أهالى المناطق المجاورة ظهور هذه السيارات برتقالية اللون عندما تجول فى الصباح الباكر وتمد خراطيم بلاستيكية وتمتص الأتربة والقاذورات المستعصية . ثم تمسح الإسفلت بفرشاة ضخمة دائرية . بعد ذلك بيومين أعلن فى سطر واحد عن اجتماع اللجنة التحضيرية لمهرجان مصر السينمائى ، لم ينتبه أحد . وظن أن اللجنة تتخذ من الفندق مقراً .

وبعد أيام أعلن أنه سيتم تشغيل خط أوتوبيس خاص لنقل النزلاء من المطار ، ومساهمة فى حل أزمة المواصلات سيسمح للأفراد العاديين بالركوب مقابل دولار واحد . فى الفترة التالية لفتت هذه الأتوبيسات الأنظار بأناقتها واسترخاء الركاب فيها . تمنى أحد الفنانين أن يرى أتوبيسات القاهرة كلها بهذا الشكل . وعلى الفور عقد مدير التى ق مؤتمراً قال فى بدايته أن ما تمناه المطرب الفنان ليس ببعيد . وإن التى ق تقدم بمشروع متكامل إلى وزارة النقل . ومحافظة القاهرة ، والجهات المعنية ، يتضمن تسيير عدة خطوط تربط القاهرة ربطاً متكاملا ، محكماً ، كما أعلن عن استعداد التى ق لتقديم خبرته فى المرور . ودعا المتخصصين إلى تناول الغذاء ، ومشاهدة الدقة الفائقة فى تطبيق أحدث نظم المرور بالشوارع المؤدية إلى التى ق إذ يتردد على الفندق أربعة أو خمسة آلاف سيارة يومياً ولا يحدث أى اضطراب .

علق أحد الكتاب قائلا : إن هذا تدخل لا يليق ، وتهديد للسلام الاجتماعى .

رد عليه مدير العلاقات العامة بالتى تى . قال : إنه ليس بمستغرب اعتراض هذا الكاتب المعروف لونه جيداً ، صاحب الأفكار المستوردة ، إن التى تى حريص على حل مشاكل الناس .

بدا أكثر الناس دهشة من نشاط التى تى أصحاب الفنادق المحلية المنتشرة فى باب الحديد ، وشارع كلوت بك ، وحول مسجد الحسين . إن الفندق يعنى بالنسبة اليهم مكان ينام فيه الناس ليلا ، بعض أصحاب الفنادق أضافوا مطاعم لكنها ليست القاعدة معظم الفنادق ترسل فى طلب الوجبات من المطاعم القريبة ، استرجع صاحب فندق دار السلام بالحسين ذكرياته . قال : إن اللوكاندة التى اجتذبت رواداً فى غير مجال النوم هى الكلوب العصرى ، عام ١٩١٠ خصصت مساحة لعرض بعض الأفلام الصامتة . لكن هذا لم يستمر . إن أصحاب فنادق الدرجة الأولى أيضاً لا يخفون دهشتهم مما يحويه التى تى . يقال ان الوزراء الأجانب يتحركون داخله كأى أشخاص عاديين ، لا يلقى أحد إليهم بالا ، لأن كل نزيل يفوق الآخر أهمية ، تساءل بعض المواطنين عما ينفق فيه يومياً من أموال ، وكم من المصائر قررت داخل قاعاته ، وكم من الصفقات عقدت ، وفكر

أحد المخرجين أن ينتج فيلماً تدور أحداثه فى التى تى . لكن الإدارة لديها شركة انتاج خاصة تستغل ديكورات التى تى ، وطرقـاته ، وحجـراته ، وانشاءاته .

غير أن الاعلان عن اشراف التى تى على المهرجان يحمل اسم مصر يبدو أنه النقطة التى تراكمت عندها كل الأشياء ، خاصة أن الاشاعات سرت فى نفس الوقت عن إصدار جريدة باسم التى تى ، وانشاءسنترال خاص به ، وذلك بعد شكوى رجال الأعمال من الخطوط المحليـة ، لم يصمت مدير التى تى ، إنما أدلى بتصريح أعلن فيه رغبة التى تى فى تخفيف العبء ، عن الأجهزة الرسمية ، ثم وجه تحذيراً إلى الأصوات التى تهاجم المهرجان ، وقال انه سيعقد مؤتمراً يكشف فيه حقيقتها . .

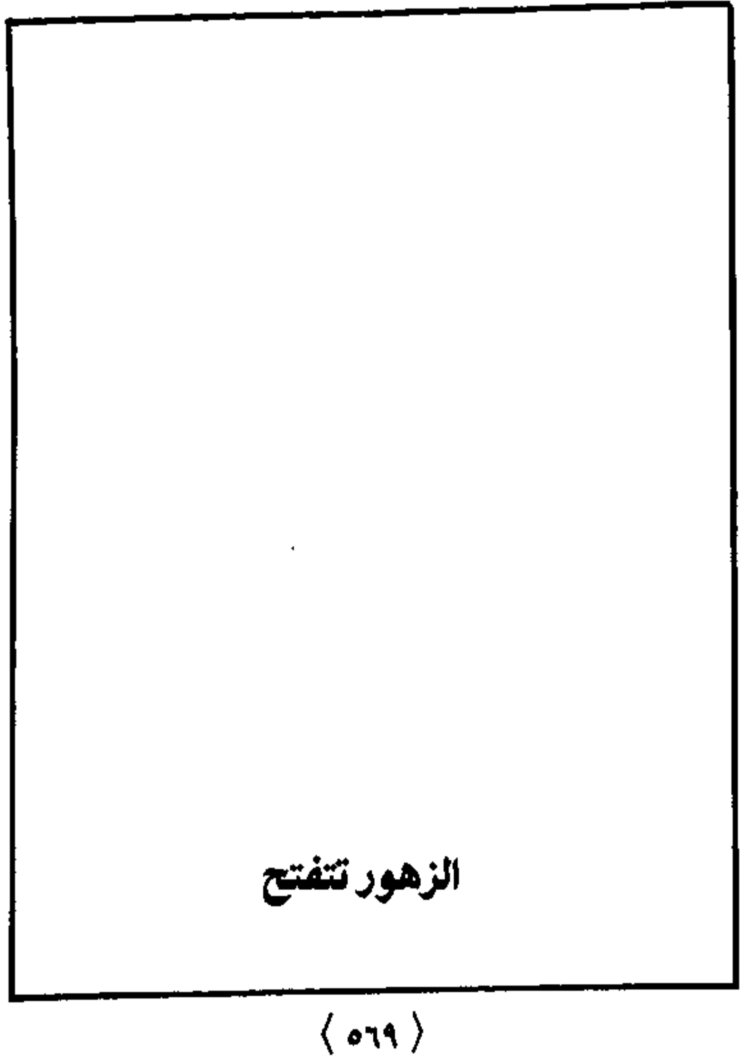
أحدث ذلك ضجة ، لكن الاستعدادات استمرت ، ورأى المواطنون أنواعاً حديثة من الأقواس ، بعضها على هيئة كاميرات سينمائية ، وتضمن قوس أقيم بالقرب من المبنى شاشة سينمائية تعرض لقطات من الأفلام ، أدى هذا إلى تجمع الناس ، مما دعى إدارة المرور إلى كتابة خطاب رسمى إلى التى تى تطلب إزالة القوس أو إبطال آلة العرض ، رد المدير قائلا إنه حصل على تصريح خاص من إدارة الزينة والأقواس . وأن التجمهر يمكن فضه بواسطة قوى الأمن ، وبهده المناسبة فإن ثمة موضوعاً يرغب فى إثارته

مع المسؤولين . . فى تلك الليلة التى سبقت افتتاح المهرجان حمل مدير التى
تى علة مذكرات من أصل وبضعة صور . بدأ سلسلة من الاتصالات .
عرف فيها بعد أنه طلب تدعيم قوات الأمن الموجودة حول التى تى ، مع
السماح لقوة أمن التى تى الخاصة بممارسة واجباتها فى الشوارع المؤدية إليه
إلى جانب عملها داخله ، خاصة وأن حادثاً وقع صباح اليوم أدى إلى
ضرورة ذلك ، إذ عثر فى شارع ضيق جانبى هادىء قريب من التى تى ،
على جثة فتى يرتدى جلباباً من الدمور ، نحيل الرقبة ، بارز عظام
الوجنتين ، والضلوع ، يبدو أنه قادم من إحدى قرى الصعيد الأعلى ،
وجد إلى جواره منديل به رغيف ذره وجبنٌ قديمٌ ، وبقايا بصلة خضراء ،
وقليل من الملح المخلوط بالكمون ، وتذكرة أوتوبيس بقرش ، وفردة
أستيك ، وعنوان مكتوب بالكوبيا الباهتة على ورقة قبض عليها بيده
اليمنى ، بهتت حروف الكلمات فلم يمكن الاستدلال على تفاصيلها ،
حول ذراعه ربط منديل آخر به خمسة عشر قرشاً وحجاب مثلث قديم ،
لا يرتدى أحذية ، أو ملابس صوفية ، أدى ذلك إلى تجمده برداً كما أثبت
الطبيب . .

ماذا يصبح الموقف لو رأى أحد النزلاء تلك الجثة ؟

كيف يبـرر التى ق أمام أعضـاء المهرجـان وجـود الجثـة لـو لمحهـا بعضهم ؟؟

١ اكتوبر ١٩٧٦



الزهور تتفتح

بعد رحيل ماوتسى تونج بشهور ، مضى شاعر شاب جاء من الأقاليم الجنوبية إلى رئيس تحرير جريدة « الكفاح » التى تصدر بعدة لغات تتحدث بها القوميات المتآخية فى الصين ، قدم قصيدة فى رثاء الزعيم ماو . قرأها رئيس التحرير ، ثم ابتسم ، قال انه يحيى وفاء الشاعر لزعيمه الخالد ، كما أن القصيدة تنم عن موهبة لا شك فيها . لكن . .

أصغى الشاعر بأدب عاقدا ذراعيه أمام صدره ، قال رئيس التحرير ان المبالغة فى التعبير عن الحزن تعطل الشعب عن أداء أعماله ، تعيشه فى مناخ قاتم ، لهذا يتمنى لو خفف الشاعر قليلا من حدة حزنه المشروع فى القصيدة ، ولم تنشر القصيدة فى أى جريدة أو مجلة أخرى ، منذ وقت ليس ببعيد كفت الصحف عن نشر المراثى والقصائد التى تمجد ماو ، آخر ما نشر فى هذا المجال دعوة الكاتب الكبير « تنج ينج » إلى إشتراك الشعب فى إقامة تمثال ضخم لماو فوق القاعدة الخالية بميدان « تيان آن مين » اقترح أن يصل طول التمثال إلى مائة وعشرين مترا بحيث يستطيع ركاب الطائرات الذين يعبرون سماء بكين أن يروا ذراع ماو تشير إليهم ، ودعا إلى جماعية الخلق ، بحيث لا ينفرد فنان واحد بعمله ، اقترح جمع التبرعات حتى يشعر كل صينى أنه شارك فى إقامته . على ما يذكر القراء فإن هذه

المقالة اختتمت بسلسلة من المراثى ، أما الاقتراح فبقى معلقا ، لا يطلع إلى سماء أو ينزل إلى أرض لم يدر أحدكم من الوقت مر عندما سرت إشاعة شاحبة حول مخطوط يتداول سرا ، يتناول ماو بلهجة نقدية ، وهذا ما لم يتصور إنسان حدوثه فى يوم ما ، قال شبان شاركوا فى الثورة الثقافية ان القوى المضادة بدأت التحرك ، ولابد من اليقظة تجاه هذه الزنانير التى عششت طويلا ثم تخرج الآن لتطن وتفزع ، وتحدثت صحف حائط عن الأفاعى التى باتت بياتا شتويا مديدا ثم تفح الآن . .

فى أحد الاجتماعات الحزبية بشنغهاى وجه بعض الشباب سؤالا إلى كادر حزبى حول صحة ما يقال حول هذه المخطوطة ، قال الكادر ان الأمر تضخم أكثر مما يجب ، العصفور الهزيل يظنه البعض نسرا جارحا ، والفم الاهتم يرى البعض فيه أنيابا وقواطع ، صمت لحظة ثم قال ، هناك فعلا مخطوطة متداولة منذ فترة ، يقول كاتبها إن سحر الزعيم غيم فوق عينيه ، هذا التفرد ألقى وعيه ظلا طوال السنين الماضية ، بعد الرحيل الأبدى زالت الغشاوة ، رأى ما يستحق النقد دون مذكرات خاصة عنوانها : « استرداد الوعى » ، سألت إحدى الفتيات ، من هذا الكاتب ؟

لم يجب الكادر فورا ، إنما أجرى اتصالا عاد بعده ليقول انه ، « تنج بنج » . .

تدفق غضب المجتمعين . أصغوا إلى ما لم يتوقع أحدهم سماعه يوما .

قال الكادر ان الصين راسخة كالجبل ، وكتاب واحد لن يهز ربع سكان الكوكب ، لقد بلغوا سن الرشد الذى يسمح بظهور أى رأى ، وتفتح كل زهرة ، ورؤ ية كل أشعة الشمس ، طلب منهم الرد على « تنج بنج » ، خرج المجتمعون وقلق فى دروب النفوس .

لوحظ فى الأيام التالية أن المقال الافتتاحى لجريدة الكفاح تضمن هجوما حادا على السياسة الزراعية ، فى اليوم التالى نشر مقال بتوقيع « مراقب » جاء فيه : إن الجبل شامخ ، والرياح التى تهب لا تزيده إلا رسوخا وما من شىء فوق الجبل إلا الجبل نفسه .

أحيانا يتمرد . يطرد أعتى الصخور إلى الوادى ، قال ماو يوما لندع مائة زهرة تتفتح ، وها هو الأوان الحقيقى لتفتح الازهار . » .

إن العبارة الأخيرة قطعت الشك باليقين ، ثمة غبار يثار حول الزعيم ، غيوم رمادية قاتمة ، الخطى تضطرب ، والايقاع يختل ، بعد وفاة ماو بدأت « الكفاح » تنشر حولها على هيئة غصنى زيتون « مؤسس الصين الحديثة » ، ظن الجميع أن الصورة ستستمر إلى الأبد ، ولكنها اختفت ورحيل ماو لم يمض عليه إلا أربعة شهور ، فى نفس الوقت طبع « استرداد

الـوعى » بكميات كبيـرة . هدد الشبـان بحرق نسخـه ، رفض بـاعـة الصحف توزيعه ، قال أحدهم لمراسل الوكالة الفرنسية :

« لقد علمنى ماو ، أدخل ابنى الكلية العسكرية . وزاد حبات الأرز التى يأكلها أطفالى ، كيف أهاجم بتوزيع هذا الكتاب ؟ » .

قيل للشبان ان التيار الكبير يبتلع خيوط الماء النحيلة ، والبحر يخفى عذوبة الأنهار ، ردوا على تنج بنج ، بعد أسابيع ظهر كتاب الفه البعض ، أطلقوا عليه « الوعى الضائع » ، جاءوا بفقرات عديدة مجد فيها ماو . لقد رسمت صور كاريكاتورية لبنج ، صور يمشى عاريا فى الأسواق ، رسم على هيئة حرباء ، لكن ثمة مرارة ترسبت فى النفوس ، هل تجىء لحظة من الزمان يضطر فيها البعض إلى الدفاع عن ماو ؟ كما أبدى البعض أسفا على ما يصيب الإنسان من تغير وتدهور . يبدو أن رد الفعل بلغ من الحدة درجة أسكتت الأصوات التى حاولت مـد مظلة النقـد إلى شخص ماو . لكن الناس راحوا يرقبون بحذر ، ويقين خفى لديهم أن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، مع صمت الصحف بدأوا يرصدون عدة ظواهر كاختفاء صور ماو من مكاتب بعض الموظفين ، أصبح طبيعيا أن يسأل شخص ما . .

« هل رأيت صورة ماو عندما ذهبت لتقضى مصلحتك ؟ . . . »

علقت المرارة فى الأفواه ، هذا سؤال لم يتصور إنسان نطقه يوما . قال أحد عمال المناجم أنه برغم مضى شهور قليلة على رحيل ماو لكن عندما يذكر اسمه يخيل إليه إنه عاش فى حقبة بعيـدة .. بعيدة جـداً . بعض المعمرين قالوا ان الأيام تـأتى بالعجب والحقـل لا يستمر أخضـر أبدا ، البحار يختلف عمقها من مـوضع إلى آخـر ، والعلم الحديث يقـول أن القارات الخمس تتحرك من أماكنها ، كما ان الماء لم يـوجد عـلى حالـه واحدة ، هناك ماء البحر ، وماء النهر ، والماء الآسن ، والماء الـراكد ، والماء الجارى ، والماء المتساقط مطرا ، وهكذا حال الزمن ، لقد لاحظ الناس عدم إذاعة صور ماو فى التليفزيون واختفاء صوته من الإذاعـة ، أصبح العثور على اسطوانة تحمل إحدى خطبه كالعثور على زهرة الصقيع ، كما قل المعروض من الكتاب الأحمر ، وظهرت دعوى تقول بإتاحة الفرصة للأفكار الجديدة ، كما لاحظ القرويون أن الحراسة على الأماكن التاريخية التى عاش فيها الزعيم قد خفضت ثم اختفت ، أصبح أى إنسان يمكنه الدخول إليها ، كما أن الوفود الأجنبية لم تعد تأت لاختفاء الامـاكن من برامج زياراتها ، ومع ضياع بعض الأدوات التى استخدمها ماو من هذه الأماكن قيل ان القرويين شكلوا حرسا ذاتيا منهم يبقى طوال الليالى إلى جوار المساكن والمكاتب والأكواخ والمواقع والخنادق التى عاش بهـا ماو ، ويدفعون اللصوص الذين بدأوا يظهرون أخيرا فى الريف الصينى ..

وأخفى الجميع أسى ، هل جاء الزمن الذى يضطرون فيه إلى حماية بقايا ماو بأنفسهم ، هل حل الوقت الذى يستنشقون فيه رائحة صورة لماو ، أو كلمة بصوته ؟

مع حصاد محصول القمح بدأزبد الموجة التالية للهجوم على ماو. فى مقال افتتاحى نشر بجريدة « الكفاح » قيل أن الثورة الثقافية بدت ضرورية وقت حدوثها لتجديد شباب البلاد ، ولكن ثمة تجاوزات وقعت ، وستنشر تحقيقات يومية حول هذه التجاوزات . .

أدى المقال إلى ظهور ملصقات جدارية تهاجم الاتجاهات الرجعية التى تتستر محاولة تشويه الثورة ، غير أن مجمع البلديات أصدر أمرا بمنع الكتابة على الجدران ؛ لابد من المحافظة على نظافة الجدران ، حرصا على رونق المدينة فى عيون الأجانب . .

فى اليوم الثانى نشر أول تحقيقات الكفاح عن السجون الجماعية التى أقيمت للمعارضين فى زمن الفترة الثقافية الأولى ، نشرت صور لزنازين لا تتسع إلا لعشرة أفراد وضع بها المئات لم يمكنهم النوم إلا بالتناوب بحيث يقف البعض وينام الآخرون ، نشرت صورة لعجوز صينى وتحتها تعليق « أصيب بالأرق لعدم تمكنه من النوم » ، صورة لرجل آخر شمر عن ساقه وتحتها :

« سلخوا جلد ساقه بعد أن رفض الكلام »

وصورة رجل آخر قصير بدين .

« بصقوا في وجهه . وصفعوه على قفاه »

رجل آخر متوسط العمر :

« أحرقوا لحيته ، وشدوه من عضوه . . . »

لم تسكت جريدة الشعب الرسمية ، هاجمت هذه الحملات الصحفية ، قالت ان الرجعيين لو تمكنوا من البلاد لذبحوا ملايين الرؤوس ، وللثورة الثقافية انجازات يجب أن تذكر .

غير أن الفلاحين في المناطق النائية والقريبة تأملوا ما يكتب ، ثم همس بعضهم ، هذه أدوار موزعة ، وتساءل البعض ، ألا يمكن منع « الكفاح »من نشر هذه التحقيقات ؟ وقال البعض ان هذا ممكن بالتليفون ، ورفع المسئولون شعار أن الصين راسخة وقوية ولن تهزها الحملات أو الشائعات وذكرى ماو في القلوب ، ردد الشباب في التجمعات والمؤتمرات طبعوا المنشورات ، أبدى بعضهم ألما ، هاهم يعيشون الزمن الأسود الذي تلوث فيه ذكرى ماو . . قال البعض ، ليقلموا ما شاءوا لكن هناك أمرين لا يمكن أن يمس فيهما ماو ، هما المال والنساء .

فى الأيام التالية توقفت جريدة الأنباء وجريدة الكفاح ، ونشرت جريدة الشعب صورة كبيرة لماو ــ لأول مرة منذ مدة ــ وتحتها تعليق « لنتخذ القدوة والمثل منه » . لكن الريبة لم تفارق القلوب ، وتساءل البعض ، ترى ماذا يدبر هذا الزمن الذى قدر لنا أن نعيشه لماو ؟

بعد أربعة أيام أعلنت صحيفة إقليمية فى اقليم الغرب عن مفاجأة مذهلة ، نشرت صورة امرأة تجاوزت الاربعين ، أجرت الصحيفة حديثا مطولا معها ، قالت ان ماو تعرف إليها بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة عام ١٩٤٩ ، أحبها وأحبته ، ثم عاشرها كالأزواج ، وأنجب منها ثلاثة أطفال ، وقالت انه كان يهوى الفتيات الصغيرات ، ولديها رسائل بخطه تثبت كل شىء ، إنها لا تطلب إلا أمرا واحدا هو إثبات نسب هؤلاء الأطفال إلى والدهم العظيم وأعلنت أنها ستسلم إلى السلطات مليون دولار احتجزها ماو لنفسه من أموال الثورة أثناء المسيرة الكبرى ، وأعطاها لها لتنفق منها على الأولاد ، ولكن ضميرها يؤنبها . . .

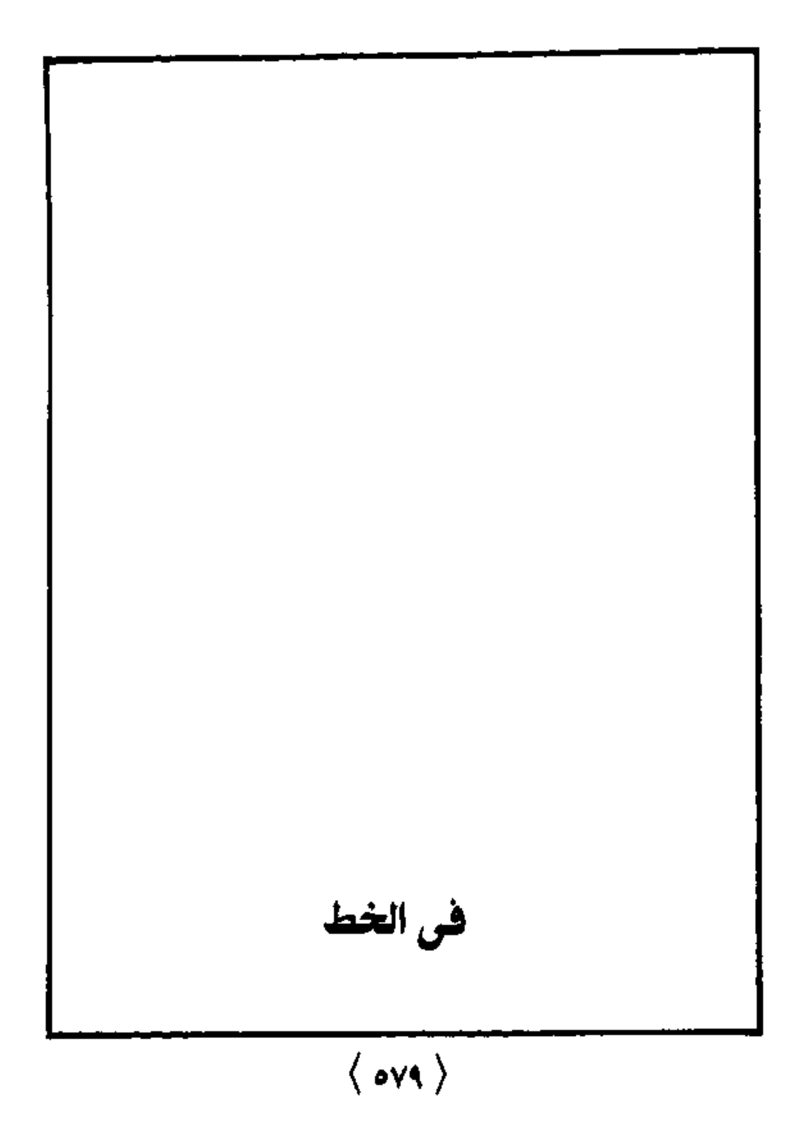
تناقلت الوكالات الخبر ، كتبت تعليقات عديدة أذيعت من كافة الإذاعات ، وأحرق أحد الشباب الذين ولدوا عام ١٩٤٩ نفسه احتجاجا على تلويث ماو ، وأكد رفاق ماو أنه لم يعرف هذه المرأة ولم يمض إلى هذه البلدة ، أما المليون دولار فأمر لا يستحق الرد ، وشكك أحدهم فى وجود المرأة نفسها .

وقال شاعر شاب قصيدة مطلعها :

أنعى إلى ذلك الزمان أهله . . . . .

وفى الريف بدا الفلاحون وكأنهم لا يصغون إلى ضجيج المدن الصغيرة والكبيرة ، رحلوا فرادى وجماعات لزيارة قبر ماو ، وذات يوم تعطلت سيارة تقل أحد الصحفيين الأجانب فى منطقة تقع بأقصى الجنوب الشاسع . وقف بعض الأطفال يرقبون بعيون ضيقة ودهشة ، بدا غريبا بحجمه الكبير ، ولون بشرته الأبيض ، جاء والدهم العجوز ، أشار المرافق إلى ظمأ الضيف الأجنبى ، دعاهم العجوز إلى دخول بيته ، تلفت المرافق حوله ، إنه منهك أيضاً ، اضطر الضيف إلى إحناء رأسه ، جلس فوق دكة من الطين تعلو فرنا باردا ، أبدى رغبة فى غسل وجهه ، دعاه العجوز إلى الداخل . قبل أن تقع عينا الضيف على الوعاء الفخارى القديم للماء ، حانت منه التفاتة إلى حجرة داخلية ، إن ثمة ضوءا ينبعث من شمعة غليظة يلمس صورة متوسطة لماو ، إحدى صوره الملتقطة فى الأربعينات أو الثلاثينات ، يبدو مبتسما ، مرتديا خوذة قتال ، عيناه متطلعتان إلى بعيد ، وكأنهما ترقبان من زمن آت . . .

أكتوبر ١٩٧٦



فى الخط

عقد الاجتماع فى القاعة الرئيسية ، بعد التصفيق الحاد ، وحرص كل شخص على الوقوف فى موضع بحيث يمكن ان يرى بوضوح لسيادته ، ثم تقدم أحد العاملين بإدارة الميزانية وهتف ثلاث مرات بحياة الخط ، وقف رئيس مجلس الادارة فشكر أبناء المؤسسة وأثنى عليهم ، قال إن القضية ستنظر بعد أسبوع ، وأن ابداء الآراء سيتم فى حرية تامة ، من الضرورى أن تضرب المؤسسة مثلا فى تمسكها بالخط ، بحيث تفرض احترامها على المستشارين ، وأعضاء لجان تقنين المعانى ، وخبراء الحيثيات .

أطرق مقدار لحظة ، ثم قال إن خط المؤسسة واضح وصريح ومتين . وإنه ملتزم بالخط فى أدق تفاصيل حياته ، ولعل البعض رأى مكتبه بعد إعادة تنسيقه وفقا للخط ، ولكنه يرى من واجبه تحذير العاملين من بعض الذين قد يتصلون بهم من خارج المؤسسة ويحاولون تشكيكهم .

وهنا حرص البعض على كتابة هذه الملاحظة مع أنه يمكن تذكرها بسهولة ، كما بذل آخرون جهدا للمبالغة فى إظهار الامتعاض على وجوههم كلى الشفاه أو مطها . وإصدار أصوات الاحتجاج ، أو التراجع

بالرأس احتجاجا ، أهذا معقول . . هل يمكن لقوة فى العالم أن تؤثر على أحدهم . .

بعد انتهاء الكلمة خرج رئيس مجلس الإدارة يتبعه (س) . إن نجم (س) يتألق فى مثل هذه الظروف لقدرته على متابعة التزام العاملين ، فى الممر اقترح رئيس القسم الداخلى أرسال برقية إلى مجلس الإدارة ، وهنا قال (ى) لنفسه ، ما الداعى إلى إرسال برقية والطابق المخصص لمجلس الإدارة على بعد درجات قليلة فى نفس المبنى ، إن المسافة حتى مكتب التلغراف بعيدة جدا ، مع ذلك لو طلب منه التوقيع على البرقية لن يرفض ، ربما ظنوه خارجا . .

فى نفس اللحظة التقى (س) بالسيدة (ك) وسألها ضاحكا عن ذهابها إلى كوافير غير ملتزم . أبدت انزعاجها ، وقالت إن هذه الوشايات الرخيصة ضدها لن تهدأ ـ إن زوجها يحتل منصبا حساسا ، وهذا يتطلب منها حماسا غير عادى ، وهنا تقدم (ى) بخطواته الهادئة ، رفع إصبعه مستأذنا ، تساءل عن عنوان الكوافير المناسب حتى يسمح لزوجته وابنته بالذهاب إليه ، قال (س) بدون النظر إلى (ى) إن العنوان سيعلق بلوحة الاعلانات غدا فى المدخل الرئيسى ، انحنى (ى) وانسحب بعيدا .

فى اليوم نفسه رصد عامل التحويلة عـدة مكالمات اشتبه فى عـدم التزامها بالخط ، قام العامل بإبلاغ نصوصها إلى (س) ، كما قدم تقريراً عن العاملين الذين تحدثوا وذكر الخط صراحة فى مكالماتهم واعلنوا إلتزامهم به ، كما قدم تقريراً عن مدى حماس كل منهم عند ذكر أى كلمات تتعلق بالخط ، قال ان التليفون مرشح جيد لـلأصوات ويكشف أى مهـتز أو خائن ، كما اتصل متعهد البوفيه بالسيد (س) وأخبره بالتزامه فيما يقدم من مشروبات إلى العاملين ، قال انه طلب من شركة الخزف المتحدة تصميم فناجين وطقـاطيق تحمل كـل منهما مقتـطفات مؤ يـدة ، وترددت أخبـار وأقاويل عما سيتحقق للمخلصين بعد نظر القضية ، ستنظم الرحلات إلى الخارج ، ستوزع الدواجن المذبوحة أسبوعيا بالأسعار الرسمية ، كذلك الكبد والقوانص ، والأسماك من جميع الأنواع الاستهلاكيـة ، وسيشيد جراج فسيح فوق قطعـة الأرض الفضاء ، وستـذاع أسماء الملتـزمين فى برنامج ما يطلبه المستمعون ، وسيتم تخصيص باب جانبى لدخولهم إلى حديقة الحيوانات فى الأعياد والمواسم ، كما سيبيع إليهم الخيـار والملوخية الخضراء عند أول ظهورها بنفس السعر الذى يباعان به فى نهاية الموسم .

فى الثانية حدث ما عكر (س) أخبره رئيس مجلس الادارة أن أمرا مزعجا حدث ، خرج (ى) عن الخط ، وقف على ناصيـة شارع فـرعى قريب وخاطب أحد إعلانات السينما قائلا انه من المصلحة ارتفاع صوت مغاير

عند نظر القضية ، قال سيادته إن كل التقارير تؤكد إخلاص (ى) والتزامه منذ إنشاء المؤسسة ، كما إنه كان يوقع شهريا فى كشف المرتبات مؤيدا ، يجب كشف حقيقة ما جرى ، هل تعرض (ى) لمؤثرات صادرة عن قلة منحرفة ؟ طالب سيادته بالتزام الحذر ، وبسرعة معالجة الموقف ، وعلى الرغم من تكتم النبأ الا أنه عرف بين العاملين . .

قالت السيدة (ك) لزميلتها إن زوجها من خلال عمله الحساس يمكنه معرفة ما يدور فى المؤسسة ، أخبرها أن البعض يبطن ما لا يظهر ، وإن اجتماعا جرى ليلة أمس فى بيت رئيس مجلس الإدارة ضم رؤساء الأقسام ، والأمناء ، وأقسموا على الوقوف يدا واحدة . .

أبدى (ى) دهشة ، كيف يمكن اعتباره خارجا ؟ لقد خدم المؤسسة سنوات طويلة ، ولو طلب الآن إحالته إلى المعاش لتقاضى مستحقاته كاملة ، ثم أنه يربى ولدا وبنتا ، من أجلهما لا يؤمن إلا بما تجمع عليه الأغلبية ، كما أنه ألحقهما بمدرسة يتم فيها تشربهما للخط ، بعد حوار قصير أبدى (س) الرضا ، قال إن (ى) ابن حقيقى للمؤسسة ، هنا وقف (ى) أعلن أنه على استعداد لتوقيع إقرار كتابى من أصل وصورتين يثبت ايمانه ، وعلى استعداد لتوقيع إقرار كتابى من أصل وصورتين يثبت إيمانه ، على استعداد لاقتراض مبلغ من مرتبه لينشر فى الصحف إعلانا أو تهنئة ، مد

(س) يده مهنئا مصافحا ، سينقل كل كلمة ، سيعمل من جانبه على إزالة سوء الفهم ، ولا شك أن هـذا الموقف سيصبح محل اعتبـار عند نـظر العلاوات الاختيارية التي يمنحها سيادته بعيدا عن اللائحة ، أكد (ى) أنه لا يمكن أن يفكر أبدا فى تعطيل المسيرة ، انصرف (ى) نظر إليه البعض ، كيف يخـرج إنسـان مثلهم عن الخط ؟ كيف يعـرض نفسـه لاحتمـال الفصل ؟ لعدم صعوده إلى الخزانة أول كل شهر ، ألا يفكر فى أولاده ؟ لماذا تزوج وربط إليه مصير إحدى بنات الناس ، كيف فكر فى الزواج من ينـوى الخروج عن الخط ؟ وإذا حـدث وقبلته إحـدى المختلات فكيف أنجبا ؟ هل ينجب من يخرج عن الخط ؟ عجيب والله !.

فى اليوم التالى ارتجف (س) حنقا وغيظا بعد قيامه بالتمام اليومى للتأكد من التزام العاملين ، جاء (ى) فى ساعة مبكرة ، بدا مترنحا لا يقدر على الوقوف تحدث إلى عمال النظافة الذين يغسلون سلالم المؤسسة بالصابون وينفضون الغبار عن المكاتب .

قـال إنهم سيفهمون ، سيصغـون إليه لأن كـل منهم يبطن غـير ما يعلن ، وهو أيضا جبان ، « نعم .. أنا جبان ... بالأمس أرسلت برقية لا أعنى ما قلته بها » إن كل ما يجرى يجثم عليه ، مقزز ، منفر ، إنه يفكر

فى الهجرة ، لقد خطا فى سبيل ذلك خطوة عملية ، اشترى استمارات استخراج جواز السفر فى غفلة من الأعين ، دس يده فى جيبه الأيمن ، أطرق ، فتش جيبه الايسر ، مط شفتيه ، قال انه سيبوح بالحقيقة ، لم يشتر الاستمارات ، خاف ، لكن لم يحزنه ، ما يفكر فى الخروج ، لم يفكر فى مفارقة هذه البلاد الغالية عليه مثل الولد ، قضى عمره فى الحى القديم ، يتغذى وينمو من هوائه ، وترابه وينتشى عند مفارق طرقاته ، ويأنس إلى مقاهيه ، وتتكىء ذكريات عمره على شرفات بيوته ، لكنه يضيق الآن ، لماذا يجبرونه ؟ لماذا يضغطون على عنقه ؟ لماذا يحددون كمية الهواء المتدفق إلى رئتيه والدم الذى يضخه قلبه ؟ لماذا لا يقول رأيه منفردا عند نظر القضية ؟ بدا حزينا ، منكسرا ، مضى مترنحا إلى مكتبة ، عقد يديه فوق اللوح الزجاجى ، راح فى نوم لم يوقظه منه إلا زميله ، تلفت حوله ، خجلا بينما المرئيات تهتز وتختلط ، دخل دورة المياه المخصصة للرجال ، غسل وجهه ، جففه بمنديله ، عاد مبتسما ، تساءل ــ « ما أخبار الخط » ؟

ضاق صدر (س) . الأمر خطير ، ربما تضمن ملعوبا خفيا أعده الخارجون ، ربما عبثوا بعقل (ى) ، ربما غسلوا مخه فى الليل ، أرجأ أمر (ى) حتى منتصف النهار ، بعد نصف ساعة تناثرت إشاعات عديدة ، بصيغ مختلفة ، قيل إن (ى) فاسق عجوز ، اغتصب فى شبابه فتاة يتيمة ،

وإنه ابن عائلة فقيرة ، أبوه عمل فى تسليك مجارى العاصمة ، كما أنه عمل فى صباه مبيضا للنحاس قبل انتشار الالومنيوم وانقراض هذه المهنة ، إنه يضرب امرأته ، كما شوهدت ابنته تتحدث إلى بائع بمكتبة تبيع المجلات الأجنبية . .

قال (س) . .
إنك فى موقف لا تحسد عليه . .

ارتعد (ى) بأسره ، قال انه سيرد على من يدسون له ، أنه قادر على منازلتهم والتصدى لهم ، سيتخذ عدة اجراءات علنية أولية تثبت إخلاصه ، سيطبع بطاقات خاصة ، سيكتب تحت اسمه عبارة « مؤمن بالخط » ، كما سيضيفها إلى اللافتة الخشبية البيضاوية المعلقة إلى باب بيته ، سيكتب على جدران المدينة « عاش الخط » ، سيحد من استهلاك المياه طبقا لآخر التوجهات .

غير أن رئيس مجلس الادارة لم يقتنع ، اتهم (س) بعجزه عن جمع المعلومات ، لقد حدث تطور لم يلحظه قسم متابعة العاملين ، بدأ (ى) العاقل ، المتزن ، التردد على محال شرب الكيف ، فى الأسبوع الأخير بدأ يشرب فى البيت قبيل شروق الشمس ، قبل تغير طعم ريقه ، وعندما يبدأ مغيب وعيه ، يخرج البطاقة التى صرفت له أخيرا والدالة على التزامه ،

يضعها أمامه ويبدأ لفظ كلمات السباب ، وليلة أول أمس وقف أمام التمثال التاريخى بالميدان الرئيسى ، وقال بصوت عال إنه لم يذق الخمر أبدا ، لكنه اضطر بسبب هذا الخط اللعين ، ثم خفض صوته وقال باكيا فى محاولة مكشوفة لاستدرار العطف ، تساءل ـ هل يدرى الناس كم مرة ردد عبارات التأييد ؟ كم مرة حفظ فيها مقالات الصحف المؤيدة ، ودرءا لأى شبهات ، كم توقيع خطه على لافتة تحمل عبارات من الخط ، كم مرة حرص على إبراز تعبيرات وجهه الموالية فى أحاديثه إلى العاملين من زملائه ليثبت وليشيع عنه أنه أكثر إخلاصا ، سكت ثم زعق بأنه لن يقبل التعامل مع المتاجر التى حددها الخط ، ولن يرتدى الأزياء المطابقة للخط .

قال سيادته ، لابد من إحكام الرقابة على (ى) وإلا حدثت فضيحة يوم نظر القضية . .

اقترح (س) إرهاق (ى) بمزيد من الأعمال الإضافية حتى لا يجد الوقت الكافى للشرب ، لكن سيادته استبعد ذلك ، ربما لجأ إلى الشرب فى المؤسسة ، كما لا يمكنه الغاء تغيير النظم خاصة وأن المؤسسة تفخر بالغاء نظام التوقيع لاثبات الحضور والانصراف ، اقترح إيفاد (ى) إلى إحدى المحافظات النائية فى مهمة ، اعترض سيادته ، ربما فقد وعيه ، عندئذ يصطاده أحد مندوبى الوكالات الاجنبية الاخبارية الذين يترددون على تلك المحافظات لزيارة الآثار .

اقترح (س) تلفيق تهمة ، كدس قطعة مخدرات فى مكتبه .

قال سيادته إن تلك الاساليب البالية استخدمت فى السبعينات .

أطرق ، ثم راح ، وجاء ، قال انه من المهم إحكام الرقابة عليه خاصة يوم نظر القضية ، وإرهابه فى الأيام السابقة على ذلك ، إنه حل صعب لكنه الممكن الآن، وبعد نظر القضية ستتخذ الاجراءات المناسبة . .

فى الصباح التالى تنبأت السيدة (ك) بأن خطوات حاسمة ستتم تجاه من يشتبه فى عدم إخلاصهم التام ، علم زوجها بذلك من خلال موقعها الحساس .

عند الانصراف نزل (ى) السلم متزنا ، متمهلا ، عد الدرجات التى تصل الطابق الثانى بالطابق الثالث ، قال لنفسه ، ألا توجد حياة غير الحياة ؟ أهذا هو الشكل الوحيد المتاح ؟ . توقف عند الباب ليفسح الطريق أمام السيدة (ك) ، أومأت إليه بخير ، أسرعت غير أنه مشى محاذيا لها ، وقال إن العقاب يجب أن يحل . . ، تساءلت (ك) بدهشة ، ضد من ؟ قال ، ضد المخالفين طبعا . . ، أخفت دهشة لأنها سمعت بوقوفه فى أحد الميادين ضاحكا وباكيا ثم صائحا يلعن الخط . استمر (ى) فى سيره حتى التقى برئيس قسم الاستماع فوق رصيف المترو ، قال انه سيسعى من خلال أصدقائه الفنانين الذين يعرفهم من المقهى إلى تأليف أغنية ، وطبع

كتيب يضم لوحات مؤيدة ، فى المترو التقى برئيس شئون العاملين ، طلب منه ايضاحا ، لو أرسل برقية يستنكر فيها أى تشكيك ، هل سيضم إلى ملف خدمته الرسمى ؟ ثم أبدى ضحكة حاول تثبيتها إلى وجهه أطول مدة ممكنة ليرى محدثه اقتناعه ، فى المساء نزل مرتديا ملابسه الكاملة ، اتصل تليفونيا بمنزل (س) اقترح عليه جمع مبلغ صغير من كل فرد لإقامة حفل شاى يعبر عن وحدة العاملين وعدم خروج أحدهم من الحظيرة التى تضم الكل ، شكره (س) على هذه الروح ، طلب منه الحضور غدا فى وقت مبكر لتكليفه بمهام خاصة تسبق الاجتماع المقرر عقده أثناء وقوف (ى) حرص على الحديث بصوت مرتبك ليسمعه الواقفون حوله فى انتظار انتهائه من المكالمة ليتحدثوا فى التليفون ، ربما أصغى إليه أحدهم عامدا لينقل عنه ، وعند الناصية داهمه حزن ، وتساءل بأسى ، أين البهجة ؟ ألا يمكن له أن ، يمشى ، يمشى وتتغير المرئيات باستمرار ، لا تقع العين على شىء واحد مرتين ؟ يضحك متى جاءته الرغبة فى الضحك ، ويقول ما يخطر له من كلمات ، بدون أن يقصد إرضاء محدثه ، أو الحرص على توصيل معنى ، ألا يمكن أن يتوقف عندما يرغب ، ويجلس عندما يشعر بالرغبة فى الجلوس ، طافت عيناه بالفتارين المضاءة بوهن ، وزحام المارة فوق الرصيف ، حركة السيقان الآلية التى تدفع بالأجسام إلى الأمام ، ألا يمكن استبدال الحركة إلى الوراء بدون أن يجيىء الدوار ، فوق المدينة خيمت

العتمة ، لماذا تبدو السماء سوداء فى الليل ؟ توقف ، نظر حوله ، ثم خلفه ، أين توارت البهجة ؟..

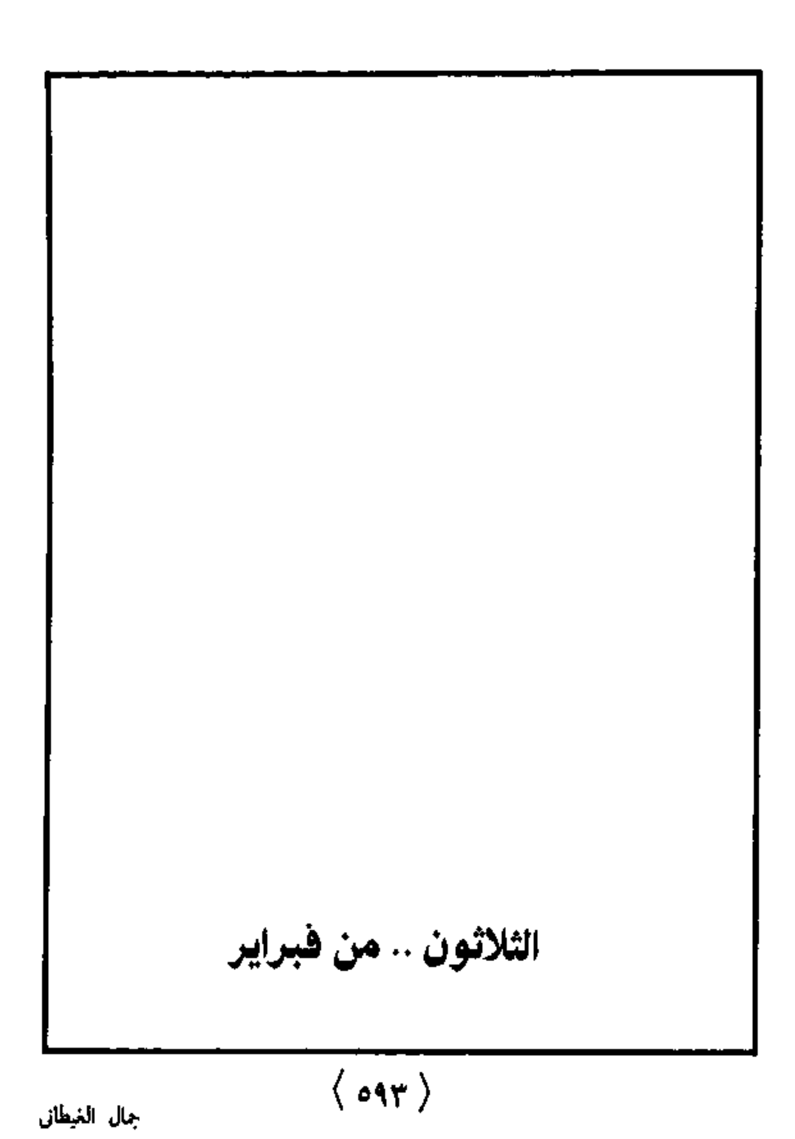
فى الصباح التالى جرى الإعداد للاجتماع بعناية ، تم تجميع عدد من المقاعد يوازى العاملين ، جرى التصفيق وفقا للاصول المرعية ، قام سيادته ، فى البداية تقدم على مرأى من العاملين كلهم ، قام باخماد بعض الاشاعات التى ترددت ، أخفى (س) قلقا ، لم يظهر (ى) حتى الآن ، أبلغ الحرس بضرورة احتجازه إذا ظهر فى حالة سيئة .

أكد سيادته سلامة الخط ، يسره التكاتف الواضح ، قال إن إجراءات حازمة ستتخذ حتى لا يتخلف أحد العاملين عن الحضور ، تم تقسيم المدينة إلى دوائر ومربعات ، ستمر السيارات على العاملين ، عمال التحويلة سيوقظون من لديهم تليفونات مع أول ضوء ، من لا يمتلكون تليفونات سيذهب إليهم النوبتجية ، أعلن أن عددا من العاملين الأصليين المعارين إلى البلاد المجاورة أرسلوا برقيات يعلنون تأييدهم ، كما أن بعضهم سيصل الليلة لحضور نظر القضية وهكذا يقف الجميع يدا واحدة ، لا يشذ منهم أحد .

فى هذه اللحظة تقدم أحد السعاة من (س) ، مال هامسا ، عض (س) شفته السفلى ، أهذا ما حدث إذن ؟ ..

خرج (ى) صباح اليوم من باب بيته منحنيا ، يكاد رأسه أن يلامس لأرض ، نـزل من فـوق الـرصيف إلى الـطريق ، حوله صبـاح رمادى مشبـع بدخان سيارات ، وضباب مجهول المصدر وضجيج ، أطل سائق نقل لف رأسه بغطاء من الصوف ، سب بصوت عال ، اضطر إلى التوقف فجأة ، بدا (ى) غير مصغ ، استمر فى رسم خط أبيض واضـح فوق الأرض مستعملا قطعة ضخمة من الطباشير وبداخل حلقه غصة وعلى مشارف عينيه دموع ، ألقت سيدة من نافذة سيارتها منديلا ورقيا تمخطت فيه ، صاحت غاضبـة ، أصوات احتجـاج ، اضطرب المـرور ، قهقه شبـان يتعلقـون بسلم أتوبيس ، اتسعت عيـون من الدهشة ، استقام (ى) واقفا ، على مهل رفع ساقه اليمنى ، بحذر أنزلها حتى لا مس طرف قدمه الخط الأبيض ، رفع اليسرى ارتجفت قليلا قبل أن تلامس الأرض ، بدا وكأنه يمشى فوق حبل معلق ، توقف لحظة ليحفظ توازنه وحتى لا يحيد ، شفتاه منفرجتان وعيناه معلقتان إلى الفراغ الرمادى . . .

أبريل ١٩٧٧



الثلاثون .. من فبراير

حوار ــ ١ ــ

امرأتان ، تقفان فوق سطح أحد البيوت بالحى القديم ، الأولى بدينة قصيرة تقوم بجمع الغسيل ، والثانية بدينة طويلة تحمل طفلها فوق ذراعها ، صعدت به إلى السطح لتعرضه للهواء بعد أن ذبلت عيناه وجف عوده فى المندرة المظلمة تحت السلم . . قالت المرأة الثانية . .

ــ يقولون انهم سيجعلون تذكرة الأوتوبيس بتعريفة . .

قالت الأولى :

ــ ربنا يصلح الأحوال . .

قالت الثانية :

ــ أكد لى زوجى بعد أن سمع نشرة الأخبار عند الحلاق أنهم سيصرفون الدواء مجانا .

تنهدت المرأة الأولى :

ــ ربنا يصلح الأحوال . .

حوار – ٢ –

فى نقابة المدافعين عن الحقوق الإنسانية ، دخل إلى الغرفة عضو مجلس الادارة النحيل ، حمل معطفه ، فوق ذراعه ، يمسك بين أصابعه سيجاراً ضخما ، صاح المجتمعون انهم بحثوا عنه ثلاث ساعات . قال بهدوء :

– إخوانى ، يجب أن نرفع برقية تأييد الآن . .

ساد صمت ، فكر شاب من الحاضرين ، ما دام اقترح ذلك فلا بد أن الأمور استتبت . .

منظر

مدخل المدينة الرئيسى ، طابور من عربات النقل الضخمة ، تحمل كل منها عشرات الأشخاص ، تم حشدهم عندما دقت الثانية ظهرا بعد أن خطب فيهم المديرون ، وتم توزيع ثلاث ساندويتشات على كل منهم ، جبن أبيض ، وجبن رومى ، ومبلغ خمسة وعشرين قرشا لكل منهم كمصروف جيب ، فى الطريق ظهرت لافتات من القماش ، وسعف نخيل ، ودقات طبول ، وزغاريد نسائية ، ورقص البعض . .

– بالروح . . بالدم . . نفديك يا فبراير . .

جزء من مقال افتتاحى :

. . . هكذا كان من المحتم أن يظهر الثلاثون من فبراير إلى مسرح تاريخنا المعاصر ، لقد جاء لتبدأ المسيرة ، ولتتحقق المكاسب ، .إن روح الثلاثين من فبراير يجب أن تسود كل المواقع . . . » .

قرار :

ننهى إلى جماهير أمتنا العظيمة ما يلى :

تقرر اعتبار الثلاثين من فبراير يوم أجازة رسمية .

برقية :

العاملون بالدوائر الثابتة يحيون الخطوة المباركة بجعل يوم الثلاثين من فبراير إجازة رسمية .

تعديل :

فى القاعة الملحقة بالمكتب الرئيسى ، قال رئيس الخبراء . . .

ـ قبل بدء المناقشة اقترح ارسال برقية نعلن فيها وقوفنا صفا واحدا . .

صفق الحاضرون علامة الموافقة الجماعية . . ثم تحدث أستاذ التاريخ الحى . .

ـ آن الأوان لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التى قد تضر بـالجيل الجديد ، لا شك أننا نتفق على وجود جذور الثلاثين من فبراير فى تاريخ أمتنا ، ربما يسألنى البعض ، ماذا تقصد ؟ أقول ببساطة إن هذا التاريخ المجيد يجسد روح شعبنا الأصيلة الموغلة فى أعماق التاريخ . إذن يجب أن يتضح هذا التاريخ العظيم فى كل مـراحلنا حتى تلك السـابقة عليـه ،، نعم ، . . يجب تعديل كل ما دون من قبل .

برق الزجاج الذى يغطى منضدة الاجتماع عندما أضيئت المصابيح المثبتة فى الزوايا ، دون البعض ملاحـظات قصيرة ، أومـأ أستاذ أصلع يرتدى نظارة طبية إطارها من المعدن الأبيض النحيل ، قال . .

إن المهام الملقاه على عاتقنا أكثر من أن نتصورها . .

صحح رئيس اللجنة العبارة قائلا . .

ـ أثقل يا سيدى . . أثقل . .

حديث فى الصفحة الأدبية :

« . . يتساءل القراء ، أين أدب الثلاثين من فبراير ؟ أجاب أديب العاصمة الأول :

ـ لا شك أن ما جرى ستكون لـه آثار بعيـدة المدى ، لكن الأدب يستوعب الاحداث على مهل .

أما أديب المحافظات الشمالية المعتمدة فقد أجاب :

ـ إن هذا الادب سيظهر من هنا ، لعمق التحولات التى سيبدو أثرها بلا شك خلال الفترة المقبلة . .

غير أن وزير الشؤون التموينية الثقافية قال . .

ـ إن كتابنا لا يواكبون المسيرة ، إنهم أسرى أبراجهم العاجية ، إن ما عرف عنى عدم كتابة القصة أو الدعاية ، لكن ما جرى ، فى فبراير فجر لدى ينابيع الخلق ، أعلن أننى سأنتهى من كتابة أول ثلاثية تجسد روح الثلاثين من فبراير .

خبر أدبى :

صرح وكيل أول وزارة الشؤون التموينية الثقافية أنه انتهى فعلا من كتابة رواية ثناثية ، « من جزئين » . كذلك علم مندوبنا الثقافى أن مدير التقنيات الفنية انتهى من كتابة رواية تقع فى جزء واحد وتتناول الظروف السيئة التى عانى منها شعبنا قبل بدء المسيرة . .

رسائل القراء :

« لماذا لا نغير اسم العاصمة ، ونطلق عليها الثلاثين من فبراير ؟ »

« عبده اليمانى »

يجب اقصاء المعارضين سرا للثلاثين من فبراير ، ثم تجريسهم علنا فى الشوارع » .

« محمود القطرانى »

« المتآمرون يعبثون فى الظلام ، انتبهوا » .

« فتحى القاونجى »

« أنجبت ابنا ، أسميتُهُ (الثلاثين من فبراير) ، وطفلة أطلقت عليها (مسيرة) » . .

« الصاوى يا عيسى »

إعتقال :

فى الفجر اندفق الدم بسرعة من قلب المواطن جلال الرويس وسرى فى عاموده الفقرى ساخنا ؟ من عبر الغرفة إلى الصالة حافيا ، خلفه زوجته منفوشة الشعر ، ترتدى قميص نومها القصير . .

ـ افتح باسم الثلاثين من فبراير . .

اندفع المخبرون الثلاثة ، وقف الضابط شاهراً مسدسه ، بكت الزوجة ، قالت عندما ألقى المخبرون بمجموعة من الروايات الأدبية تحت قدمى الضابط . .

ـ إن زوجى من المخلصين للثلاثين من فبراير . .

جزء من الجريدة الناطقة :

المنظر : ماكينات نسيج ، عامل يراقب الخيوط التى تهتز برتابة ، يمد يده ، ليعدل وضع المكوك .

صوت من خارج الكادر : وبعد الثلاثين من فبراير قلت نسبة الاخطاء فى النسيج . .

تصريح لرئيس شركة المعلبات :

« أمكن إنتاج وجبة غذائية جاهزة بفضل الروح الخلاقة للثلاثين من فبراير ، تحتوى العلبة الواحدة على مائتين وخمسين جراما من اللحم ، وثلاثمائة جرام خضراوات مشكل . . »

بيان هام :

« . . منذ بدء المسيرة والقوى المعادية تحيك المؤامرات ، استطاعت النفاذ إلى بعض ذوى النفوس الضعيفة ، لقد تم كشفهم وتطهير الصفوف من الزمرة المتآمرة » .

صورة بثتها وكالة الأنباء :

« الصورة ملتقطة من أعلى مبنى بالميدان الرئيسى ، آلاف الرؤوس الصغيرة ، أيدى تلوح ، أعلام ، لافتات ، تعليق : الجماهير تدين الزمرة العميلة » . .

إعلان :

« العاملون بشركة التنمية يقفون وراء القيادة المخلصة ، ويهنئون بالقضاء على الزمرة » .

بيان هام :

يا جماهير أمتنا العظيمة ، ما أجمل وحدة الصف ، ما أعظم التسامح ، إن المسامح كريم دائما ، إن الزمرة لم تعد متآمرة ، لقد عادت إلى الحظيرة . .

مشهد انتخابي :

بعد بدء الاجتماع ، واكتمال النصاب القانوني لأعضاء النقابة المهنية ، وقف أحد الأعضاء ، يرتدي حلة كاملة ، يبدو واضحا رثاثة قميصه من الخط الرمادي المحاذي لحافة الياقة والذي تكون نتيجة للعرق المستمر واختلاطه بذرات غبار ناعمة تلتصق بالبشرة التي بدت غامقة عند الرقبة ، وقف منفرج الساقين ، اتسعت عيناه ، أشار إلى أربعة يجلسون في الصف الثالث ، زأر صارخا . .

ـ اكتشفوهم . . اتخذوا ضدهم الاجراءات . . أرادو أن يؤثروا علي . . برقت عيناه ، دار حوله بنظراته ، ارتفع كتفه الأيمن أثناء الحديث ثم انخفض ليرتفع كتفه الأيسر . .

أرادوا تشكيكي . .

سطر من تذكرة سينما :

تضاف خمسة مليمات إلى ثمن التذكرة تخصص لحصيلة صندوق احتفالات الثلاثين من فبراير . .

من وصف مباراة لكرة القدم :

الصحف تشتعل في المدرجات ، الحمام يطلق في الهواء ، جنود قوات الأمن يصطفون ، الفرقة الموسيقية تتقدم إلى منتصف الملعب ، سيداتي

سادتى ، هذا يوم جديد يضاف إلى انتصاراتنا ، لقد ارتفعت كل الرؤوس .

بيان تاريخى :

« يا جماهيرنا العظيمة التى خرجت اليوم عن بكرة أبيها معبرة عن فرحتها بالخلاص من الكابوس ، الظلام الذى بدأ فى الثلاثين من فبراير ، الظلم الذى تحكم فى مقدراتنا ، لقد بدأ التاريخ لأمتنا اليوم والموافق . . .

مقتطف من مقال افتتاحى :

إن التركة الثقيلة التى لدينا الآن تحتم بذل المزيد من الجهود ، والتصدى بكل حسم لمن يريد تعطيل المسيرة ، تلك المسيرة التى تعطلت منذ الثلاثين من فبراير . . . » .

حوار ــ ٣ ــ

أمام غرفتها جلست تشم الهواء وتملأ عينيها بالضوء ، احتضنت طفلها الذى يقترب الآن من عامه الثالث ، لم ينتصب واقفا على ساقيه بعد ، من يَرَهُ لا يقدر عمره بأكثر من خمسة شهور ، شعر الرأس خفيف ، العينان عجوزتان ، الرقبة نحيلة ، نظرت أمه إلى جارتها التى تسكن الطابق العلوى ، وقفت تحمل سلة بها قرطاس ملء بالطماطم الطرية ،

وعيدان جرجير ، ولفافة ورق صغيرة ، قالت . .

ــ تقعدين والدنيا مقلوبة فى الشوارع والميادين . .

ــ أخيرا ؟

ــ الهتاف للسماء . . والعربات محملة بالجدعان . .

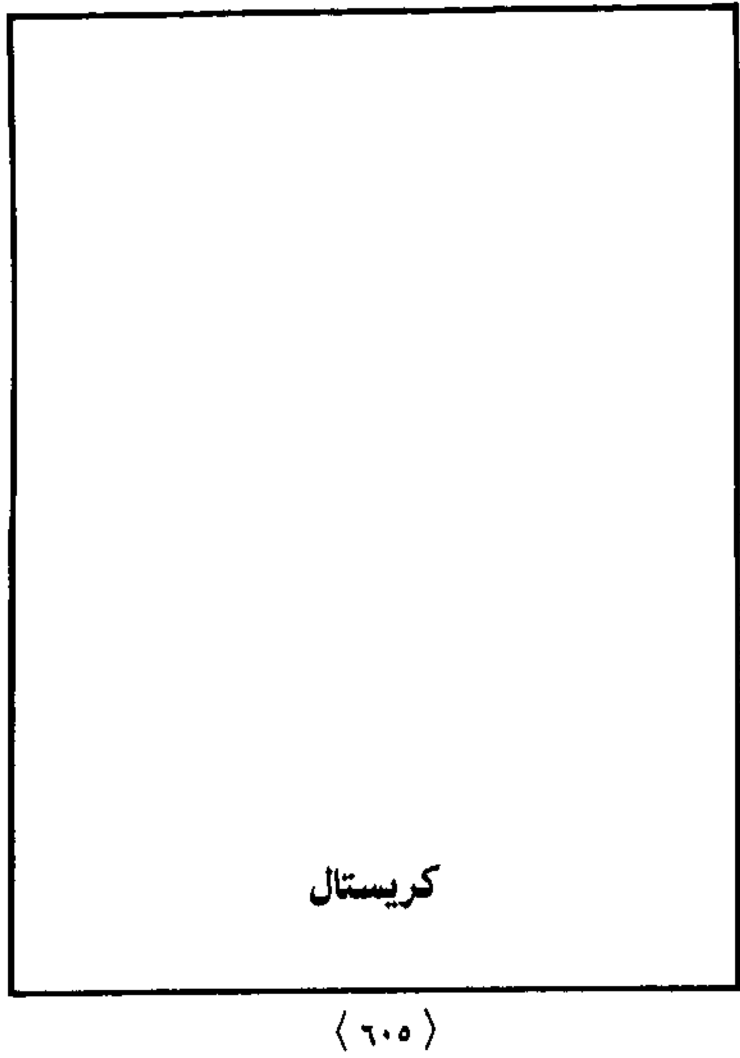
رفعت طفلها ، ربتت ظهره بيدها .

ــ يقولون انهم سيجعلون تذكرة الأوتوبيس بقرشين . .

قالت الجارة وهى تلملم طرف ملاءتها . .

ــ ربنا يصلح الأحوال . .

مايو ١٩٧٧


كريستال

.. فى صالة السفر بمطار العاصمة البعيدة ، مال الموظف الكبير على زميله هامساً بأنهما عضوان فى الوفد الرسمى ، وان حقائبهما لن تفتح فى الجمرك . هذا يعنى خروجهما بما اشترياه من كريستال بدون دفع أى رسوم ، الكريستال من المنتجات النادرة ، ولا يسمح بالخروج به الا بعد دفع الضريبة الجمركية بالدولار ، هز الموظف الكبير الثانى رأسه ، انبسطت ملامحه لأن حقائبه لن تفتح فى الجمرك . .

فى الطريق المحاذى للبحر اقترب رجل يرتدى جلبابا من شاب وفتاة ، فجأة فتح لفافة من ورق الصحف ، برق الضوء وتناثر فى شظايا رفيعة سريعة من خلال النتوءات والمضلعات والمثلثات والزوايا .

ــ كريستال . .

هز الشاب رأسه ، ابتعد الرجل .

هل تعتقد أننا سنعيش إلى اليوم الذى نقتنى فيه قطعة كهذه ؟

ضحك الشاب . .

ــ أولا يجب أن نجد البيت الذى سنضع فيه الكريستال . .

برقت آلات التصوير ، وشرع الصحفيون أقلامهم ، واتخذ الوزير المسئول أفضل وضع ممكن للتصوير ، ثم بدأ يرد على الاستجواب المقدم من أحد أعضاء البرلمان . .

ـ طال الحرمان طال ، وحان الوقت لنقول كفى . . كفى للحرمان ، كفى للانغلاق .

أتعهد فى نطاق اختصاصى باغراق السوق بالكريستال . . وليخرس المتقولون . . وليصمت المشوشون . .

فى السادسة والربع تحدث رئيس مجلس الاستيراد فى التليفون .

ـ عندى أخبار عظيمة

ـ خير . .

ـ شوف يا سيدى . . بعد جهود كبيرة استوردنا أول صفقة . .

ـ لا . . لا . . غير معقول . .

ـ صدقنى . . أول صفقة كريستال تدخل البلاد .

ـ هل ستعلنون عنها . . ؟

ـ ولماذا نكلف أنفسنا وندفع أجور الاعلانات ، عشاق الكريستال

سيشمون رائحته . . اتصلت بك لتحجز ما تريد . . تعال عندنا لترى الكتالوجات . .

فى كابينة مساعد القطار ، جلس الكمسارى يتحدث إلى صديقه الذى لمحه فوق الرصيف فدعاه إلى الركوب بعيدا عن الزحام ، قال الكمسارى ان الله وفقه تماما مع زوجته الثانية ، الخير تدفق اليه مع ظهورها فى حياته ، انه الآن يتقاضى مرتبا أساسيا قدره ثلاثون جنيها ، ويحصل على عشرين أخرى نظير مكافآت التطويق التى تجىء نتيجة لركوب الكثيرين بدون قطع التذكرة من المحطة ، وبعد هذه السنين من الزواج تمكن أن يكون نفسه ، فلديه الآن ثلاث حجرات ، وعنده بوتجاز ، وثلاجة صغيرة تزين البيت ، صمت لحظات ثم قال انه طالما يعيش مع امرأته الثانية هذه فسيحصل على تلك القطعة ، سيتمكن من شرائها يوما . . وفى مكتب باحدى الادارات الخاصة ، قال الرجل صاحب المسئولية لأحد أصحابه : الحمد لله ، أنا وصلت ، غيرى تخرج بعدى بسنوات ، ولم يصل بعد ، أنا الآن فى حجرة خاصة بى ، عندى تليفون مباشر ، ومروحة ، ولدى ساعى ، حتى الكريستال تجده فى بيتى . .

. . فى المذياع الداخلى أعلنت المضيفة الأرضية عن وصول الطائرة التى كان من المفروض أن تصل فى السابعة صباحا ، وعندما فتح الباب

كانت السيدة التى ترتدى فستانا أزرقَ أول من ينزل السلم ، انها مشغولة بعدة أمور ، جاءت معها بالعديد من الهدايا الصغيرة ، وآنية كريستال واحدة ، كريستال أزرق مشوب بخضرة مثبت إلى قاعدة من سن الفيل ، ستمضى غدا إلى رئيس الهيئة ، عندما تراه ستلقى بما لديها فى تلك النظرة ، لن تطلب ما جاءت من أجله ، تعرف اللحظة التى ستقدم فيها علبة القطيفة الحمراء الضخمة التى تضم آنية الكريستال المخروطية الشكل ، عندما تلين ملامحه ، وترتخى شفتاه وتتلاحق أنفاسه ، ويبدو فرحا بجسدها العارى ، فى اليوم الرابع أو الخامس ستمضى الى الهيئة لتطمئن الى صدور قرار بمد عمل زوجها كملحق بالسفارة لمدة عامين آخرين فى عاصمة تلك الدولة المشهورة بانتاج الكريستال الملون ، سيرسلان المزيد منه ، سيمتلىء المتجر بأندر الأنواع سيزداد رصيدهما ، وعندما يعودان يوما سيجدان ثروة تؤمنهما ضد أخطار الزمن . .

وخبط المحامى فى قاعة المحكمة الخاصة المنضدة بقبضة يده ، ثم أشار الى المتهم . .

ـ كيف يتهم موكلى باعتناق الأفكار الهدامة ولديه مجموعة من أندر أنواع الكريستال . .

ـ وفى تمام الساعة الثانية وصل الزوج من سفر طويل وفى صالة البيت ، بعد العناق ، وأشواق التلاقى بدأ يفتح الحقائب ، أبدت زوجته تهللا بالفساتين الجاهزة ، وقماش الحرير الطبيعى ، وقالت انه لم ينزل الى السوق بعد ، وتأملت لوحات الخشب المحفور ، وأساور زينة من العاج ، وعندما أصبحت الحقائب فارغة تماما ابتسمت بإيجاز ، قالت انها ستدخل الى حجرة النوم لتحضر شيئا من الداخل ، جلست ، فوق المقعد المواجه للمرآة ، دار ابهاميها حول بعضهما عضت شفتها ، لم يفكر فى احضار قطعة كريستال واحدة . . ماذا تقول لأمها ، ماذا تقول لصويحباتها . .

بعد خروج المريض قرر الطبيب النفسى أن يخلو إلى نفسه لمدة أربع دقائق قبل أن يسمع المريض التالى ، نفث دخان سيجارة ، لكم تتواضع آمال الانسان ، عندما جاءه هذا المريض منذ عام كان أبرز آماله امتلاك نجفة من الكريستال ، ومع وطأة المرض ، وتوالى الأيام ، راح طموحه يخبو شيئا فشيئا ، حتى ان الطبيب سأله منذ لحظات عن منفضة السجائر التى رغب فى شرائها بدلا من النجفة ، فقال بمرارة ، وماذا يعنى الكريستال بالنسبة لى ؟

وفى اللجنة التى عقدت لمناقشة البند التاسع ، أبدى البعض تحفظا حول النية المتجهة إلى تخصيص جزء كبير من الاعتماد لاستيراد أنواع

متقدمة تكنولوجيا من الكريستال ، قال أستاذ جامعي سابق وهو الآن خبير استشاري ان المواد الغذائية يجب أن تحظى بالأولوية ، اعترض أكثر من عضو قالوا ان التركيز على استيراد المواد الغذائية من الخارج يظهر الشعب كأنه جائع ، وبطنه لا تمتلىء أبدا ، ان هذا يهز ثقة رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب فى متانة الاقتصاد القومى ، ان استيراد هذه الكمية من الكريستال النادر سوف توحى للمراكز المالية المختلفة برسوخ حسابات الموازنة العامة وضيق بند الصرف ، واتساع دائرة التمويل ، هنا قال الاستاذ الجامعى السابق والخبير بيده بما يوحى إلى الأستاذ أن يدع الأمور تمر ، قال ان الناس يجب أن تشعر بتغيير حقيقى .

وفى الأيام الخريفية الأولى بعد أن خفت حدة الحر ظهر فى الفتارين أعداد كبيرة من أطقم الكريستال الأخضر المضلع ، وسرت اشاعة قوية حول وصول غرف نوم من الكريستال الأزرق الشفاف شبيه البحر فى لحظات صفائه ، قام المسئولون عن مقاومة الحقد الكريستالى باجراء اتصالات ودية مع المستوردين لعدم الاعلان عنها تليفزيونيا ، وسينمائيا ، لأن ذلك سيستفز الناس خاصة الأعداد التى تتزايد يوما بعد يوم ولا أمل لها فى لمس كوب كريستالى ، لكنهم أصروا على ممارسة الحقوق الاعلانية التى كفلها الدستور ، والمواثيق الدولية ، وحقوق الانسان ، وبعد أخذورد تم

التوصل إلى حل يرضى جميع الأطراف ، وهو عدم التصدى للحقوق الإعلانية ، لكن يراعى عدم ذكر السعر الباهظ للحجرة الواحدة .

وتقدم إلى إدارة الرقابة على المصنفات الانتاجية أحد المستثمرين يطلب الترخيص بانتاج نوع مقلد من الكريستال ، وأبدت الأوساط المتتبعة للاتجاهات الاجتماعية ترحيبها البالغ لأن هذا سيتيح لفئات عديدة امتلاك ما يشبه الكريستال ، غير أن أحد ذوى النفوذ أبدى امتعاضا ، اقترح الدراسة المتأنية قبل النظر فى أمر هذا الترخيص ، لأن انتاج هذا المصنع سيخلط الحقيقى بالزائف ، والأصل بالظل ، وربما باع بعض التجار الذين لا ضمير لهم الكريستال المقلد على أنه حقيقى ، وهذا سيرفع معدل الجريمة ، وهنا قال الخبراء الفنيون التطبيقيون ، وأين نحن إذن ؟ أليست مهمتنا اكتشاف الحقيقى من الزائف ، ثم ان قيامهم بمثل هذه الفحوص سيخلق مجالات عمل أمام الخريجين الذين لا يجدون فرصا للعمل .

فى البرلمان قال الوزير المختص ان الرخاء عم والدليل أمام كل العيون ، يكفى البلاد فخرا أن معارض الكريستال ، فى ازدياد مستمر . .

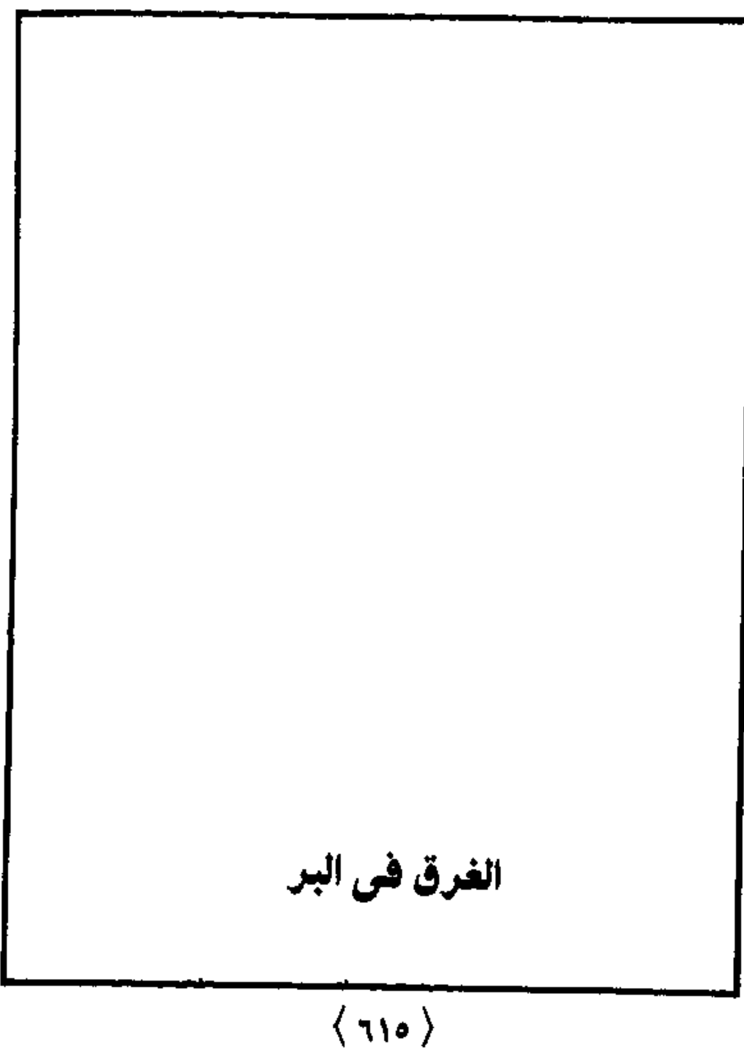
صباح الجمعة نشرت الجريدة الرئيسية قصيدة مطلعها . .

يا كريستالية العينين تلألأى . .

في حجرة المستشفى الأبيض الشاحب ، تـوالت الصور عـلى عقل المحتضـر ، هل سينتهى الأمـر ، يموت ، ويفـارق هـذه الـدنيـا المليئة بالكريستال . . .

أغسطس ١٩٧٧

* * *



الغرق فى البر

قال المهندس العجوز فى اللحظة الأولى للعثور عليه ، « .. هل جرى ؟؟ » . ثم صمت.

لكن كيف تم الوصول اليه ؟ قيل ان الفضل يرجع إلى مواطن صالح يعيش فى عمارة على الطراز البلجيكى ، أما البيان الرسمى ، فأفاد بأنه تمت تحريات واسعة بناء على توجيهات مدير الأمن العام ، الذى تلقى تعليمات مدير عام قوى البحث والتحرى ، الذى صدرت اليه توجيهات مدير عام العاصمة الذى اتخذ اللازم بناء على الخطوط العريضة التى رسمها الوزير المختص بقلم أحمر ، وعندما خرج المهندس من شقته رآه الواقفون رجلا نحيلا ، نظارته اطارها معدنى ، ضم إلى صدره ثلاث اسطوانات ورقية ، وقطعة سجاد قديمة حمراء من طراز بخارى ، اقترح خبراء الاعلام النزيه قطع البرامج وبث الخبر ، لكن المسئول الاعلامى أمر بغير ذلك

فجاء ترتيب الخبر بعد المقابلات والبرقيات الواردة والصادرة ، مع أن الخلق لم يشغلهم الا الحديث عنه ، بدا لهم شعاع من أمل منذ أن توالت الأيام الثقيلة ، والكوارث العظيمة ، وبداية ذلك عندما شاع أمر اختفاء الناس أثناء عبورهم برك المياه الراكدة التى طفحت فى الشوارع والميادين ، أدرك الناس أنه من الممكن أن يغوص أحدهم ولا يطفو ، عندئذ لن تستخرج شهادة وفاة تمكن أسرة المختفى من صرف المستحقات الرسمية ، تردد الخلق فى الخروج ، قل رواد المقاهى ، وقيل أن احد الصالحين أوقف ثلاثة أفدنة يملكها لا قامة معابر من الحجارة بعد أن حوصرت البيوت بمياه راكدة ، خضراء أو رمادية ثقيلة الرائحة ، وقال العابثون ان الغرق فى البر أشد وأنكى من الغرق فى اليم ، المأساة هنا مضاعفة ، الموت والرائحة الفظيعة ، ولا يستطيع انسان تحديد الفترة الفاصلة بين وقوع أول حادثة غرق فى البر وبين انعقاد ذلك المؤتمر الموسع الذى عقد فى المقر المؤقت للبلدية ، وضم خلاصة العقول الهندسية فى البلاد ، وبعد مناقشات اضافية صدر بيان صيغ بذكاء ، واستخدم فى كتابته أحدث وسائل التورية اللغوية المستوردة خصيصا ، استعرض تاريخ شبكة المجارى حيث أنشأتها شركة فرنسية عام ١٩١٣ ، صممت لتخدم العاصمة حتى اتساعها لمليون شخص ، وحدد عمرها بخمسين سنة ، لكن ظروفا عديدة لا داعى للخوض فيها الآن حالت دون تجديدها ، ومع تكدس السكان طرأ تغير

على الشبكة بعد أن استنفدت كافة أشكال الطفح المتعارف عليها ، تحولت جدرانها الى مواد رخوة ، اختلطت فروعها ، ارتخت القشرة الأرضية ، حدثت تغيرات خفية ، وانهيارات تحتية ، ورأى المهندسون المخلصون ضرورة حقن الشبكة بكميات من الاسمنت الحديدى ، ثم الاتصال بأحد بيوت الخبرة الاجنبية ، وطلب بيت الخبرة المحترم تصميمات الشبكة . . وبالبحث والتحرى اتضح أنه لا توجد تصميمات فى أى ادارة مختصة ، تم تشكيل وفد موسع للسفر الى باريس للحصول على التصميمات من الشركة التى قامت بالتنفيذ ، لم تدع كل التفاصيل ، غير أن قدرات الناس على التنبؤ تنمو فى مثل هذه الظروف ، هكذا أيقن الاهالى أنهم يعيشون فوق أرض رخوة ، وعندما وقع أول غرق جماعى سرى الرعب فى الافئدة ، اذ غاصت عربة أوتوبيس مفصلية صناعة مجرية فى بركة مياه راكدة منذ شهور ، أقسم شهود العيان أن الأرض تحركت كما لو كانت تتنهد ثم ابتلعت العربة ، وفى الايام التالية غرقت عدة دراجات براكبيها ، وسيارة نصف نقل ، وأحد أعضاء جمعية أنصار الأورج ، وأصدر اتحاد الطيارين الدولى بيانا أعرب فيه عن قلقه لظهور برك مياه بالقرب من ممرات الهبوط ، علقت الصحف المحلية وقالت ان الاتحاد خاضع لضغوط بعض الدول ذات الاتجاه السياسى المعين ، فى الشوارع علت الوجوه صفرة الرعب ،

كما قلت ساعات النوم وكثر انهيار البيوت فى الحى القديم ، وحاول البعض تحديد مسئولية ما جرى ، قال فريق انه العهد البائد ، عندئذ مزق بعض الموظفين صور العهد البائد ، ربما نقل عنهم ذلك فتتحسن صورتهم لدى الجهات المعنية ، وتساءل الناس عن الوفد الذى سافر إلى باريس ، بعد يومين نشرت الصحف برقية من رئيس الوفد يعلن فيها تأييده التام ، ويعتذر بازدحام الطائرات المتجهة إلى البلاد ، عندئذ أرسل مندوب العلاقات العامة لشركة الطيران تكذيبا ، قال فيه ان حركة السفر انخفضت ، واختفى السياح بسبب ما أشيع عن اختفاء الناس فى مياه البالوعات ، غير أن الانظار تعلقت بالوفد الذى عاد وأعلن رئيسه فى المطار اختفاء الشركة المصممة للشبكة ، لكن الوفد بذل جهودا مضنية فى غير أوقات العمل الرسمية مما يجعله مستحقا لأجور اضافية ، حتى أمكن التوصل إلى حقيقة هامة وهى أن أحد المهندسين الذين شاركوا فى بناء الشبكة لا زال على قيد الحياة ، وأين ؟ هنا فى العاصمة ، بدأ البحث ، وتزايد السفر إلى الخارج ، وأغلقت دور السينما والمسرح ، وأبطلت أضواء النيون ، واختفى جزء من السور القديم فى المياه العطنة فتشاءم الناس وقالوا ليقعن حادث عظيم ، غير أن العثور على المهندس جذب كل انتباه ، لهجت الألسن بالبشرى ، وتم طرح كميات اضافية من الاشاعات المتقنة لتهدئة الخواطر ، سيتم الليلة معرفة تصميم الشبكة ، ستستخدم المياه

العطنة كسماد ، ستنمو الاشجار وتتفتح الأزهار وتغرد الأطيار ويأكل الفقراء اللحم و « الممبار » .

تم نقل المهندس فى سيارة خاصة إلى استراحة معدة فوق الهضبة الجنوبية ، أعد نظام دقيق للتكييف ، نقل أحدث جهاز لانعاش القلب ، وعدة خيام أكسجين ، كما وقع عدد من الأدباء والمفكرين يناشدون فيها الدكتور مجدى يعقوب بالحضور للاشراف على أثمن رجل الآن ، تم استدعاء أطباء عالميين من كل التخصصات ، ركبت أجهزة تسجيل حساسة للغاية لالتقاط أى عبارة ، أو همهمة ، أو لفظ يفوه به المهندس ، قيل انه لا يتكلم الا فى الأوقات التى تأتى فيها الشغالة ، كما أنه يحدث نفسه أحيانا ، لكن متى . . لا أحد يدرى .

أعد كمين محكم للشغالة ثم نقلت الى الاستراحة ، استجوبت بدقة ، أمكن معرفة معلومات قيمة ، منها أنواع الطعام التى اعتاد أن يأكلها ، الزبادى ، قطع الخيار المخلل ، عسل النحل .

والترمس ، كذلك حبه الشديد للنظام ، وجلوسه أمام النافذة لمدة ساعة أو ساعتين ، واستماعه إلى نشرة الاخبار من اذاعة لندن فقط ، كما أنه يكره طلاء الدوكو ، فى تلك الليلة جاءت الاخبار الى الاستراحة بغرق الحديقة الوحيدة المتبقية فى العاصمة ، اختفت الحشائش والزهور ،

والمقاعد الحجرية ، والطرقات الضيقة المرصوفة بالزلط الملون ، كما تشققت مبانى المصالح الحكومية ، وظهر شرخ يتسع لمرور الرجل البالغ فى واجهة مبنى السنترال الفرعى ، ومن ادارة حفظ الوثائق القديمة انبثقت نافورة مياه سوداء عطنة تشم رائحتها على بعد كبير ، غرقت كل الملفات ، وقيل ان البلاد فقدت بذلك جزءا من ذاكرتها ، وظهرت مساحات واسعة من المياه ، وبلغ من غلظ الرائحة أن العيون كادت تراها فى الهواء ، وأكد الذين اعتادوا السهر أنهم شاهدوا فوق البيوت غلالات خضراء فى الصباح الباكر ، وأعلنت الولايات المتحدة عن اتجاه حاملة الطائرات انتر برايز إلى جهة غير معلومة ، وفى المساء أعلن المتحدث الرسمى أن المهندس تحدث ، فقال للمرة الثانية ، « هل جرى ما جرى ؟ » . على الفور دخل كبير اخصائين الطب النفسى فى البلاد الحارة ، والحائز على الدكتوراه العلمية من جامعة أدنبرة وزميل كلية الطب النفسى بها رولد تاون ، وقيمة الكشف العادى خمسة جنيهات وعشرة كشف مستعجل ، وعشرون فى البيت ، وثلاثون فى الضواحى والاستقبالات بمواعيد سابقة يتفق عليها مع التمورجى ، وبعد حوار قصير ، ومدخل تمهيدى لابد منه ، وتنويعات على ايقاع واحد ، هز المهندس رأسه ، وقال على مهل ، انه من الطبيعى حدوث الغرق لأن آخر الزمان اقترب ، أبدى المراقبون ارتياحا ، يبدو حديث العجوز مرتبا ، والفاظه سليمة .

سكت المهندس لحظات ، قال انه من الغريب أن يبدأ الغرق بسبب الشبكة التى هى تحفة فى تصميمها ، شارك فى كل الخطوات ، شهد له الأجانب بالكفاءة ، جاء اليه كبير مهندسى الشركة فى موقع العمل ، كان يرتدى قبعة عريضة لأن الأجانب لا يحتملون شمس مصر ، صحيح أنهم تغـزلـوا فيهـا ، لكن تلك شمس الشتـاء ، وليست شمس الصيف ، ولكن ، لماذا يحب الانسان الجلوس فى الشمس شتاء ويكره ذلك صيفا ؟

توقف عن الحديث ، قال كبير الاخصائيين مبتسما بتودد ؟

سؤ ال قيم بالفعل .

صاح المهندس مباغتا :

لكن كيف يحدث هذا وأرصفة الترام لا تزال أقل ارتفاعا من أرصفة القطار ، كيف يمكن ضبط ارتفاعات الأبواب بحيث تجيىء متوازية مع الأرصفة ؟ ولحساب من يحدث هذه ؟

فى تلك اللحظة دق التليفون فى غرفة المراقبة المركزية ، وأعلن المتكلم أن الحيوانات فى السيرك تحاول منذ العصر الافلات ، الأسد روميو نطح رأسه فى القضبان محـاولا الانتحار ، أطلقت عليـه رصاصـات مخدرة ، القرود مدلاة الألسن ، وعيونها متسعة فزعا وفى أماكن عديدة من العاصمة لم تهدأ العصافير ، وعلى الرغم من نزول الليل فانها لم تهجع بعد إلى أعالى

البيوت وقمم الأشجار وأعمدة التليفونات ، كما أن أسراب الحمام التى انطلقت من الأبراج ترفض العودة على الرغم من تلويح أصحابها برايات مختلفة الألوان ، وسقط عديد من اليمام مجهدا ينتفض فوق الأرض لكن الأسراب الباقية لم ترسُ ولم تأو .

قال المهندس :

لماذا اخترع الانسان أنواعا من الجبن ، جبن فريش وجبن روكفور وجبن رومى ، ما هذه الفوضى ؟ وهذا الورق المفضض كم يستهلك الانسان منه يوميا فى تغليف السجائر ؟ بدا المهندس صارما ، ابتلع كبير الاخصائيين لعابه بصعوبة ، استدعى إلى ذهنه ما قرأه فى المراجع الطبية والقواميس التى يعلن عنها يوميا بعد نشرة التاسعة عندما صمت المهندس لحظة اضطر إلى توجيه سؤال مباشر مخالفا كل قواعد الاستجواب .

لكن ماذا عن التصميمات الخاصة بالشبكة؟؟

جفلت عينا المهندس بأشواق مفاجئة .

شبكة ؟ أى شبكة ؟ ماذا يعرف هذا الجيل عن الشبكة ؟ من يدرى بالمعاناة التى بذلت من أجل الشبكة ؟؟

مط شفتيه ، ثم رشف جرعات متتالية من الماء بصوت مرتفع جعل الاخصائى يقشعر تقززا ، غير أنه غالب ضيقه وسأل . .

من أين بدأ تم الحفر ؟

من الميدان الفرعى بالحى القديم ، استمر الحفر أسبوعا ، وكان الناس يجيئون ليتفرجوا على الآلات الحديثة ، فى البداية حفرت بئر عميقة ، ثم قناة عريضة فى الاتجاه الشمالى الشرقى تم الحفر بدقة ، وقف المهندس الفرنسى إلى جوارى ، قال لى . . أنتم أذكياء ، لكننى تساءلت عن الشخص الذى اخترع جوازات السفر ، وحقدت عليه ، لكنها أشارت إلى ، كان شعرها قصيرا ، وهل يفهم الناس الآن معنى الشعر القصير فى زماننا ، لم أدر جنسيتها لم أعرف كلمة واحدة من لغتها ، لكن عيوننا اتصلت وتم كل شىء بسهولة لم تتكرر خلال سنوات عمرى التالية ، جرى ذلك خلف كومة حبال كبيرة وضخمة ، لوحت لى ولا أدرى أين هى الآن ولست أدرى أين رست أول سفينة فى العالم ، لكن صاحبى أخرج ورقة معدنية بها عشرة أقراص ، قلت مبتسما ، أهذه مقويات ؟ قال بعد أن شربنا وأكلنا . . أكلنا ماذا ؟ مع كل كأس ويسكى احضروا عشرين طبقا من المخللات وأصابع الكفتة وسمك الباساريا والسردين وفول ، هذا كله مقابل قرشين فقط ونصف قرش للجرسون يجعله ينحنى لك حتى وصولك إلى البيت . .

. . فى التاسعة وعشرة دقائق رصدت أجهزة الشرطة النهرية ، والصيادون الفقراء الذين ينامون فى القوارب طفو أعداد كثيفة من السمك

الميت ، أسماك مختلفة الأحجام غطت سطح النهر ، وقيل ان الشبكة ربما رسبت فى النهر مياهها العكرة ، وحُذر المسئولون بالمرفق الادارى لمياه الشرب لن يجدوا قطرة يشربونها وذلك لعجز كافة وسائل الترويق والترسيب المتاحة ، وفى تلك الليلة لحظ تساقط الأوراق الخضراء لما تبقى من أشجار ، ونضح الماء من جذوع عتيقة تجاوز عمر بعضها اربعمائة عام ، وفوق الحى القديم علت سحابة من غبار عندما انهار صف كامل من البيوت ، وتردد على الشفه سؤال محير ، إلى أين نذهب ؟

من أنت ؟

قفز بعض الجالسين من الغيظ فى غرفة الاستماع ، صاح المشرف العام على عملية الاستجواب .. هل هناك طريقة لتخديره وانتزاع ما نريده ، لكن كبير الاطباء قال انه تجاوز التسعين ولا يحتمل أى نوع من التخدير .

قال المهندس متمهلا ..

كانت الخضرة فى كل مكان ، وللأعياد فرحة وللحياة مذاق حتى فى ساعات الضيق ، لماذا تهاجون العهد البائد ، أريد أن أسمع بيانا ينهى حملات الهجوم ..

أومأ كبير الاخصائيين بعد أن رأى فرصة متاحة للحوار .

ستسمع البيان .. لكن ، هل تذكر إلى أين امتد النفق الثانى ؟

أجاب المهندس :

طبعا ، وهل هذا شىء ينسى ؟

فى غرفة الانصات بدت حيرة أى ماضى يقصده ؟ أهو القريب أم البعيد ؟ أهو الماضى التام أو الماضى المستمر ؟ ، فى فترة هوجم الماضى الوسيط وامتدح الماضى البعيد ، وفى مرحلة أخرى هوجم الماضى البعيد وأعيد الاعتبار إلى الماضى القريب ، قال المشرف العام انه سيبلغ المسئولين فى وزارة الدعاية وليتصرفوا ، لم يرد التليفون ، لم يجب أحد ، اعترض المسئول الأمنى ، قال ان ما يطلبه المهندس فيه رائحة لا تخفى وخطوط مضادة للسياسة التى أقرها الحزب الحاكم ، انه يشك فى جنون هذا المهندس ويطلب الكشف عليه بأشعة الليزر ، صاح كبير الاطباء طالبا من المسئول الأمنى التزام حدوده وعدم الخوض فى أى أمر طبى ، أكد المشرف العام أنه لا يعرف الا مسئولية واحدة وهى الاطلاع على تصميم الشبكة وكل ما سيجعل المهندس يتذكر التصميم لا بد من القيام به .

فى هذه اللحظة أعلن مسئول الاتصالات السلكية واللاسلكية أن مياه الطفح أغرقت استوديوهات الاذاعة ، وأفسدت الأجهزة الالكترونية ، وأغرقت استوديو التليفزيون رقم ٩ المخصص لتسجيل

الحلقات التمثيلية السباعية كما أن الشروخ دبت فى المبنى وتسمع منه على فترات متباعدة طقطقة وكركبة ، تلقت الصحف تعليمات بإصدار نشرة كل نصف ساعة ، وذلك حتى يتم تشغيل محطة الاذاعة الاحتياطية ، وفى مبنى الصلب الموحد الذى لا تخترقه المياه والمعالج بطلاء « كورامات » الذى يباع لدى الصيدليات الكبرى وفى فروع البقالة الكبرى والشركات المساهمة « كورامات » الطلاء العجيب الذى عاد أخيرا إلى الأسواق بعد طول احتجاب ، ننصحكم باستعمال كورامات ، فى المبنى المعالج بهذا الطلاء اجتمع خبراء الاعلام وراحوا يبحثون كيفية تغيير الصورة .

اجتمع الخبراء حول نموذج مجسم من الجبس للواقع ، ثم بدأوا مقترحات القلب والتغيير ، كما تم فرز الاشاعات فى آلة خاصة لاختيار الصالح منها ، وفى اليوم التالى تم ابراز دقائق حياة المهندس ، كما كتب رئيس التحرير فصلا عن نبوغه المبكر ، وكتب رئيس اتحاد الكتاب المعتمدين رسميا والحائزين على ضمانة لمدة عشرة سنوات قابلة للتجديد دراسة عن حبه للجلوس فى الصفوف الخلفية أثناء دراسته الابتدائية ، وأعلن عن أخبار هامة ستذاع خلال ساعات سويسرية الصنع .

إلى جانب ذلك تم نشر أسماء بعض الأماكن التى غمرتها مياه الطفح ، ولم يأت أحد على ذكر غرق مستشفى الولادة الرئيسى ، وضياع صيحات .

عشرات الأطفال الراقدين فى أسرتهم المغطاة بستائر وردية فى الدرجة الأولى ، والملتصقين بصدور أمهاتهم فى الطابق الأرضى بالدرجة الثالثة ، وقيل ان الماء اندفع على شكل نافورة هائلة أسفر الضغط الناتج عنها عن تحطيم زجاج النوافذ فى الثوانى الأولى ثم غمر الممرات وغرف الولادة والممرضات والأطباء الرئيسيين والآخرين المناوبين ، وعندما دنا الوقت من الأصيل سأل المهندس :

عندما تبدأ المشى ، هل تخطو بقدمك اليمنى أو اليسرى ؟

ابتسم كبير الاخصائيين بعصبية ، أطرق كأنه ووجه بسؤال عويص ، لكنه وجد نفسه يتساءل ، بأى قدم يخطو؟ ثم قام ومشى فى الحجرة بينها حلق المهندس الى السقف ، فى هذه الاثناء أقلعت من المطار آخر طائرة قبل اغلاقه بعد أن تصدعت ممراته ، داخل الطائرة تناول أصحاب الأموال الخارجية قطعة الحلوى التى تمنع دوار الجو ، وابتسموا للمضيفة التى راحت تشرح كيفية استعمال حزام النجاة وكمامة الاكسجين عند الطيران على ارتفاعات عالية لقد انتابتهم راحة الآن فأوضاعهم مرتبة فى عواصم الدنيا ، أما أصحاب الأموال الداخلية فراحوا يبحثون عن قطع الأرض المرتفعة والتى أصبحت الآن ممتازة بعد أن كانت لا تساوى شيئاً منذ أسبوع واحد ويمتلكها البشر بوضع اليد ، فى المساء تم طرح كميات اضافية من الاشاعات المعدة جيدا والمحفوظة ، مضمون احداها أنه تم التقاط صور

بواسطة قمر صناعى أمريكى يتم دورة حول الكرة الأرضية كل نصف ساعة للشبكة ، واتضح منها أن هناك انفاق هائلة تحت الأرض تشبه المدينة الضخمة ، وثبت توفر كميات الاكسجين ، لهذا فان الغوص فى المجارى لا يعنى الموت ، ثمة حياة أخرى تنتظر من يغرقون ، المهم هو التكيف معها ، وتجرى حاليا محاولات جادة للاتصال بالمواطنين الذين ذهبوا إلى الشبكة ، وفى اشاعة أخرى تمّ تداولها بشدة أنه تم تحقيق الاتصال فعلا وان الاجابة جاءت ايجابية .

فى هذه اللحظة تخلى كبير الاخصائيين عن كل وسائله العلمية وأساليب توجيه الحديث ، ركع أمام المهندس ، قال :

سأفصل من عملى لو أنك لم تخبرنى بتصميم الشبكة ، سيشرد اولادى . .

ثم تصنع الاغماء ليستدر الشفقة .

قال المهندس انه يجب على كل طبيب القاء التحية عند دخوله من باب العيادة على مرضاه ، والغاء الأسوار المحيطة بمدارس البنات ، وتقشير الخيار قبل أكله ، واثبات البكارة بشهادة رسمية ، وتعميم الكشرى ، والاعلان العالمى عن حقوق الأطفال فى رؤية الحيوانات حرة طليقة ،

والاكثار من القوارب الشراعية ، والتصدى بحزم لأشجار الكافور ، والضرب بشدة على غصون الصفصاف . .

نزل غم فوق المدينة ، وخيمت روائح كريهة سرت أقوال خبيثة بأنها مشبعة السماد الطبيعى وأن الفراغ سينبت أعشابا وسيختفى التنفس ، لكن تم طرح اشاعات مضادة ، الى الاستراحة وصل أحد المسئولين بالأجهزة الشرعية ، قال ان ثمة أخباراً مؤكدة حول الاتصال بمن ابتلعتهم الشبكة ، وان أحد الهواة التقط رسالة صوتية من تحت لا يشكو صاحبها الا من الظلام الكثيف ، لكنه يقول ان كل شىء على ما يرام ويبلغ سلامه إلى الأهل والأحباب ويعلن تأييده التام . . . .

نوفمبر ــ ١٩٧٧

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٨٢١ / ١٩٩١

ISBN 977-01-2755-8

